الفُكاهَة في النّثرِ العبّاسيّ



تأليف
الدكتور علي عزيز صالح

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان

الفكاهة في النثر العباسي

تأليف

الدكتور علي عزيز صالح

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohamed Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Fondée par Mohamed Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

http//:www.al-imiyah.com info@ al-imiyah.com sales@ al-imiyah.com baydoun@ al-imiyah.com

الكتاب : الفكاهة في النثر العباسي

التصنيف : دراسات أدبية

المؤلف : د.علي عزيز صالح

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

عدد الصفحات : ٣٢٠

قياس الصفحات : ١٧*٢٤

سنة الطباعة : ٢٠١٠

بلد الطباعة : لبنان

الطبعة : الأولى

الآراء والإتجتهادات الواردة في هذا الكتاب

تعبر عن رأي المؤلف وحده

ولا تلزم الناشر بأي حال من الأحوال

Title :**DROLLERY IN ABBASIDE PROSE**

Classification : Literary studies

Author : Dr. ʿAlī ʿAzīz Ṣāliḥ

Publisher : Dar Al-kotob Al-llmiyah

Pages : ٣٢٠

Size : ١٧*٢٤

Year : ٢٠١٠

Printed : Lebanon

Edition : ١st

ISBN 978-2-7451-6591-6
ISBN 2-7451-6591-7
9 782745 165916 90000

DKi
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون،القبة،مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٠/١١/١٢
فاكس: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب:٩٤٢٤-١١ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمً)

صدق الله العظيم

[سورة طـه آيـة: ١١٤]

شكر دائم

الحَمْدُ للهِ أوّلاً وآخِراً

لا يسعني في مقامي هذا إلا أن أقدّم خالص الشكر والإحترام لأستاذي القدير الدكتور عباس الصالحي، لما بذله من جهود كبيرة في سبيل تأليف هذا العمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

والصلاة والسلام على الرسول الأمين وآله الطاهرين وصحبه أجمعين

وبعد:

ليس بدعاً من القول التقرير بأنَّ الأدب ذاكرةٌ تحتفظ بمعظم ما يصدر عن الإنسان من نتاج فكري له أثره في مسيرة أفراد المجتمع ضمن إطار عصرٍ معَّين، ولاسيما ما كان متعلِّقاً بحياة الأفراد وتصوراتهم حول ما يحيط بهم من أشياء، وقد تكون هذه التصورات تعبيراً عن وجهة نظر فردية أو جماعية.

ومن الشِقِّ الأخير تبرز الظاهرة الأدبيَّة التي ترصد وتسجِّل ما يشتملها من وقائع إنسانية وغير إنسانية باعتماد الشعر أو النَّثر؛ وكثيرةٌ هي الظواهر التي بدت في أدبنا العربي التي شكلَّت محور دراسة كشفت عن مخبَّآتها وأسباب ظهورها وأثرها الفاعل فيمن توجَّه نحوه؛ ومن هذه الظواهر الفكاهة في الأدب العربي.

ومن الملاحظ أنَّ مثل هذه الظاهرة لم يُقتصر في تدوينها على نوعٍ أدبي وحيد، بل اشترك في هذا التدوين كل من الشعر والنَّثر على حدٍّ سواء إن لم نقل إن النَّثر كان أكثر وأشمل في تسجيلها. لهذا اعتنيت بأن أقوم بدراسة حول الفكاهة الواردة في النَّثر العباسي دون سواه لأسباب:

إنَّ دراسة مثل هكذا ظاهرة في الشعر العباسي قد استوفيت تقريباً حيث ظهرت دراسات جامعية وأخرى غير جامعية أخذت على عاتقها تسجيلها وتصنيفها بشكل واسع.

عدم وجود دراسة مستقلة تُعنى بالنَّثر الفكاهي في العصر العباسي على

غرار الشعر، تعرض لهذه الظاهرة وأثرها في البيئة العباسية أفراداً وجماعات، على الرغم من وجودها بشكل واسع وكبير إذ تفوق نصوصها مثيلاتها في الشعر الفكه، باستثناء دراسة واحدة سنشير إليها لاحقاً.

غنى حقبة الدراسة وهي القرنان الثالث والرابع الهجريان بجملة من الكتَّاب الذين أخذوا يتعرضون لهذه الظاهرة في كتبهم أو إنشاءاتهم ابتداءً بالجاحظ إمام الكتَّاب المتوفى سنة (٢٥٥هـ) وانتهاءً بأبي الخطّاب الصابي المتوفى سنة (٤١٨هـ) فكانت حقبة القرنين الثالث والرابع بحق مسرحا لبروز هذه الظاهرة في أدبنا العربي.

وزيادة على ذلك كلّه محاولة التأكيد في هذا الكتاب على أنَّ أدبنا العربي بشكل عام أدبٌ يجمع بين طرفي الحياة في ترديدها، طرف الجدِّ وهو ما عُبِّر عنه بالموضوعات التقليدية، وطرف الهزل وهو ما أنوي القيام بدراسته ودراسة أثره الملموس في حياة الفرد والمجتمع.

أمَّا الدراسات السابقة التي لها علاقة بموضوع البحث الأدبي فمنها:

(جحا الضاحك المضحك) للعقاد وذلك سنة ١٩٥٦، إذ حَشَّد فيه آراءه في الضحك والسخرية ثم عرض بعد ذلك لشخصية جحا ونوادره، وكذلك الدكتور شوقي ضيف في كتابه (الفكاهة في مصر) سنة ١٩٥٨، فقد أورد فيه مقدَّمة موجزة عن الضحك وعلاقته بالسخرية. وفي سنة ١٩٦٦ أصدرت مجلة الهلال عدداً خاصاً عن الفكاهة احتوى على جملة مقالات في الضحك والفكاهة في الأدب وغيره. واصدر الدكتور أحمد الحوفي كتابه الموسوم بـ(الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها) سنة ١٩٦٦، وهو في جملته عملية جمع لنصوص فكهة شعرية ونثرية، قديمة وحديثة، يضاف إلى ذلك دراسة فتحي محمد عوض أبو عيسى الموسومة بـ(الفكاهة في الأدب إلى نهاية القرن الثالث الهجري) في سنة ١٩٧٠ ودراسة الدكتور نعمان محمد أمين طه التي بعنوان (السخرية في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري) في سنة ١٩٧٨ وهناك دراسة للدكتورة ابتسام عبد الستار محمد بعنوان (النقد الاجتماعي الساخر في الشعر العراقي الحديث) سنة ١٩٨٩م.

والملاحظ على الدراسات السابقة ولا سيما ما يتعلق بالعصر العباسي أنّها شاملة، بمعنى أنَّها انطوت على الشعر والنَّثر بل إن دراسة الشعر الفكه هي السمة

البارزة فيها يضاف إلى ذلك أن زمنها ممتدٌ من عصر النبوة حتى العصر العباسي؛ لذلك كانت دراسة النَّثر الفكه دراسة مستقلة ضمن حيز هذا العصر غير متوافرة اللهم إلا دراسة واحدة بعنوان (الفكاهة في مقامات بديع الزمان الهمذاني) للباحث باسم ناظم المولى سنة ١٩٩٩، وهي لا تفي بجميع جوانب النَّثر الفكاهي لأنَّها اقتصرت على كتاب واحد، مما حدا بي إلى تشكيل دراسة شاملة لمعظم جزئيّات هذه الظاهرة الأدبيَّة في النَّثر العباسي ضمن حقبة معينة، معتمداً في ذلك نهج هذه الدراسة مفردات رأيت أنها تفي بالغرض، منها:

تمهيد اشتمل على معنى كلمة (فكاهة) من خلال ورودها في المعجمات العربية ومن ثم ورودها في بعض آيات القرآن الكريم، ثم عرض لمعظم النظريات التي تناولت الضحك ثم بيان ما تؤديه الفكاهة من دور في حياة الفرد والمجتمع وبعد ذلك بيَّنت رأي الأخلاق في الضحك أو الفكاهة بشكل عام.

ثم جاء الفصل الأول حاملا اسم (بيئة الفكاهة وعنصرها) وقد احتوى على أربعة مباحث اعتنت بابراز طبيعة العصر العباسي وحياة أفراده في مفردات خاصة لها كامل الأثر في نشأة الفكاهة وظهورها حملت أسماء (الاختلاط والتداخل العراقي، الغنى والفقر، النساء، مجالس اللهو.

أمَّا الفصل الثاني وفيه ارتأيت دراسة الفكاهة بحسب الغاية منها ومن ثم انضواء الموضوعات تحت كلِّ غاية، وهو في جملته ثلاثة مباحث رئيسة (الفكاهة الترفيهية، والفكاهة الناقدة، والفكاهة التعليمية)؛ وكان بسبب كثرة الموضوعات التي احتواها هذا الفصل أن أصبح أكبر حجماً من باقي الفصول الأخرى.

ويأتي الفصل الثالث وهو دراسة فنية للنصوص الفكهة ضمن حقبة هذا العصر، وقد توزَّع على ثلاثة مباحث أخذت عناوين (بنية النص الفكاهي، اختيار الألفاظ وزخرفها التعبير عن المعاني). ومن بعد ذلك كله تأتي الخاتمة وفيها أهم نتائج البحث ثم ثبت المصادر والمراجع التي رجعنا إليها في الكتاب.

وقبل الختام يجدر بي أن أنوه ببعض الأمور الخاصة بمنهجية الدراسة كالإفادة من بعض المصادر أو المراجع التي كان لها شأن كبير في هذا الكتاب، مثل كتب الأدب كمؤلفات الجاحظ وبخاصة (البخلاء)، وكذلك كتاب (الأغاني) لأبي الفرج الأصبهاني وكتاب نهاية الأرب) للنويري وكتاب (صبح الأعشى) للقلقشندي،

إلى غير ذلك من كتب الأدب ذات العلاقة المباشرة بموضوع الدراسة ككتب التراجم مثل (معجم الأدباء) لياقوت الحموي وغيره. وكان لكتب البلاغة أثر في فصل الدراسة الفنية مثل (كتاب الصناعتين) للعسكري وكتاب (الإيضاح) للقزويني. ولقد أفدت من بعض الكتب المعنية بالتفسير النفسي للضحك ككتاب (الضحك) لبرجسون وكتاب (سيكولوجية الضحك) لأحمد عطية الله وكتاب (سيكولوجية الفكاهة والضحك) للدكتور زكريا إبراهيم ناهيك عن كتب التاريخ التي استعنت بها في بيان طبيعة العصر العباسي لا سيما حقبة الدراسة القرنين الثالث والرابع الهجريين.

ومن الأمور الأخرى التي أراني ملزماً بالتنويه بها لما لها من علاقة بموضوع النَّثر الفكاهي في هذا العصر، غضُّ الطرف عن الفكاهات ذات الصفة الماجنة التي يأباها الذوق العام والخاص على السواء على الرغم من ورودها بكثرة بين طيات كتب هذه المرحلة من العصر العباسي كلٌّ بحسب موضوعه وهي تعبيرٌ صادق ومثال واقعي عما يجول في نفسيات بعض أفراد ذلك العصر.

كما تلافيت ذكر الفكاهات والنوادر التي يدور موضوعها حول الأمور الدينية كالعيادات مثلا لما لموضوعها من حساسية ومساس مباشر بشأن الدين وما تؤديه من دور هدام في حياة الفرد المسلم.

وكذلك من الأمور التي يجب أن أنوَّهَ بها، انه قد يرد تقديم بعض المصادر على بعض تسبقها في سنة تأليفها والعذر في ذلك أني اعتمدت سنة وفاة القائل على وفق الترتيب الزمني في ذكر النصوص النَّثرية.

وأخيراً لا يسعني إلا أنْ اعتذر عن كلِّ قصور أو تقصير اشتملا عليه الكتاب وحجتي في ذلك أنِّي اجتهدت والله من وراء القصد.

المؤلف

التمهيد

١. مفهوم الفكاهة:

لمعرفة كنه كلمة (الفكاهة) لا بدّ في بادئ ذي بدء أن نسلط الضوء على الكلمة معجمياً حتى يتسنى لنا الخوض في غمارها لتعرف مدلولها اللغوي، ومن ثم استطلاع الكلمات التي تحمل المدلول نفسه، أو تقوم بالوظيفة الدلالية عينها.

جاء في معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٣٩٥هـ) قوله: «الفاء والكاف والهاء أصل صحيح يدل على طيب واستطابة من ذلك الرجل الفكه الطيب النفس»[(١)]، وجاء في المخصص لابن سيده (٤٥٨هـ) قوله: «الفاكِهُ المزَّاحُ والتَّفَاكُه والتَّمَازُحُ، وفَكَّهْتُ القَوْمَ بمُلحِ الكلامِ والاسم الفَكيهَةُ والفُكاهَةُ والمصدر الفَكاهَة»[(٢)].وأورد صاحب اللسان (٧١١هـ) قوله: «وتفكهت بالشيء تمتعت به ويقال تركت القوم يتفكهون بفلان أي يغتابونه ويتناولون منه. والفكه الذي يحدث أصحابه ويضحكهم، وفكه من كذا وكذا وتفكه عجب»[(٣)].

وعلى هذا الدور وردت كلمة (الفكاهة) في الذكر الحكيم تحمل هذه المعاني؛ فقد جاء في قوله تعالى(إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَاكِهُونَ) [(٤)]،

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة (فكه)، تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون (دار الفكر - ١٩٧٩م).
(٢) المخصص، ابن سيدة: ٤/ سفر ١٣، (باب الرقص)، ص: ٢٠ (المزاج والفكاهة). (المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت).
(٣) لسان العرب، ابن منظور: مادة (فكه)، (مصورة عن طبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والترجمة).
(٤) سورة يس، آية: ٥٥.

وفيه حكاية عن حال أهل الجنةِ وما هم فيه من النعيم والتلذذُ[١].

وكذلك قوله بل ذكر (فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)[٢]، وقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ [٣]، من التغامز وهو التعريض بالاشارة، فكهين أي معجبين بما هم فيه من الشرك والمعصية والتنعم بالدنيا، أو ملتذين بذكرهم والسخرية منهم[٤]

فالكلمة في الآيات الكريمة تشير إلى معنى الفرح والحبور، والانشراح والسرور، وإن كانت تتوسل إلى ذلك في بعض منها بوساطة السخرية والتهكم.

وهنالك كلمات أخرى تحمل في مضمونها معنى (الفكاهة) مثل (الدعابة) والتي تشتمل على معنى الاضحاك والمزاح والبشاشة، جاء في أساس البلاغة (رجل داعب ودعب إذا مزح وتكلم بما يستملح) [٥]، وكذلك (المزح) الذي قيل فيه: «المزح الدعابة.. والمزح نقيض الجد»[٦]، وكذلك الحال مع (الهزل) فهو «نقيض الجد.. والهزالة الفكاهة»[٧].

ومن الكلمات الدالة على معنى الضحك وإن اختلفت غايته (السخرية والاستهزاء والتهكم) إذ أن العلاقة الدلالية فيما بين هذه الكلمات قوية، فقد قيل في السخرية «السين والخاء والراء أصل مطرد مستقيم يدل على احتقار واستذلال...

(١) ينظر: التفسير الكبير، الإمام الفخر الرازي: ٢٦ / ٩١ - ٩٢ (المطبعة البهية المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٣٨ م).
(٢) سورة الطور، آية: ١٨.
(٣) سورة المطففين، آية: ٢٩، ٣٠، ٣١.
(٤) ينظر: الكشاف، الزمخشري: ٤/ ٢٣٣ (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت)، كذلك التفسير الكبير، الفخر الرازي: ٣١ / ١٠١.
(٥) أساس البلاغة، الزمخشري: ١ / ٢٧١.
(٦) اللسان: ٣ / ٤٢٩.
(٧) المخصص، ابن سيدة: ٤ / سفر١٣، (باب الرقص)، ص: ١٩ - ٢٠ (المزاح والفكاهة).

ومن الباب: سخرت منه، إذا هزئت به[١]»، وكذلك الاستهزاء نحو قولهم: «هزأ الهاء والزاء والهمزة كلمة واحدة فقد قال ابن فارس يقال: هزئ واستهزأ إذا سخر» [٢]. وقال بعضهم «الهزء مزح في خفية وقد يقال لما هو كالمزح» [٣].

أما كلمة (التهكم) فقد قيل فيها: «الهاء والكاف والميم تدل على تقحم وتهدم. وهكم هكماً: تقحم على الناس وتعرضهم بشر. والتهكم: التهزؤ» [٤]. فهذه الكلمة تتخذ لإخفاء المقصود من الكلام، بمعنى أنها تدل في ظاهرها على الجد أما في باطنها فدلالتها تكون حول الهزل، وهي بهذا المعنى لا تخلو ألفاظها الدالة عليها من ألفاظٍ أخرى تحمل معنى الذم أو الهجاء[٥].

إضافة إلى ذلك الكلمات (الظرف، التملح، النكتة، المنادمة، المؤانسة، والاستمتاع) التي تشير إلى معنى الضحك والفكاهة في نفسها.

وهكذا أصبح لدينا تصور عما تحمله كلمة (الفكاهة) من معنى، يسهل لنا فيما بعد دراستها على أساس اعتماد كل ما يثير فينا الضحك على اختلاف مصادره لدخوله ضمن إطار الفكاهة.

---

(١) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة (سخر)، وينظر: المفردات في غريب القرآن، أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ)، تحقيق وضبط محمد سيد الكيلاني: ٢٢٧، (نشر المكتبة المرتضوية، طهران - بين الحرمين)، والألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل إبراهيم: ٢٦١ (دار الفكر العربي، الطبعة الثانية ١٩٦٩م).

(٢) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة (هزء)، وينظر: الألفاظ والأعلام القرآنية، محمد إسماعيل: ٢٥٦.

(٣) المفردات، الراغب الأصفهاني: مادة (هكم).

(٤) معجم مقاييس اللغة، ابن فارس: مادة (هكم).

(٥) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) قابله على نسخة خطية وأعدّه للطبع ووضع فهارسه الدكتور. عدنان درويش ومحمد المصري: ٢/، ٨٧ (دار الكتب الثقافية منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق / ١٩٧٥).

٢. نظريات الفكاهة:

اختلفت آراء العلماء والفلاسفة قديماً وحديثاً في دراسة الضحك وتفسيره وتحديد الباعث عليه، لما تحمله هذه الظاهرة - ظاهرة الضحك - من دلالات تدخل في صميم علوم مختلفة كعلم النفس وعلم الأجناس وعلم الطبيعة.

فالنظرة القديمة للضحك حاولت الحطّ من قيمته ودورة في حياة الفرد والمجتمع بدعوى أنه سلوك معيب يقلل من قدر الفرد ويعمل على اهدار كرامته، ومن ثم ينعكس ذلك على المجتمع عامة، لما فيه من نأي بالفكرة الرامية إلى نشدان مدينة فاضلة تحكمها المثل والأخلاق الرفيعة؛ وبسببها حرم كل ما من شأنه أن يشجع اللهو كالغناء والرقص الفاجر والتنابز بالألقاب ومن سب وشتم، لأنها تغذي الشهوات الإنسانية الخسيسة. هذا ما رآه إفلاطون وما عبر عنه في ضوء الفلسفة القديمة[1].

وبمرور الزمن تطورت النظرة إلى الضحك بوصفهِ ظاهرة إنسانية عامة تستثيرها دوافع معينة «وإن كانت مثيرات الضحك ودوافعه تختلف بين الشعوب من حيث درجتها في سلم الحضارة والتمدن» [2]. وعلى هذا جاءت نظريات العلماء واختلفت بل ناقض بعضها بعضاً. وسنتناول بعضاً من هذه النظريات التي حاولت تفسير الضحك بتسليط الضوء على دوافعه وأسبابه.

١ - نظرية التفوق الذاتي:

وتمثل هذه النظرية وجهة الرأي السائد في القرون القديمة المتمثل بالفسلفة اليونانية وكيف نظر إلى الضحك على أساس كونه شعوراً يخامر الغالب أو المنتصر لما ينتابه من زهو وخيلاء وعجب لتفوقه على خصمه، فيعبر عن هذا الانتصار بنوع

---

(١) ينظر: جمهورية افلاطون، تأليف نظلة حكيم ومظهر سعيد: الكتاب الثالث (دار المعارف - القاهرة / ١٩٦٣م). وكذلك: السياسة، أرسطو طاليس، ترجمة: أحمد لطفي السيد، مع مقدمة في السياسة للبروفسور بارتلمي سانتهيلر: ٢٩٣ وما بعدها (منشورات المكتبة الفاخرية).

(٢) سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ١٢ (دار النهضة العربية - القاهرة / ١٩٦٤م).

من الأداء يتخذ صورة الضحك[١]. «وارتباط هذا النوع من الضحك بغريزة من أعرق الغرائز الإنسانية وهي غريزة (المقاتلة)، دعا بعض الباحثين إلى اعتبار ضحك الانتصار هو المظهر البدائي لهذا الاستعداد عند الإنسان»[٢]، والضحك بهذا المعنى يوحي بالسخرية والاستهزاء بالمقابل الذي نشعر حياله بتفوق وغلبه، وهذا ما يفسر ضحك الإنسان الفطري عند رؤيته خصمه وهو لا حول له ولا قوة، فيظهر ضحكه معبراً به عن اعتداده بنفسه، لذلك أطلق على هذه النظرية اسم (نظرية الغلبة والظفر)[٣]. وظلت هذه النظرة حيال الضحك منذ ذلك الحين وحتى بدايات هذا القرن مروراً بالعصور الوسطى ذات الطابع المتميز بالتعصب الديني والعنصري والتفاوت الطبقي، وما صحب ذلك من ظلم وعدوان وتشفي بالآخرين[٤].

ويعد (هوبز[٥]) (١٥٨٨ - ١٦٧٩م) أبرز من نادى بهذه النظرية، بل اقترنت باسمه، فهو يرى «أن الضحك مظهر للسرور، وإن إشاعة السرور بالنفس مردها إلى إحساس الفرد الفجائي بتفوقه الفجائي الذاتي على غيره»[٦]. ويتمثل هذا التفوق أيضاً عند اكتشاف نقطة ضعف في الإنسان المقابل، سواء كان ذلك متمثلاً بوجود عاهة أو نقص في الهيأة أو التكوين، كالعمى أو القصر ـ أو الطول، وغير ذلك من الصفات، ويظهر هذا في المثال الآتي: أن رجلاً تكلم، والخطيب يخطب، فقال له آخر: «مهٍ فإن الإمام يخطب. فقال: إنما أمرنا بالإنصات عند قراءة القرآن، لا عند

(١) ينظر: م، ن: ٣٤٢.
(٢) سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ١٢٨.
(٣) ينظر: الفكاهة عند العرب، أنيس فريحة: ٢٩ (مكتبة رأس بيروت - بيروت، ١٩٦٢ م).
(٤) ينظر: سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٣٤٢.
(٥) توماس هوبز: فيلسوف إنجليزي. كان معلما للملك شارل الاول، وعُرف في الميدان السياسي بكتابه (التنين الجبار أو لوياثان)، والذي دافع فيه عن حكم الملوك المطلق.. وفلسفة هوبز تجريبية ترد المعلومات إلى الخبرة الحسية وما يحدث لها من روابط. ينظر: الموسوعة العربية الميسرة: ١٩١٣، إشراف محمد شفيق غربال (دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٥٩م).
(٦) سيكولوجية الضحك: أحمد عطية الله: ٣٤٢.

ضراط أحمر الوجين» (١). فالاستهزاء والسخرية لم يظهرا بشكل مضحك لو لم يتوافر الخطيب على مثل هذه الصفة وتنزه المتكلم عنها. ومن ذلك أيضاً ما قيل في أن مزبداً(٢)، أتى «رجلاً كبير الأنف، وفيه شعر كثير فقال: كأنما ملئ أنفه شسوعاً»(٣)، فمثل هذه الصفة تثير ضحك المقابل وسخريته إن لم يتوافر عليها.

وقد يكون الصراع الذي ينتهي بالنصر لجهة والخذلان لجهة أخرى مبنياً على أصول عقلية، بمعنى أنه صراع تستخدم فيه الحيلة والمكيدة أو التغرير بالقول أو تسفيه رأي المقابل، وقد ارتبط هذا النوع من الضحك بالفكاهة المستندة إلى سرعة الخاطر والافحام في القول أو كما يعبر عنها بالجواب المسكت وبخاصة إذا كان صاحب الفكاهة ضعيف القدرة على رد خصمة، ومن ذلك ما روي عن أبي دلامة (٤) من دخوله «على المنصور وعليه

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ١ / ٣٩٣، تحقيق عبد السلام محمد هارون (مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٥ م). والوجين: غليظ لحم الخدين. اللسان، مادة (وجن).

(٢) أبو إسحاق مزبد المدني من أصحاب النوادر والفكاهات له حوادث ومفارقات كثيرة وكان (كثير المجون حلو النادرة له اخبار في البخل، فإنه كان مبخلاً للغاية). ينظر: فوات الوفيات والذيل عليها، الكتبي، تحقيق الدكتور احسان عباس: ٤/ ١٣١ وما بعدها (دار صادر - بيروت).

(٣) البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي، عني بتحقيقه والتعليق عليه إبراهيم الكيلاني: ٢(١)/٣٤ (مطبعة الإنشاء، ١٩٦٤م). الشسوع: مفردها شسع وهي قبال النعل وزمام بين الإصبع الوسطى والتي تليها. اللسان، مادة (شسع).

(٤) هو زند بن الجون الأسدي بالولاء، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة، أسود اللون، جسيم وسيم، وكان أبوه عبداً لرجل من بني أسد اعتقه. نشأ بالكوفة واتصل بالخلفاء من بني العباس، وكانوا يستظرفونه ويصلونه بعطاياهم. وكان يتهم بالزندقة لتهتكه. أخباره كثيرة ومتفرقة. ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ سمير جابر: ١٠ / ٢٨١ - ٣٢٢ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م) تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٨ / ٤٨٨ وما بعدها (المكتبة السلفية - المدينة المنورة). وفيات الأعيان، ابن خلكان، حققه وعلق حواشيه وصنع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد: ١ / ١٩٠ (مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٤٨م). وكذلك نهاية الأرب، النويري: ٤ / ٤٦ (مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٣٥ م).

قلنسوة[١] طويلة، وكان أبو جعفر أمر بلبس القلانس والدرائع[٢] مكتوب بين كتفي الرجل: فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ [٣] وأمرهم بتعليق السيوف في أوساطهم، فقال له: كيف أصبحت يا أبا دلامة؟ قال: بشر يا أمير المؤمنين. قال: وكيف ويلك؟ قال: ما ظنك برجل وجهه في نصفه، وسيفه في أسته، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره» [٤].فأمر المنصور بتغيير زيِّه. فهذا الجواب المسكت يحمل بين جنبيه قدراً من الاستهزاء والتهكم، وان كان صاحبه لا يقوى على مواجهة من هو أكبر منه سلطة لذلك نراه يسخر بالخفاء بعرض رأيه باسلوبٍ مضحك ومفحم في الوقت نفسه.

وقد اشار (هوبز) كذلك إلى أن ما يمر بالإنسان من ذكريات سابقة تشعره بما كان عليه من ضعف وامتهان من جراء موقف معين، يولّد لديه الضحك لشعوره بأن الموقف السابق قد ولَّى، وإنه لم يعد موجوداً في وقته الحاضر، وهذا يشعره بتفوقه على ما كان عليه سابقاً، لأن مجرد الإحساس باستمرار ذلك الموقف يمنعه من الضحك والابتهاج. وهذا ينطبق على ما رواه الجاحظ عن نفسه في القصة التي دعته فيها امرأة للذهاب معها إلى الصائغ لنقش صورة على خاتمها [٥].

إذن فخلاصة رأي هوبز في هذه النظرية: «إنما يضحك الضاحك لأنه يحس من نفسه انتصاراً مفاجئاً أو مزية مفاجئة، ولا بدّ من شعور بالنصر أو الامتياز فيما

(١) القلنسوة: الطاقية التي توضع تحت العمامة وهي أشبه بالطربوش. المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب، رينهارت دوزي، ترجمة الدكتور أكرم فاضل: ٢٩٦ (دار الحرية للطباعة - بغداد، ١٩٧١ م).

(٢) الدراعة: لباس من الصوف تميز بلبسه الوزراء، وهي مفتوحة من الجهة الأمامية أعلى القلب ومزررة بأزرار وعُرى. معجم روزي: ١٤٦.

(٣) سورة البقرة، آية: ١٣٧.

(٤) الاجوبة المسكتة، ابن أبي عون الكاتب، تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد القادر أحمد: ١٤٨ - ١٤٩ (مطابع الناشر العربي، ١٩٨٣م).

(٥) ينظر: سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون، ابن نباته المصري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ٢٥٠ (دار الفكر العربي - القاهرة / ١٩٦٤م).

يضحك الإنسان ويرضيه..»[(١)].

وقد ردَّ على هذه النظرية من كونها تمثل الجانب الخارجي للإنسان فقط، بمعنى أن القائلين بهذه النظرية ينكرون وظيفة الضحك البيولوجية. وإنها لا تصل إلى نتيجة مقنعة أمام السؤال المطروح لماذا يُعدُّ الضحك من لوازم السرور والفرح والإحساس بالتفوق الذاتي؟ وهي كذلك تنكر قدرة الإنسان واستعداده الانعطافي الذي هو من ركائز المجتمع الإنساني[(٢)].

٢ - نظرية الطاقة الفائضة:

وصاحب هذه النظرية (سبنسر)[(٣)] ومؤداها أن الإنسان يحتوي على طاقة حيوية فائضة يُعبر عنها بوساطة ضحكه، وهذه الطاقة الفائضة تنجم عن توافر عنصر المفاجئة الناتج عن إحساس الفرد بعد بذله مجهوداً عقلياً أو عضلياً أو كليهما معاً، بأنَّه في غير حاجةٍ لمثل هذا المجهود بسبب ورود طارئ عليه يحدُّ منه ويوقفه. وهذا يعني تحول الانتباه لموقف ما أو مؤثر ما من جهة لأخرى، يقول (سبنسر): «إن المؤثرات لها في الإنسان ثلاثة منافذ: منفذ الحسّ، ومنفذ الفكر، ومنفذ الحركة العضلية، وإنها كلها قابلة للتحوُّل من منفذ إلى منفذ سواء بدأت بالتفكير أو بدأت بالحسِّ أو بدأت بالحركة من العضلات»[(٤)].

فعنصر المفاجأة يحقق تغيراً في مجرى شعور الإنسان أو إيقافه عن مسيرته في خطه المألوف «فتنقله هذه المفاجأة من أعصاب الحسِّ إلى العضلات، ويحدث الضحك من جراء هذا الانتقال»[(٥)]، من موقف يظهر

(١) جحا الضاحك المضحك، العقاد: ٤٤.
(٢) ينظر: سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٣٤٢ - ٣٤٣.
(٣) هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) فيلسوف إنجليزي، درس الهندسة، ثم تحول إلى دراسة العلوم الطبيعية وعلم النفس، وله عدة مؤلفات منها (أصول علم الاجتماع)، وقد بنى آراءه التربوية على أسس علمية، كما فعل في فلسفته كلها. الموسوعة العربية الميسرة: ٩٦٠.
(٤) جحا الضاحك المضحك، العقاد: ٥٢.
(٥) جحا الضاحك المضحك، العقاد: ٥١.

بغتةً من غير استعداد عقلي أو نفسي له. وقد عُبِّرَ عن هذه النظرية باسم (نظرية الترقب الخائب)[1] لما تشتمل عليه من توقع خاطئ، لأن الإنسان بمشاعره وأحاسيسه يحاول السير بشكل مستقيم ومسترسل لتعوده التسلسل المنطقي في تقبل الأحداث، كالقطار الذي يسير على سكة حديد فكلّ ما من شأنه أن يخرج القطار عن خط مسيره يكون عنصر مفاجأة غير مألوف، وهكذا الحال مع عقولنا فكل ما من شأنه أن يحرف تفكيرنا عن الاستمرار في تسلسله المنطقي حيال موقف ما يكون مضحكاً فكهاً. ومثال ذلك: ما رواه صاحب عيون الأخبار في كلامه عمَّن ارتَّج عليه القول في الخطابة فقال: «وخطب آخر، فلما بلغ (أما بعد) بقي ونظر فإذا إنسان ينظر إليه فقال: لعنك الله! ترى ما أنا فيه وتلمحني ببصرك أيضاً»[2]. خطيب يصعد المنبر وحوله حشد من الناس في انتظار ما يقوله من أمور تتعلق بدينهم أو دنياهم، فإذا به يضرب صفحاً عن ذلك لما رأى شخصاً ينظر إليه، فتفوه بشيء غير منتظر، وفي الحال هذه، فإن أذهان المستمعين كانت تسير بشكل منطقي مع ما تكلم به الخطيب منذ بداية الخطبة وهي في انتظار الأفضل وفجأة يعرض عارض يعكر هذا الصفاء الذهني المنشدّ لكلمات الخطيب، وهذا العارض تمثل بانحراف الخطيب في كلامه إلى جهة أخرى، مما أثار الضحك.

إذن فالإنسان يسخر ويضحك عند شعوره بأن ما بذله من جهد لجلب منفعة أو لدفع ضر، لا يستحق هذا العناء لتفاهة شأنه، فيترجم تلك الطاقة أو الحيوية الفائضة إلى نوع من التعبير الغريزي ممثلاً بالضحك، من ذلك ما رواه صاحب الاجوبة المسكتة بقوله: «حُمِل سكران في محمل، فقال الناس: ما هذا؟

(١) ينظر: الفكاهة عند العرب، أنيس فريحة: ٣١.
(٢) عيون الاخبار، ابن قتيبة: ٢/ ١٥٦ (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة، ١٩٦٣م).

فرفع رأسه وقال:(وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ)[(١)]» [(٢)].

هذا الجواب أدى إلى إحداث وجوم لدى السائل وأثار ضحكه وضحك السامع بما احتواه من مفاجئة وعدم توقع. وقد شهد الأدب العربي الكثير من النصوص الفكهة القائمة على هذا العنصر المتمثل ببارع الجواب وحضور البديهة غير المرتقبة.

ومن الجدير بالذكر إن هذه النظرية قد تنبه عليها أبو حيان التوحيدي المتوفى سنة (٤١٤هـ)، وعلى ما لعنصر المفاجأة من دور - بزمن يسبق ما جاء به سبنسر - في إحداث عملية الضحك حيث يقول: «الضحك قوة ناشئة بين قوتي النطق والحيوانية. وذلك إنه حال للنفس باستطراق وارد عليها. وهذا المعنى متعلق بالنطق من جهة، وذلك الاستطراق إنما هو تعجب. والتعجب هو طلب السبب والعلّة للأمر الوارد» [(٣)].

فهذا التعجب على حدّ قوله لا بدّ أن يكون من أسبابه حدوث عنصر طارئ مخلٍّ بالاسترسال المنطقي لمشاعرنا تجاه موقف ما. وهكذا نلمس في تراثنا الإسلامي ما يمت بصلة أو بسبب لما جاء به العلماء الغربيون في القرون اللاحقة من آراء تتعلق بهذه الظاهرة [(٤)].

وخلاصة القول في الضحك بحسب رأي (سبنسر) إنه «محاولة قصد بها الكائن أصلاً الدفاع عن نفسه فلما اكتشف عدم الحاجة إليها تحولت إلى طاقة

(١) هنا اقتباس من القرآن الكريم، ينظر: سورة البقرة، آية: ٢٤٨.
(٢) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون الكاتب: ١٦١.
(٣) المقابسات، التوحيدي: المقابسة الواحدة والسبعون: ٢٧٤، تحقيق وشرح حسن السندوبي، (المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٢٩ م).
(٤) وقد أشار إلى هذه النظرية القائلة بان الضحك ما هو إلا ثمرة لعنصر التعجب بعض من علمائنا أيضاً منهم الراغب الأصفهاني حيث يؤكد هذا المعنى الذي ذهب إليه سبنسر لاحقاً. ينظر: المفردات: ٢٩٢.

داخلية فائضة، لهذا قيل: «أن الضحك يفعل شيئاً دون ان يفعل أي شيء» [١].

ويرد على هذه النظرية كونها لا تعطي تفسيراً لطبيعة الضحك على قدم المساواة مع سائر الحالات التي تستدعي طاقة حيوية فائضة كاللعب والبكاء، إذ أن الضحك محصلة لطاقة فائضة تتمثل بعدم قدرة الإنسان على ضبط نفسه، إذن فهو متنفس له عن كبت يعانيه من جراء مجهود عضلي أو عقلي [٢].

٣ - النظرية الإنعطافية:

من طبيعة النفس البشرية أنها جُبلت على عنصر المشاركة والاندماج مع غيرها، وهذه المشاركة بطبيعتها استعداد فطري ينشأ عن حياة الفرد المتفاعل في إطار المجتمع العام (*يَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنكم مِنْ ذَكَرٍ وأُنثى وَجَعْلنكُم شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْد الله أَتْقاكُمْ إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ*) [٣]، أي ليكون العرف السائد بينكم أن التقوى معيار تقويم مكانة الإنسان، لذلك فإن في المجتمع أعرافاً وليدة الأفراد ومشاركتهم مع بعضهم بعضاً، وتلك الأعراف مما اتخذه المجتمع وسيلة لحفظ مصالح الأفراد، بمعنى إن الإنسان بما يتمتع به من طبيعة مدنية فرض عليه ان يتأثر بما يطرأ على غيره من أحداث فهو يحزن لما يصيب الآخرين من أحزان ويسر لما يصيبهم من أفراح.

وما يتعلق بهذه النظرية هو جانب الحزن أو التأثر بمصائب الآخرين. فمن المألوف أن تجري طبيعة الحياة البشرية بنوع من الرتابة والنظام، بحيث أصبح الإنسان منساقاً مع هذه الرتابة والإطراد مستمسكاً بجزئياتها، وعاملاً على السير ضمن إطارها، ولكن قد يحدث أن تُعْتَرَضُ هذه الرتابة بعاملٍ يعمل على إحداث تناقض فيها غير منتظر فيكون الضحك استجابةً لهذه التناقض الحاصل، والذي يولد

---

(١) ينظر: سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٣٤٣، وفيه عرض لهذه النظرية.
(٢) سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٣٤٤.
(٣) سورة الحجرات، آية: ١٣.

نوعاً من الحزن الذي لا يصل حدَّ الإيلام والإيذاء للشخص. ولا تختلف هذه النظرية كثيراً عن نظرية (الطاقة الفائضة) إلا في بعض جزئياتها.

ويُعزى الفضل في وضع هذه النظرية إلى العالم (مكدوجل) [١] (١٨٧١ - ١٩٣٨م) الذي أسس نظريته هذه معتمداً على الاستعداد الفطري الذي طُبِعَ عليه الإنسان في مشاركته الوجدانية مع غيره من بني جنسه. فهو يرى أن هناك علاقة وثيقة فيما بين الضحك من جانب والتعاطف أو التأثير الزائد لما يصيب غيرنا من مصائب يسيرة وهيِّنة من جانب آخر، والسبب في ذلك لما كان «للانفعالات الرقيقة دور هام في صميم حياتنا النفسية، فقد اخترعت الطبيعة حيلة بيولوجية هي (الضحك) تقينا بها آثار الشفقة البالغة والتعاطف الزائد، مما كان أن نتعرض له بسبب ما لدينا من قدرة على التأثر الانفعالي والمشاركة الوجدانية لآلام الآخرين»[٢]. فالضحك في رأيه يوفر ضرباً من المناعة النفسية التي تقينا التأثر والانفعال لما يحدث للآخرين من نكبات بسيطة غير ذات خطر جدي على حياة الفرد، وهذا ينطبق على ما يسترجعه الإنسان من ذكريات كانت ذات أثر حزين نوعاً ما في نفسه[٣]. وقد أوردت كتب الأدب العربي كثيراً من الفكاهات التي تقوم على هذا المبدأ وحسبك ما في (المقامة الحلوانية) [٤] من مواقف تثير ضحك السامع أو المشاهد منها لو كان حاضراً.

---

(١) وليم مكدوجل: سيكولوجي أمريكي، ولد في لانكشر بانجلترا، وتعلم في جامعات كيمبردج واكسفورد وجونتجن. كان أستاذ علم النفس بجامعة هارفورد من سنة (١٩٢٠ - ١٩٢٧م) وبعدها بجامعة ديوك، قام ببحوث ممتازة في علم النفس الاجتماعي والفسيولوجي، وشُهِرَ ببحوثه المتصلة بعلم النفس. من مؤلفاته: (مقدمة إلى علم النفس الاجتماعي) سنة١٩٠٨. الموسوعة العربية الميسرة: ١٧٣٥.

(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك، د. زكريا إبراهيم: ١١٢ (مكتبة مصر - القاهرة).

(٣) ينظر: في علم النفس، للاستاذ حامد عبد القادر وآخرون: ١/ ١١٨ (الطبعة المصرية - القاهرة، ١٩٣٤م).

(٤) ينظر: شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد: ٢٣٢ (مطبعة المدني - القاهرة، ١٩٦٢م).

وصفوة الكلام في رأي (مكدوجل) إنه ينحي الرأي القائل بأن الضحك تعبير عن اللذة والسرور - وهذا الرأي هو ما عبرت عنه نظرية (التفوق الذاتي) التي مر ذكرها - بل على النقيض من ذلك فإنه يؤكد أن الشيء المثير للضحك إن لم نستجب له بالضحك سبب لنا الضيق والألم. إذن فالضحك هو «الترياق الواقي من التعاطف أو المشاركة الوجدانية»[١].

هذا زيادة على ما له من دور مهم في الأعصاب والعضلات وما يحدثه من تفاعلات دموية وإفرازية تساعد على تنمية النشاط الجسمي للإنسان؛ وعليه فالضحك «وسيلة للتخفيف والتنفيس، كما هو في الوقت ذاته دافع لاسترداد النشاط والانخراط في غمار المجتمع والسير في ركبه»[٢].

وأمام ما تقدم فإن هذه النظرية تفسر بعض أشكال الضحك في الحياة اليومية. ولكنها لا توضح أنواع الضحك الأخرى كضحكة الانتصار أو الترحيب مثلاً[٣].

٤ - النظرية الاجتماعية:

ويرجع القول بها إلى الفيلسوف الفرنسي (برجسون) [٤] وتقوم هذه النظرية على أساس مبدأ المحاكاة فيما بين الإنسان من جهة، وبين ما يتصرفه به كآلة من جهة أخرى، هذا من جانب. ومن جانب آخر مدى توافق هذا الإنسان مع مجتمعه

---

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك، الدكتور زكريا إبراهيم: ١١٤.

(٢) الفكاهة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الثالث الهجري: فتحي محمد معوض أبو عيسى: ١٨ - ١٩ (الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ١٩٧٠م)، وينظر: في علم النفس: ١/ ١١٨.

(٣) ينظر: سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٣٤٦.

(٤) هنري برجسون: (١٨٥٩ - ١٩٤١م). فيلسوف فرنسي ـ أصبح عام(١٩٠٠) استاذا بالكوليج دي فرانس وظفر عام (١٩٢٧م) بجائزة نوبل في الآداب، وهو ثنائي في فلسفته، من مؤلفاته: (الزمن والإرادة الحرة) و (المادة والذاكرة)، و(الضحك)، و (تطور الأخلاق). وبعضها ترجم إلى العربية. الموسوعة العربية الميسرة: ٣٤٥.

بما يحتويه من عادات وتقاليد ومُثُل. بمعنى أنَّ المضحك يكون موضوعه الإنسان وكيف يتصرف تصرف الآلة من غير أن يكون لديه أدنى حس منطقي يحميه من الخطل في القول أو الفعل النابع من عدم التزامه التقدير السليم لمجريات سلوكياته لذلك فإن «أوضاع الجسم الإنساني وإشاراته وحركاته تكون مضحكة على قدر ما يذكرنا هذا الجسم بمجرد آلة» [(١)]، وهذا بدوره يؤدي إلى إبراز صفة الغفلة أو التناقض لدى الفرد، الغفلة التي تؤدي بالمرء إلى مفاجأة غيره بالسلوك الذي لا يوافق مقتضى المقام، فهو يرى ما لا يرى غيره، ويسمع ما لا يسمعون، فالمضحك في هذه الحالة «لا يشعر بذاته، وكأنه يستخدم طاقية الإخفاء بطريقة معكوسة: يحتجب عن نفسه ويبين لكافة الناس [كذا]» [(٢)]، فبقدر شدة الجهل لمثل هذه الشخصية لنفسها تكون شدة الاضحاك. من ذلك ما روي عن عبد الملك بن هلال الهنائي [(٣)] الذي كان له زنبيل ملآن حصى، «فكان يُسبح بواحدة واحدة، فإذا ملَّ شيئاً طرح ثنتين ثنتين، ثم ثلاثاً ثلاثاً، فإذا كل قبض قبضة وقال: سبحان الله بعدد هذا، فإذا كل شيئاً قبض قبضتين وقال: سبحان الله بعدد هذا، فإذا ضَجِرَ أخَذَ بُعْروَتَي الزَّنبيل وقَلبه، وقال: سبحان الله بعدد هذا كله، وإذا بَكَّرَ لحاجة لَحظَ الزنبيل لحظةً وقال: سبحان الله عدد ما فيه» [(٤)]، فهذه الآلية وما يصاحبها من موقف يعمل فيه المرء وكأنه غافلٌ عما يعمل من سلوك، هذا السلوك - لاشك - يولِّد لدى المقابل ضحكاً حِياله.

والتناقض بما يحصل فيه من مفاجأة يكون صاحبه مدعاة للتندر والضحك. قيل جُلِدَ صُهيب المديني [(٥)] في الشراب، وكان جسيماً، وكان الجلاد قصيراً قميئاً

---

(١) الضحك، برجسون: ٢٦ وما بعدها.
(٢) م، ن: ١٦.
(٣) لم أعثر له على ترجمة فيما توافر لديّ من مصادر.
(٤) البيان والنبيين، الجاحظ: ٣/ ٢٨١.
(٥) لم أعثر له على ترجمة فيما توافر لدي من مصادر.

فقال له: «تقاصر لينالك السَّوْط، فقال: وَيْلك! إلى أكل الفالوذج[١] تدعوني؟ والله لوددت أني أطول من عوج، وأنت أقصر من ياجوج!» [٢]، فالتناقض موجود في قول الجلاد لما تعوده من طبيعة آلية في التسلط على من هو دونه.

كذلك الحال مع التكرار، وهو برأي (برجسون) أشبه ما يكون (بنابض حلزوني) يضغط فيختفي ثم ينفلت فيظهر بشكل آلي متعاقب، وهو انفلات ناتج عن عاطفة محبوسة تقابلها قوة لاهية تحاول حبس هذه العاطفة ثانية وهكذا، فهو بهذا يولد موقفاً هزلياً مضحكاً[٣]. كذلك ما للنكتة الجناسية من دور في الإضحاك، فهي «تواجه الذهن بصورتين إحداهما لائقة للإنسانية والأخرى غير لائقة» [٤]، وعلى هذا الأساس تنجم المواقف الطريفة، ويدخل في ذلك كلمات الكناية والاستعارة والمجاز وغيرها. قال الجاحظ: قَدِم رجلٌ على صاحبٍ له من فارس، فقال: «قد كنتَ عند الأمير فأي شيء ولاَّك؟ قال: ولاَّني قفاه!» [٥].

وعوداً على بدء نقول إن الضحك في رأي (برجسون) إنساني يصدر منه ويؤدي وظيفةً له وقد نضحك من جماد أو حيوان، «فالمنظر قد يكون جميلاً لطيفاً رائعاً، وقد يكون تافها أو قبيحاً، ولكنه لا يكون مضحكاً أبداً. وإذا ضحكنا من حيوان فلأننا لقينا عنده وضع إنسان أو تعبيراً إنسانياً» [٦]. وقس ذلك على باقي المظاهر.

(١) الفالوذ: حلواء تعمل من الدقيق والماء والعسل وهي أطيب الحلاوات عند العرب، وفيه لغات: الفَالُوذَج و الفَالُودَج والفالودق وهي معربة. الألفاظ الفارسية المعربة، أدي شير: ١٢٠ (المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت - ١٩٠٨ م).

(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (٢)/ ٥٩٨.

(٣) ينظر: الضحك، هنري برجسون، ترجمة سامي الدوري وعبد الله الدايم: ٥٧ - ٦٣ (دار اليقظة للتأليف والترجمة والنشر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٦٤ م).

(٤) جحا الضاحك المضحك، عباس محمود العقاد: ٥٨ (المكتبة العصرية - بيروت).

(٥) البيان والتبيين، الجاحظ: ٤ / ٦.

(٦) الضحك، برجسون: ٦ - ٧.

أما الغاية العظمى للضحك فهي محاولة تأديبية من المجتمع لمن رام أن يخل بقواعده ونظمه، فهو «يدل إذن على نقص فردي أو جماعي يقتضي عقاباً مباشراً، وما الضحك إلا هذا العقاب» (١).

فهو يتناول الأخطاء البسيطة التي توحي بالخروج عما رسمه المجتمع من حدود لم يسمح باجتيازها وتعديها، وهذه الأخطاء البسيطة هي ما ينبو عنها الذوق الاجتماعي فيكفي للوقاية منها أن يكون صاحبها أضحوكة، وعليه «يكون الضحك نوعاً من القصاص، فهو يجعلنا نحاول أن نظهر بما ينبغي أن نكونه، وما سنصير فعلاً إليه في ذات يوم» (٢).

وخلاصة القول في رأي (برجسون) أن الضحك يرمي إلى وقاية المنطق الإنساني، وحماية الحاسَّة الاجتماعية على وجه الخصوص.

إذن فالمحصلة من نظريات الضحك أنها جاءت لتسليط الضوء على هذه الغريزة الإنسانية بالتفسير والتعليل لاسبابها، من وجهة نظر خاصة، بمعنى أن كل باحث أخذ ينظر إليها من منظوره الذاتي (٣).

٣ - الدور الوظيفي للفكاهة:

لعبت الفكاهة دوراً هاماً في حياة الفرد بخاصة، والمجتمع بعامة من خلال ما تؤديه من وظائف فيزيلوجية نفسية واجتماعية تقويمية، لها كامل الأثر في التكوين الإنساني للمجتمع.

(١) م، ن: ٧٢.
(٢) م، ن: ١٧.
(٣) ظهرت نظريات أخرى تفسر هذه الغريزة مثل (النظرية التطورية) التي ترى فيه ظاهرة متطورة عن حالة بدائية إلى مرحلة فيها من الرقي والتقدم الحضاري بحكم التطور الاجتماعي، وهي تطبيق لمذهب دارون، وصاحبها (هايوث)، وهناك نظرية اخرى تُدعى (النظرية الدفاعية). وترى في الضحك مظهرا من مظاهر الدفاع الغريزي، وإعلام بزوال الخطر، وصاحبها عالم هندي يدعى (جوبا لاسوامي)، ينظر: سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٤٤ - ٤٥.

فمن ذا يستطيع التماشي والتعايش مع مجتمع ملؤه العبوس والقنوط والحزن، بعيداً عن كل فرح وسرور وضحك، هذا المجتمع - لا شك - من الصعب على الإنسان التفاعل معه، والعمل فيه، لأن الحياة «ملأى بالمشقات والمتاعب والآلام، والضحك هو المُتَنَفَّسُ الذي يخفف ضغطها. وينسي همومها، ويلقي بعض أثقالها، ويُحَرِّر من قيودها الشِّداد زمناً يطول أو يقصر»[1]، مما حدا بالنفس البشرية إلى تبني نوع من التعبير الغريزي الذي له (قيمة عظيمة في حفظ حياة الفرد وحياة المجموع)[2].

وانطلاقاً من ذلك يمكن القول ان التعبير الفكه بخاصة أو الضحك بعامة وسيلة لبلوغ ثلاث وظائف ذات أهمية بالغة في البناء الفردي ضمن إطار المجتمع العام الشامل والوظائف هي: وظيفة نفسية، ووظيفة اجتماعية، ووظيفة نقدية، يُسعى لتحقيق غايات.

أ - الوظيفة النفسية:

أو ما يُطلق عليها الوجدانية، وهي غاية ذاتية نابعة من صميم الإنسان الذي يسعى بسلوكه للوصول إلى نوع من الكمال النفسي، عن طريق تحقيق قدر من الاطمئنان لهذه النفس مما تعانيه من هموم ومشاكل تثقل كاهلها، وتنوء بحملها، وهي بدورها تخلِّصنا أو تحاول تخليصنا - وإن كان هذا الخلاص مؤقتاً - من تَبِعات هذه الحياة القاسية بمفردات جوانبها المختلفة. فذلك التعب وذلك الشقاء لا بدَّ من أن يتوقف عند حدٍ يستطيع معه الإنسان استعادة نشاطه وحيويته - ولو إلى حين - ويتم له ذلك بإشاعة روح المرح والتسلية والضحك لأن «من أسباب السعادة أن يستقبل الإنسان الحياة بثغرٍ باسم ونفس راضية مرضية وروح فكهة، فإن

---

(١) الفكاهة في الأدب، أصولها وأنواعها، الدكتور أحمد محمد الحوفي: ١٣ (دار النهضة للطبع والنشر - القاهرة، ١٩٦٦م).

(٢) م، ن: ١٣.

ذلك يُهوِّن له من صعاب الحياة ويقرِّب له من أسباب السعادة»[(١)].

وقد تنبه على ذلك علماؤنا القدامى لما تؤديه الفكاهة من دور في النفس البشرية. فهذا ابن عبد ربه (٣٢٨هـ) يرى في الفكاهات والملح «نزهة للنفوس، وربيع القلب، ومَرْتَع السمع، ومَجْلَب الراحة، ومعدن السرور» [(٢)]. وقد صرَّح بذلك أيضاً أبو حيان التوحيدي (٤١٤هـ) بقوله: «إنّ النفس تَمَلُّ، كما إنَّ البدن يكلُّ، وكما أن البدن إذا كَلَّ طلب الراحة، كذلك النفس إذا مَلَّتْ طلبتْ الرَّوْحَ[(٣)]، كما لا بدّ للبدن أن يستمدَّ ويستفيد بالجمام، وكذلك لا بدّ للنفس من أن تطلب الرَّوْح عند تكاثف الملل الدَّاعي إلى الحَرج ...» [(٤)].

ولغرض الوصول إلى الرضا النفسي المنشود في المواقف المضحكة، لا بدّ من تحقُّق عنصر آخر له أثره في تحقيق هذا الرضا، وهو عنصر (اللامبالاة) أو عدم التأثُّر. فنحن لكي نستشعر الموقف الضاحك، ونندمج معه، لا بدّ من أن نُسْدل على مشاعرنا - وإن كان مؤقتاً - نوعاً من ستار يحجب هذه المشاعر عن التأثُّر العاطفي الذي قد يصاحب الموقف المضحك، وهذا ما أكده برجسون[(٥)] بقوله: «فاللامبالاة وسطه الطبيعي، وألدُ أعدائه الانفعال» [(٦)] بمعنى إن الضحك يخاطب العقل دون الشعور، العقل المجرد الذي ينأى عن كل ما من شأنه أن يُحدث هزة في الشعور من شأنها أن تميل بالإنسان إلى التعاطف والشفقة مع المقابل بحكم المشاركة الوجدانية التي جُبِلَ عليها. وعليه فإنَّ «مجتمعاً مؤلفاً من عقولٍ محضة قد لا يبكي

---

(١) صحافة الفكاهة وصانعوها، جمال الدين الرمادي: ٣ (الدار القومية، القاهرة).
(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٦/ ٢٨٥، تقديم الأستاذ خليل شرف الدين (منشورات دار ومكتبة الهلال، الطبعة الأولى، ١٩٨٦ م).
(٣) الرَّوح: الراحة. اللسان، مادة (رَوَح).
(٤) الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان التوحيدي، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين: ٣/ ٢٧. (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت).
(٥) مرت ترجمته فيما مضى، أثناء الحديث على (النظرية الاجتماعية).
(٦) الضحك، برجسون: ٧.

قط، ولكنه يظل يضحك، أما النفوس المتأثرة أبداً المتصلة بأوتار الحياة، النفوس التي يترجّع فيها كل حادثٍ ترجُّعاً عاطفياً فإنها لن تعرف الضحك ولن تفهمه»(١). هذا من جانب، ومن جانب آخر تحقق الفكاهة أو الضحك عامةً أمراً لا يقل أهميةً عما سبق الإشارة إليه من إشاعة السرور والانشراح الذين يحققان عنصر اللهو، وما يتبعه من مرحٍ وتسلية، ترتفع بصاحبها من حيِّز الواقع المعاش بجزئياته المحددة والمنظَّمة تنظيماً عقلياً، إلى حيِّز آخر خارج على هذه الحدود، كالوصف الذي يتعدى حدود العقل والمنطق. من ذلك ما رواه صاحب البصائر عن أبي حيَّة النُّميريّ(٢) أنه قال مرة: «رميتُ ظَبْيةً فلما نَفَذَ السهمُ ذكرتُ حبيبةً لي شبَّهتها بها فتبِعت السَّهمَ فأخْذتُه»(٣).فمثل هكذا خبر يثير فينا الضحك لما فيه من خروج على المألوف الذي تعارفه العقلاء. ومن ذلك التسويغات الوهمية المعتمدة على الاستدلال المغلوط مثل إعطاء أسباب للحرص والبخل مثلما رُوي عن خالد بن يزيد(٤) في حديثه مع ابنه عند موته، وتعليل وقاية ما له من النفاد فيقول: «إني لما غَلَبتني يوماً شهوتي، وأخرجت يوماً درهماً لقضاء وطري، ووقعت عيني على سِكَّتِه، وعلى اسم الله المكتوب عليه، قلت في نفسي: إني إذا لمن الخاسرين الضالين، لئن أنا أخرجتُ من يدي ومن بيتي شيئاً عليه: (لا إله إلا الله) وأخذت بدله شيئاً ليس عليه شيء. والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريده، وعليه (حسبي الله)

---

(١) الضحك، برجسون: ٧ - ٨.

(٢) الهيثم بن الربيع شاعر راجز مجيد مخضرم مدح الأمويين والعباسيين (وكان كذاباً) وكانت به لوثة توفي سنة(١٨٣هـ). ينظر: الأغاني: ١٦ / ٣٣١، وما بعدها، خزانة الأدب، الخطيب البغدادي: ٣ / ١٥٤ (المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الأولى، ١٢٩٩هـ).

(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (٢)/ ٧٥٤.

(٤) خالد بن يزيد هو أحد المكدين الذين مارسوا التكدية في حياتهم نزل البصرة، يقول الجاحظ هو أحد موالي (المهالبة - هو خالويه المكدي - وكان قد بلغ في البخل والتكدية وفي كثرة المال المبالغ التي لم يبلغها أحد).ينظر: البخلاء: الجاحظ، تحقيق وتعليق طه الحاجري: ٤٦ (دار المعارف بمصر ١٩٥٨م).

أو: (توكلتُ على الله) فيظنُ أنَّه قد خرج من كنف الله - جل ذكره - حتى يَرُدَّ الخاتم في موضعه. وإنما هو خاتم واحد، وأنا أريُد أن أخرجَ في كلِّ يوم درهماً عليه الإسلام كما هو؟ إنَّ هذا لعظيم» [١].

لهذا ترانا نضحك من هذا الاستدلال المغلوط المستند إلى التصّور الواقعي المُتوّهم. وهـذا ما حدا ببعض الباحثين إلى القول: «بأنَّ في كل المواقف الفكاهية على أختلاف أنواعها (عنصر لهـو) واضح من شأنه أن ينأى بالإنسان عن حياة الجد والواقعية والنشاط الغائي» [٢]، وذلك النشاط يكون في بعض صوره ضرباً من الخيال.

ب - الوظيفة الاجتماعية:

ليس بدعاً القول بأن الإنسان يحاول نوعاً من التواصل مع أبناء جنسه، فهو بشتى الوسائل يسعى لأن يُهيء جواً اجتماعياً يقبل منه ويرحب به، أو على أقلّ تقـدير فـيما يعتقـده هـو في ضميره من حصوله على موضع قدم بين أبناء جِلْدَته، «فالعلاقة بين الضحك والمجتمـع علاقـة متبادلـة والصـلة بينهما صلة السبب بنتيجته، فالضحك استعداد إنساني يؤثر في المجتمع ويتفاعل معـه، وهـذا المجتمع المتفاعل المتطور يؤثر بدوره في أفراده، فيهذِّب استعدادهم الفطري للضحك ويتسـامى بهـذه الغريـزة بحيث تتناسب مع أهداف المجتمع الإنساني المتحضِّر» [٣]، إذ مـن غـير الممكـن تصـور إنسـان يضحك بمفرده من دون وجود نوع من المشاركة الوجدانية بينه وبين أفراد جنسـه لأنَّ «الضـحك في حاجـة إلى صدى» [٤] وعلى هذا فإنَّ الحضور الإنسـاني هـو الحيِّـز الطبيعـي لظهـور ضـحك الإنسـان مسـتنهزئاً أو ساخراً أو متهكماً، أو قد يكون لأجل اللَّهو واللَّعب، بمعنى إنَّ الضحك في هذه الحالة

(١) الضحك، برجسون: ٥١.
(٢) سيكولوجية الفكاهة والضحك، زكريا إبراهيم: ١٠٤.
(٣) سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ١٤٥.
(٤) الضحك، برجسون: ٨.

ضحك من أجل الضحك.

فالإنسان الذي يعيش وحيداً، وفي عزلةٍ عمن يحيط به من أفراد مجتمعه، من الصعب عليه أن يتمتع أو يتذَّوق أشكال التعبير الفكاهي، حتى وإن اعتوره مجرد الشعور بهذه العزلة أو الوحدة. وقد يُصادفُ أن ترى شخصاً بمفرده من غير اندماجه مع مجموعة تشاركه الضحك، وهنا لا بدّ من وجود عاملُ أثار فيه الضحك كأن يكون على سبيل المثال استرجاعه لأحداث سابقة مرت به وهذه الأحداث لا بدّ وأن يكون أفرادها من مجتمعه وقد شاركهم فيها. لأنَّ الضحك يحتاج بطبيعته إلى من يردد صداه، ويتناغى معه، ولأن المُضحِك يجب «أن يحصل في جماعة أو يرتبط بالتصرُّف في جماعة»[١].

وقد تنبه الجاحظ (٢٥٥هـ)، على ذلك من قبل، وأدرك أن الضحك ظاهرة اجتماعية تنشط وتشتد بوجود عنصر اجتماعي آخر يشارك فيها ويساعد عليها، في معرض سرد قصة وقعت له مع محفوظ النقاش[٢] ثم يُعقِّب على قول (النقاش) قائلاً: «ما ضحكت قط كضحكي تلك الليلة... ولو كان معي مَن يفهم طيِّب ما تكلَّم به لأتى عليَّ الضحك، أو لقضى عليّ. ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب»[٣]. وعليه فقد سبق الجاحظ في رأيه هذا ما جاء به برجسون فيما بعد في وجوب توافُر عنصر المشاركة الوجدانية في عملية الضحك. يقول برجسون: «فنحن لا نتذوق المضحك في حالة شعورنا بالعزلة، إنَّ الضحك في حاجة إلى صدى. ألا أصيخوا إليه بأسماعكم: إنه ليس بالصوت الملفوظ، الواضح، المنتهي؛ إنه شيءٌ يريد أن يمتدَّ بتجاوبه مع ذاته شيئاً فشيئاً، يبدئ بانفجار ويستمر في غرغرة، كالرعد في الجبل»[٤]. ويضرب لذلك مثلاً أنَّ رجلاً حضر في

(١) جحا الضاحك المضحك، العقاد: ٥٥.
(٢) لم أعثر على ترجمة لصاحب الاسم في كتب التراجم والأدب المتوافرة لديَّ.
(٣) البخلاء، الجاحظ: ١٢٤.
(٤) الضحك، برجسون: ٨ - ٩.

كنيسة مُستمعاً لخطبة واعظها، وكان كلُّ من في الكنيسة يبكي، ولما سُئِل عن عدم بكائه والكل من حوله يبكي أجاب: بأنه لا ينتمي لهذه الكنيسة. وقد علّق برجسون على ذلك بأنَّ هذا التعبير ينطبق بصورة أكثر وضوحاً على الضحك، لأن الضحك «مهما نفترضه صريحاً، إنما يُخفي وراءه تفاهما، وأكاد أقول تآمراً، مع ضاحكين أُخر، حقيقيين أو خياليين»[١]. وفي ضوء ذلك نتساءل هل يمكن ترجمة الآثار ذات الطابع الفكه مثل النوادر والمزح، من لغة إلى أخرى؟

للجواب على ذلك لا بدّ من القول بأنّ ترجمة مثل هكذا آثار تحتوي على إشكالية متعلّقة باللغة أولاً، ثم بما تعارفه المجتمع من عادات وأعراف. فاللغة بما تشتمل عليه من أساليب واستخدامات متعلّق بعضها بالتورية والمقابلة والمشاركة، والهزل الذي يُراد به الجد، وتأكيد المدح بما يشبه الذم، والفصل الوصل، وتجاهل العارف، والتشبيه الملفوف والمفروق، والكناية وإخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، وغير ذلك من أساليب متصلة بعلوم البيان والمعاني والبديع، تختلف كثيراً تبعاً لخصائصها، فليست كل اللغات تتمتّع بالخصائص الأسلوبية نفسها، لذلك تواجه المترجم صعوبة في إظهار ما تريد اللغة التعبير عنه وفقاً لمفهوم المتكلمين بتلك اللغة، هذا من جانب، ومن جانب آخر تفقد اللغة رونقها بالتحريف أو التصحيف كما في إعراب الكلمات ذات اللحن لأن جمالية اللغة سماعها كما هي وبخاصة إذا كانت تُعبِّر عن فكاهة، وهو ما أشار إليه الجاحظ بقوله: «وما سمعت - حفظك الله - بنادرة من كلام الأعراب، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها، فإنك إن غيرتها بأن تلحن في إعرابها وأخرجتها مخارج كلام المولدين والبلديِّين، خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير، وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العَوامّ، ومُلحةٍ من مُلَحِ الحَشوَة والطَّغام، فإياك وأن تستعمل فيها الإعراب، أو تتخيَّر لها لفظاً حسناً أو تجعل لها من فيك مخرجاً سرياً؛ فإن ذلك

(١) م، ن: ٩.

يفسد الإمتاع بها، ويخرجها من صورتها ومن الذي أُريدَتْ له، ويُذهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها» [(١)].

أما فيما يتعلق بالذي تعارفه المجتمع، فإن الضحك ينشأ في مجتمع خاص، ويشترك فيه جماعة من أفراد هذا المجتمع، لذلك، فإنه من الصعب ترجمة هذه الآثار ذات الطابع الفكه المضحك «لارتباطها بعادات مجتمع معين وأفكار قوم معينيين» [(٢)]. بل علينا تبعاً لذلك أن نفهمه ضمن لغته وإطار مجتمعه الخاص، حتى يتسنى للباحث أن يطلع على الواقع الحياتي لأفراد تلك المجتمعات. لأن الفكاهة بشكل عام تخضع في تقبلها إلى أمزجة وأهواء خاصة بجماعة بعينها.

ج - الوظيفة النقدية:

من المعلوم أن العملية النقدية تضم بين طياتها تحديداً لما هو في صدد النظر إليه، وسواء كان هذا المنظور إليه يمثّل ظاهرة عامة تفشَّت في مجتمعٍ ما، أو اشتملت طائفة منه، كأن تكون طبقة من طبقاته، يكون الحسُّ النقدي بالمرصاد لما شذَّ من صفاتٍ وخلال تبنَّاها بعضهم دون بعضهم الآخر، على حساب ما تواضع عليه العرف أو العقل. وقد يكون النقد موجَّها نحو شخص معين من جهة ما يعتقده ويؤديه من ممارسات سلوكية قولية كانت أم فعلية خارجة على نظم ذلك المجتمع، أو ما أُصطلح عليه من انه أخلاقي ضمن مفهوم ذلك المجتمع للأخلاق، لأن معيار الأخلاق مختلف من مجتمع لآخر، فما عُرِف على أنَّه غير أخلاقي في مجتمع ما، قد يُعدُّ أخلاقياً في مجتمع آخر ومن الطبيعي ممارسته والتصرُّف في ضوئه. إذن الأساس الذي يستند إليه النقد في عملية الضحك هو ما كان (غير اجتماعي)، «على أنه لا بدّ من الاعتراف أن المثل الأعلى الأخلاقي والمثل الأعلى الاجتماعي لا

(١) سيكولوجية الفكاهة والضحك، زكريا إبراهيم: ٦٤.
(٢) الحيوان، الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون: ١/ ٢٨٢ (دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩.

يختلفان في الجوهر، وهذا مما يُشرِّف الإنسانية»[١].

ومن هنا يظهر دور الفنان الناقد بتسليطه الضوء على كل ما هو بعيد عما يعتقده المجتمع أو طائفة منه، بأسلوب ملؤه التهكم والسخرية يميز في ضوئه الصحيح من الخطأ، والحسن من القبيح.

فهو يضحك ملء شدقيه «من الظواهر المدانة في الحياة ونقدها من خلال أفراد بعينهم، أو جماعة بعينها، أو تقليد بعينه، سواء أكانت هذه الظواهر المنقودة، المسخور منها، اجتماعية أم سياسية أم أدبية أم سلوكية شخصانية»[٢]. لأن من سمات الضحك أو الفكاهة أنها تبرز بأسلوب مزدوج ذي وجهين - إن صح التعبير - فهي تُريك من طرف اللسان حلاوةً من جهة، وهي بهذا تبدو هادئة، ومن جهة أخرى هي مؤلمة ومخزية لأن غايتها الإصلاح، ولا يتمُّ هذا الاصطلاح إلا بنوعٍ من التأديب يشعر معه الذي نضحك منه بشيء من الامتهان بطريق ما يوظف في سبيل ذلك من صياغات أسلوبية يعمد إليها الناقد الفكه مثل أسلوب التشخيص[٣]، وفيه إضفاء صفات إنسانية على ما هو غير إنساني، كذلك يعمد الأديب الناقد إلى التصوير (الكاريكتوري) الذي يسعى فيه إلى التضخيم والتجسيم المبالغ ضمن إطار الشخصية المنقودة، فالناقد يحاول إبرازها من خلال نقاط الضعف المتوافرة عليها ومن ثم إبراز الجانب السلبي لتلك الشخصية، «فالناقد الذي يصوِّر لنا دواعي الضحك ويبدع في تصويرها وتمثيلها، فهو مضحك وليس باضحوكة، أو هو واضع الضحك وليس بموضوع للضاحكين»[٤].

وما دامت غاية النقد الاصطلاح فهو لا يبلغها ما دام معتمداً صيغاً متسمة

---

(١) الضحك، برجسون: ١١٤.

(٢) فن السخرية في شعر الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري، حسين العلاق: ٣٨ (المورد المجلد الرابع، العدد الثاني، ١٩٧٥ م).

(٣) ينظر: زهر الآداب: الحصري القيرواني، شرح زكي مبارك: ٢٩٢ (دار الجيل - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م). وفيه وصف أبي العيناء لبرذون أهدي إليه فلم يعجبه.

(٤) جحا الضاحك المضحك، العقاد: ٦٦.

بطابع العطف والطيبة، بل لا بدّ من أن يَتبنَّى أسلوباً يحاول به إيقاف هذا التمرد على المجتمع، وهذا ما أشار إليه (برجسون) بقوله: «بهذا المعنى لا يمكن أن يكون الضحك عادلاً عدلاً مطلقاً ... إنَّ وظيفته هي أن يُخجِل ويُخزِي، وما كان ليظفر في مهمته لولا أن أودعت الطبيعة لهذا الغرض، حتّى في خِيَرَة الناس، حفنة من شرٍ، أو من خبثٍ على الأقل»(١).

والناقد في كل هذا يُنزَّه نفسه عن مثل تلك السلوكيات التي تُثير عنده الاشمئزاز والغضب، لذلك نراه بما يمتلكه من روحٍ فكهةٍ ومرح ضاحك، يصورً ما يريد نقده بغية التقويم والإصلاح، ولا يعني هذا إن كلَّ مَن تَوجَّه بالنقدِ حيال شخصٍ ما أو موقفٍ ما يصدر في كل أحكامه عن حسٍ جماعي بمعنى حثٍّ غيره على الالتزام بقوانين الجماعة وعدم الاستهانة بها، كما أكد ذلك وذهب إليه معظم دارسي الفكاهة، بل قد تكون هذه الاحكام نابعة من وجهة نظر خاصة بالناقد، ارتضاها لنفسه ويريد أن يعممها على المجتمع لشعوره بنقص ما، مما يولد عنده هرباً من كبتٍ دفين يُظهره بشكل دعابة متهكمة، «وهذا يفسر لنا فعلا ثورة الإنسان وتمرده على عصره في بعض تجارب الأمم والشعوب، ومعنى الشعور بالنقص الاجتماعي الذي يقود صاحبه إلى كمال اجتماعي من نوعٍ آخر يتجاوز النسب والانتماء الطبقي والأوصاف الحيِّة»(٢)، وقد يكون الوازع للفكاهة المتهكمة نابعاً من شعور الساخر الفكه بالغرور والخيلاء والتكبر، وقد يكون نابعاً من استعداد مزاجي يكون فيه ذهن الفنان مطبوعاً على عنصر المشاكسة والعبث «... فالعبث والغرور بابان من أبواب السخر، بل هما جُماع أبوابه كافة»(٣).

(١) ينظر: الضحك، برجسون: ١٥٨ - ١٦٠.
(٢) نزعة التمرد والسخرية في شعر الحطيئة، الدكتور عناد غزوان إسماعيل: ٢٧ - ٢٨ (مجلة البلاغ، العدد الثاني، السنة الرابعة، ١٩٧٢م، إصدار الجمعية الإسلامية للخدمات الثقافية).
(٣) مطالعات في الكتب والحياة، عباس محمود العقاد: ٨٩ (الطبعة التجارية سنة ١٩٢٦م)، جحا الضاحك المضحك، العقاد: ٢٩.

إذن من مجموع دوافع متعددة داخلية وخارجية يصدر نتاج الناقد المتفكه الساخر يحمل إدراكاً أكبر، وإحساساً أعمق، وتصويراً أسمى [١].

٤. الفكاهة في معيار الأخلاق:

من نافلة القول التقرير أنَّ الأخلاق تُعدُّ الميزان الذي تقوم من خلاله سلوكيات الإنسان، بخاصة إذا كان هذا التقويم قاعدته اعتماد الدين في توجيه هذه التصرفات الوجهة الصحيحة. إذن فتوصيات السماء هي الفيصل فيما هو مستحب وواجب من جهة، وبين ما هو مكروه أو حرام من جهة أخرى. متخذين من قوله تعالى: (مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ) [٢]، قاعدة للشعور بمسؤولية الكلمة، بالإضافة لما تعارفه المجتمع من الحسن والقبيح؛ كل هذا هدفه الإنسان ارتقاءاً لشأنه إلى أحسن تقويم في بناء كيانه، ونأياً به عن كل تصرف يهبط به إلى أسفل سافلين. وبناءً على ذلك فقد عدَّ رجال الأخلاق كل سلوك إنساني لا يتعدى كونه أداة لإشباع غريزة أو تلبية لإرضاء شهوة حيوانية لا تتجاوز الشخص نفسه عملاً ناقصاً لا يرتفع بصاحبه إلى مرتبة الكمال المثالي للإنسان وهو جوهر النفس الرامية لبلوغ مرتبة السمو «لهذا حار رجال الأخلاق اللَّذة لأنَّ تغليبها في توجيه سلوك الإنسان معناه شكّ العقل البشري» [٣].

ولما كانت الفكاهة أو الضحك بشكل عام يمثل سلاحاً ذا حدين - إن صحَّ ذلك تجوزاً - يرجع الأول منهما إلى تحقيق الرضا النفسي بإشاعة السعادة والسرور والانشراح، وما يتبع ذلك من تجديد للنشاط وابتعاد عن متاعب الحياة ومشقاتها، لذلك قيل «فاجعل الاسترسال بها ذريعة لاحماضك فإنك متى لم تُذق نفسك فرح

---

(١) ينظر: شعر الفكاهة في العصر العباسي، سليمة جاسم محمد: ٢٤ (رسالة ماجستير مطبوعة بالآلة الطابعة، كلية الآداب، بغداد، ١٩٩٦م.

(٢) سورة ق، آية: ١٨.

(٣) سيكولوجية الضحك، أحمد عطية الله: ٣٣٧ - ٣٣٨.

الهزل كَرَبَها غمُّ الجد»[١]. ومن هنا فقد شاعت أقوالٌ وروايـاتٌ يـذهب أصحابها إلى تحبيذ المرح والفكاهة لأنهما «لون من ألوان الاستجمام بما يتساوق مع طبيعة النفس البشرية، ويتلاءم ونوازعها»[٢]. لذلك وردت أقوال وروايات تؤكد ذلك، فمما روي عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو القدوة الحسنة قوله: (روِّحوا القلوب ساعة بعد ساعة فإن القلوب إذا كلّت عميت)[٣]، أو قوله: «إني لأمزح ولا أقول إلا الحق»[٤]، وكذلك أثر عن الإمام علي (عليه السلام) قوله: «أَجِمُّوا[٥] هذه القلوب والتمسوا لها طرق الحكمة، فإنها تَمَلُّ كما تَملُّ الأبدان، والنفس مؤثرةٌ للهوى، آخذة بالهوينى، جانحة إلى اللهو، أمارة بالسوء، مستوطنة بالعجز، طالبة للراحة، نافرةٌ عن العمل، فإن أكرهتها أنضيتها، وإن أهملتها أرديتها»[٦]، وعليه فالنفس البشرية لها حقٌّ، حقها استكانتها للراحة بعد الجهد والتعب (ولا بأس بالمفاكهة يُرَوِّحُ بها الإنسان عن نفسه ويخرج عن حدِّ العبوس)[٧].

فقد روي عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) بعض المزاحات وكذلك بعض الصحابة والتابعين (رضي الله عنهم) ورد مثل ذلك. فمن مزاحاته (صلى الله عليه وآله وسلم) أن امرأة من الأنصار جاءته لطلب الاستغفار لها، فما كان من الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن قال لها: «أما علمتِ أن الجنة لا يدخلها العُجَّز!» فصرخت مدهوشة، فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو مبتسم:

---

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ١/ ٦٠.
(٢) الفكاهة في الأدب العربي، محمد فتحي معوض أبو عيسى: ٢٧.
(٣) نهاية الأرب، النويري: ٤/ ١.
(٤) نهاية الأرب، النويري: ٤/ ٢.
(٥) أجموا: أريحوا، اللسان: مادة (جمم).
(٦) نهاية الأرب: النويري: ٤ / ٢، العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٦ / ٣٧٩.
(٧) كتاب نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ٤/ ٥٦٩ (دار إحياء التراث العربي، دار المثنى للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت).

أما قرأت (إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا) [١]. وهكذا ترى في مزاحاته (صلى الله عليه وآله وسلم) اللَّطافة والكياسة غير الخارجة على حدود الأدب والأخلاق [٢].

وكذلك الحال مع صحابته الكرام، فقد أشتُهِرَ بعضهم بمزاحاته وفكاهاته مثل (نعيمان) وكان من البدريين، وله ملح لطيفة أشارت إليها كتب الأدب[٣]، والذي قال فيه الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (يدخل نعيمان الجنة ضاحكاً لأنه كان يضحكني) [٤].

وكذلك الحال مع أبي الأسود الدؤلي، وكان من الشعراء والمحدّثين والفقهاء والعلماء والدهاة، فهو إلى ذلك كله كثير الدعابة حلو النادرة[٥]. وابن أبي عتيق الذي كان من أصحاب الورع والعفاف والشرف، لم يمنعه ذلك من المزاح فقد رويت عنه نوادر مستظرفة[٦]؛ ناهيك عن الكثير من الشخصيات الشخصيات الجليلة التي كانت تهوي المرح والمزاح الملتزم - إن صح هذا التعبير - متهربة من واقعها بما فيه من تكرار يدعو إلى الكلل والملل، لهذا ترى قول هشام بن عبد الملك خير معبِّرٍ عن ذلك وهو يشكو الملل ويرجوا الترويح بقوله: «قد ركبنا الفارِهَ، وتبطَّنَّا الحسناء، ولبسنا اللَّين، وأكلنا الطيِّب حتى أجمناه[٧]، وما أنا اليوم إلى شيء أحوج منّي إلى جليس يضع عني مؤونة التحفظ ويحدثني بما لا يمجّهُ السمع، ويطرب إليه القلب» [٨].

(١) سورة الواقعة، آية: ٣٦ - ٣٧.
(٢) ينظر: نهاية الأرب، النويري: ٤/ ٣، وفيه ذكر لمزاحات الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).
(٣) ينظر: عيون الأخبار، النويري: ١ / ٣١٦، وكذلك المستطرف في كل فن مستظرف، الأبشيهي: ٢/ ٢٣٢ (ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد حنفي، مصر).
(٤) العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٦ / ٣٨١.
(٥) تنظر أخبار أبي الأسود الدؤلي ومزاحاته في الأغاني: ١٢ / ٣٤٦ - ٣٨٧.
(٦) تنظر: مزاحاته ونوادره في نهاية الأرب، النويري: ٤/ ٥ وما بعدها.
(٧) أجمناه: مللناه. اللسان، مادة (أجم).
(٨) الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي: ١ / ٢٧.

أمَّا الآخر من حدَّي الفكاهة فهو لمَّا كان من دوافع الضحك السخرية أو التهكم أو الاستهزاء، فإنَّ ذلك - حتماً - سيولِّد نوعاً من الحقد والضغينة في النفوس، ومن ثَمَّ يستدعي ذلك تحين الفرصة للانتقام.

وعليه فقد ظهرت أقوال أو مواقف ترمي إلى التقليل من الضحك أو المزاح، أو النهي عنه أو التحذير منه لما يشتمل عليه من أمور لا تليق بالإنسان وكرامته. فعن الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) قوله: «إياك والمزاح فإنه يذهب ببهاء المؤمن ويسقط مرؤته ويجر غضبه»[(١)]، وقوله: «إياك وكثرة الضحك فإنها تميت القلب وتورث النسيان»[(٢)]، ولأن كثرة المزاح تسبب الوقوع في مشاكل لا تُحمد عقباها قال (صلى الله عليه وآله وسلم): «المزاح استدراج من الشيطان واختلاع من الهوى»[(٣)]، [(٣)]، وقد ورد عن الإمام علي (عليه السلام) قوله: «ولا تكثروا الضحك فإن كثرته تميت القلب»[(٤)]، وهكذا وردت أقوال عن السلف تَحدُّ من الضحك كقول عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) في كتابه إلى عماله: «امنعوا الناس من المزاح، فإنه يُذهب المروءة، ويوغر الصدر»[(٥)]، وقد تُشْعِرُ مثل هكذا أقوال بوجود تناقض فيما بينها وبين ما سبقها من أقوال تُرخِّص في الضحك والمزاح. وبتدبر بسيط نستنتج أن من ردَّ المزاح لم يردّه بالجملة وإنما استهجن نوعاً منه، ذلك الذي لا طائل منه سوى تحقير النفس، كما نلاحظ ذلك في فكاهات

---

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني: ١ / ٣٧٧ (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٦١م).

(٢) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني: ١/ ٣٧٩. وينظر: سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق محمد مصطفى الاعظمي: ٢/ ٤٢٩ و ٤٤٢ (شركة الطباعة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٩٨٤ م).

(٣) المستظرف: ٢/ ٢٣١.

(٤) كتاب نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ٤/ ٥٣٢.

(٥) الظرف والظرفاء، الوشاء، دراسة وتحقيق الدكتور فهمي سعد: ٥٣ (دار الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م).

أبي العبر[١] ، كذلك إدمان الضحك والمزاح في كل حال ومقام يدعو إلى الإزدراء لمثل هذه الشخصية، وهو ما عبرَّت عنه الأقوال السابقة وذهب إليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) بقوله: «من أكثر من شيء عُرِفَ به، ومن مازح أُستُخِفَّ به، ومن كثر ضحكه ذهبت هيبته»[٢]، وهذا مصداق القول المعروف كل شيء زاد على حدِّه انقلب إلى ضده. وعلى هذا جاء قول الجاحظ مقرراً هذه الحقيقة «وللمزاح موضع، وله مقدار، متى جاوزهما أحد، وقصَّر عنهما أحد، صار الفاضل خطلاً، والتقصير نقصاً، فالناس لم يعيبوا الضحك إلا بقدر، ولم يعيبوا المزاح إلا بقدر ومتى أريد بالمزح النفع، وبالضحك الشيء الذي جُعِلَ له الضحك، صار المزاح جِدَّاً، والضحك وقاراً»[٣].

(١) تنظر: أخباره في الأغاني: ٢٣ / ٢٠٥ - ٢١٤.
(٢) الظرف والظرفاء، الوشاء: ٥٣.
(٣) البخلاء، الجاحظ: ٢٩.

الفصل الأول

بيئة الفكاهة وعنصرها

المبحث الأول

الاختلاط والتداخل العرقي

كان لظهور الإسلام وانتشاره في الربوع القريبة من مهده، وبسطه لسلطانه على مناطق آخر تزخر بحضارات عريقة ضاربة في القدم، من خلال الفتوح التي توجهت بإسمه إلى مشارق الأرض ومغاربها سبباً في ولوج هذه المناطق تحت لوائه، فكان إن سار أبناء هذه الأصقاع بانتمائاتهم العرقية المختلفة في فلكه، وكان من الطبيعي أن تكون هذه الأقوام محملة بمبادئ وتعاليم وعادات وتقاليد، وأفكار وقيم مختلفة، طالما تمسكت بها ودافعت عنها، ولكنها بمرور الزمن اندمجت بالكيان العربي بكل ما تواضع عليه هذا الكيان من موروث حضاري أضفى عليه الإسلام من لمساته ما هذبه وشذبه بها من كل شائبة تعترض ومبادئه، نقول اندمجت هذه الأقوام بهذا الكيان وبين يديها كم وفير من الممارسات السلوكية كانت حصيلة ما وصل إليهم من موروثهم الحضاري الا ما يناقض تعاليم السماء، فقد قضي عليه.

فكان من جملة ما احتفظ به هؤلاء الأقوام بعضاً من عاداتهم الاجتماعية التي بقيت سارية لدى هذه الجماعات ضمن إطار الدولة الإسلامية، وإن كانت قوتها تختلف بين الفينة والفينة تبعاً لطبيعة وتكوين أبناء ذلك العصر.

وصار لزاماً تبعاً لذلك ان تتطبع هذه الجماعات بحياة العربي، فأصبحت هناك عملية تمازج بين ما جاء به هؤلاء الداخلون ضمن إطار الدولة الإسلامية وبين ما وجدوه أمامهم من موروث عربي، فكأن هذه الجماعات «لم تدخل في نطاق العروبة حتى أخذت عناصرها المختلفة تمتزج بالعنصر العربي امتزجاً قوياً، فإذا بنا إزاء إمة عربية تتألف من أجناس مختلفة، وقد مضت هذه الاجناس تنصهر في الوعاء العربي حتى غدت كأنها جنس واحد»[1]. ولم يظهر هذا التمازج والتجانس

(١) العصر العباسي الأول، د. شوقي ضيف: ٨٩ (دار المعارف - القاهرة، الطبعة السادسة،

=

واضحاً بصوره المختلفة إلا في العصر العباسي لما اختص به من ميزات أصبح معها المولى له كيانه المعبر عنه بحريته في ممارسة ما تعوده من عادات وتقاليد، وبهذا ظهرت خصوصية لمجتمع هذا العصر- تختلف عما سبقه من أعصر في طبيعة الحياة التي يحياها أفراده - بخاصة العرب - الذين وجدوا أنفسهم ملزمين بتقبل الكثير من أوجه السلوك الاجتماعي الوافد إليهم من الثقافات الأخرى، عن طريق التحوير والتغيير في حدود هذه السلوكيات تبعاً لثقافاتهم ومبلغ تطورهم، وتطور البيئة المعاشة، وفي ذلك مسايرة للتطور والاوضاع المستحدثة[١].

وتجدر الإشارة هنا إلى ما أحدثه الإسلام من أثر في التقارب بين الاجناس المختلفة الأمم شتى بما حمله من مبادئ سامية حدَّدت مسؤولية الفرد المسلم بما شرعت له من حقوق وفرضت عليه من واجبات رامية للوصول به إلى أعلى مراتب الرفعة، فكان هذا ترغيباً للدخول فيه والتمسك به. «وبذلك استطاع الإسلام - بتعاليمه السمحه - أن يحدث امتزاجاً قوياً بين العناصر المختلفة التي كانت تتألف منها الدولة العربية، وهو امتزاج لم يبلغه بامتلاك الأرض المفتوحة، وانما بلغه بامتلاك القلوب، فإذا الكثرة الكثيرة من الشعوب التي انسبط عليها سلطانه تسلم وإذا من بقوا على دينهم يشعرون تلقاء المسلمين وحكامهم بضرب من الاخوة الكريمة»[٢]. فكان الإسلام بحق العامل الأساس في تقارب الأمم، وتذويب كل عوامل الفرقة والتمييز العنصري.

وكان لسعة دولة الإسلام الناتجة من جراء الفتوحات، إن اتسعت حركة التجارة بينها وبين غيرها من الدول الأخرى فكان لهذا دور غير مباشر في أحداث عملية الامتزاج بين العنصر العربي وغيره من العناصر الأخرى من إطلاعه على بعض السلوك الاجتماعي للشعوب المختلفة، فلا بد أن تحدث نتيجة لذلك عملية تأثير وتأُثر متبادلة.

=

١٩٨٦م).

(١) ينظر: دراسة المجتمع، د. مصطفى الخشاب: ١٤، (مكتبة الانجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٩ - ١٩٧٠).

(٢) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٩٠.

فقد كانت حركة التجارة في الدولة الإسلامية ناشطة نشاطاً كبيراً، سواء كانت عن طريق البر أم البحر لتصل إلى أصقاع الأرض المختلفة، وفي القرن الرابع الهجري «كانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد، وأخذت تجارة المسلمين المكان الأول في التجارة العالمية، وكانت الإسكندرية وبغداد هما اللتان تقرران الأسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الأقل»[١]. فأصبح التنقل بين الأقاليم سبباً في أحداث نوع من التبادل الحضاري بين العرب وغيرهم من الأمم، وهذا - لا شك - له أُثره على طبيعة المجتمع العباسي بما يكتسبه أفراده من ثقافات وعادات مختلفة تضاف إلى عاداتهم وثقافاتهم. وتعدّ الحواضر الإسلامية في هذا العصر خير ما يمثل التمازج العرقي والفكري، فكانت بغداد، على حد تعبير اليعقوبي قد «سكنها من أصناف الناس وأهل الامصار والكور وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية.. فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف فاجتمع فيها ما ليس في مدينة في الدنيا»[٢]. زيادة على ذلك فقد ظهرت مراكز تجارية داخل حدود الدولة الإسلامية، في هذا العصر هدفها أحداث تبادل تجاري بين أمة العرب وغيرها من الأمم. ومن أهم مراكز التجارة هذه إنطاكية، التي حصنها المعتصم فصارت أهم ميناء تجاري في الشام، وأصبحت حلقة وصل بين بلاد المشرق وأوروبا. وكذلك الإسكندرية بما أدته من دور في نقل التجارة الآتية من أوروبا إلى البحر الاحمر، وكذلك الحال مع التجارة الذاهبة من الشرق إلى أوروبا، لهذا أصبحت من مراكز التجارة المهمة بين الشرق والغرب[٣]. إذ كانت السفن التجارية ترسو أول الأمر بعد اقلاعها من الإسكندرية في ميناء برقة في طرابلس، ومنها تمر بسلسلة من الموانئ المهمة حتى مراكش، إذ كانت المهدية من أكثر هذه الموانىء عمراناً وازدهاراً لقربها من مدينة القيروان، وهكذا إلى أن تصل

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام، آدم متز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريدة: ٣٧١/٢ (مكتبة الخانجي، القاهرة، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧م).

(٢) البلدان، اليعقوبي: ٣ (المطبعة الحيدرية - النجف، ١٩١٨م).

(٣) ينظر: تاريخ الحضارة الإسلامية من عهد نفوذ الاتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدكتور محمد جمال الدين سرور: ١٥٠ (دار الفكر العربي، الطبعة الرابعة، ١٩٧٦).

موانئ أوروبا[١].

وعليه فقد كان لهذه المهنة - التجارة - دور كبير في طبيعة تكوين أبناء المجتمع العباسي اقتصادياً واجتماعياً، فمن الجانب الاقتصادي كانت التجارة مصدراً مهماً من مصادر الثروة في ذلك العصر وكل عصر لما تؤديه من أُثر بارز على حياة أصحابها ومن له صله بهم. أما الجانب الاجتماعي - وهو ما تطرقنا له آنفاً - كون التجارة وسيلة لتقارب الشعوب أو الأفراد، ومن ثم أحداث نوع من التآلف بين الطرفين ينتج عنه عملية تأثر وتأثير ولو بأبسط الأشكال.

كان كلامنا فيما سبق متعلقاً بطبيعة التمازج بين العنصر العربي وغيره من عناصر أخرى تمثل أمماً وأقواماً مختلفة الأصول، أدى الإسلام وغيره من عوامل دوراً في إبراز شخصية لمجتمع بني العباس.

أما ما يخص الاختلاط العربي نفسه، وأعني اختلاط الأعراب بسكان المدن والحواضر، فمن المعروف أن العرب ينقسمون إلى فئتين رئيسيتين، فئة سكنت المدن وأصبح لها عادات وسلوكيات خاصة بها، لا يألفها غير المتمدن في طبعه، والأعراب هم أبناء الفئة الأخرى وهم أصحاب أعراف وتقاليد طالما حافظوا عليها وتمسكوا بها، وهي في جملتها خشنة قاسية، تظهر في طبيعة المسكن والمأكل، بل وفي أسلوب الكلام أيضاً، وكلَ ذلك ناتج - حتماً - عن حياة الصحارى والقفار.

فهذه الطباع الجافية لا تقبل بسهولة من أهل المدن الذين كان تقبلهم لطبيعة الأعراب أمراً لا يخلو من الضيق بهم، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ من قبل[٢].

فكان لطبيعة روح العصر، وغلبت المدنية عليه وما يلحق ذلك من ارتقاء في سبل العيش من مأكل وملبس ومسكن، وللمستوى الثقافي الذي تمتع به أبناء الحواضر الناتج عن الاندماج بثقافات مختلفة، أن أصبحت بعض عادات الأعراب وتصرفاتهم عرضه للضحك ومادة للتندر، فهم بما يملكونه من غلظة في الطباع،

(١) ينظر: تاريخ الدولة الفاطمية، الدكتور حسن إبراهيم حسن: ٦١٠ (مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر الطبعة الثانية، ١٩٥٨م).
(٢) ينظر: البخلاء، الجاحظ: ١٨١.

وخشونة في المظهر، وسذاجة في التصرف، كل ذلك جعل منهم ذوي أمزجة حادة لا يتقبلون الجديد بسهولة، ومرد ذلك - كما نوهنا - إلى حياة البداوة وما تميزت به من شظف في العيش المتمثلة بحياة المضارب والتي لا تقع فيه عين أحدهم إلا على صحراء قاحلة تسف فيها الرمال، لا أنيس للأعرابي فيها إلا دابته، يعيش مترقباً اغارة أحدهم عليه، منغمساً في فقر مدقع، وهذا ما بينه أعرابي في مسألته بقوله: «لقد جعت حتى أكلت النوى المحرق ولقد مشيت حتى انتعلت الدم وحتى سقط من رجلي بخص لحم[١] وحتى تمنيت أن وجهي حذاء لقدمي، فهل من أخ يرحمنا»[٢]، بل راح بعضهم يتمنى ميتة أبي خارجة، وحين سئل ما ميتته؟ قال: «أكل بذجاً[٣]، وشرب مشعلاً[٤]، ونام في الشمس، فأتته المنية شبعان ريان دفئان»[٥]. فكانت حياة الفقر مدعاة لهم لاقتناء أي شيء يسد رمقهم مما دب ودرج على الأرض من غير تحرج، مما سبب ضحك أهل المدن عليهم، يقول صاحب الحيوان سأل مدني أعرابياً قائلاً: «أتأكلون الضب؟ قال: نعم. قال: فاليربوع؟ قال: نعم. قال: فالورل؟ قال: نعم. قال: أفتأكلون أم حبين[٦]؟ قال: لا. قال: فليهن أم حبين العافية!»[٧]. فهم على العكس من أهل المدن الذين كثرت في مدنهم ألوان الأطعمة من بارد وحار، حلو وحامض، وكثرت تبعاً لذلك مسمياتها، في حين تجد طعام الأعراب لا يتعدى أصنافاً قليلة. قيل لأعرابي: «ما أسم المرق عندكم؟ قال:

---

(١) البخص: لحم القدم، والبخصة، لحم الكف والقدم أو لحم باطن القدم أو ما ولي الأرض تحت أصابع الرجلين. اللسان، مادة (بخص).

(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٣٢/٣.

(٣) البذج: الحمل وقيل أضعف ما يكون من الحملان والجمع بذجان. حياة الحيوان الكبرى، الدميري: ١١٦/١ (مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٦٣م).

(٤) المشعل: بالكسر، زق ينتبذ فيه من الجلد له أربعة قوائم، اللسان، مادة (شعل).

(٥) الحيوان، الجاحظ، شرح وتحقيق عبد السيلم محمد هارون: ٥٠٢/٥، (دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٩٦٩م). والرواية في عيون الأخبار: ٢٧٦/٣، وثمار القلوب: ١٠٨ مع اختلاف في بعض اللفظ.

(٦) أم حبين: دويبة على خلقة الحرباء عريضة الصدر عظمية البطن وقيل هي أنثى الحرباء، ينظر حياة الحيوان الكبرى، الدميري: ٢٨٨/١.

(٧) الحيوان، الجاحظ: ١٤٣/٦ و ٣٨٥/٦، وفي الرواية بعض الاختلاف في الالفاظ.

السخين. قال: فإذا برد؟ قال: لا ندعه حتى يبرد»[١].

وهو إلى جانب ذلك وبسبب بساطة حياته اليومية - أعني الأعرابي - وما أضفت عليه من مظاهرها أصبح تفكيره يميل في تفسيره للأشياء نحو المحسوس والملموس. بمعنى أن تفكيرهم كان تفكيراً مادياً وليس حسياً أو معنوياً، وعلى وجه الخصوص ما تعلق بأمور العبادة.

فبعضهم يقيس قدرات الله تعالى على أساس قدرات الإنسان، من ذلك دعاء أعرابي بمكة رافعاً يديه قائلاً: «اللهم اغفر لي قبل أن يدهمك الناس!»[٢]، وهذا يقود بعضهم إلى عدم الثقة بالله عز وجل، وتفويض الأمر إليه، بل راحوا يعتبون عليه في مشيئته، من ذلك ما أورده التوحيدي من أنه توفي لأعرابي ابن، فعزاه بعض إخوانه فقال له: «لا يتهم الله في قضائه، فقال: والله ما يتهم غيره، ولا ذهب بابني سواه!»[٣]، فهذه السذاجة في التفكير والسطحية في التفسير، دفعت بعضهم إلى تعرف الخالق على حساب المصلحة الشخصية، قيل للأعرابي: «أتعرف ربك؟ قال: إن عرفناه أبلانا، وإن أنكرناه أصلانا»[٤]، ونتج عن ذلك إستخفاف في أداء العبادات والالتزام الديني بشكل عام، قيل لأعرابي: «إلا تغزو فإن الله قد انذرك. قال: والله إني لأبغض الموت على فراشي فكيف امضي إليه ركضاً!«[٥]، ونظر آخر آخر لقوم يلتمسون هلال شهر رمضان، قال: «أما والله لئن أُثرتموه لتمسكن منه بذنابي عيش أغبر»[٦].

ولما كان الأعراب أهل فصاحة وبيان، وكانت لغتهم لغة مباشرة تعتمد الاستعمال الحقيقي للكلمات كل بحسب موقعه، لذا نرى حصول لبس عند بعضهم حال توجيه سؤال إليهم يحمل بين طياته أكثر من معنى لتوجه أذهانهم نحو المعنى القريب كما هو الحال في التورية، وما ذلك الا لما يطرق لغة أهل المدن والحواضر

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٩/٤.
(٢) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢٨٢/٣.
(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢)/٢٩٠.
(٤) م. ن: ٧٨٩/١.
(٥) عيوان الأخبار، ابن قتيبة: ١٦٦/١.
(٦) البيان والتبيين، الجاحظ: ٧٣/٢.

من تطور في استخدام المفردة وما تدل عليه، نتيجة لمؤثرات خارجية سببه التمازج مع أمم أخرى، وقد يكون هذا التطور ناشئاً عن اللغة نفسها وهو ما يعبر عنه بالتطور الدلالي للمفردة. من هذا القبيل عانى الأعراب بعضاً من ذلك فقد روي عن خلف الأحمر قوله: «قلت لأعرابي: ألقي عليك بيتاً؟ قال: على نفسك فألقه!»[(١)]، ومثله ما قيل لأعرابي: «اتهمز[(٢)] إسرائيل؟ قال: إني إذا لرجل سوء؛ قيل له: اتجر اتجر فلسطين؟ قال: أني إذا لقوي»[(٣)].

هذه بعض ممارسات الأعراب الناجمة عن عملية الخلط والامتزاج بغيرهم من الجماعات الأخرى وهي تعد مصدراً من مصادر الفكاهة والضحك في هذا العصر.

ومن آثار هذا الاختلاط بين العرب وغيرهم من أبناء الأمم الأخرى، شيوع ظاهرة اللحن في اللغة من جراء اختلاف الألسن الناطقة بالعربية، وإن كانت هذه الظاهرة قد اختلفت قوتها في الظهور من عصر لآخر، تبعاً لانتشار غير العرب وكثرتهم، فكان العصر العباسي عصراً مهيأً لبروز مثل هذه الظاهرة، لما تقاسمه من حضور لعناصر مختلفة أبرزها الفرس والاتراك. فهذه «الطوائف الإسلامية الجديدة غير العربية الأصل التي وصلت إلى الحكم في عهد العباسيين كانت... أقل شعوراً بالصلة النفسية الداخلية بحياة العرب وطبيعتهم، فهم لم يكونوا يستطيعون - حتى لو استخدموا العربية - ان ينطقوا كما كان البدو ينطقون»[(٤)]، وذلك أمر طبيعي لاختلاف لغات أبناء الدول الإسلامية الإسلامية من غير العرب، فمن اللغة الفهلوية في إيران، والأرامية وما انبثق عنها من نبطية وسريانية في العراق والجزيرة، وكذلك الشام التي كانت تتكلم السريانية ولغات سامية مختلفة، ومصر التي تكلمت القبطية، والبربرية في بلاد المغرب، وغير ذلك من لغات[(٥)]، كان نزوح أصحاب هذه اللغات بلغاتهم

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢٢١/٢.
(٢) الهمز: العيب اللسان، مادة (همز).
(٣) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٥٧/٢.
(٤) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، الدكتور محمد عويس: ٢٠٩ (دار الثقافة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٧٧).
(٥) ينظر: العصر العباسي الأول: شوقي ضيف: ٩٠ - ٩١، وضحى الإسلام، أحمد أمين: ٢/

=

إلى مواطن اللغة العربية أن احتفظت لغتهم الجديدة ببقايا من لغاتهم القديمة سواء كان باستخدام بعض المفردات أم في طبيعة نطقهم لأصوات الحروف العربية. فظهر اللحن في اللغة في بعض الطبقات، وبخاصة العامة مما دفع بعض الأعراب عند مروره في بعض الأسواق وسماعه اللحن في اللغة وشيوعه إلى القول: «سبحان الله! يلحنون ويربحون ونحن لا نلحن ولا نربح!»(١). وقد تعدت هذه الظاهرة طبقة العامة إلى بعض الخواص مثل أئمة الصلاة. يروي صاحب عيون الأخبار أن أعرابياً سمع إماماً يقرأ «ولا تَنْكَحوا المشركين حتى يؤمنوا»(٢)، بفتح تاء (تنكحوا)، فقال: «سبحان الله: هذا قبل الإسلام قبيح فكيف بعده! فقيل له: إنه لحن، والقراءة ولا تُنكحوا، فقال: قبحه الله، لا تجعلوه بعدها إمامنا فإنه يحل ما حرم الله»(٣). ومن صور هذا اللحن إبدال صوت مكان آخر بخاصة إذا كانا متقاربين في المخرج، كما روى عن ابن المقفع، ان رجلاً بصرياً كانت له جارية تسمى ظمياء «فكان إذا دعاها قال: يا ضمياء، بالضاد. فقال ابن المقفع: قل: ياظمياء. فناداها: يا ضمياء. فلما غير عليه ابن المقفع مرتين أو ثلاثاً قال له: هي جاريتي أو جاريتك؟»(٤). وهكذا ظهرت نصوص تحمل بين طياتها فكاهة ترمي إلى التقليل من ظاهرة اللحن في اللغة سنعرض لها في محلها.

ومن آثار امتداد رقعة الأرض الإسلامية وما صاحب ذلك من تمازج بين العرب وغيرهم من الأمم غير العربية، اتساع دائرة التكلم باللغة العربية من ذوي اللغات الأخرى في المجالات المختلفة، وفي أقل تقدير عند تأديتهم لشعائرهم الدينية بخاصة الصلاة، ناهيك عما تتطلبه ممارساتهم النفعية في الأرض العربية من معرفة للغة العرب لأحداث نوع من التفاهم فيما بينهم. فكان نتيجة لذلك شيوع لكنات بعض الاعاجم التي تعد ظاهرة من الظواهر اللغوية من الوجهة النطقية

=
٢٥٢، (مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة، ١٩٣٥م).
(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٥٩/٢.
(٢) البقرة، آية: ٢٢١.
(٣) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٦٠/٢.
(٤) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢١١/٢.

لاختلاف طبيعة أصوات لغاتهم مقارنة بأصوات اللغة العربية، فكان لكثرة المتكلمين في لغة ما، وطبيعة أصواتها سبب في تبني هذه اللغة دون غيرها. وقد أشار الجاحظ إلى هذه الحقيقة بقوله: «واللغات إنما تشتد وتعسر على المتكلم بها على قدر كثرة العدد وقلته، وعلى قدر مخارجها وخفتها، وسلسها، وثقلها، وتعقدها في نفسها، كفرق ما بين الزنجي والخوزي، فإن الرجل يتنخس في بيع الزنج وابتياعهم شهراً واحداً فيتكلم بعامة كلامهم، ويبايع الخوز، ويجاورهم زماناً فلا يتعلق منهم بطائل. والجملة أن من أهون الأسباب على تعلم اللغة فرط الحاجة إلى ذلك. وعلى قدر الضرورة إليها في المعاملة يكون البلوغ فيها، والتقصير عنها»[١]، وتأكيداً لذلك ما شهدته بغداد على وجه الخصوص لكونها حاضرة الخلافة العباسية، وكذلك سامراء وقل الشيء نفسه عن باقي مدن العراق مثل البصرة والكوفة، فقد شهدت هذه المدن استقطاب الوافدين عليها من قوميات مختلفة ومن اصقاع شتى للاتجار أو الاستقرار كما هو الحال اليوم مع العواصم والمدن الكبرى، فبدا للعيان نتيجة لذلك احتواء لغتهم العربية على لكنات، وهذا ناتج عن التركيب العضوي لآلة النطق لديهم ومقدار تكيفها بنطق اللغة وطبيعة أصواتها[٢]. وقد روى الجاحظ حادثة وقعت معه، فيقول أتيت منزل صديق لي فطرقت الباب فخرجت الي جارية سندية، فقلت لها: قولي لسيدك الجاحظ بالباب. قالت: أقول الجاحد بالباب؟ قلت: لا، بل قولي الحدقي بالباب. فقالت: أقول الحلقي بالباب؟ فقلت لها: لا تقولي شيئاً، وانصرفت»[٣]. وقد يكون موضوع اللكنات موضوعاً للطرافة وابداء النادرة، من ذلك أن قوماً تذاكروا اللثغ فقالوا: «أحسن اللثغ ما كان على السين، وهو أن تصير ثاء. وقال آخرون: على الراء، وهو أن تصير غيناً. فقال مجنون البكرات[٤]: أنا أيضاً الثغ، إذا أردت أن أقول شريط قلت: رشيط!»[٥].

وكذلك برزت من جراء عملية الخلط العرقي في هذا العصر بعض الظواهر

(١) الحيوان، الجاحظ: ٢٨٩/٥ - ٢٩٠.
(٢) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٣٩/١ - ٤٠.
(٣) سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون، ابن نباته المصري: ٢٥٠.
(٤) لم اعثر ترجمة له في كتب الأدب والتراجم المتوفرة لدي.
(٥) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢/ ٢٣٢.

التي تتعلق هي الأخرى باللغة العربية، فكان نتيجة لانحسار اللغة الفصحى عن الاستعمال اليومي لدى معظم طبقات ذلك العصر. وميل العامة إلى التسهيل في صياغاتها الكلامية، والابتعاد عن كل تشادق في اللغة أو تقعير، ناهيك عما اشتمل هذه اللغة من لحن وخروج على القواعد النحوية في بعض الاستعمالات. كل هذا أدى إلى ظهور نوع من التوتر بين بعض من أبناء العامة في هذا المجتمع وبين اللغوين والنحويين أو من يدعي النحو ويتعمد الإعراب في الكلام، أو من يقصد إيراد الوحشي في استعماله اليومي للغة، وهذا الأمر خلق بدوره فكاهات تحوم موضوعاتها حول الاستعمال اللغوي، وهو ما سنعرض له في وقته.

أما الناحية الاجتماعية، فكان نتيجة لطبيعة تكوين المجتمع العباسي الديني والطبقي والوظيفي إن أصبح لكل شريحة في هذا المجتمع زي خاص بها دون غيرها من شرائح المجتمع الأخرى. يقول الجاحظ: «لكل قوم زي. فللقضاة زي، ولأصحاب القضاة زي، وللكتاب زي، ولكتاب الجند زي»[١]. والظاهر أن هذه الأزياء كانت تفرض فرضاً كما هو الحال في عهد المنصور وأمره بلبس القلانس الطوال والدراريع[٢]، حيث كانت هذه القلانس تدعم بعيدان من داخلها[٣]. كما أمر حوالي سنة (٣٠٠هـ) بلبس رجال الدولة للقباء[٤] حتى صار الزي الرسمي لهم، وكان لا يدخل المقصورة على الخليفة يوم الجمعة إلا الخواص المتميزون بالأقبية السوداء، وإن حضر من لم يلبس القباء الأسود منع حتى يرتديه[٥].

وهكذا تميزت كل طبقة بلباسها وبه عرفت دون سواها، فكان لبس الدراريع خاصاً بالكتاب[٦]، ولبس الطيلسان خاصاً بالعلماء والقضاة[١]، إلى غير

(١) البيان والتبيين، الجاحظ ١١٤/٣.
(٢) ينظر: الاجوبة المسكتة، ابن أبي عون الكاتب: ١٥١. تاريخ الخلفاء، السيوطي: ٢٤٤ (دار الفكر، ١٩٧٤).
(٣) ينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي: ٢٤٤.
(٤) القباء: لباس طويل (أو مقبول الطول) تقفل من الامام بأزرار، وهو مقورة تمام التقوير في موضع الرقبة، وهو يشبه بعض الشبه ملابس الارمن ويلبس تحته جبة. معجم دوزي: ١٨٥.
(٥) ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١١٥/١.
(٦) ينظر: تجارب الأمم، مسكويه، نسخ وتعليق هـ ف. آمدروز: ٣٠٨/٦ (مطبعة شركة التمدن

=

ذلك من الملابس الخاصة. وكذلك الخلفاء فقد تميزوا باتخاذهم «العمائم على القلانس»[٢]، وكانت قلانسهم تختلف عن قلانس العامة «فإن كانت القلانس مكشوفة زادوا في طولها وحدة رؤوسها، حتى تكون فوق قلانس العامة»[٣]، وقد عمل بعضهم تشكيلات أخرى في الملابس لم تكن تعهد من قبل، مثل استحداث المستعين (٢٤٨هـ - ٢٥٢هـ) لبس الاكمام الواسعة فجعل عرضها ثلاثة أشبار أو نحو ذلك[٤]، حيث كانت هذه الاكمام تقوم مقام الجيوب يحفظ فيها ما يحتاج إلى حفظه مثل الدنانير والكتب[٥]. وكذلك شمل الأمر في لبس الازياء الخاصة بكل طبقة الشعراء، يقول الجاحظ: «وكانت الشعراء تلبس الوشي والمقطعات والأردية السود وكل ثوب مشهر»[٦]، إضافة لاتخاذهم زياً خاصاً بهم عند انشادهم الخلفاء الشعر، فيه العمامة العظمية الكور، والخف المستدير الاملس، وقد تشدد بعض الخلفاء في أخذ الشعراء بهذا الزي[٧]. على أن العمامة كانت تتخذ من الشروب[٨] الرقيقة أو القطن أو الوشي المذهب، وكان اللون السائد فيها الأسود - شعار دولة بني العباس - وإن كانت صوفية فتكون مصبوغة[٩].

وهناك أزياء أخرى شاعت في المجتمع العباسي، وهي مما يكمل فيه لباس

=

الصناعية - مصر، ١٩١٤م).

(١) ينظر: م. ن: ٣١٠/٦.

(٢) البيان والتبيين، الجاحظ: ١١٧/٣.

(٣) م. ن: ١١٧/٣.

(٤) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ٩٤/٤ (دار الاندلس للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٦٦م).

(٥) ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ٣٧/٧ (دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م). وكذلك مثالب الوزيرين، أبو حيان التوحيدي، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني: ١٦٢ (نشر وتوزيع دار الفكر بدمشق، ١٩٦١م).

(٦) البيان والتبيين، الجاحظ: ١١٥/٣.

(٧) م. ن: ٩٥/١.

(٨) لم يذكرها دوزي في معجمه.

(٩) ينظر: العامة، بدري فهد: ١٣، (بغداد، ١٩٦٨م).

الرجال، كالقميص والدراعة[١] والأزار[٢].

وتميز الظرفاء كذلك في هذا العصر بارتدائهم ملابس خاصة بهم لها تشكيلاتها وألوانها، وحسبك كتاب الظرف والظرفاء للوشاء بما يعطيكه من تصور عن أزياء هذه الفئة.

وتطورت ملابس النساء في هذا العصر، فكان لباس الرأس المرصع بالجواهر، بخاصة عند نساء السراة[٣]، ورحن يرتدين الملاحف[٤] والقمصان والأردية[٥].

ومن مكملات الأناقة الأخرى أن يلوي الجواري شعر أصداغهن على شكل حرف نون، وكذلك فعل الفتيان[٦].

اما فيما يتعلق بالأطعمة فقد شهدت تنوعاً بيناً، واختلفت مسمياتها بل راحت كل فئة تتميز بشيء منها، قال دوسر المديني[٧]: «لنا الهرائس والقلايا، ولأهل البدو اللبأ والسلاء، والجراد والكمأة، والخبزة في الرأب، والتمر في الزبد»[٨]. وهكذا تنوعت المطاعم بحسب اختلاف الاوطان، وظهرت أصناف من الطعام لم تكن تعرف سابقاً وإن كانوا قديماً لا يعرفون إلا الثريد والقديد والشواء والصفيف وبعض أنواع أخرى محدودة، وكانوا يقتصرون منها على لون أو لونين وقلما يزيدون[٩].

(١) لباس من الصوف تميز بلبسه الوزراء، وهي مفتوحة من الجهة الأمامية أعلى القلب ومزررة بأزرار وعرى. دوزي: ١٤٦.
(٢) ينظر: الظرف والظرفاء، الوشاء: ١٣٩ وما بعدها.
(٣) ينظر: المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، محمد عويس: ٣٠٨.
(٤) الملحف والملحفة: الإزار. معجم دوزي: ٣٢٣.
(٥) ينظر: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، الدكتور حسن إبراهيم حسن: ٤١٥/٢ (مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة الخامسة، سنة ١٩٥٩م).
(٦) ينظر: ديوان ابن المعتز: ١٠٠، ٤٤٠، ٤٦٦. (دار صادر ودار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٦١م).
(٧) من شخصيات الجاحظ في بخلائه لم أعثر على ترجمة لها فيما توافر لي من مصادر.
(٨) البخلاء، الجاحظ: ١٧٩.
(٩) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ١٢١/٩، العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٢٢٥/٦ ومابعدها.

أما في هذا العصر فقد تعددت أنواع الأطعمة وتباينت مذاقاتها، ويكفيك ان تلقي نظرة على كتاب البخلاء للجاحظ ليطلعك على مسميات كثيرة لهذه الاطعمة، بحيث «غدت في تنوعها صورة واضحة لامتزاج العناصر المتباينة في المجتمع»[١].

وللاطلاع على بعض مسميات الاطعمة في هذا العصر نقص بعض ما رواه الجاحظ في بخلائه من أن شخصاً تعشق امرأة «فلم يزل يتبعها، ويبكي بين يديها، حتى رحمته، وكانت مكثرة وكان مقلاً. فاستهداها هريسة، وقال: أنتم احذق بها، فلما كان بعد أيام تشتهى عليها رؤوساً فلما كان بعد قليل طلب منها حيسة. فلما كان بعد ذلك تشتهى عليها طفيشيلة»[٢].

قالت المرأة: رأيت عشق الناس يكون في القلب وفي الكبد وفي الاحشاء وعشقك انت ليس يجاوز معدتك»[٣].

ومن الألوان الأخرى لهذه الأطعمة (الشبارقات)[٤] التي يقول الجواليقي فيها: «هي ألوان من اللحم في الطبائخ، وأصلها (شفارج) وتسميها العامة (فيشفارج وبشارج)»[٥]. وهناك (السكباج)[٦]، (السكباج)[٦]، وهو نوع من المرق يعمل من اللحم والخل[٧]. ومن أنواع الحلوى عندهم (الجوزينج)[٨] (الجوزينج)[٨] وهو ضرب من الحلوى يعمل من الجوز[٩]. ومن اشربتهم (الجوارشن)[١٠] وتعد نوعاً من من أنواع الأدوية المستعملة في ذلك العصر يقول أدي شير فيها: «إنها عند الأطباء نوع من الأدوية»[١١]، وغير ذلك

(١) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، محمد عويس: ٣٥٨.
(٢) لم اعثر على معنى كلمة (حيسة وطفيشيلة) في ما توافر لدي من مصادر.
(٣) البخلاء، الجاحظ: ٢٠٣.
(٤) م. ن: ٢٠٣.
(٥) المعرب في الكلام الاعجمي على حروف المعجم، الجواليقي، تحقيق أحمد شاكر: ٢٠٤ (طبعة دار الكتب المصرية، ١٣٦١هـ).
(٦) البخلاء، الجاحظ: ٢٣.
(٧) الالفاظ الفارسية المعربة، أدي شير الكلداني: ٩٢.
(٨) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٦٦/١.
(٩) الالفاظ الفارسية المعربة، ادي شير: ٤٨.
(١٠) البخلاء، الجاحظ: ٣٥.
(١١) الالفاظ الفارسية المعربة، ادي شير: ٤٠.

من هذه المسميات.

كما كانت هناك آداب للمائدة، كأن يقدم الطعام في طبق نظيف بيد خادم نظيف، وأن لا يتجاوز الخبز على الموائد قدر الحاجة لما في ذلك من أُثر في شبع الأكل[١].

ومن ألوان الامتزاج الأممي لهذا العصر (فن العمارة) حيث استحدث العرب فنهم الإسلامي المتلائم وطبيعة معيشتهم أُثر استيلائهم على بلاد فارس وبلاد الشام، فكانت مبانيهم تمتاز بطرز خاصة كالأعمدة والاقواس أو العقود والقباب والمقرنصات والدلايات. ورغم استخدام العرب للصناع أبناء البلدان المفتوحة، إلا أن العمارة الإسلامية احتفظت بطابعها الجديد المتميز بسماته الخاصة، وقد تجسد هذا الأسلوب أول الأمر في المساجد[٢]. وسنعرض صوراً لهذا الأُثر المتمثل بعمارة القصور لاحقاً.

ومن أشكال هذا التمازج أيضاً مشاركة العرب المسلمين لغيرهم ممن يقطن الأرض الإسلامية من غير العرب في عاداتهم إذ لم تتدخل الدولة الإسلامية في ممارسات أهل الذمة كالشعائر الدينية والعادات الاجتماعية، بل كانت متسامحة مع المخالفين لها قي الديانة[٣].

فقد كانت العادة في الاحتفال بعيد النوروز - ويتم ذلك في بداية كل ربيع من السنة - تبادل الهدايا، فكان الخليفة في بغداد يفرق على الناس أشياء منها صور مصنوعة من العنبر، وكذلك الورد الأحمر[٤]. وراح بعض الحكام يهدون للناس فيه الكسوات والطعام[٥].

ويظهر في هذا اليوم أصحاب النوادر والسماجات بين يدي الخليفة، فتنثر

(١) ينظر: البخلاء، الجاحظ: ٩٥.
(٢) ينظر: في الفنون الإسلامية، د.زكي حسن: ٨ (مطبعة الاعتماد، ١٩٤٠م).
(٣) ينظر: ظهر الإسلام، أحمد أمين: ٨١/١ (مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٤٥م).
(٤) ينظر: الديارات، الشابشتي، تحقيق ونشر كوركيس عواد: ٣٨ (مطبعة المعارف، بغداد، ١٩٥١م).
(٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، المقريزي: ٢٦٨/١ - ٢٦٩ (طبعة بولاق، ١٢٩٤ هـ وأعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى - بغداد).

عليهم الدراهم لالتقاطها[١]، فكان أشبه ما يكون (بكرنفال) عام، يسعى الناس فيه بخاصة العامة إلى اللعب فيرمي بعضهم بعضاً بالماء، وقد أبطل هذا العمل سنة (٢٨٢هـ)[٢]، إذ كان العامة بمصر ينتخبون رجلاً يسمونه أمير النوروز يطلى وجهه بالدقيق أو القير ويركب على حمار وعليه ثياب ملونة وحوله لفيف كبير من الناس ويأخذ بفرض رسم على من يشاء فإن امتنع الآخر عن إعطاء هذا الرسم رمي بالماء والقاذورات[٣]. وهناك عيد المهرجان بعد مائة وأربعة وتسعين يوماً من النوروز ويعد أول أيام الشتاء، وفيه أيضاً تهدى الهدايا، وتظهر فيه آثار الزينة والفرح ويعمد الناس فيه إلى تغيير فرشهم وآلاتهم وكثير من ملابسهم[٤]. وغير ذلك من الأعياد والمناسبات التي لعبت دوراً بارزاً في التقارب بين العرب وغيرهم من رعايا الدولة الإسلامية.

(١) ينظر: الديارات، الشابشتي: ٢٧.
(٢) ينظر: تاريخ الطبري: ٣٩/١٠.
(٣) ينظر: الخطط، المقريزي: ٢٦٩/١. وكذلك ولاة مصر، الكندي، تحقيق الدكتور حسين نصار: ٣١١ (دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٥٩م).
(٤) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ٤٠٤/٣. كذلك صبح الاعشى، القلقشندي، بقلم الشيخ محمد عبد الرسول: ٤٢٠/٢ (الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م).

المبحث الثاني

العصبيات

كان سقوط دولة بني أمية وقيام دولة بني العباس، يعد حدثاً سياسياً مهماً في حياة العرب وغيرهم ممن يعيش في كنف الخلافة العربية، هذا الحدث لازمته وتبعته بعد حين تغيرات كبيرة يشار إليها في الأفكار والنزعات، أو بمعنى آخر تغيرات في الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية. فمن تعصب وانحياز شديدين نحو العنصر العربي، على حساب سواه من غير العرب، اصطبغت الدولة الأموية بهذه الصبغة القاسية، فنظرت إلى العرب نظرة مختلفة عن نظرتها إلى غيرهم من الداخلين ضمن ولايتها. فكان من جراء هذا أن استأثرت اليد العربية بمناصب الإدارة والقيادة وامثالهما من جلائل الأعمال، وتركت لغير العرب الأعمال الأخرى التي تمثل أوجه الكسب في الحياة العامة. ولا يعني هذا أننا نعدم وجود يد غير عربية نالت من المناصب العالية ما عجزت عن نيله اليد العربية فقد وجدت هناك بعض الشخصيات غير العربية كان لها أثر في البلاط الأموي بشكل أو بآخر، ولعبت دوراً في ثبات سلطانه. فكان هناك سرجون بن منصور الرومي مولى معاوية، وفيه يقول الطبري: «وكان كاتبه وصاحب أمره»[(١)]، ومثلما كان مستشاراً لمعاوية كذلك كان ليزيد بن معاوية[(٢)]، وعلى الرغم من ذلك ظلت العصبية العربية فوق غيرها من العصبيات، وهذا الأمر طبيعي في هذا العصر لقرب عهده بحياة العرب الجاهلية من جهة، وكيف انهم كانوا يعتدون بأصولهم وأحسابهم وأنسابهم، هذا إضافة لما لعبته عوامل أخرى في تعزيز هذه الظاهرة، وأبرز هذه العوامل تأكيد ولاة الأمر في هذا العصر على تفضيل العنصر العربي على غيره. واعطائه حق الأولوية في كل شيء، وهذا ما ميز عصر بني أمية بغلبة العصبية فيه واختلافه عما سبقه أو لحقه من أعصر.

---

(١) تاريخ الطبري: ٣٣٠/٥.

(٢) م. ن: ٣٤٨/٥، ٣٥٦، ١٨٠/٦.

ولم يتوقف نهج السياسة الأموية على تفضيل العرب على غيرهم فقط، بل أظهرت عصبيتها بين العرب أنفسهم، فساندت بعض القبائل على حساب غيرها، وكان هذا من الدوافع التي قوضت حكم بني أمية. كما هو الحال مع القبائل اليمانية والمضرية، فساندت الأولى أول عهدها ونابذتها في آخره. وهذا ما جعل هذه القبائل تتحين الفرص للوثوب بها والانقضاض عليها[(١)]. ومن جانب آخر قويت العصبية واشتد أوارها بين أبناء القبائل العربية نفسها فكل يحاول أن يسمو بقبيلته إلى مصافي النجوم على حساب غيرها من القبائل الأخرى، وكل يحامي عن قبيلته بشتى السبل، وهذا بدوره قد شجع على ظهور فكاهات مضحكة تدور موضوعاتها حول هذه العصبية، فعن ابن عياش[(٢)] قال: أخبرني رجل من الأزد قال: كنا مع أسد[(٣)] بن عبد الله بخراسان «فبينما نحن نسير معه وقد مد نهر فجاء بأمر عظيم لا يوصف، وإذا رجل يضربه الموج وهو ينادي: الغريق الغريق! فوقف أسد وقال: هل من سابح؟ فقلت: نعم، فقال: ويحك! إلحق الرجل! فوثبت عن فرسي وألقيت عني ثيابي ثم رميت بنفسي في الماء، فما زلت أسبح حتى إذا كنت قريباً منه قلت: ممن الرجل؟ قال: من بني تميم، قلت: إمض راشداً، فوالله ما تأخرت عنه ذراعاً حتى غرق»[(٤)]، فقال ابن عياش له: «ويحك! أما اتقيت الله! غرقت رجلاً مسلماً! فقال:

---

(١) ينظر: العصر العباسي الأول، الدكتور عبد العزيز سالم: ٣٧ وما بعدها. (مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية، ١٣٩٨هـ).

(٢) هو أبو عتبة إسماعيل بن عياش بن سليم العنبسي، عالم الشام ومحدثها في عصره من أهل حمص، رحل إلى بغداد وولاه المنصور خزانة الكسوة، وكان نبيلاً جواداً. ينظر: تذكرة الحفاظ، الذهبي، صحح على النسخة القديمة المحفوظة في الحرم المكي: ١/ ٢٥٣ (دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٣٧٤م)، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير، ابن عساكر، هذبه ورتبه الشيخ عبد القادر بدران: ٣/ ٤٢ (دار المسيرة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٩م).

(٣) هو اسد بن عبد الله القسري، أخو خالد القسري والي العراق أيام هشام بن عبد الملك. وقد استعمل خالد أخاه أسداً على خراسان سنة (١٠٦ هـ)، وكان فارساً جواداً، وحدثت في ولايته حوادث كان الضفر له فيها. توفي في بلخ سنة (١٢٠هـ). ينظر: الطبري: ٣٧/٧، ١٠٥، ١٣٩. الكامل في التاريخ، ابن الاثير، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي: ٣٧٤/٤، ٣٨١، ٤١٣، ٤٣٤ (دار العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م).

(٤) عيون الاخبار، ابن قتيبة: ١١٢/٣ - ١١٣.

والله لو كانت معي لبنة لضربت بها رأسه»[1]. ومما تقدم نستشف استفحال أمر العصبيات بين العرب وغير العرب من جانب، وبين العرب أنفسهم من جانب آخر.

ورب سائل يتسائل أنه لما كانت طبيعة العربي في العصر الأموي بل وفي العصر الجاهلي تقوم في بعض جوانبها على عصبية الرجل نحو قبيلته وتفضيلها على غيرها من القبائل الأخرى والحاقه بمن عادوا قبيلته سواء أفراداً كانوا أم قبائل كل رذيلة من الصفات وقبيح الأعمال، وهذا الأمر واضح وجلي لمن يقرأ مناقضات جرير والفرزدق والاخطل، اذن فليس هناك مؤاخذة على الشعوبية وغيرها ممن يرى تفضيل أبناء جلدته على غيرهم من أبناء العصبيات الأخرى وبخاصة العربية، طالما كان التاريخ العربي يروي إن العصبية قائمة بين العرب ومشمرة عن ساعديها في تفضيل قسم على آخر.

نقول إن العصبية القائمة بين أبناء العرب هي عصبية ترمي إلى الارتقاء بمستوى القبيلة العربية وإلحاق كل فضيلة وحسنة بها، وهذه الفضائل والحسنات مما يعتد بها العربي ويرمي إلى تحقيقها وجعلها عنواناً لقبيلته وله، ومن ثم فإن كل ذلك يصب في مصلحة القومية العربية بشكل عام الارتقاء بأمة العرب إلى أعلى مراتب السمو والرفعة وتفضليها على غيرها من الأمم لأن القبيلة العربية هي لبنة من البنات هذا الكيان الضخم المتمثل بهذه الأمة.

أما الشعوبية أو غيرها من الحركات بما انطوت عليه من أفكار فهي تود انتزاع هذه المكانة من هذه الأمة وبخاصة عندما أصبحت مناراً للعالم بما أوتيت من سلطان بالإسلام. فحاول الشعوبيون الحاق كل خسيس من الأعمال أو الصفات بهذا الكيان وكل جميل وحسن بقومياتهم، فكانت عصبيتهم عصبية ضد العرب وأمتهم وهذا ما سنتحدث عنه لاحقاً.

وهكذا شاع هذا النوع من العصبية التي ترمي إلى الانحياز نحو أمة بعينها وتفضليها على غيرها من الأمم وبخاصة العربية، كما هو حال مع الشعوبية. وظهرت تبعاً لطبيعة العصر- عصبيات أخرى يمكن أن نطلق عليها تجوزاً عصبيات اجتماعية حاولت الميل والانتماء نحو فئة اجتماعية معينة والدفاع عنها والتسويغ

---

(١) م. ن: ١١٢/٣ - ١١٣.

لتصرفاتها مثل البخلاء والطفيليين وغير ذلك من فئات كان لها حضور واضح بين أفراد المجتمع العباسي، وأخذت الكتب التي عرضت لهذه المرحلة تروي اخبارها.

الشعوبية:

حركة نادت أول الأمر بإحلال العدل والمساواة فيما بين العرب وغيرهم من الموالي ممن ينتمي إلى قومية أخرى غير عربية، انطلاقاً من قوله تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)[1]؛ وبدعوى ما لاقاه المولى من ضيم واضطهاد، وظلم وقسوة على يد مولاه العربي صاحب المركز والسلطان.

ثم تطورت هذه الحركة بأن أخذت تعلن صراحة في العصر العباسي بأن الموالي عامة، والفرس بخاصة - لأنهم من حاملي لواء الدعوة العباسية - لهم من الامتيازات ما تفوق غيرهم من العرب. وهذا نابع - لا شك - من طبيعة الدولة الجديدة «نتيجة لما تحقق لطوائف الموالي من ارتقاء طبقي اجتماعي، نقلهم من الطبقة الدنيا في المجتمع الأموي إلى أعلى المراتب الاجتماعية في المجتمع العباسي»[2]، فظهرت نتيجة لبعض ذلك هذه النزعة العدائية.

فمما قيل في هذا الصدد من النثر الفكاهي، إن رجلاً من العرب قال: «أريت البارحة في منامي كأني دخلت الجنة فرأيت جميع ما فيها من القصور، فقلت لمن هذه؟ فقيل للعرب؛ فقال رجل عنده من الموالي: أصعدت الغرف؟ قال: لا؛ قال: فتلك لنا»[3].

فهذه النزعة صدرت أول الأمر عن مسكنة ثم قويت بما قامت به من دور كبير في إرساء عوامل الفرقة بين العرب وغيرهم من ساكني ربوع الدولة الإسلامية.

فظهرت هذه النزعة رافعة عقيرتها بذم العرب والحط من قيمتهم، وأخذت توجه نحوهم الكثير من المطاعن يتعلق بعضها بالقيم والأعراف وبعضها بالعادات

(١) سورة الحجرات، آية ١٣.
(٢) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، محمد عويس: ٣٨٢.
(٣) عيون الاخبار، ابن قتيبة: ٢١٣/٢.

والتقاليد وبخاصة ماله صلة بحياتهم الجاهلية. فراحوا ينكرون مالهم من خلال حميدة وسجايا كريمة تمتعت بها شخصياتهم فقرنوا بهم الخسة والدناءة والجبن والعجز[١]، ومضوا يحتقرون بعض شيمهم وشمائلهم كخصلة الكرم التي طالما مجدها العربي وافتخر بها، وذلك بحمد النقيض ومدحه، كالبخل وتفضيله على الكرم، حيث سعى بعضهم إلى التعليل له وتحبيذه للغير، مثلما جاء في رسالة سهل[٢] بن هارون في مدح البخل.

فمن تعليلاته قوله: «وعبتموني حين قلت: لا يغترن أحد بطول عمره وتقوس ظهره ورقة عظمه ووهن قوته، أن يرى أكرومته، ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه وتحويله إلى ملك غيره وإلى تحكيم السرف فيه وتسليط الشهوات عليه، فلعله أن يكون معمراً وهو لا يدري وممدوداً له في السن وهو لا يشعر، ولعل أن يرزق الولد على اليأس أو يحدث عليه بعض مخبئات الدهور، مما لا يخطر على بال ولا تدركه العقول، فيسترده ممن لا يرده ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه، أضعف ما كان عن الطلب واقبح ما يكون به الكسب»[٣]. إذ راح يتوسل في دعم قوله بتسويغ البخل بأقوال السلف. ومما عابه الشعوبيون من عادات العرب وتقاليدهم استعمالهم للمخاصر واتكاؤهم على القسي والإشارة بالعصي والقضبان

(١) ينظر: كتاب العرب لابن قتيبة برسائل البلغاء، محمد كرد علي: ٣٦٥، ٣٧٠ (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الرابعة، ١٩٥٤م).

(٢) هو سهل بن هارون (أوراهيون)، أبو عمر الدستميساني، كاتب بليغ وحكيم من واضعي القصص، يعرف بزرجمهر الإسلام، فارسي الاصل اشتهر بالبصرة، اتصل بخدمة الرشيد وارتفعت مكانته حتى أحله محل يحيى البرمكي، ثم خدم المأمون فولاه رياسة (خزانة الحكمة) ببغداد، كان متعصباً للعجم على العرب، أتهم بالشعوبية. له من الكتب (ثعلة وعفرة) على شاكلة (كليلة ودمنة) ألفه للمأمون، وكذلك (الاخوان) و (المسائل) و(المخزومية والهذلية) و (تدبير الملك والسياسة) وغير ذلك وله رسالة في (البخل) اوردها صاحب البخلاء وكذلك صاحب العقد: ١٥٦/٦. وكانت وفاته سنة (٢١٥هـ). ينظر: البيان والتبيين: ٥٢/١، معجم الادباء، ياقوت: ٢٦٦/١١ (دار المستشرق - بيروت، ط١، ١٩٢٢م). فوات الوفيات، الكتبي: ٢/ ٨٤.

(٣) البخلاء، الجاحظ: ١٢، والرسالة موجهة إلى محمد بن زياد وإلى بني عمه من آل زياد.

حال خطاباتهم[١]. وهذا ناشىء - في رأيهم - من انعدام المناسبة وجود مناسبة فيما بين الخطابة والاتكاء على القسي وأخذ العصا، فأي ارتباط بين مقام الخطابة وبلاغة الكلام وهذه الوسائل من قوس وعصا! بل هذا من شأنه أن يشغل العقل عن الموضوع، ويصرف انتباه السامع عن غاية الكلام[٢]. وعابوا عليهم آلاتهم الحربية وبساطتها، وأساليب قتالهم الساذجة[٣]. وأخذت الشعوبية على العرب تفردهم بالخطابة، بل هي بحسب قولهم شيء موجود في كل الأمم كالزنج، وذهبوا إلى أن أهل فارس هم أخطب الناس لعذوبة كلامهم، وسهولة مخارج حروفهم[٤]. وفوق كل ذلك فقد غمزوا في أحساب العرب وأنسابهم، ووضعوا الكتب التي تفصل ذلك بالذم والهجاء والطعن على قبائلهم، وقد ظهرت شخصيات أدبية حملت لواء الطعن على العرب في أصولهم، فهناك يونس[٥] بن أبي فروة الذي حمل على العرب والإسلام، والذي يقول فيه الجاحظ: «يونس الذي زعم حماد عجر أنه قد غر نفسه بهؤلاء، وكان أشهر بهذا الرأي منهم، وقد كان كتب لملك الروم في مثالب العرب، وعيوب الإسلام، بزعمه»[٦]. ثم هناك أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي الذي سجل مثالب العرب وكذلك طعن على بعض أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)[٧]. وعلان الشعوبي الذي وضع كتاب الميدان في عيوب العرب، وفيه

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٥/٣ - ٧.
(٢) م. ن: ١٢/٣.
(٣) م. ن: ٣/٣ - ١٢.
(٤) البيان والتبيين، الجاحظ: ٣/ ١٢ - ١٣.
(٥) هو يونس بن محمد بن كيسان الملقب بأبي فروة، كاتب متزندق وقيل كان خارجياً، كان جده مولى للخليفة عثمان، نشأ في المدينة شاطراً، ثم صار كاتباً في العراق للامير عيسى بن موسى ابن أخي السفاح. خالط ابن المقفع ووالبة وحماد عجرد وبشار وحماد الراوية وآخرين - ينظر: الحيوان للجاحظ: ٤٤٨/٧؛ امالي المرتضى- تحقيق أبي الفضل إبراهيم: ١٣١/١ (دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٥٤م)، الوزراء والكتاب الجهشياري: ١٢٥، (مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٨م).
(٦) الحيوان، الجاحظ: ٤٤٨/٧.
(٧) ينظر: الفهرست، ابن النديم، تحقيق رضا تجدد: ٨٥، وما بعدها، (طبعة طهران).

جمع مثالب القبائل العربية[١] والهيثم[٢] بن عدي، الذي صنف كتباً في مثالب العرب[٣].

ولكن في مقابل كل ذلك وقف أصحاب الأمر من الخلفاء والولاة، ووقف معهم العلماء والأدباء العرب وغير العرب ممن يعرف للعرب فضلهم ويدين لهم بالطاعة والولاء، لأحقيتهم المعروفة، وسابقتهم المشهورة؛ فألفوا في الرد على الشعوبية ودحض آرائها والحط من قدر أصحابها، حتى لم تبق حجة أو دليل يتطاول به الشعوبيون إلا وقارعوه بما يوهن منه ويقضي عليه[٤].

وأرى إن كثيراً من الفكاهات التي تدور موضوعاتها حول الأعراب يلمس فيها حس شعوبي، وليس هذا ببعيد في وقت وجد فيه الشعوبيون أنفسهم مطاردين لما كانوا ينادون به صراحة من تفضيل الموالي - بخاصة الفرس - على العرب وطعنهم عليهم أساليب حياتهم البسيطة؛ فراحوا بسبب ذلك ينتهجون ويعتمدون وسيلة أخرى يحطون بها من شأن العربي، وهذه المرة باتخاذهم الأعراب أداة للتفكه والضحك، لما يمثلونه من عراقة في الأنساب، وأصالة في القيم والأعراف، وفصاحة في التعبير والبيان. لذلك كان مأكلهم وملبسهم وأساليب كلامهم مادة خصبة لإظهار التندر عليهم والضحك منهم. قيل تغدى أعرابي عند بعض الملوك «فدبت على حلقه قملة فتناولها فقصعها بإبهامه وسبابته، ثم قتلها، فقالوا له: ويلك!

---

(١) أصله من الفرس، راوية عارف بالأنساب والمثالب والمنافرات، منقطع إلى البرامكة، وناسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون، وله كتب في الانتقاص من شأن العرب. ينظر: الفهرست، ابن النديم: ١١٨، معجم الادباء، ياقوت: ١٩١/١٢ وما بعدها.

(٢) الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن الثعلي الطائي البحتري الكوفي يكنى بأبي عبد الرحمن. كان مؤرخاً وعالماً بالادب والانساب. أصله من منبج إذ كانت ولادته سنة (١١٤هـ) إمام بالكوفة، وكانت وفاته سنة (٢٠٧هـ) في فم الصلح (قرب واسط) عند الحسن بن سهل. اختص بمجالسة المنصور والمهدي والهادي والرشيد وروى عنهم، وقد تعرض لأصول الناس ونقل اخبارهم فأورد بعض معايبهم في بعض كتبه. ينظر: البيان والتبيين: ٣٤٧/١، ٣٦١، معجم الادباء: ٣٠٤/١٩ وما بعدها، الفهرست: ١١٢ - ١١٣.

(٣) ينظر: الفهرست: ٩٩ - ١٠٠.

(٤) ينظر: كتاب العصا للجاحظ في كتاب البيان والتبيين، وكتاب العرب لابن قتيبة في مجموع رسائل البلغاء، محمد كرد علي.

ما صنعت؟! فقال: بأبي أنتم وأمي، ما بقي إلا خرشاؤها![١]»[٢]. فليس من المعقول وجود هذا الكم من الفكاهات التي تدور موضوعاتها حول الأعراب، دون غرض توجه نحوه، وإن كان بعضها يرمي إلى الضحك فحسب دون هدف آخر، ولكن قسماً منها لا يخرج عن كونه طعناً على هذه الفئة العربية ومن ثم الطعن على أمتهم.

الزندقة

ولم يتوقف النشاط الشعوبي إلى حد الطعن على العرب، وإبراز عيوبهم ووضعهم المثالب التي تحط من قيمتهم، وتفضيل غيرهم عليهم، بل وصل بهم الأمر إلى محاربة كل ما يمت للعرب بصلة، فحاربوا الإسلام، وما أتى به من تعاليم سمحة، فكان هناك الالحاد في الخالق، والزندقة في الدين لأن «عامة من ارتاب بالإسلام إنما كان [أوَّل] ذلك رأي الشعوبية والتمادي [فيه] وطول الجدال المؤدي إلى القتال، فإذا أبغض شيئاً أبغض أهله، وان أبغض تلك اللغة أبغض تلك الجزيرة [وإذا أبغض تلك الجزيرة أحب من أبغض تلك الجزيرة]. فلا تزال الحالات تنتقل به حتى ينسلخ من الإسلام، اذ كانت العرب هي التي جاءت به، وكانوا السلف [والقدوة]»[٣].

فكلمة الزندقة «ليست عربية إنما هي تعريب لمصطلح إيراني كان يطلقه الفرس على صنيع من يؤولون «الافستا» كتاب داعيتهم زرادشت تأويلاً ينحرف عن ظاهر نصوصه، ومن أجل ذلك نعتوا به دعوة ماني ومن فتنوا بها من الفرس»[٤].

إذ تنازعت المجتمع الساساني القديم ديانات أُثرت أحداهما بالأخرى، فمن تعاليم زرادشت الذي ظهر في حدود منتصف القرن السابع قبل الميلاد وما أتى به من قيم ظلت ردحاً من الزمن، والتي أكدت في بعض منها على الإقرار بوجود الهين للكون أحدهما إله النور، وهو يمثل الخير والآخر إله الظلمة، وبدوره

(١) خرشاء الحية: سلخها حين تنسلخ. اللسان، مادة (خرش)
(٢) الحيوان، الجاحظ: ٤/ ٣٤٠.
(٣) الحيوان، الجاحظ: ٢٢٠/٧.
(٤) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٧٩.

يمثل الشر، تنازع هذان الإلهان الوجود الكوني، ومن خلال ذلك يثاب الإنسان في حياة بعد الممات، يجزى بها المحسن بعمله، ويعاقب المسيئ بعمله. وقدست النار وأقيمت لها دور العبادات، ولما تمثله من طهارة[١] وفي ظل هذه الديانة العامة الشاملة للمجتمع الإيراني ظهرت تيارات دينية أخرى تمثلت بتعاليم وأصبح لها أنصار يدعون لها ويرغبون فيها، فظهرت المانوية ثورة على التعاليم الزرادشتية، وإن كانت قد أفادت منها أشياء وتبنت من غيرها أشياء أخرى، فقد قالت بوجود إلهين وأعطت حرية الزواج بالبنات والأخوات، وأخذت بنظرية التناسخ والحلول، وحرمت ذبح الحيوان والطير، واصطبغت بصبغة الزهد وأظهرت التنسك وأغرقت في الصلوات والأدعية[٢]. وقد تداخلت التعاليم المانوية بما جاء جاء بعدها من التعاليم المزدكية التي ظهرت في حدود القرن الخامس الميلادي، فقد أكد صاحبها النهي عن المخالفة والمباغضة والاستبداد والقتل، ولأن اكثر ذلك يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء فلا يمتنع الواحد منهم عن حرمة الآخر ولا يمنعه، ولهم توصيات خاصة بالضيف لا توجد في أمة من الأمم كعدم رده عما يريد كائنا ما كان طلبه[٣].

والظاهر أن أنصار دعوة ماني هم من طاردهم خلفاء بني العباس في أصقاع الأرض الإسلامية لما تبين لهم من فساد طوياتهم، وما حملوه من أفكار هدامة ومرامي خبيثة تحاول الحط من شأن الإسلام والمسلمين، ويتجلى ذلك في وصية المهدي لابنه الهادي بقوله: «يا بني إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابة - يعني أصحاب ماني - فإنها فرقة تدعو الناس إلى ظاهر حسن، كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا والعمل للآخرة، ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور

(١) ينظر: الملل والنحل، الشهرستاني، تحقيق محمد سيد كيلاني: ٢٣٦/١ وما بعدها (دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٢م). تراث فارس، أ.ج. اربري، نقله إلى العربية محمد كنفاني وآخرون، مراجعة يحيى الخشاب: ٣٦ وما بعدها، (دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٩م)، فجر الإسلام: أحمد أمين: ١٠١ وما بعدها (مكتبة النهضة العربية المصرية، ١٩٥٩).

(٢) ينظر: الفهرست، ابن النديم: ٣٩٦ - ٣٩٧، الملل والنحل، الشهرستاني: ٢٤٤/١ وما بعدها.

(٣) ينظر: الفهرست، ابن النديم ٤٠٥ - ٤٠٦، الملل والنحل، الشهرستاني: ٢٤٩/١ وما بعدها.

وترك قتل الهوام تجرُّجاً وتحوُّباً، ثم تخرجها من هذه إلى عبادة اثنين: أحدهما النور والآخر الظلمة، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور، فارفع فيها الخشب، وجرد فيها السيف، وتقرب بأمرها إلى الله، لا شريك له؛ فإني رأيت جدك العباس في المنام قلدني بسيفين وأمر بقتل أصحاب الاثنين»[١]، وبالفعل فقد اتخذ الخلفاء في ذلك العصر أسلوبين للقضاء على أصحاب هذه الدعوة، فتارة حكموا فيهم السيف كما هو الحال مع معظم خلفاء بني العباس وخاصة في زمن المهدي الذي ولي الخلافة سنة (١٥٨هـ) حيث «ألحّ في طلب الزنادقة وقتلهم حتى قتل منهم خلقا كثير»[٢]، وما قام به من عمل ديوان خاص بهم وإسناده أمرهم لعمر الكلواذي[٣]ثم حمدويه[٤]، أما الأسلوب الآخر فهو وأسلوب الفكر في مقارعة الحجة بالحجة والدليل بالدليل، كما هو الحال مع المأمون الذي ولي الخلافة سنة (١٩٨هـ) فكان يتولى بنفسه هذا الأمر مناقشا ومجادلا[٥]، بطريق استعانته بأصحاب الفكر من المسلمين مثل المعتزلة وتقريبه لرجالاتها في الرد على تهم المبطلين، أو حثه الأدباء في الذب عن الإسلام، ودفع الشبهات عنه[٦].

وجدير بالذكر إن معنى كلمة الزندقة في العصر العباسي لم يقتصر في إطلاقه على متبعي الديانات الإيرانية القديمة فحسب بل راح مدلولها يتسع ويأخذ مستوى أشمل في التعبير عن «كل من استظهر نحلة من نحل المجوس، واتسعت أكثر من ذلك فشملت كل الحاد بالدين الحنيف وكل مجاهرة بالفسق والاثم»[٧].

---

(١) تاريخ الطبري: ٢٢٠/٨.

(٢) تاريخ اليعقوبي: أحمد بن يعقوب الاخباري، قدم له وعلق عليه العلامة السيد محمد صادق بحر العلوم: ١٣٨/٣(منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها في النجف ١٩٦٤).

(٣) الوزراء والكتاب، الجهشياري: ١٥٦، والكلواذي نسبة إلى كلواذى طسوج قرب بغداد تبعد عنها فرسخ، معجم البلدان: ٤٧٧/٤.

(٤) تاريخ اليعقوبي: ١٣٣/٣، وتاريخ الطبري: ١٦٧/٨.

(٥) ينظر الحيوان، الجاحظ: ٤٤٢/٤ - ٤٤٣ في مجادلته لزنديق.

(٦) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ٣٣١/٣ - ٣٣٢.

(٧) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٧٩.

وقد تنوعت صور هذه المجاهرة بالفسوق والإصرار على المعاصي في هذا العصر، فقد قيل إن رجلا من عتاة اللاطة مرض مرضا شديداً، فلما أفاق وتماثل للشفاء دخل عليه جيرانه فقالوا له: «أحمد الله الذي أقالك، ودع ما كنت فيه من طلب الغلمان والانهماك فيهم، مع هذه السن التي قد بلغتها. قال: جزاكم الله خيراً، فقد علمت إن فرط العناية والمودة دعاكم إلى عظتي، ولكني اعتدت هذه الصناعة وأنا صغير، وقد علمتم ما قال بعض الحكماء: ما اشد فطام الكبير!»[1]، فهذا يبين لنا مدى الانهماك في إتيان الرذيلة والإصرار على الفاحشة، ويقود هذا كثيرا ممن كان على هذه الشاكلة إلى التهاون والاستخفاف بما فرضه الله تعالى من فرائض وواجبات. قيل لبعض أصحاب النبيذ «أي صلاة تصلي؟ قال: الغداة، والظهر، والعصر، قالوا: فالمغرب؟ قال: يعرف وينكر، قالوا: فالعتمة؟ قال: ما كانت لنا في حساب قط»[2].

وهكذا شاع كثير من التصرفات في هذا العصر لا تمت إلى الإسلام بصلة وإنما هي تعبير عن رغبات أفرادها وميولهم تجاه جانب من جوانب هذه الحياة، وهو ما عبرت عنه بصدق حركات الشعوبية والزندقة، ويدخل في هذا الإطار الفكاهات التي تروى عن أشخاص تحمل نوعا من السخرية والاستهزاء بالعبادات لما يرون فيها من ثقل يرهق عاتقهم، وقد رأينا تجاوزها لما يلحظ فيها من تعدٍ على حرمات الله تعالى.

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٢٥/٢ - ١٢٦ (مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الأولى ١٩٧٩م)
(٢) البصائر والذخائر، أبو حيان التوحيدي: (٢)٦٤٢/٢.

المبحث الثالث

الغنى والفقر

تمتاز المجتمعات الإنسانية وعلى مر عصورها بوجود نوع من التفاوت الطبقي بين مجموع أفرادها، فمن غنىً فاحش راح يتمتع به بعضهم، وما يستتبع هذا الغنى من بذخٍ وترفٍ يظهر في صور معيشتهم والشاخص في المأكل والملبس والمسكن وفيما اتخذوه من خدم وحشم، هذه الطبقة في معظم المجتمعات تنشأ وتتعملق في ظل ظروفٍ خاصةٍ هي في جملتها تصب في مصلحتها، متخذة من أكتاف غيرها من أبناء الطبقات الأخرى سلما ترتقي به أقصى المراتب في حياتها المعيشية. هذا إلى جانب فقر مدقع، وبؤس لا حد له لدى جماعات أخرى ترى في توافر أبسط متطلبات الحياة من مأوى ورغيف عيشٍ غايتها القصوى. وإن وجدت طبقة أخرى وسط بين هاتين الطبقتين، فهي إلى الأولى أقرب وأدنى.

وهكذا الحال مع مجتمع العصر العباسي - بخاصة فيما يتعلق بمرحلة الدراسة - هذا المجتمع الذي نراه مثالاً صادقاً لما تقدم ذكره، فنجد فيه صوراً تتجمع على طرفي نقيض، فهناك نعيمٌ يظهر بأبهى أشكاله، وأزهى ألوانه لدى رموز الدولة العليا المتمثلة بالخلفاء والأمراء ومن يدور في فلكهم من وزراء وقادة وقضاة وحجاب ومن له صلة بهم من أدباء ومغنين فقد شاع بين أبناء هذه الفئة الترف والغلو في اصطناع الأبهة ومظاهر الملوكية الناتجة عن تأُثرهم بالحضارة الفارسية القديمة - على وجه الخصوص - والنزوع نحو الرفه في الأطعمة والأشربة والأزياء والفرش والآنية، والتأنق في الحياة والتماس أسباب الراحة والمتعة في المساكن بإقامة القصور المُنمقة، وإنشاء الرياض والجنان، إلى حد الخروج عما هو ضروري إلى الإسراف والتبذل في الرفاهية ودعة العيش[1]، وهذا ما سار عليه معظم أبناء

---

(١) ينظر: مقدمة ابن خلدون، ضبط خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار: ٢١٥ وما بعدها (دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م).

هذه الطبقة.

وبضرب بعض الأمثلة نرى ذلك واضحاً جلياً، فمن المعروف إن معظم خلفاء بني العباس قد افتتنوا بإنشاء القصور الفخمة، وافتنوا في تزيينها إلى القدر الذي يعيد معه إلى الأذهان مجد الأكاسرة والقياصرة، بل قد زادوا عليهم في احيان أخرى. فقد عرف عن المتوكل الذي ولي الخلافة سنة (٢٣٢ - ٢٤٧هـ) شغفه ببناء القصور، واستجلائه لآيات الجمال فيها، فكان جملة تكلفة بناء قصوره في سامراء على حد تعبير الشابشتي «مائتي ألف ألف وأربعمائة وسبعين ألف ألف درهم. ومن العين[١] مائة ألف ألف دينار[٢]»، وكان أكثر هذه القصور جمالا المسمى قصر البرج، إذ كلف بناؤه ألف ألف وسبعمائة ألف دينار[٣]، حيث حُشد فيه من مظاهر الأبهة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، فقد صور فيه صوراً من الذهب والفضة. ففيه بركة عظيمة جعل من صفائح الفضة فرشاً لها ظاهراً وباطناً، وفيه شجرة تدعى بشجرة طوبى وهي من الذهب على أغصانها وفروعها طيور تغرد وتصفر مكللة بالجوهر، وفيه سرير الخليفة وهو من الذهب يعلوانه تمثالان لسبعين عظيمين، وفي القصر درجٌ عليه صور السباع والنسور، وكانت حيطان هذا القصر قد أُلبست من الداخل والخارج بالفسيفساء والرخام المذهب[٤]. وكذلك الشأن في عهد المعتضد بالله (٢٧٩ - ٢٨٩هـ) كإنفاقه على عمارة البحيرة ستين ألف دينار، التي كان يخلو فيها مع جواريه وفيهن محبوبته دريرة[٥]، وما كان من بنائه لقصره المسمى بالثريا، وهو مؤلف من مجموعة من الدور والقصور، التي تمتد لتبلغ مساحة ثلاثة

(١) العين: الذهب المضروب ومنه الدنانير الذهبية. اللسان، مادة (عين).
(٢) الديارات، الشابشتي: ١٠٢
(٣) م. ن: ١٠٣. أكد اليعقوبي مقدار الانفاق على هذا القصر (بالعدد نفسه)الذي ذكره الشابشتي، ينظر: تاريخ اليعقوبي: ٢٢٣/٣. وأشار ياقوت إلى ان النفقة عليه كانت عشرة الاف ألف درهم. معجم البلدان: ١٧٥/٣.
(٤) ينظر: الديارات، الشابشتي: ١٠٣
(٥) ينظر تاريخ الخلفاء، السيوطي: ٣٤٤ - ٣٤٥

فراسخ، حيث أنفق في بنائه أربعمائة ألف دينار[١]. وما أن يحل عهد المقتدر بالله سنة (٢٩٥ - ٣٢٠هـ) حتى شهدت قصور الخلافة غايتها في رسم صور الإسراف بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنىً، فقد أوضح ابن كثير ميزانية الدولة حين ولي المقتدر بالله سدة الحكم، وما انفق في عهده من أموال، فقد كان في «بيت مال الخاصة خمسة عشر ألف ألف دينار. وفي بيت مال العامة ستمائة ألف دينار ونيف، وكانت الجواهر الثمينة في الحواصل من لدن بني امية وايام بني العباس، قد تناهى جمعها، فما زال يفرقها في حظاياه وأصحابه حتى أنفدها»[٢].

ولم يقف الإسراف والتبذير في اموال المسلمين في عهد المقتدر بالله عند حدٍ معين، بل أصبح ما يودع في خزينة الدولة من اموال ملكاً صرفاً، له حق التصرف فيه أنى شاء من دون رقيب أو حسيب، وهذا ما اجمع عليه جملة من المؤرخين[٣].

وما الوصف الذي نعت به حفل استقبال المقتدر بالله لرسل ملك الروم سنة (٣٠٥هـ) وما حشد فيه من مظاهر الابهة والعظمة الشيء الكثير، إلا صورة تتجلى فيها معاني الإسراف والتبذير، فمما شاهده هؤلاء الرسل حال قدومهم لدار الخلافة (دار الشجرة) من قصر المقتدر بالله، فقد روي إن فيها شجرة من فضة وزنها خمسمائة ألف درهم، وهي تقوم وسط بركة مدورة صافية من الماء، وللشجرة ثمانية عشر غصناً، لكل غصنٍ شاخات كثيرة، عليها الطيور والعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة، واكثر قضبان الشجرة فضة وبعضها مذهب، هي تتمايل في أوقات لها، وللشجرة ورق مختلف الألوان يتحرك، كما تحرك الريح ورق الشجر، وكل من هذه الطيور يصفر ويهدر، فزاد ذلك من عجب رسل الروم عما شاهدوه في

(١) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ١٤٥/٤
(٢) البداية والنهاية، ابن كثير: ١٠٥/١١، (مكتبة المعارف بيروت - لبنان، ط٢، سنة ١٩٧٧م)
(٣) ينظر على سبيل المثال: الكامل، ابن الاثير: ٢٢٢/٦، تجارب الأمم، مسكويه: ٢٣٨/١.

السابق[١].

هذا إلى غير ذلك من الممارسات التي توحي بما كانت عليه هذه النخبة من الناس في حياتها وما أشاعته فيها من مظاهر الترف والبذخ في مصروفاتها[٢] والتي تقف حائلاً دون تقبلها بنفسٍ راضية مرضية لما يلمس فيها من تناقض بينها وبين باقي فئات المجتمع العباسي وبخاصة العامة منه، ويتضح ذلك إذا علمنا أن ثلثمائة درهم تكفي كنفقة لزوج مع زوجته في عهد الرشيد،[٣] وهو العهد الذي شهد ازدهاراً كبيراً في كافة الجوانب ومنها الاقتصادية، فكيف الحال مع باقي عهود الدولة العباسية التي امتازت بالتدهور الاقتصادي الكبير لا سيما بعد عهد المأمون العباسي.

وكان نتيجة شيوع مظاهر الترف والنعومة في أساليب الحياة لدى بعض الفئات الخاصة في المجتمع العباسي بسبب التلاقح الحضاري بين ثقافات أمم شتى أن برزت طبقة وسطى بين طيات هذا المجتمع تعمل على توفير مطالب باقي فئات المجتمع وبخاصة من كانت متنعمة بمباهج حياتها الفارهة، فسعت هذه الطبقة إلى توفير احتياجات الترف ووسائله الكمالية[٤]، وهكذا نشأت طبقة التجار وسطاً بين فئات المجتمع العباسي والتي ذهبت هي الأخرى إلى التمتع بحياةٍ ملؤها الثراء والافتنان في تأنقها المعيشي، بسبب ما تدره عليهم هذه الوسيلة المعاشية - التجارة - من حاصلات.

فمن نظرة قديمة لا ترى في التجارة مهنة تحظى بالتقدير الكامل لدى

(١) ينظر: تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٥٢/١ وما بعدها.
(٢) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ٤٤٣/٣، الفخري في الآداب السلطانية، ابن طقطقا: ٢٢٢(دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦م)، وكذلك الديارات، الشابشتي: ٩٦ وما بعدها، والمنتظم في تاريخ الملوك والأمم، ابن الجوزي: ١٢٧/٦(مطبعة دار المعارف - حيدر آباد الدكن، الطبعة الثانية، ١٣٥٨هـ).
(٣) ينظر: مصارع العشاق، الشيخ أبي محمد السراج: ١/ ٢٤١ (دار صادر - بيروت، ١٩٨٥م)
(٤) ينظر: العصر العباسي الأول: شوقي ضيف: ٥٢

العربي كما في العصور السابقة بدءً بالجاهلية[١] ومروراً بأبناء العصر الأموي الذين «لا ينظرون للتاجر بعين التقدير...لأنهم كانوا جيلاً من المحاربين الفرسان وأمراء القطائع، حتى لا نرى لطبقة التجار شأناً في تاريخهم»[٢].

ولم تتلاشَ هذه النظرة تماماً إلا في عهد بني العباس، فقد أصبحت بغداد حاضرة العالم الإسلامي، إليها تجبى الأموال، وتردها قوافل التجار، وأصبحت التجارة رائجة في هذا العصر رواجاً منظوراً «مما يظهر لنا أهمية الوظيفة الاجتماعية لمهنة التجار»[٣]، فأصبحت من الممارسات المرموقة، وأضحى لها أسواق داخل إطار دولة الخلافة وخارجها، وغدت التجارة صورة من صور الحضارة الإسلامية في ذلك الحين[٤]. وأثرى معظم أصحاب هذه المهنة وظهرت عليهم إمارات الترف ودعة العيش نتيجة لما تدره عليهم ممارساتهم هذه، فقد حكي أنّ في عهد المأمون تاجرين مشتركين في شراء غلاّت العراق؛ فأشرفا على ربح عشرة الاف ألف درهم، ثم انخفض السعر، فخسرا ستة آلاف ألف درهم[٥]. وفي ذلك العصر إشتهرت ممارسات تجارية كان لها أُثر في ثراء أصحابها لما تمتعت به من رواج وقبول بين طبقات المجتمع مثل تجارة البزّ، فقد كان عفان بن سليمان البزاز أغنى تجار مصر

(١) فرضت الطبيعة الصحراوية القاحلة على العرب الانتقال من مكان لآخر طلباً للكلأ والماء صراعاً قاسياً اعتمد السيف وسيلة لكسبهما. ينظر: الفروسية في الشعر الجاهلي، الدكتور نوري حمودي القيسي: ٤١ وما بعدها. (منشورات مكتبة النهضة - بغداد، مطابع دار التضامن - بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م). ويستثنى من ذلك مكة التي كانت مستقرة سياسياً واجتماعياً فنمت التجارة فيها حتى اشتهرت بذلك وعقدت من أجله المعاهدات التي عرفت بالإيلاف وكذلك تستثنى المدينة لاعتمادها الزراعة مصدراً رئيساً في كسبها الاقتصادي وبعض المدن الأخرى المتسمة بالمدنية المستقرة.

(٢) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، آدم متز: ٢/ ٣٧٠.

(٣) المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ، الدكتور محمد عويس: ١٢٢

(٤) للاطلاع على ما كان يفد العراق من سلع وما يصدر منه إلى غيره من بقاع الأرض ينظر: رسالة التبصر بالتجارة للجاحظ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب (دار الكتاب الجديد، ١٩٦٦م)

(٥) معجم الادباء، ياقوت: ١٤٢/١٥

الذي صادر الاخشيد من أمواله عند وفاته مائة ألف دينار[١]. وكذلك بعض أصحاب الصناعات الأخرى إذ كان لهم نصيبهم من النعيم والغنى؛ بخاصة ممن أشتغل بصناعة العطور والتحف وغيرها من أمورٍ كمالية، لذلك قيل إن تجارة البز أحسن تجارة، وصنعة المرجان أحسن صنعة[٢].

أما عامة الناس وهم الأكثرية الساحقة من أبناء الشعب فقد عاشوا حياة الكفاف اعتماداً على ما تدره عليهم مهنهم المختلفة، فقد تفاوتت إيراداتهم من هذه المهن باختلاف أصنافها. إذ كانت أجرة الخياط كل يوم درهمين[٣]، وأجرة صانع الحداد درهم في كل ليلة[٤]. وكان دخل الزجاج النحوي في نهاية القرن الثالث الهجري درهماً ودانقين أو درهماً ونصف، وكان الزجاج يدفع أجرة إلى أستاذه المبرد درهماً في اليوم لتعليمه، فيبقى لديه نصف درهم يعتاش منه[٥]. وكثيراً ما كانت الأسواق تشهد اضطراباً في أسعارها وبخاصة فيما يتعلق منها بارتفاعها من دون أن يلحق الصناع تعديل يذكر في أجورهم، فكانوا بحق يعيشون حياة قاسية ملؤها التقتير والتقشف، كما حصل في عهد الخليفة المعتضد وإرسال أهل البصرة إليه وفداً يشكون فيه ارتفاع الأسعار في مدينتهم وما أصابها من الغلاء الفاحش[٦].

فكان هذا الاضطراب في الأسعار والانخفاض في الأجور«يشير إلى استغلال هذه الفئة مما أوجد لديهم روح التذمر وجعلهم يساهمون في الحركات

(١) المغرب في حلى المغرب، ابن سعيد الاندلسي، قدم له الدكتور زكي مبارك، عني بنشره وتحقيقه والتعليق عليه الدكتور زكي محمد حسن وآخرون: القسم الخاص بمصر: ١٦٥/١ (مطبعة جامعة فؤاد الأول، ١٩٥٣م)

(٢) ينظر: عيون الاخبار، ابن قتيبة: ٩٠

(٣) ينظر: الفرج بعد الشدة، التنوخي، تحقيق عبود الشالجي: ٣٩٩/٢ (دار صادر، ١٩٨٧م).

(٤) ينظر: م.ن: ١٦٩/٢

(٥) ينظر: تكملة تاريخ الطبري، الهمذاني، تحقيق ألبرت كنعان: ٥١/١ (المطبعة الكاثوليكية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٩م). نشوار المحاضرة، التنوخي، تحقيق عبود الشالجي: ٢٧٤/١ (دار صادر - بيروت، ١٩٧١م)، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٩٠/٦.

(٦) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ١٤٩/٤ - ١٥٠.

الاجتماعية خاصة في حركات العيارين والشطار»[1] فكان لما تمتع بـه الأغنيـاء وهـم الأقليـة إلى جانـب وجود وفرة فقيرة من أبناء المجتمع ممن يفترش الأرض ويلتحف السماء سبباً لهذه الأعـمال والحركـات الاجتماعية. فصارت كأنها عملية طلب لثأر من لدن أصحاب الطبقات المنكوبـة موجهـة نحـو الأُثريـاء والموسرين[2].

وفي ظل هذا الجو المتمثل بـالغنى إلى جانـب الفقـر ظهـرت الكثـير مـن الفكاهـات التـي تعـرض لطبيعة هذه الظاهرة وصور أصحابها، وما صنع من حـلٍ لأجـل تـلافي الفقـر، وخـير شـاهد عـلى ذلـك مقامات الهمذاني، ففيها عرض لما تقاسيه بعـض طبقـات المجتمـع. وكانـت حالـة الفقـر التـي يعانيهـا بعضهم وسؤاله في طلب الرفد سبباً للضحك؛ قيل اعترض رجلُ المأمون، فقال: «يا أمير المؤمنين، أنا رجل من العرب، قال: وما ذاك بعجب، قال: وإني أريـد الحـجّ، قـال: الطريـق أمامـك نهـج، قـال: ليسـت لي نفقة.قال: قد سقط عنك الفرض، قال: إني جئتـك مسـتجدياً لا مسـتفتياً»[3] فضـحك المـأمون وأمـر لـه بصلة. وقد يقود اليأس من العطية عند بعض الفقراء إلى الاستهزاء بالمسؤول والتنـدر عليـه، فقـد روى الجاحظ أن رجلاً أتى آخر من وجوه الرجال وهو موسِر فقال: «أنا جارك. وقد مات أخي فمر لي بكفـن. قال: لا والله ما عندي اليوم شيء، ولكن تعهدنا وتعود بعد أيام، فسيكون مـا تحـب! قـال: أصـلحك الله فنملحهُ إلى أن يتيسر عندكم شيء؟!»[4] وهذا يقود بعض الفقراء إلى الإقلال من

(١) بغداد في القرن الثالث الهجري دراسـة في الحيـاة الاجتماعيـة، مكيـة سـلمان العبيـدي، رسـالة ماجسـتير في التـاريخ الإسلامي، بغداد، سنة ١٩٧٦م)
(٢) ينظر: تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، الدكتور عبد العزيز الدوري: ٩٣ - ٩٦ (دار المشرق - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م). وكذلك: نشوء الاصناف والحرف في الإسـلام، الـدكتور عبـد العزيـز الـدوري: ١٥٦ - ١٦١، ١٦٧ - ١٦٨ (مجلة كلية الاداب، العدد ١، ١٩٥٩م).
(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (١)/١٨٢.
(٤) البيان والتبيين، الجاحظ: ١١/٤.

ثقتهم بالله والاعتماد عليه بسبب معاناتهم شدة الإملاق. قال أبو العيناء[١]: قلت لمديني شكا إلي سوء الحال: «أبشر فإن الله رزقك الإسلام والعافية، قال: أجل: ولكن بينهما جوع يقلقل الكبد!»[٢]، فكانت حال هؤلاء الفقراء والمحرومين مدعاة للعطف والشفقة. من ذلك وقوف سائل بقوم يستعطفهم، قائلاً: «إني جائع. قالوا له: كذبت. فقال: جرّبوني برطلين من الخبز ورطلين من اللحم»[٣].

وهكذا انتشرت جملة من حيل المكدين وفكاهاتهم في كثير من الكتب التي تحكي لذلك العصر، وطبيعة حياة أفراده والتي سنعرض لها لاحقاً إن شاء الله تعالى.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن القاسم بن خلاد بن ياسر الهاشمي بالولاء، أديب فصيح من الظرفاء اشتهر بنوادره ولطافته، وكان ضريراً ذا لسان وعارضة واسع الرواية حاضر الجواب ولد سنة (١٩١هـ)، وتوفي في البصرة سنة (٢٨٣هـ). ينظر: معجم الشعراء: ٤٠٢ - ٤٠٣، الفهرست: ١٣٨ - ١٣٩، وفيات الأعيان: ٣/ ٤٦٦.
(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٣ (١) /٧١ - ٧٢.
(٣) المستظرف، الابشيهي: ٢٤٤/٢.

المبحث الرابع

أ - النساء

تفاوت الدور الاجتماعي للمرأة في العصر العباسي وفقاً لطبيعة الطبقة التي تنتمي إليها، فهناك نساء الطبقة الخاصة المتمثلة بالخلفاء والأمراء والوزراء وما يحيط بها من الجواري، وغيرهم ممن كان يتسلّم الوظائف المرموقة في إدارة الدولة، وهناك نساء الطبقة العامة التي تشمل غالبية أبناء هذا المجتمع. فكان نتيجة لذلك أن اختلفت صورة الحرية التي حازتها المرأة تبعاً لانتمائها الطبقي. إذ كانت نساء الطبقة الخاصة على حظٍ وافر من التمتع بمباهج الحياة بأشكالها المختلفة ومن تحقيق معظم رغباتهن، فقد كان لبعضهن حضور واسع في مجالات الحياة المتنوعة كالسياسة كما هو الحال مع(قبيحة) زوج المتوكل وأم المعتز[(١)]، و(شغب) أم المقتدر[(٢)]، وكان لهن دور كذلك في الأدب والغناء كما هو الحال مع (علية) بنت المهدي[(٣)]، وينطبق هذا الأمر على بعض جواري هذه الطبقة مثل(عُريب). وهذا ما لم يتوافر لمعظم نساء أبناء العامة، وبخاصة الحرائر منهن، ولكن عوض هذا الأحجام عن نساء العامة بوساطة الجواري، اللاتي تنوعت وظائفهن في هذا المجتمع. ولكن بدخول الجارية في هذا العصر لمعترك الحياة بشكل واضح وجلي وانتشارها بصورة كبيرة ضمن إطار المجتمع العباسي، وما تمتع به بعضهن بالصيت السيئ لاقترافهن الفواحش والموبقات، دارت شبهةٍ حول عفة النساء في ذلك العصر يشيعها بعضهم، فكل النساء في نظرهم ليس لهن من الشرف شيء وهذا ما رواه صاحب الأغاني بقوله: «أن مطيع بن إياس مرّ بيحيى بن زياد، وحماد الراوية وهما يتحدثان، فقال لهما: فيمَ أنتما؟ قالا: في قذف المحصنات. قال: أوفي الأرض

---

(١) مروج الذهب: المسعودي: ٨٩/٤.
(٢) تاريخ الخلفاء، السيوطي: ٣٥٣.
(٣) نهاية الارب، النويري: ٢٠٥/٤ و ٢١٢ وما بعدها.

محصنة فتقذفانها؟!»[١]. وتعلل الدكتورة مليحة رحمة الله أن سبب هذه النظرة حيال المرأة في ذلك العصر وبخاصة في القرنين الثالث والرابع نابع من انتشار الجواري فتقول: «أن منزلة المرأة في القرنين الثالث والرابع بعد الهجرة لم تكن تبعث على الارتياح، إذ فقدت شخصيتها ومكانتها، بتأثير انتشار الجواري في جميع البيوت، مما كان له أُثر سيئ في المجتمع»[٢]. ولكنا نقول: أن في هذا التعليل شيء من المبالغة لما يحمل بين طياته من تعميم حول عفة الجارية، فكأنها ترمي إلى أن كل جواري العصر العباسي مبتذلات وليس لهن من الأخلاق نصيب مما أُثر في سمعة حرائر ذلك العصر؛ والحال ليس الأمر على هذه الصورة، والا لما أقدم الخلفاء والصالحون في هذا العصر والاعصر السابقة على الاقتران بهن والركون إليهن فأصبحن أمهات أبنائهم، أو صرن خادمات في بيوتهم، وما ذاك الا لثقتهم بهن وبسلوكياتهن.

وإلى جانب هذه النظرة الموجهة نحو المرأة في هذا العصر، ظهرت أسماء لنساء حملن راية العلم وراح الناس يقبلون على دروسهن، مثل أمة الواحد ستيتة بنت القاضي أبي عبد الله الحسين بن إسماعيل الضبيّ المحاملي، فقد كانت فاضلة عالمة، ومن أحفظ الناس للفقه على المذهب الشافعي، وكانت تفتي مع العلماء؛ وحدّثت وكتب عنها الحديث، وتوفيت سنة(٣٧٧ هـ)؛ وكذلك أم الفتح بنت القاضي أبي بكر أحمد بن كامل بن خلف بن شجرة التي توفيت سنة(٣٩٠ هـ)، وكان الفقهاء قد أخذوا عنها، واتصفت بالديانة والعقل والفضل[٣].

---

(١) الأغاني، أبو الفرج: ٣١٢/١٣ - ٣١٣. لا يمكن الاعتماد على هذه الرواية في بيان حال المرأة في ذلك العصر لسبب بسيط هو ان كلاً من مطيع ويحيى وحماد متهم في دينه، أنظر الحيوان للجاحظ وقوله فيهم: ٤٤٧/٤ - ٤٤٨. ونستشف ذلك ايضاً من الرواية نفسها إذ أنهم يستحلون قذف المرأة المحصن ذات الزوج، دون تحرج أو خوف فكيف الحال مع غير المحصن، وقد يكون رأيهم ناجماً عمن عرفوهن بالسقوط الاخلاقي والرذيلة، فالطيور على أشكالها تقع، ومن ثم عمموا القول في النساء.

(٢) الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع، الدكتورة مليحة رحمة الله: ١٣٠ - ١٣١، (مطبعة الزهراء - بغداد، ١٩٧٠م)

(٣) ينظر: المنتظم، ابن الجوزي: ١٣٨/٧، ٢١٤، تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٤٤٢/١٤ - ٤٤٣.

هذا ما كان متعلقاً بالمرأة بشكل عام في هذا العصر، وسنتناول الجواري على وجه الخصوص، وما أدّين من دور في الإطار الاجتماعي للدولة العربية الإسلامية في العصر العباسي.

ب - الجواري

كان لكثرة الجواري اللائي أصبح لهنّ دور فعّال في مرافق الحياة الاجتماعية أُثر ملموس في العصر العباسي، فقد توزعن نشاطات الحياة في ذلك العصر فكان منهنّ الزوجة ومنهن الشاعرة ومنهن المغنية ومنهن الراقصة وغير ذلك. وكان لهذه الكثرة في عدد الجواري الناتجة من جرّاء الفتوحات التي قام بها المسلمون لأرجاءٍ من المعمورة أن غمرت الأرض الإسلامية بجمٍ غفير منهن اللائي جلبن سبايا، هذا إضافة إلى ما راج من تجارة الرقيق، الذي كان يجلب من أقطار الأرض المختلفة. فكان من الطبيعي أن يزداد عدد الجواري والإماء وأن يصبح لهذه التجارة أسواقها الخاصة في الحواضر الإسلامية، وتحديداً في بغداد وسامراء حاضرتي الخلافة العباسية. فقد أورد اليعقوبي وصفاً لسوق الرقيق في سامراء والتي بنيت في القرن الثالث الهجري، على أنها سوق واقعة في ربعة، وتحوي على طرق متشعبة، وفيها الحجر والغرف والحوانيت الخاصة للرقيق؛ وكان الرقيق الجيد لا يباع في السوق العامة وإنما يباع في منزلٍ خاص أو بواسطة تاجر كبير[(١)].

ومن الجدير بالذكر إن الإسلام قد حدد المسؤولية بين السيد والمولى وبخاصة الجارية المملوكة فهي حرة إن هو أعتقها، وإن تزوجها المسلم الحر وأولدها ولداً، فالولد حرٌّ ساعة ولادته؛ أما هي فتبقى مملوكة ولا يحق له بيعها وتسمى عند ذاك (أم ولد)، وتنال حريتها عند موت الزوج[(٢)].

وعلى أية حال فقد ازداد عدد الجواري والإماء في هذا العصر، وزخر

---

(١) ينظر: البلدان، اليعقوبي: ٢٧.

(٢) ينظر: الأم، الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: ٤٤٢/٨ (دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م)

الكثير من البيوت بهن، ومال الناس إليهن، وكثر التسري بهن على حساب الحرائر من النساء. ويعلل الجاحظ سبب ميل الرجال للإماء بقوله: «إن الرجل قبل أن يملك الأمَة قد تأمل كل شيء منها وعرفه، ما خلا حُظوة الخلوة، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة. والحُرَّةُ إنما يستشار في جمالها النساء، والنساء لا يبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً. والرجال بالنساء أبصر وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فأنها لا تعرف ذلك»[١]. وبناءً على هذا فقد أصبحت الإماء أحظى عند الرجال من غيرهن، وكثرن كثرة مفرطة، حتى قيل إن قصر المأمون كان يحتوي على كثير من بالجواري المسيحيات[٢]. وانتشر صنف من الجواري اللائي كُنَّ يتزيّنّ بزيِّ الغلمان، عُرفنَّ باسم الغلاميات، اللائي كنّ يلبسنّ العمم والاقبية والقراطق[٣]، وكنّ يظعنّ المناطق، مع عمل شعورهن كما هو معروف عند الغلمان[٤]، وقد شاع مثل هؤلاء الجواري في دور الخلفاء منذ زمن الأمين وحتى زمن القاهر المتوفى سنة (٣٢٢هـ)؛ وشاع كذلك عند عامة الناس من أهل بغداد[٥]. وقد بالغ بعض الخلفاء في حيازته للجواري والإماء كما هو الحال مع المتوكل الذي كان يملك من الجواري ما بلغ الأربعة آلاف جارية[٦]. بل راحوا يتهادونهنّ تهاديهم السلع، مثلما أهدي إلى المكتفي حين وليَ الخلافة مائة وخمسون جارية[٧]. وإن هذه الكثرة للجواري في بيوت الخلافة والذي بلغ العشرات منهنّ وعلى اختلاف جنسياتهنّ، المستقدمات من أقطار مختلفة من الأرض؛ يفسر كون معظم خلفاء بني العباس هم أبناء إماء، الأمر الذي أدى إلى استفحال شأن العصبيات الأخرى غير العربية مثل

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٥٧/٣.
(٢) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ٢٢/ ٢١٧.
(٣) القرطق: سترة قصيرة او قميص يلي الجسم مباشرة له كمان قصيران، حيث يسبل على الكتفين وينساب حتى وسط الجسم، معجم دوزي: ٢٩٢.
(٤) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ٢٢٦/٤.
(٥) ينظر: م. ن: ٢٢٧/٤.
(٦) ينظر: م. ن: ٤٠/٤، تاريخ الخلفاء، السيوطي: ٣٢٤.
(٧) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ٢٠٠/٤.

الفرس لانّهم يمتون لبعض الخلفاء بصلة القرابة والحال نفسه مع الأتراك وتقريب بعض الخلفاء لهم وإيثارهم على غيرهم من العرب.

هذا إلى جانب التدخل المباشر لهن في مسيرة الحكم في عهد الخلافة، كا هو الحال مع بعض أمهات الخلفاء ودورهن في توجيه نظم الإدارة بحسب ما يهوين ومن أولئك (شغب) أم الخليفة المقتدر، وأُثرها في سياسة الدولة وكذلك قهرماناتها[١] لما تمتعن به من حظوةٍ عند الخلفاء.

قلنا كانت الأسواق ودور النخاسة معرضاً للجواري اللائي يجلبنَ من أصقاع مختلفة وكانت أثمانهن تختلف وتتفاوت من واحدةٍ لأخرى على حسب ما تملكه الواحدة منهنّ من جمال ومواهب أخرى قد تخفي على واحد وتظهر لآخر. يقول الجاحظ: «فإن الرقيق تجارة من التجارات تقع عليه المساومات والمشارات بالثمن. ويحتاج البائع والمبتاع إلى أن يستشفا العلق[٢] ويتأملاه تأملاً بيناً يجب فيه خيار الرؤية المشترط في جميع البياعات وأن كان لا يعرف مبلغه بكيلٍ ولا وزنٍ ولا عددٍ ولا مساحة؛ فقد يعرف بالحسن والقبح. ولا يقف على ذلك أيضاً إلا الثاقب في نظره، الماهر في بصره، الطبّ[٣] بصناعته؛ فإن أمر الحسن أدق وأرق من أن يدركه كل من أبصره»[٤]. فكانت الجارية تعرض في السوق لتعرف خصائصها وميزاتها من كونها مغنية أم شاعرة أو غير ذلك من سمات له أثره في تحديد سعرها على وفق ما تحمله من ميزات، فقد كان للقيان اللائي شهرن بالغناء أثمان مرتفعة على حساب غيرهن، وحسبنا الاطلاع على الأسعار اللائي شريت به كل من بذل عريب وغيرهن[٥]، وفي حوالي حوالي سنة (٣٢٥هـ) اشترى ابن رائق أمير العراق جارية مولدة كانت لابنة ابن حمدون النديم؛ وهي سمراء موصوفة بحسن الغناء بيعت من

(١) المنتظم، ابن الجوزي: ١٦٦/٦، تاريخ الخلفاء، السيوطي: وينظر: تجارب الأمم، مسكويه: ٢٥٣/٢.
(٢) العِلق: بالكسر: النفيس من كل شيء. اللسان، مادة (علق).
(٣) الطَّبّ: بالفتح الحاذقُ. اللسان، مادة (طبب).
(٤) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٦١/٢ - ١٦٢
(٥) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ١٧/ ٨١، ٢١/ ٧٥، وما بعدها، ١٣/ ٣٧٣.

مواليها بثلاثة عشر ألف دينار، وأعطى من دله عليها ألف دينار[١]. وهذا ما يـدفع الخـاص والعـام إلى الإقبال على شراء واقتناء مثل هؤلاء الجواري، ولو باتبـاع وسـائل مختلفـة تسـهل ذلـك كـما فعـل مـع الخليفة القاهر[٢].

وكان نتيجة لتعدد أوطان هؤلاء الجواري أن شاعت مع شيوعهن ثقافات وأفكار غريبـة عـن طبيعة المجتمع العربي أُثرت سلباً أو إيجاباً في مجرى أفراده، فكان للجواري أُثر على المجتمع البغـدادي - على وجه الخصوص - إذ ساعدن على ابتكار الأزيـاء في المجتمـع، مثـل الكتابـة عـلى الملابـس، كـذلك عملن على إظهار التأنق في الطعام واللبس والسـلوك[٣]. كـما ان طبيعـة المجتمـع العبـاسي الـذي تمتـع بشيء من الحرية تختلف عما هي عليه في الأعصر السابقة وبخاصة فيما هو متعلق بجانب المرأة، قـد هيأ جواً يشيع فيه بعض التحلل والانفلات من كل قيد أخلاقـي أو حشـمة. فقـد صـورت كتـب الأدب مثل هكذا نساء ممن كن جواري على وجه الخصوص، وما أدينـه مـن دور في انحـراف كثـير مـن أبنـاء ذلك العصر، بما وفرته دور النخاسة والمقينين. ويكفيك أن تلقـي نظـرة عـلى كتـاب الأغـاني لأبي الفـرج الأصفهاني ليطلعك على طبيعة نشاطهن في هذا المجال ذلك العصر.

إذ كانت دور المقينين والتي أعدت للهو والمرح وبث الفرح والسرور في نفوس روادهـا مـلأى بالجواري المعنيات اللائي رحن يتزيدن في اتقان الغناء حذقاً لصنعتهن إلى الحد الـذي لا وجـود لشـاغلٍ يشغل الجارية عن طلب هذا الحذق في الصنعة «لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها، مشـاغيل بمـا هـي فيه، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن يلي مجالسـتها عليـه وعليهـا»[٤]. فقـد كانـت الماهرة والحاذقة في صنعتها منهن تروي «أربعة آلاف صوت فصاعداً، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر إذا ضرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت، ليس فيها ذكر الله الا عن غفلة ولا ترهيب

(١) ينظر: المنتظم، ابن الجوزي: ٣٩١/٦.
(٢) ينظر: تاريخ الخلفاء، السيوطي: ٣٥٨، وينظر: العيون والحدائق في اخبار الحقـائق، المؤلـف مجهـول، تحقيـق نبيلـة عبد المنعم داود: ٤ (٢) /١٤ (مطبعة الارشاد - بغداد، ١٩٧٣م).
(٣) ينظر: الظرف والظرفاء، الوشاء: ٣١٧ - ٣٣٠.
(٤) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٧٦/٢ - ١٧٧

من عقاب، ولا ترغيب في ثواب، إنما بنيت كلها على ذكر الزنى والقيادة، والعشق والصبوة، والشوق والغلمة»[١]. وكل ذلك نابع عما نشأن فيه من جو ينتشر فيه التحلل الخلقي والانحياز بالأخلاق إلى مهاوي الرذيلة والموبقات كيف لا، وكل ما يحيط بالقينة في مثل هذا المنشأ يساعدها على الانغماس في كل ما هو قبيح فروادها من المخانيث والمجان والمتهتكين خُلقياً والمستهترين في ركوب المحارم[٢]. كل ذلك أدى إلى نعت معظم القيان بالرذيلة وانحطاط أخلاقهن؛ وقد صنف في ذلك الكثير[٣]. وكانت هناك الراقصات اللائي اتخذن من الرقص ايضاً مهنة لهن؛ سأل الأصمعي أمةً ظريفة فقال: «هل في يدك عمل؟ قالت: لا! ولكن في رجلي»[٤]. إذن فكن في هذه الدور الخاصة يغنين ويرقصن، وكن إلى جانب ذلك يحاولن استمالة قلوب روادهن من الشعراء وأصحاب المال من الموسرين بشتى الوسائل، لما أوتي بعضهن من جمال وحسن حديث، حتى لقد عُشقنَ من بعضهم، فكان «الحسب والنسب الذي بلغ به القيان الأثمان الرغيبة إنما هو الهوى»[٥].

وصرن يظهرن من كيدهن للرجال ما جعلهم يهيمون بهن، لأن «القينة لا تكاد تخالص في عشقها، ولا تناصح في ودها؛ مكتسبة ومجبولة على نصب الحبالة والشرك للمتربطين، ليقتحموا انشوطتها»[٦]، ومن ثم حصولها على الأموال والهدايا، وما ذاك إلا لما تشعر به القينة من ضياع وشقاء، لمعاملتها معاملة السلعة تقتنى إن رغب فيها، وتباع إن مل منها، وقد تنال حريتها في حالات. فكان نتيجة لذلك أن تلاقفتها الأيدي من مصر لمصر ومن بيت لآخر، فصار من الطبيعي أن يشعر بعضهنّ بعدم الثقة بمن يلاقينهم من رجال، بل أصبح رائدهنّ هو المال والهدايا. فعرف أن «حبهنّ حبُ كذوب، وعشقهن عشق مشوب، وهواهن منسوب إلى الملل، ليس بثابتٍ ولا متصل، وإنما هو لطمعٍ وعرضٍ وهنّ سريعات الغرض...

(١) م. ن: ١٧٦/٢

(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٧٦/٢.

(٣) ينظر على سبيل المثال لا الحصر، الظرف والظرفاء للوشاء. فيما هو متعلق بالجواري.

(٤) عيون الاخبار، ابن قتيبة: ١٠٨/٤

(٥) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٦٥/٢

(٦) م، ن: ١٧١/٢.

وإنّ محبتهن تظهر ما ظهرت علامات اليسار والمال، وتنتقل عند الافلاس والأقلال»(١). فكان من أساليب القينة في استمالة الرجل أن تلحظه بطرفها، وتواصله بالابتسامة وتشير إليه بكفها، مع ما تملكه من حلو الحديث فتغازله بالاشعار، ولها من جميل المسامرة مشاركتها له في الشراب، وإيداعها سرها لديه وما يصحب ذلك من بث اللوعة عند اجتماعها به، وإظهار جزعها عند مفارقته وإرسالها الرسائل تشكو فيها وجدها، وغير ذلك من وسائل تحكم فيها قبضتها عليه لنيل مبتغاها(٢).

هذا وقد افاضت كثير من كتب الأدب بذكر نوادر وفكاهات كانت المرأة فيها - حرة أم جارية - تلعب دور البطولة، ولكن جلها كان يدور حول فكاهات فاضحة ليس فيها حشمة أو عفاف، وهذا ما ضربنا عنه صفحاً كما نوهنا. ولكنا سنورد رواية تحمل بين طياتها كيد مثل هكذا نساء في الوصول إلى ما يرمين إليه بالاحتيال والخديعة، وهي لا تخلو من نفسٍ فكهٍ في عرض مجرياتها، يقول صاحب الحيوان، أن امرأة أعرابية واعدت أعرابياً أن يأتيها، فكمن في عشرةٍ(٣) كانت بقرب منزلها، فنظر زوجها فرأى شبحاً في العشرة، فقال: «يا هنتاه(٤) إن إنساناً ليطالعنا من العشرة! قالت: مه يا شيخ، ذاك جان العشرة! إليك عني وعن ولدي!! قال الشيخ وعني يرحمك الله! قالت: وعن أبيهم أن هو غطى رأسه ورقد»(٥) يقول فنام الشيخ وحصلت المرأة على ما أرادت ودبرت. هذا وان الأعراب هم هم أقل اتصالا بمظاهر المدنية، وما يجري في ظلها من تهتك لصور الأخلاق.

وأخيراً لا يمكن الاطمئنان إلى الروايات المروية عن النساء في هذا العصر

---

(١) الظرف والظرفاء، الوشاء: ١٩١.
(٢) تنظر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٧١/٢ وما بعدها، والظرف والظرفاء للوشاء: ١٩١ وما بعدها.
(٣) العشرة: بضم ففتح: واحد العشر. وهو من كبار الشجر له صمغ حلو وفيه حراق مثل القطن يقتدح به، وهو عريض الورق، وله سكر يخرج من شعبه ومواضع زهره. اللسان مادة (عَشَر).
(٤) يا هنتاه: كناية عن المنادى المؤنث الذي لا تريد التصريح باسمه، يقال بالتحريك مع إسكان الهاء في آخرها أو كسرها أو ضمها. انظر: اللسان، مادة (هنن) همع الهوامع، السيوطي، تحقيق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم: ٦١/٣، (دار البحوث العلمية. الكويت سنة ١٩٧٧م). و (هناه) يقال للمنادى المصرح باسمه في التذكير.
(٥) الحيوان، الجاحظ: ١٦٩/٦.

- وعلى وجه الخصوص والتحديد الجواري - من كونهن صاحبات هوى لا يمنعهن وازع أو رادع، وأنهن عامة لسنّ أهل ثقة لما اشتهر من فسوقهن ورذائلهن وإن لهن حبالات ومكائد ترمي الواحدة منهن إيقاع الرجال فيها لنيل طلبتها. نعم، يمكن أن ينطبق هذا القول على صنف منهن وجدن في الحانات ودور المباذل والفسوق، ولكن هل يمكن أن نعمم هذه الصفات على الكل؟ الجواب بالتأكيد النفي. لأن من بين الجواري من تمتعن بأخلاق كريمة وخلال حميدة لم تؤثر عليهن المؤثرات، بل كنّ على نصيب وافر من تهذيب النفس، مبتعدات عن كل شائبة تقدح في ممارساتهن السلوكية. وإلا لو كان العكس لما أقدم أئمة المسلمين على اختلاف عناوينهم على التسري بهن والزواج منهن، فأصبحن ربات بيوتهم وأمهات لأبنائهم. فكان التعميم بأن الجواري لهن من الصفات المذمومة والأخلاق المشوبة أمر يحمل بين طياته كثيراً من المبالغة القائمة من دون دليل قاطع.

المبحث الخامس

مجالس اللهو

أ - الشراب

شهدت مجالس الشراب والقصف تهافتاً عليها على مرّ العصور، وراح روادها يقبلون نحوها أشد الإقبال بدءاً - في تاريخ العرب - من العصر الجاهلي الذي من مظاهره احتساء الخمر من لدن جملة من أبنائه وافتخارهم بذلك، لما توفره لشاربها من لذةٍ ونشوة[1]. غير أن قسماً منهم لم يغفل ما تسببه هذه الخمرة من آثار تترتب على سلوكياتهم فنبذها غير واحدٍ منهم واستهجنها آخرون فأقلعوا عنها وتركوا احتساءها في ذلك العصر[2].

ولكنها بمجيء الإسلام أصبحت رجساً ينبغي أن يجتنبه كل مسلم. يقول تبارك وتعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠)إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ [3]. وهكذا أصبح شربها إثماً لا مندوحة عن تركه والابتعاد عنه، وهي التي طالما تغنى بها الشعراء وغيرهم، فهي أنيسهم في مجالسهم وخلواتهم. ولكن أفئدة كثيرٍ ممن لم يتبع بدقة تعاليم الإسلام ظلت تهوي إليها، وبخاصة في ظل حكومات كان بعض من ساستها ممن يحتسيها، حتى وصل الأمر ببعضهم لدوام معاقرتها أن يشك

---

(١) ينظر على سبيل المثال لا الحصر: الأغاني لأبي الفرج: ٩/٢١ وفيه قول المنخل في الخمر، وكذلك ديوان حسان بن ثابت، تحقيق وتعليق الدكتور وليد عرفات: ١٧ (سلسلة جب التذكارية، ١٩٧١م).

(٢) ينظر: نهاية الارب، النويري: ٨٤/٤.

(٣) سورة المائدة، آية: ٩٠ - ٩١.

في عقيدته، أهو على الإسلام أم لا؟[١]

وما إن يحل عصر بني العباس بخصائص تكوينه، وممارسات مجتمعة، حتى نلمس شيوعاً عاماً في شرب الخمر والميل نحو مجالس اللهو والقصف، في ظل مدنيةٍ اتخذت لها من امتزاج الشعوب صورة في تكوين مجتمع عباسي يحمل خصائص وسمات خاصة به، فكان للاختلاط العرقي أُثر في شيوع هذه الظاهرة؛ هذا من جانب، ويمكن القول أن ما بُذل من جهود هدَّامة حاولت تحطيم البنية العربية بما تحمل من مبادئ ومُثُل وقيم، ومن ثم محاولة زعزعت النظام الإسلامي العام، والانحراف بمن يحمل صفة مسلم عن جادة الخير والصواب، كان عن طريق الإغراء بشرب الخمر، وهذا وحده كافٍ لأن يحط من قيم الفرد إلى مستوى الحضيض لما عبر عن الخمر كونها أم الكبائر. وقد تبنت هذه الفكرة الشعوبية وغير الشعوبية، حركات أم أفراد، فكان هدفهم في «إغراء الناس على الخمر والحض على الإقبال عليها ينطلق من أُثر الخمر في هدم البناء الاجتماعي فكرياً وجسدياً إضافة إلى التحلل من الرادع الديني الذي يحرمها»[٢]. وهذا ما يمكن أن يعد جانباً آخر يعمل على تشجيع الانغماس في ملاذٍ تنوعت أصنافها. فكان نتيجة لذلك ان أمعن كثير من أبناء هذا العصر في ملاهٍ وملذات، تعتبر بصورة واضحة عن التحلل الديني والاجتماعي.

بل راح بعضهم يدمن شربها ليل نهار، كما هو الحال مع ما رواه صاحب الأغاني عن أبي الهندي[٣] بقوله: «أن أبا الهندي اشتهى الصبوح في الحانة ذات

(١) ينظر: تاريخ الطبري: ٢١٠/٧.

(٢) الشعوبية نشأتها وتطورها، الدكتور نزار عبد اللطيف الحديثي، سعيد عبد اللطيف الحديثي: ٥٤، (دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م).

(٣) هو غالب بن عبد القدوس بن شبث بن ربعي، شاعر مطبوع أدرك الدولتين الاموية والعباسية، وكان جزل الشعر، حسن الالفاظ، لطيف المعاني. وانما اخمله وأمات ذكره بعده عن بلاد العرب، ومقامه بسجستان وخراسان، إضافة إلى شغفه بالشراب وفسقه وما كان يتهم به من فساد الدين. حيث استفرغ شعره بوصف الخمر، فهو أول من وصفها من شعراء الإسلام وقد تأثر أبو نؤاس به في وصفها. وقد قيل انه من شدة حبه للخمرة مات مختنقاً بسببها. تنظر ترجمته واخباره في الأغاني: ٣٤٣/٢٠ وما بعدها.

يوم، فأتى خماراً بسجستان في محلة يقال لها كوه زنان - وتفسيره: جبل الخسران - يباع فيها الخمر والفاحشة، ويأوي إليها كل خاربٍ[١] وزانٍ ومغنية، فدخل إلى الخمّار وقال له: إسقني، وأعطاه ديناراً، فكال له، وجعل يشرب حتى سكر، وجاء قوم يسألون عنه فصادفوه على تلك الحال. فقالوا للخمّار: ألحقنا به، فسقاهم حتى سكروا، فانتبه فسأل عنهم، فعرفه الخمّار خبرهم، فقال له: هذا الآن وقت السكر، والآن طاب، الحقني بهم، فجعل يشرب حتى سكر، وانتبهوا فقالوا للخمّار: ويحك! هذا نائم بعد! فقال: لا، ولقد انتبه، فلما عرف خبركم شرب حتى سكر، فقالوا: ألحقنا به، فسقاهم حتى سكروا، وانتبه فسأل عن خبرهم، فعرفه فقال: والله لألحقن بهم، فشرب حتى سكر، ولم يزل ذلك دأبه ودأبهم ثلاثة أيام لم يلتقوا وهم في موضع واحد، ثم تركوا هم الشرب عمداً حتى أفاق، فلقوه»[٢]. وإن كانت هذه الرواية تحمل شيئاً من المبالغة، إلا أنها تعبر عن صورة من صور الإسراف في الشراب.

ولم يقتصر الأمر في مسألة الشراب وإقامة مجالسه على أبناء العامة فحسب، بل لقد وجد هؤلاء لهم العذر في تكالبهم على احتسائه وحضور مجالسه، فيما وجدوه عند بعض أولي الأمر في ذلك الحين سواء كانوا خلفاء أم قادة وولاة من انغماسهم في ملذاتهم، فقد وجدت شخصيات من أولئك تعبُّ الخمر عبّاً، وإن كان التأويل يحمل بين طياته مسوغاً لهم من كونهم لا يتناولون المسكر من الشراب. بل كانوا يشربون ما كان مباحاً في نظر الشريعة وفقاً لمذهب الأحناف[٣]. اذن لما كان بعض من خلفاء بني العباس وولاتهم هم من معاقري الخمر، وبغض النظر عن كون ما يحتسونه مسكراً ام غير مسكر، فقد وجد بعض العامة من أبناء المجتمع العباسي في ذلك الترخيص الذي يبتغونه في انثيالهم على الحانات لشرب الخمر. والمتتبع لكتب التاريخ والأدب التي تتحدث عن هذا العصر يجد أن «قصور

(١) الخارب: اللص. اللسان، مادة (خرب).
(٢) الأغاني، أبو الفرج: ٣٤٤/٢٠ - ٣٤٥.
(٣) في هذه المسألة عند الأحناف خلاف ينظر: كتاب بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، الامام الكاساني: ١١٢/٥ وما بعدها. (دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٢م). وضحى الإسلام: ١١٩/١

الخلافة في عصور كثير من الخلفاء كأنها مقاصف للشراب والسماع والغناء، وبالمثل كانت قصور الأمراء والوزراء وكبار أصحاب المناصب في الدولة وعليه القوم»[١]، فكان الإقبال على شرب الخمرة موجوداً في حيز بعض الخلفاء إلى الحد الذي يقضي بعضهم نخبه بين كؤوسها[٢]. أو ينعت آخر بدوام المعاقرة لها[٣].

وهكذا أقيمت مجالسها في دور مثل هؤلاء الحكام وحضرها معهم بعض علية القوم على اختلاف مناصبهم بل وحتى من قضاة المسلمين[٤].

والحال نفسه مع جملة فئات هذا المجتمع، لا فرق في ذلك بين الجاهل والعالم، فقد عُرف عن ابن دُريد - وهو من علماء العربية - عكوفه وإسرافه في الخمر، فقد قال عنه أبو حفص بن شاهين: «كنا ندخل على ابن دريد، فنستحي مما نرى من العيدان المعلقة والشراب وقد جاوز التسعين»[٥].

وكان يستحب في مجالس الشراب أن تحاط بأنواع الأزهار والرياحين، لذلك عمدوا إلى الحدائق والبساتين لإقامة مجالس شربهم وأنسهم في وقت نضارتها، وهذا ما وفرته الأديرة بما حملته من مزايا فقد كانت «ببساتينها الفسيحة، وقاعات شرابها الباردة؛ مجتمع أهل البطالات ومقصد طلاب اللذات من البغداديين» وإن لم يتوافر مثل هذا الجو لشربهم وأنسهم عمدوا إلى خلقه بشتى الطرق[٦].

قلنا إن الأديرة بما احتوت عليه من طبيعة جميلة، وبما وفرته من خدمات لروادها، أصبحت منتديات يأمها طلاب اللهو والمرح في ذلك العصر وبخاصة أيام الأعياد المسيحية. ففي يوم عيد الفصح ببغداد كان المسلمون والنصارى يقصدون دير سمالو، شرقي بغداد بباب الشماسية على نهر المهدي لحبوته بمظاهر الطبيعة

(١) العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف: ٩٢ (دار المعارف - القاهرة، ط٦، ١٩٨٦م)
(٢) ينظر: تاريخ الطبري: ٢٢٤/٩ - ٢٢٧
(٣) ينظر: مروج الذهب، المسعودي: ١٣١/٤.
(٤) ينظر: الاجوبة المسكتة، ابن أبي عون الكاتب: ١٥٠.
(٥) النجوم الزاهرة، ابن تعزي يردى: ٢٤١/٣ (نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر).
(٦) ينظر: الديارات، الشابشتي: ١٠٢ - ١٠٣.

الجميلة بحيث «لا يبقى نصراني الا حضره وتقرب فيه، ولا أحد من أهل التطرب واللهو من المسلمين إلا قصده للتنزه فيه. وهو أحد متنزهات بغداد المشهورة، ومواطن القصف المذكور»(١).

وفي الأحد الرابع من الصوم المسيحي يكون عيداً في دير درمالس «وعيده أحسن عيد، يجتمع نصارى بغداد إليه، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والخلاعة الا تبعهم. ويقيم الناس فيه الأيام، ويطرقونه في غير الأعياد»(٢).

ودير الثعالب الذي يقع بالجانب الغربي من بغداد، بالموضع المعروف بباب الحديد، هو الآخر مقصد لأهل بغداد لإحاطته بالبساتين واشتماله على الرياحين، فكان لذلك مثابة لأصحاب البطالات واللذاذات(٣). ويقع في عُكبرا دير الخوات بين البساتين والكروم، وعيده الأحد الأول من الصوم المسيحي، ويجتمع فيه كثير من النصارى والمسلمين، ويبلغ اللهو فيه أقصاه في ليلة الماشوش(٤).

وحسب القارئ أن يطلع على كتاب الديارات للشابشتي لينقل له صورةً عن هذه الأديرة في ذلك العصر، وعددها الكبير الذي يؤكد الحرية التي تمتعت بها الطوائف غير المسلمة في ظل الدولة العربية في ممارستها لطقوسها وشعائرها الدينية وغير الدينية في ذلك العصر.

ب - الغناء

اختلف الفقهاء في أمر الغناء وسماعه، فمن متساهل فيه ومتسامح في بعض أشكاله على ما ذهب إليه فقهاء الحجاز، وبين كاره له وغير مجوز فيه على ما ذهب إليه معظم فقهاء العراق، تذبذبت مسألة الغناء بين الحلية والحرمة في الإسلام(٥).

وإذا رجعنا إلى موطن هذا الفن في الجاهلية ألفينا مكة والمدينة قد حظيتا به على وجه الخصوص، لتمتعهما بخصائص معينة كون الأولى منهما مركزاً دينياً

(١) الديارات، الشابشتي: ٩.
(٢) م.ن: ٣
(٣) ينظر: م. ن: ٦١.
(٤) ينظر: م.ن: ٦٠ - ٦١.
(٥) ينظر: العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٦/٧ وما بعدها.

وتجارياً، والأخرى لاشتمالها على البساتين والمتنزهات[١] ولتوافرها على الجواري الأجنبيات المستقدمات إليها. كل ذلك دعاهما لأن يكونا من المدن التي أشتهر فيها الغناء، يقول ابن عبد ربه: «وإنما كان أصل الغناء ومعدنه في أمهات القرى من بلاد العرب، ظاهراً فاشياً وهي: المدينة والطائف وخيبر ووادي القرى ودومة الجندل واليمامة، وهذه القرى مجامع أسواق العرب»[٢].

هذا وكانت طبيعة الغناء ذلك الحين تتسم بالبساطة والتلقائية، لميل الناس إلى الفطرة في حياتهم وفنونهم[٣]. ثم أخذ يتطور تبعاً لروح العصر بدءً بالعصر الإسلامي الذي لم يلمس فيه ارتقاء لهذا الفن وإقبالا عليه إلا في بعض مراحله[٤] إلى العصر الأموي حيث غدا فيه الغناء ظاهرة تلحظ، مما دفع بعضهم إلى تعميم القول بأنه لم يبق إنسان في مكة والمدينة الا وكان يعجب بالغناء وسماعه، وعلى ما في هذا القول من مبالغة كبيرة إلا أننا نقرأ أسماء لمغنين ومغنيات اشتهروا في هذا العصر وحسبك كتاب الأغاني وكتاب نهاية الأرب لتعلم ذلك[٥].

وما ان يحل عصر بني العباس حتى نلحظ حضوراً للغناء كبير في مجالس خاصة وأخرى عامة، ونرى ان الغناء راح يأخذ نمطاً مختلفاً عن السابق، فقد كان لكثرة الفتوح التي حدثت في الاعصر المتقدمة وبدايات هذا العصر، وما لحق ذلك من وفود الكثير من الرقيق المنتمين لأمم مختلفة إلى بلاد العرب وهم محملين بمفردات حضاراتهم أُثر في تطور الغناء في هذا العصر وما تبعه من أعصر فكان شيوع هذا الفن نابع عن مؤثرات مختلفة منها المؤثرات الخارجية التي منها التأثير الفارسي حيث عمل مع مسببات أخرى على بلورة هذا الفن. وهذا ما أكده ابن رشيق بقوله: «حتى جاء الله بالإسلام وفتُحت العراق وجُلب الغناء الرقيق من فارس

---

(١) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ٣٣/٣
(٢) العقد الفريد، ابن عبد ربه: ٢٢/٦.
(٣) ينظر: الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية، الدكتور شوقي ضيف: ٤١ (دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦م).
(٤) العمدة، ابن رشيق القيرواني حققه، وفصه ل، وضبط حواشيه محمد محييِ الدين عبد الحميد: ٣١٤/٢. (مطبعة السعادة بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣م)
(٥) ينظر: الأغاني: ٨/ ٣٤٧، ١٥/ ١١٩. نهاية الأرب: ٤/ ٢٣٩ وما بعدها على سبيل المثال.

والروم، فغنوا الغناء المجزأ المؤلف بالفارسية والرومية وغنوا جميعاً بالعيدان والطنابير والمعازف والمزامير»[١].

والمتطلع في كتاب الأغاني لأبي الفرج يرى وفرة وفيرة من أسماء المغنين والمغنيات لهذا العصر، ونحن نحيل عليه في بيان ذلك.

ثم أن هناك عاملُ آخر ساعد على انتشار الغناء وشيوعه بشكل واضح بين أوساط الناس وعمل على إبراز جملة أسماء لمغنين ذاع صيتهم في الأنحاء في هذا العصر ألا وهو التشجيع والمساندة من معظم خلفاء بني العباس والموسرين له عن طريق عقد مجالسة، فكان هذا بمثابة تمكين لأصحاب هذه الصنعة من أن يجدوا لبضاعتهم هذه السوق الرائجة لدى الخاص والعام، فكان الغناء مهنتهم ومعيشتهم التي تدر عليهم الأموال؛ وهذا ما صوره الجاحظ بقوله أنه: «وقعت بين قومٍ عربدة، فقام المغني يحجز - وكان شيخاً معتلاً بخيلاً - فأمسك رجل بحلقه فعصره، فصاح: معيشتي معيشتي، فتبسم وتركه»[٢].

وكان بسبب الاقبال على هذا الفن، وشيوع حياة الملاهي بأنواعها، والحضور الواسع الذي أكده أصحاب هذه الصنعة أن ارتفعت أثمان الجواري اللائي حذقن الغناء، ويكفي أن نطلع على ما يذل من مالٍ في شراء بذل المغنية وعريب وقلم الصالحية[٣]، ناهيك عما يبذل للجواري المغنيات من هدايا وعطايا. فكان هذا الإقبال على الغناء والسماع سبباً في اعتماد وسائل مختلفة في سبيل الحصول على القينة المغنية، ففي سنة (٢٣١هـ) أمر الخليفة القاهر بتحريم الخمر والغناء، وأمر ببيع الجواري المغنيات على أنهن سواذج لا يعلمن من أمر الغناء شيئاً؛ ثم وضع من يشتري له كل حاذقة بهذا الفن، فصار إليه ما أراد بأرخص الأثمان[٤].

وأصبح لهذه الصنعة تجارة تتمثل في تعليم الجواري الغناء وأساليبه، حتى

---

(١) العمدة، ابن رشيق القيرواني: ٢/ ٣١٤.
(٢) البخلاء، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٢٠٠.
(٣) سبقت الإشارة إلى ذلك قبل قليل.
(٤) الكامل في التاريخ، ابن الاثير: ٢٠٤/٨.

إذا ما حذقنهُ وتمت لهن هذه الصنعة في اداء الفن، بلغن أغلى الأثمان عند ابتياعهن، بسبب الاقبال على الغناء في ذلك العصر. فظهر ما يشبه المدارس لتعليم الغناء، كما هو معروف عن إبراهيم الموصلي، إذ تتلمذت على يديه الجواري المثمنات يُعلمهن فن الغناء[١]. وكذلك كان ابنه إسحاق، فقد كان يعلم بعض الجواري والفتيان، وكان يجني من وراء ذلك المال الوفير[٢]. وقد أفاض صاحب الأغاني بذكر المغنين وأساتذتهم من كلا الجنسين.

وأُشتهر في هذا العصر جملة من المغنين كان أشهرهم إبراهيم الموصلي وابنه إسحاق الذي يعد مدرسةً في أدائه للغناء بما كان يمثله من تجديد وأبكار مع محافظته على الموروث الغنائي، وترى وصف صاحب الأغاني له بأنه «لحق بمن مضى فيه وسبق من بقي، ولحب للناس جميعاً طريقة فأوضحها، وسهل عليهم سبيله وأنارها؛ فهو إمام أهل صناعته جميعاً، ورأسهم ومعلمهم؛ يعرف ذلك منه الخاص والعام، ويشهد به الموافق والمفارق»[٣]، فقد كان يتصرف في جميع الإيقاعات، وخرج بالغناء إلى حد الإيحاء والتعبير في الأداء دون الاقتصار على غاية التطريب فيه[٤]. وهذا ما دفع الواثق إلى القول فيه «ما غنائي إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي، ولا سمعته قط يغني غناء ابن سُريج إلا ظننت أن ابن سُريج قد نُشر... وإن إسحاق لنعمة من نعم الملوك التي لم يحظ أحدُ بمثلها»[٥]. وما من شكٍ في أن إسحاق لم يكن مغنياً على وفق إلهام الصدف وما يوحي إليه الارتجال لما يملكه من صوت حسن، بل كان غناؤه على وفق أسس فنية وأصول محكمة وقواعد مدعمة؛ ولهذا شأن في تفرده بأسلوب خاصٍ به، إذ كان يبدأ دائماً بالطبقات الحادة من اللحن ثم ينخفض منها إلى الطبقات الغليظة، وكل ذلك بترتيب وإتزان، ثم يعود إلى العكس فيصعد إلى الطبقات الحادة. فيكون أداؤه

(١) ينظر الأغاني، أبو الفرج: ١٨٥/٥.
(٢) م.ن: ٣٠٣/٥ - ٣٠٤.
(٣) الأغاني، أبو الفرج: ٢٧٨/٥.
(٤) ينظر العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٦٠ - ٦١.
(٥) نهاية الارب، النويري: ٣/٥.

متنقلاً بين الشدة واللين والعكس، وهذا ما كان يعجز عنه غيره من المغنين[١]. وهو بهذا قد كون مدرسة غنائية تقتفى آثارها ويسار على نسجها فيما تلاها من حقب[٢].

ومما يمكن عده نقطة تحول في الغناء وأُثره الواسع في المجتمع على اختلاف طبقاته أن كثر التأليف الموسيقي كما هو معروف عن الخليل وتأليفه جملة مصنفات منها كتاب النغم وكتاب الإيقاع[٣]، وظهرت لإسحاق الموصلي كتب مختلفة في الغناء والموسيقى[٤]، وقد أدلى الفلاسفة في ذلك العصر بدلوهم في التأليف الموسيقى، كما هو معروف عن الفيلسوف الكندي وتأليفه لكتب عدة في هذا المجال[٥]، والسرخسي، وكان تلميذاً للكندي هو الآخر كانت له مصنفات في الموسيقى أيضاً[٦]، وقد وقد برع بعضهم في إضفاء لمساتٍ على بعض الآلات القديمة بما استحدث فيها من تطوير وتجديد في طبيعتها كما هو الحال مع الفارابي الذي أدخل تحسينات على آلة القانون، ويكفي لمعرفة مدى الاهتمام الكبير والموجه نحو الموسيقى في هذا العصر، الاطلاع على كتاب الموسيقى الكبير للفارابي، وما أُفرغ فيه من جهد لبيان هذا الفن.

ومن الملاحظ أن الغناء بما احتله من حيزٍ وسط الفنون، وبما مثله من ظاهرة بسطت سلطانها على أرجاء المجتمع العباسي، مكنه ذلك من أن يتعشقه معظم أبناء ذلك المجتمع وبخاصة بعض الخلفاء وذويهم، حيث لم يتوقف الأمر على التلذذ بالسماع، واقتنائهم للجواري المغنيات في قصورهم، وإرسالهم في

(١) ينظر: إسحاق الموصلي الموسيقار النديم، الدكتور محمود أحمد الحفني: ٢٠٧ (الدار المصرية للتأليف والترجمة) (سلسلة أعلام العرب ٢٤).
(٢) ينظر: العصر العباسي الثاني، الدكتور شوقي ضيف: ٨٦، وفيه عرض لبعض من تأثر بطريقة غنائه.
(٣) ينظر: الفهرست، ابن النديم: ٤٩.
(٤) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ١٥٨.
(٥) ينظر: م. ن: ٣١٥.
(٦) ينظر: الفهرست، ابن النديم: ٢٢١.

طلب من اشتهر بحذقه لإحياء مجالسهم ومنادماتهم، بل راح بعضهم يمارسه بنفسه، واشتهر بما لديه من أصوات فيه. فكان الواثق (٢٠٠ - ٢٣٢هـ) «أعلم الناس بالغناء، وبلغت صنعته مائة صوت، وكان احذق من عنى بضرب العود»[١]، والمنتصر بالله (٢٢٣ - ٢٤٨هـ) له دراية في الغناء، فكان يضع أصواتاً على ما يقوله من شعر، ثم يأمر المغنين بإظهاره[٢]. وهناك المعتز بالله (٢٣٢ - ٢٥٥هـ) الذي غنى أصواتاً، والمعتمد وهو صاحب صنعة حسنة فيه. وأشتهر كذلك المعتضد (٢٤٢ - ٢٨٩هـ) الذي «صنع ألحاناً في عدة أشعار قد صنع فيها الفحول من القدماء والمحدثين، وعارضهم بصنعته فأحسن وشاكل وضاهى فلم يعجز ولا قصر، ولا أتى بشيءٍ يعتذر منه»[٣]. وقد تسود هذا الأمر أيضاً أبناء الخلفاء، وعلى رأسهم إبراهيم بن المهدي، وهو صاحب مدرسة التجديد في الغناء وله أنصار في الغناء تأُثروا به وساروا على نهجه في الأداء[٤]، وله شهرة ذائعة الصيت فقد «كان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات وأطبعهم في الغناء وأحسنهم صوتاً»[٥]، وقد ترجم له صاحب الأغاني[٦]. وكانت أخته علية بنت المهدي على شاكلته، والتي قيل فيها وفي أخيها إبراهيم«ما اجتمع في جاهلية ولا إسلام أخ وأخت أحسن غناء من إبراهيم بن المهدي وأخته عليه»[٧]، فقد كانت شاعرة تقول الجيد من الشعر، وفيه تصنع اللحن الجميل[٨]. كما ظهرت أسماء أخرى مثل أبو عيسى بن المتوكل، الذي جمع له أكثر من ثلثمائة صوت[٩]، وعبد الله بن المعتز، وكان«حسن العلم بصناعة

(١) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ٣١٧/٩، نهاية الارب، النويري: ٢٠٢/٤.
(٢) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ٣٤٣/٩، نهاية الارب، النويري: ٢٠٢/٤.
(٣) نهاية الأرب، النويري: ٢٠٤/٤.
(٤) ينظر العصر العباسي الثاني، شوقي ضيف: ٨٦ وما بعدها وفيه عرض لأسماء جملة ممن تأثر بأسلوبه في الغناء.
(٥) نهاية الارب، النويري: ٢٠٦/٤
(٦) ينظر: الأغاني، أبو الفرج: ١٠/ ١١٩ وما بعدها.
(٧) م.ن: ٢١٢/٤
(٨) ينظر: م.ن: ٢١٣/٤
(٩) ينظر: م.ن: ٢٢٥/٤

الموسيقى والكلام على النغم وعللها، وله في ذلك وفي غيرها من الآداب كتب مشهورة»[١].

وبالمثل فقد تولع بعض القادة والولاة بالغناء سماعاً وإنشاداً، فقد أُثر عن أبي دلف العجلي صنعة حسنة في الغناء مع«محله من الشجاعة وبعد الهمة وعلو المحل عند الخلفاء. وعظم الغناء في المشاهد وحسن الأدب وجودة الشعر»[٢]. أما عبد الله بن طاهر بن الحسين فكان مع ماله من شأن في في تقلد الولايات مثل مصر والجيزة وخراسان، وما له من شجاعة وإقدام معروف، كان يصنع الأصوات في الغناء، إلا أنه يتنزه عن نسبته إليه[٣].

وهكذا أحب الناس الغناء وراحوا يرتادون دور القيان للسماع والمتعة، متناسين تبعات حياتهم اليومية فكان له«أُثر أي أُثر، فقد شغلوا به أي شغل، وكأنه نعيمهم من دنياهم الذي لا يؤثرون سواه لما يبعث في نفوسهم من غبطة وابتهاج»[٤]. فكانت الجواري المغنيات إلى جانب حلاوة أصواتهن يتمتعن بجمالٍ فائق تبدو فيه أنوثتهن بأظرف صورة، فأصبح الإقبال عليهن كبير من العامة والخاصة، لاستملاح السماع منهن فحظين. بحضور أوسع من حضور أقرانهن من المغنين الرجال، بوصفهم دخلاء على هذا الفن، على عكس النساء اللائي يزداد الفن جمالا بأدائهن له. وهذا ما رآه الجاحظ من قبل، بأحداثه مقارنة لطيفة لا تخلو من روح فكهة بين المغنين من كلا الجنسين، فهو يقول: «وكم بين أن يسمع الغناء من فمٍ تشتهي أن تقبله، وبين فمٍ تشتهي أن تصرف وجهك عنه»[٥]، ثم هو يحدث مقارنة شكلية بين الرجال والنساء من المغنين، فيقول: «فأيما أحسن وأملح، وأشهى وأغنج، أن يغنيك فحل ملتف اللحية، كثّ العارضين، أو شيخ منخلع الأسنان،

(١) الأغاني، أبو الفرج: ٢٢٦/٤
(٢) م.ن: ٢٣١/٤ وما بعدها
(٣) م.ن: ٢٣٦/٤
(٤) العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٥٩
(٥) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٤٤/٣.

مغضن الوجه، ثم يغنيك إذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير[١]:

رأيـــتُ زهـــيراً تحـــتَ كَلْكَـــلِ خالـــدٍ فأقبلـــتُ أســـعى كـــالعجولِ أبـــادرُ

أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس، أو كانها ياسمينةٌ، أو كأنهـا فرطـت مـن ياقوتـةٍ، أو مـن فضة مجلوة بشعر عكاشة بن محصن[٢]:

مـــن كـــفِّ جاريـــةٍ كـــأنَّ بنانَهـــا مـــن فضَّـــةٍ قـــد طُرِّفـــت عُنَّابـــا

وكـــأنَّ يُمناهـــا إذا نَطَقَـــتْ بـــه أَلقـــتْ عـــلى يـــدِها الشِّـــمال حســـابا[٣]

وهكذا انتشر الغناء في هذا العصرـ وأصبح ظـاهرة تلفـت الأنظـار إليهـا لكـثرة مـن مارسـه وبخاصة في بغداد حاضرة الخلافة العباسية، ويلحظ هذا من الإحصاء الذي عمله التوحيدي للمغنين في بغداد، فيقول: «وقد أحصينا أربعمائة وستين جارية في الجانبين، ومائة وعشرة حرَّة، وخمسـة وتسـعين من الصبيان البدور يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة، هذا سوى من كنا لا نظفـر بـه ولا نصل إليه»[٤]. فكان الماشي في أسواق بغداد وهو من أهل التقوى يضع إصـبعيه في أذنيـه مـن أصـوات العزف وغناء الجواري[٥]. وهذا ما دفع الدكتور شوقي ضيف إلى القول بأنه لم يبق في بغداد أو البصرة أو الكوفة سريّ إلا اقتنى قينة أو مجموعة

(١) انظر: مقتل زهير بن جذيمة العبسي، الأغاني؛ أبو الفرج: ٩٤/١١.

(٢) الشعر: لعكاشة بن عبد الصمد العمي البصري، وهو من شعراء الدولة العباسية وكان مـن المقلـين في الشـعر، وهـو من بني العم الذين نزلوا البصرة بين بني تميم أيام عمر بن الخطاب والذين قال عنهم الناس لبأسـهم الجميـل في الإسلام بعد إسلامهم: «أنتم وان لم تكونوا من العرب، إخواننا وبنو العم، فعرفوا بذلك فصاروا في جملـة العـرب». وقد نسبت الأبيات خطأً إلى عكاشة بن محصن الصحابي إذ لم يؤثر عنه شعر، وهـذا مـا ذهـب إليـه عبـد السـلام محمد هارون في تحقيقه. وفي الأبيات اختلاف في روايتها. ينظر: الأغاني: ٢٥٤/٣ وما بعدها، سمط الـلالي، البكـري، تحقيق عبد العزيز الميمي: ٥٢٦/١ وما بعدها (دار الحديث، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م)، زهر الاداب: ٦٦٣/٣، نهايـة الارب: ١١٤/٥، الاصابة، ابن حجر العسقلاني، ترجمة رقم (٥٦٢٦) (مطبعة مصطفى محمد - مصر، ١٩٣٩م).

(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١٤٤/٣ - ١٤٥.

(٤) الامتاع والمؤانسة، التوحيدي: ١٨٣/٢

(٥) المنتظم، ابن الجوزي: ٥(٢)/٤٨.

قيان، يعملن على إشاعة المرح والسرور في داره[1]. ولكن في هذا القول الكثيرُ من المبالغة، إذ على الرغم من طغيان مظاهر الخلاعة والمجون الذي تشيعه بعض تلك الجواري، إلا أنه ظلت هناك بيوتات كان سميرها تلاوة القرآن وديدنها العبادة، ضاربين صفحاً عن كل ما من شأنه أن يقدح في دينهم، ويحط من سلوكياتهم.

(١) ينظر العصر العباسي الأول، شوقي ضيف: ٦٢.

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية

المبحث الأول

الفكاهة الترفيهيَّة

وقصدها قبل كل شيء الترويح عن النفس والنأي بها عن آلامها، بتجاوز معاناتها وإبعادها عن كل ما يثقلها ويرهقها - ولو برهة وجيزة - بضحكة تتولد عن موقف معين يراه المرء أو نادرة يسمعها فيهش لها ويستبشر.

لذلك ورد الكثير من النوادر والنكات الطريفة في كتب الأدب، التي وقعت بين أفراد تندر فيها بعضهم على بعض، لا بقصد الانتقاص والتشفي بل هي ترد بدافع الضحك فقط، وهي بهذا أقرب إلى المزاح الذي ينفي عن النفس ما طرأ عليها من سأم، ويزيل ما علق بالقلب من هم.(١) فكانت الفكاهة بما تولده من ضحكات بمثابة المنفذ الذي يلج المرء فيه إلى كون أفسح يعيد إليه طفولته الأولى وكأن لا وجود لألم قاساه. كل ذلك فرار من تبعات هذه الحياة القاسية.

وبالجملة فقد تنوعت الموضوعات التي قيلت في هذه الغاية من الفكاهة، وإن لم تكن هي المقصودة أو المعنية بالتسجيل، بل ما اشتملت عليه هذه الموضوعات من هزل وتهكم وسخرية الغرض من كلها الاضحاك ثم الترويح عن النفس لا غير.

أ - وصف الحيوان:

وهذا النوع من الكتابة النثرية التي سعى فيها منشئوها أو الناقلون لها في كتبهم إلى إحداث نوع من الراحة النفسية، بطرح موضوعات القصد من ورائها إضحاك المتلقي بكتابات قائمة على التوظيف الهازل والساخر لموضوع ما يصبح

---

(١) ينظر: أبو حيان أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، الدكتور زكريا إبراهيم: ٢٤٩ (سلسلة أعلام العرب (٣٥)، الدار المصرية للتأليف والترجمة).

معه هذا الموضوع نادرة طريفة تتلاقفها الألسن وتحفظها الصدور.

ويعد موضوع وصف الحيوان أو الحكاية على لسانه من موضوعات الاصالة في الأدب العربي، فقد شاع هذا الاتجاه في الكتابة لدى جملة من كتاب هذا العصر حتى أنه برز كظاهرة[١]، ولا يعني هذا أن موضوع (أنسنة الحيوان) وليد كتاب هذا العصر وحدهم ونتاج فكرهم دون سواهم، بل إن هناك من وظف هذا الفن في أسلوبه الأدبي منذ اعصر سبقت هذا العصر فكان أسلوب (أنسنة الطبيعة) بشكل عام من أساليب الشعراء حيث تمتد جذوره إلى حقب الجاهلية عندما اسبغ نفر من شعرائها على بعض مشخصاتهم صفاتاً إنسانية مثل الكلام والبكاء وغير ذلك؛ و الشعر العربي شاهد على هذا الأسلوب[٢].

وهكذا بلغ هذا الموضوع قصاراه في العصر العباسي بسبب التطور الحضاري كتلاقح الأفكار العربية بغيرها، لذلك فإنا نراه قد احتوى من خصائص الأسلوب ما لم يكن معروفاً من قبل، ويكفي أن تلقى نظرة على آثار هذا الموضوع ليعلم ذلك.

فمن ذلك أن عبد الله بن يحيى بن خاقان[٣] حمل أبا العيناء على دابة، فأخذها منه ابنه، وأخبره بأنه سيبعث إليه بخير منها. فلما لقيه - بعد أن تأخر عليه في إعطائه الدابة - وسأله عن حاله قال: «بخير، يا من أبوه يحمل وهو يُرْجِل. فقال:

(١) كما هو الحال مع كتاب كليلة ودمنة لابن المقفع، ورسالة تداعي الحيوانات على الإنسان لاخوان الصفا، ورسالة الغفران لأبي العلاء.

(٢) ينظر: ديوان عنترة، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي: ٢١٧ (المكتب الإسلامي، ١٩٧٠م)، وديوان النابغة الذبياني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ٢٠، ٨٩، (دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية).

(٣) الصواب عبيد الله، وكنيته أبو الحسن، من وزراء بني العباس المقدمين، صاحب عقل وحزم، عمل وزيراً للمتوكل ثم المعتمد، واستمر في الوزارة إلى ان توفي سنة (٢٦٣هـ) ينظر: تاريخ الطبري: ٢٤٦/١١، الديارات: ٨٢، دول الإسلام، الذهبي: ١/ ١٢٥ (مطبعة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، ١٣٣٧ هـ

أنا انفذ إليك بغلاً فارهاً بغير تأخر، فتأخر عنه ثم لقيه فقال كيف حالك يا أبا عبد الله؟ قال: راجل أصلحك الله! فضحك وانفذ إليه بغلا وزعم أبو العيناء إنه غير فاره»[١] فكتب إلى أبيه:

«أعْلِمُ الوزير أعزه الله، إن أبا علي محمداً أراد ان يبرني فعقني، وإن يركبني فأرجلني وأمر لي بدابة تقف للنبرة[٢]، وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عجفا[٣]؛ وكالعاشق المجهور[٤] [كذا] دنفا[٥]، وقد ذكرت الرواة عذرة العذري[٦]، والمجنون العامري، مساعد أعلاه لاسفله حباقه مقرون بسعاله، فلو أمسك لترحيب، ولو أفرد لتعزيت، ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد»[٧].

ويعني أبو العيناء بإيراد التفصيلات في وصف هذه الدابة، من إنها تجفل من كل صوتٍ يطرق سمعها، فهي لا تقوى على المسير بل هي تتعثر بأدنى شيء يواجهها على الأرض وكأنها من شدة ما بها من ضعف ووهن عاشق ولهان بمحبوبته يتخبط هنا أو هناك، مشابهة بحالها هذه حال من عشق وشهر بذلك كالعذري والعامري اللذين يستذكرهما الرأي لها، إضافة لما لها من صفات الضعف الأخرى التي جعلتها للناس أضحوكة، وموضع سخرية النساء والأطفال، فراحوا يتندرون بأبي العيناء والذي نراه يقول في ذلك: «تضحك من فعله النسوان، وتتناغى

(١) الزيادة في جمع الجواهر، الحصري القيرواني: ٣٥٢ (طبعة مصر، ١٩٥٣ م).
(٢) نبَرَ الشيء رفَعَه وبابه ضرَب ومنه سمي المنبر. اللسان، مادة (نبر)، والمقصود انها تقف عند كل مرتفع يواجهها.
(٣) عجف نفسه عن لطعام يعجفها عجفاً وعجوفاً وعجفها حبسها عنه وهو له مشته ليؤثر به غيره. اللسان، مادة (عجف)، والمراد كون هذه الدابة هزيلة وضعيفة
(٤) في جمع الجواهر: ٣٥٢ (المجهود).
(٥) الدّنف. المرض الملازم المخأمر، وقيل هو المرض ما كان، ورجل دنفٌ ودنِف ومدنف براه المرض حتى شارف على الموت. اللسان، مادة (دنَف).
(٦) هنا تصحيف والصواب (عروة العذري) ينظر: جمع الجواهر: ٣٥٣.
(٧) زهر الأدب، الحصري القيرواني: ٢ / ٥٨٧.

من أجله الصبيان، فمن صائح يصيح: داوه بالطباشير، ومن قائل يقول: نوله الشعير، قد حفظ الأشعار، وروى الأخبار، ولحق العلماء في الأمصار، فلو أعين بنطق؛ لروى بحق وصدق، عن جابر الجعفي[(١)] وعامر[(٢)] الشعبي[(٣)] ».

فبعد أن عرض أبو العيناء سخرية الناس ببرذونه وكيف أنهم استهزؤوا به بنصيحتهم له بأنه مريض فيجب معالجته بالطباشير، بينما قال آخرون إن شفاءه أن يجعل له الشعير ليأكله.

ويخلص أبو العيناء إلى صورة أكثر سخرية عند وصفه لهذا البرذون، بتأكيده أن داءه لا علاج له، لأنه كبير بل بالغ في هذا الكبر بتقريره بأنه لو أتيح له النطق لروى عن الجعفي والشعبي لأنه قديم العهد قد أدركهما فهو من المعمرين الذين أتت عليهم السنون فأكل عليه الدهر وشرب.

ثم إنه يخفف وطأة تعريضه الساخر بالدابة التي أهداها إليه ابن الوزير، بأن يحمل كاتبه الذنب لأنه اختارها وبئس ما كان اختياره، يقول: «وإنما أوتيت من كاتبه الأعور، الذي إذا اختار لنفسه اطاب واكثر، وإن اختار لغيره اخبث وأنزر؛ فإن

---

(١) أبو عبد الله جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي، تابعي من أهل الكوفة، و كان واسع الرواية غزير العلم بالدين، وله عدة مصنفات، توفي في الكوفة سنة (١٢٨ هـ) ينظر: الرجال، أبو العباس النجاشي: ٩٩ (من منشورات مركز نشر- كتاب)، فهرست الطوسي، تصحيح وتعليق السيد محمد صادق بحر العلوم: ٤٥ (نشر- المكتبة المرتضوية ومطبعتها- النجف)، وتهذيب التهذيب، ابن حجر العسقلاني: ٢ / ٤٦ (دار صادر - بيروت).

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن سراحيل بن ذي كبار الشعبي الحميري، راوية من التابعين، كثير الحفظ، ولد في الكوفة سنة (١٩ هـ) ونشأ فيها. وقد اتصل بعبد الملك بن مروان وكان نديمه وسميره ورسوله إلى ملك الروم. وكان فقيهاً شاعراً، وولي القضاء لعمر بن عبد العزيز، توفي في الكوفة سنة (١٠٣هـ). ينظر: حلية الأولياء، الحافظ أبو نعيم الأصفهاني: ٤ / ٣١٠ (مطبعة السعادة - مصر، ١٩٣٣ م)، تاريخ بغداد: ١٢ / ٢٢٧، ، وفيات الاعيان، ابن خلكان، تحقيق وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد: ٢٢٧/٢ (مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٤٨)، تهذيب التهذيب: ٦٥/٥.

(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٥٨٧/٢.

رأى الوزير أن يبدلني به، ويريحني منه بمركوب يضحكني كما ضحك مني، ويمحو بحسنه وفراهته، ما سطره العيب بقبحه ودمامته؛ ولست اذكر أمر سرجه ولجامه؛ فإن الوزير أكرم من أن يسلب ما يهديه، أو ينقض ما يمضيه»[١].

فوجه إليه الوزير برذوناً بسرجه ولجامه، ثم انه اجتمع مع أبنه وأبي العيناء، فأخبره بأن ابنه يشتري منه البرذون السابق الذي وقع عليه الوصف بمائة دينار، ومن بلغ هذا السعر هذا لا يعد سيئا ويشتكى منه، فقال أبو العيناء: «اعز الله الوزير، لو لم أكذب مستزيدا لم انصرف مستفيدا، واني وإياه لكما قالت امرأة العزيز: (الْآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ)[٢] فضحك عبيد الله، وقال: حجتك الداحضة بملاحتك وظرفك ابلغ من حجة غيرك البالغة»[٣].

فمن خلال وصف أبي العيناء المبالغ فيه للبرذون الذي أهدي إليه والذي صب فيه كل نادر وظريف من المعاني بأسلوب هازل مضحك تمكن من الوصول إلى مبتغاه في حصوله على دابة أخرى هي أحسن من الأولى وتفوقها في صفاتها وسماتها.

ويمكن القول إن ذلك كله لم يتهيأ لأبي العيناء إلا بفضل ماتمتع به من ظرافة في التعبير ولطافة في إيراد النادرة التي تنم عما اشتمل عليه هذا الأديب من فطنة وجرأة في القول، وهذا ما ظهر في رسالته السالفة التي «تجمع بين فن الرسائل الاخوانية وبين أدبه الذي يظهر فيه ميله إلى الأسلوب القصصي والإشارات التاريخية والقرآنية، ويظهر بين هذه وتلك ذكاؤه الحاد وروحه المرحة التي جعلته قريبا إلى نفوس الوزراء قرب الصديق إلى صديقه لا قرب النديم إلى رئيسه أو سيده»[٤].

(١) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٥٨٧/٢.
(٢) سورة يوسف، آية: ٥١.
(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٥٨٨/٢.
(٤) أبو العيناء الاديب البصري الظريف، الدكتورة ابتسام مرهون الصفار: ٦٩ (دار الكتب للطباعة

=

ولم يكن أبو حيان وحده من طرق هذا الباب بأسلوب السخرية والتندر، بل هناك شخصيات أدبية معروفة هي الأخرى ولجت هذا الميدان في تصويرها للحيوان بالأسلوب النثري الهازل والغاية من كل ذلك - كما قلناـ الاضحاك الهزل اللطيف، ومن هؤلاء الكتاب أبو إسحاق الصابي[(١)]، الذي كتب كتاب تعزية لأبي بكر بن قريعة[(٢)]، في ثور أبيض نفق يعود له، حيث جلس للعزاء تراقعاً وتحامقاً، فكتب أبو إسحاق إليه قائلا:

«التعزية على المفقود أطال الله بقاء القاضي إنما تكون بحسب محله من فاقده، من غير أن تراعى قيمته ولا قدره، ولا ذاته ولا عينه؛ إذ كان الغرض منها تبريد الغلة، واخماد اللوعة، وتسكين الزفرة، وتنفيس الكربة، فرب ولد عاق، وشقيق مشاق، وذي رحم أصبح لها قاطعا، [ولأهله فاجعاً]، وقريب قوم قد قلدهم عارا، وناط بهم شناراً، فلا لوم في ترك التعزية عنه، وأحر بها أن تستحيل تهنئة

=

والنشر، بغداد، ١٩٨٨ م).

(١) هو إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون الحراني، من الأدباء ولد سنة (٣١٣ هـ)، تقلد دواوين الرسائل والمظالم والمعاون في أيام المطيع لله العباسي، ثم تقلد ديوان رسائل معز الدولة الديلمي سنة (٣٤٩ هـ)، وخدم بختيار عز الدولة ابن معز الدولة، وكانت تصدر منه مراسلات على لسان عز الدولة إلى ابن عمه عضد الدولة بما يؤلمه فحقد عليه، ولما ولي عضد الدولة الحكم قبض على أبي إسحاق واودعه السجن سنة (٣٦٧ هـ) وأمر بأخذ أمواله، ولما ولي صمصام الدولة ابن عضد الدولة اطلقه سنة (٣٧١ هـ) وقد شهد له بثباته على دينه إذ عرض عليه معز الدولة الوزارة شريطة التخلي عن دينه وإسلامه فامتنع، وكان حضياً عند الصاحب بن عباد فنال جوائزه، وله مؤلفات متنوعة، وتوفي سنة (٣٨٤ هـ)، ينظر: الامتناع والمؤانسة: ٦٧/١، يتيمة الدهر، الثعالبي، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد: ٢/ ٢٤٢ (المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة، ١٩٥٦ م)، وفيات الاعيان: ١ / ٣٤.

(٢) محمد بن عبد الرحمن، وابن قريعة لقب جده. قاض من اهل بغداد، اختص بالوزير أبي محمد المهلبي، ونديما لعز الدولة بن بويه. اشتهر بسرعة بديهته في الجواب عما يسال عنه، له كتاب مدون فيه أجوبته. ينظر: تاريخ بغداد: ٣١٧/٢، وفيات الاعيان: ١٧/٤، الوافي بالوفيات: ٢٢٧/٣، البداية والنهاية، ابن كثير الدمشقي: ٢٩٢/١١ (مكتبة المعارف - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧ م).

بالراحة منه؛ ورب مال صامت غير ناطق، قد كان صاحبه به مستظهراً، وله مستثمرا، فالفجيعة به إذا فقد موضوعة موضعها، والتعزية عنه واقعة منه موقعها»[١].

فأبو إسحاق يمهد للخلوص لموضوع كتابه في تأبين هذا الثور الأبيض بإحداث مقارنة في طبيعة حال المفقود، ومدى قربه إلى نفس المفقود له وأثر المصاب في ذويه. فمدار الأمر في عظم المصاب وحرارة التعزية هو في مدى الاستفادة من هذا المفقود وما يؤديه من خدمة، بغض النظر عن طبيعته وجنسه. ثم يتجاوز أبو إسحاق إلى موضوعة الأساس بالأسلوب نفسه حيث يقول: «وقد بلغني أن القاضي قد أصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكيا، وأجهش عليه باكيا، والندم عليه والهاً، وحكيت عنه حكايات في التأبين له، وإقامة الندبة عليه، وتعديد ما كان من فضائل البقر التي تفرقت في غيره، واجتمعت فيه وحده؛ فصار كما قال أبو نواس، في مثله من الناس:

لَيْسَ على اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ ... أنْ يَجمَعَ العالَم في واحِدِ[٢]

لأنه يكرب الأرض مغمورة، ويثيرها مزروعة، ويرقص في الدواليب ساقيا، وفي الأرحاء طاحنا، ويحمل الغلات مستقلا، والاثقال مستخفا؛ فلا يؤوده[٣] عظيم، ولا يعجزه جسيم، ولا يجري في الحائط مع شقيقه، ولا في الطريق مع رفيقه، إلا كان جلداً لا يسبق، ومبرزاً ولا يلحق، وفائتاً لا ينال شأوه وغايته، ولا يبلغ مداه ونهايته »[٤]. فهذا الثور بما حمل من صفات متنوعة - تحمل فائدة لصاحبه القاضي - قد فاق أبناء جنسه من البقر، وكأن جميع صفات البقر مجموعة في شخص هذا الثور الذي عظمت فيه الحكايات التي تروي مآثره ومحاسنه. ثم يرتفع

(١) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٤/ ١٠٣٢ - ١٠٣٣.
(٢) صدر البيت (وليس لله بمستنكر) في ديوان أبي نؤاس الحسن بن هانئ، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي: ٤٥٤، (دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان).
(٣) آداه الأمر أو داً واووداً بلغ منه المجهود والمشقة. اللسان مادة (اود).
(٤) زهر الأدب، الحصري القيرواني: ١٠٣٣/٤.

أبو إسحاق الصابي في سخريته وهزله بأن يصور عظم هذا المصاب الجلل الذي حل عليه وأثر فيه، بقوله: «ويشهد الله ان مساءه ساءتي، وما آلمه آلمني، ولم يجز عندي في حق وده استصغار خطب جل عنده، فأرقه وامضه واقلقه، ولا تهوين صعب بلغ منه وارمضه[١]، وشفه[٢] وأمرضه؛ فكتبت هذه الرقعة، قاضيا بها من الحق في مصابه هذا بقدر ما ظهر من إكباره إياه، وإبان من اعظامه له»[٣].

ثم يخلص بالدعاء لهذا النور بأن يدخله الله فسيح جناته. وما هذا الدعاء إلا صورة من صور الاستهزاء التي اتخذها أبو إسحاق في قطعته النثرية هذه عن طريق تمنيه على الله بأن يجمل هذا الثور بهيأة تعجز عن وصفها العيون، كأن يكون من العنبر وماء الورد فيشع بذلك نوراً وعطرا. يقول: «وأسأل الله تعالى أن يخصه من المعوضة بأفضل ما خص به البشر، عن البقر، وان يفرد هذه البهيمة العجماء بأثرة من الثواب، يضيفها إلى المكلفين من ذوي الألباب؛ فإنها وان لم تكن منهم فقد استحقت إلا تفرد عنهم، بأن مس القاضي سببها، وصار إليه منتسبها، حتى إذا أنجز الله ما وعد به [عبادة المؤمنين] من تمحيص سيأتيهم، وتضعيف حسناتهم والإفضاء بهم إلى الجنة التي رضيها لهم دارا، وجعلها لجماعتهم قرارا؛ وأورد القاضي - أيده الله تعالى - موارد أهل النعيم، مع أهل الصراط المستقيم، جاء وثوره هذا مجنوب معه، مسموح له به؛ وكما ان الجنة لا يدخلها الخبث، ولا يكون من أهلها الحدث، ولكنه عرق يجري من أعراضهم، كذلك جعل الله ثور القاضي مركباً من العنبر الشخري، وماء الورد الجوري؛ [فيصير ثوراً له طورا؛ وجونة عطر له طورا] وليس ذلك بمستبعد ولا مستنكر، ولا مستصعب ولا متعذر؛ إذ كانت قدرة الله بذلك

---

(١) الرَّمَض بفتحتين شدة وقع الشمس على الرمل. اللسان، مادة (رمض)، والمراد أن موت هذا الثور ولد حرقة في نفس صاحبه.
(٢) شَفَّه الحُزنُ والحُبُّ يَشُفُّه شفّاً وشُفُوفاً لَذَع قلبه وقيل أنحله وقيل أذهب عقله. اللسان، مادة (شفف).
(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ١٠٣٣/٤.

محيطة ومواعيده لأمثاله ضامنة، بما أعده الله في الجنة لعباده الصادقين وأوليائه الصالحين؛ من شهوات أنفسهم وملاذ أعينهم، ما هو سبحانه مع غامر فضله وفائض كرمه؛ بمانعه ذلك مع صالح مساعيه، ومحمود شيمه؛ وقلبي متعلق بمعرفة خبره، أدام الله عزه فيما ادرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من إيثار الأجر، ورفع إليه من السكون لأمر الله تعالى في الذي طرقه، والشكر له فيما أزعجه وأقلقه، فليعرفني القاضي من ذلك ما أكون ضاربا معه بسهم المساعدة عليه، وآخذا بقسط المشاركة فيه».[١]

فمن خلال ما تقدم عرضه من هذه القطعة النثرية القائمة على الهزل والضحك نستشف طبيعة نفسيات بعض هؤلاء الكتاب والتي يلحظ عليها طابع الفكاهة والضحك في استغلال أي موقف من المواقف وتوظيفه بحسب ما يرونه ناقلا لتصوراتهم وآرائهم، وهذا ما ظهر في مجتمع العصر العباسي ذلك الحين، والذي استجمعت فيه من العوامل، ما جعل أصحاب الفكر يستغلونها كل بحسب مجاله.

وهناك كاتب آخر عمل بما يحمله من نفس فكه قطعة نثرية هازلة بشكل رسالة بعث بها على لسان أبي العباس بن سابور[٢] إلى الحسين بن صبرة[٣] جوأبا عن رقعة بعث بها الثاني في صفة حمل حمل أهداه[٤]، وهذا الكاتب هو أبو الخطاب

(١) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ١٠٣٣/٤ - ١٠٣٤.
(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما توافر لي من مصادر.
(٣) لم تتوفر لي ترجمة لهذه الشخصية فيما تهيأ لي من كتب.
(٤) من الملاحظ ان أبا الخطاب في وصفه لهذا الحمل، يبدو تاثره واضحا بمن سبقه ممن تناول هذا الموضوع عينه مثل الحمدوي الشاعر المتوفي في الربع الاخير من القرن الثالث في وصفه لـ (شاة سعيد) في شعره حيث أظهرها بأسلوب هازل وساخر لما احتوته من صفات النحافة والهزال، وهو في الوقت نفسه يصب سخريته على صاحبها، بما حمله من قدرة وموهبة أدبية حيث عمل على استنطاق هذه الشاة بما اسبغه عليها من صفات إنسانية بأسلوب التشخيص وهذا ما اعتمده الصابي مع حمله، فليس ببعيد ان يكون الصابي قد تاثر بسلفه الشاعر في هذا الموضوع، وينظر على سبيل المثال في ذلك ديوان الحمدوي المنشور

الصابي[١] ، وقد أورد في هذه الرسالة من الكلام ما هو طريف في معناه، ومن العبارة ما هو جيد في مبناها، مستثمرا في ذلك المثل السائر والحادثة التاريخية من خلال تأكيد سرد صفات هذا الحمل فيقول:

«وصلت رقعتك، ففضضتها عن خط مشرق، ولفظ مونق، وعبارة مصيبة، ومعان غريبة، واتساع في البلاغة يعجز عنه عبد الحميد في كتابته، وقس وسحبان في خطابته؛ وتصرف بين جد أمضى من القدر، وهزل أرق من نسيم السحر، وتقلب في وجوه الخطاب، الجامع للصواب؛ إلا أن الفعل قصر عن القول، لأنك ذكرت حملا، جعلته بصفتك جملا، فكان المعيدي الذي تسمع به ولا أن تراه[٢] وحضر فرأيت كبشاً متقادم الميلاد، من نتاج قوم عاد، قد افنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح في سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته؛ صغر عن الكبر، ولطف عن القدم، فبانت دمامته، وتقاصرت قامته، وعاد ناحلا ضئيلا، بالياً هزيلا، بادي السقام، عاري العظام، جامعاً للمعايب، مشتملا على المثالب، يعجب العاقل من حلول الحياة به، وتأتي الحركة فيه، لأنه

=

في مجلة المورد، المجلد ٢، العدد٣، سنة ١٩٧٣، بجمع وتحقيق أحمد النجدي، ص: ٧٨ قطعة (١٠) ص: ٨٠ قطعة (٢٥، ٢٦)، ص: ٨٢ قطعة (٣٩، ٤٠)، ص: ٨٤ قطعة (٥٦)، ص: ٨٦ (٦١).

(١) حمزة بن إبراهيم المكنى بأبي الخطاب، ولد سنة (٣٣٩ هـ).وكان منجماً، اتصل ببعض رجالات الدولة البويهية مثل بهاء الدولة (صاحب كرمان)حيث عظم جاهه عنده، حتى كان الوزراء يطلبون رضاه. إلا انه نكب بماله عندما حمل إليه فخر الملك مائة الف دينار إلا أنه استقلها، فصارت سبب نكبته وصار أمره إلى الضيق والفقر والغربة، مات سنة (٤١٨هـ) مفلوجاً بخرج سامراء وقد رثاه الشريف المرتضى. ينظر: الكامل لابن الأثير، ١٦٣/٨، البداية والنهاية: ١٢/ ٢٥.

(٢) تضمين للمثل السائر «تسمع بالمعيدي خير من أن تراه» والذي يضرب لمن خبره خير من مرآه. وهكذا الحال مع هذا الحمل الذي اهدي وتفاقمت صفاته بالجودة بحسب ادعاء صاحبه. مجمع الامثال. لأبي الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم: ١/ ٢٢٧، دار الجيل - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧ م).

عظم مجلد، وصوف ملبد، لا تجد فوق عظامه سلبا، ولا تلقى يدك منه إلا خشبا»[١].

فأبو الخطاب حين يعتني بهذا الوصف الدقيق إنما يريد أن يخلص إلى أن هذا الحمل قد بلغ من الضعف والنحافة ما ان يراه الناظر إليه حتى يحسبه من بقايا ما حمل معه نوح (عليه السلام) في سفينته من الحيوانات، فهو نحيل وهزيل، مدعاة للعجب في حياته؛ وفي الجملة فهو كتلة من المعايب والمثالب، ثم أن أبا الخطاب يشتد في هذا الوصف إلى حد المبالغة في بيان حال هذا الحمل فيقول: «لو ألقي إلى السبع لأباه، ولو طرح للذئب لعافه وقلاه[٢] قد طال للكلا فقده، وبعد بالمرعى عهده، لم ير ألقت إلا نائما، ولا عرف الشعير إلا حالما، وقد خيرتني بين أن اقتنيه فيكون فيه غنى الدهر، أو اذبحه فيكون فيه خصب الرحل؛ فملت إلى استبقائه لما تعرف من محبتي في التوفير، ورغبتي للتثمير، وجمعي للولد، ، وادخاري للغد، فلم أجد فيه مستمتعا للبقاء، ولا مدفعا للفناء؛ لأنه ليس بأنثى فتحمل، ولا بفتي فينسل، ولا بصحيح فيرعى، ولا بسليم فيبقى»[٣] وكان رأي ابن صبرة اما إبقاؤه حيا وفيه غنى أو ذبحه وفيه انتفاع، ولكن لشدة هزال هذا الحمل والضعف الذي أتى عليه فقد حير العقول فيه، فلا يستبين المرء جنسه فينتفع منه بحسب ذلك، ولا هو صحيح الجسم فيبقى ويرعى، لذلك فهو ليس أهلاً لأن يترك حياً لما فيه من الصفات السابقة، فكان الذبح به أليق عله يستفاد مما يشتمل عليه جسمه. وانظر إلى أبي الخطاب كيف يصور ذلك بأسلوب المحاورة فيما بينه وبين الحمل، وهذا ما يزيد القطعة النثرية ظرافة وفكاهة، عارضاً حجة الحمل في عدم ذبحه وابقائه حياً. بقوله: «فملت إلى الثاني من رأييك، وعوّلت على الآخر من قوليك، وقلت: اذبحه فيكون وظيفة للعيال، وأقيمه رطباً مقام قديد الغزال، فأنشدني وقد أضرمت النار،

---

(١) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٥٨٨/٢.
(٢) القلى: البغض تقول قلاه يقليه قلى وقلاء بالفتح والمد. اللسان، مادة (قلى).
(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٥٨٩/٢.

وحدّت الشفار، وشمر الجزار:

أُعيـــذُهَا نَظَـــراتِ منـــك صـــادقَةً أنْ تَحْسِـــبَ الشَّـــحْم فـــيمَنْ شَـــحْمُهُ وَرَمُ[١]

وقال: ما الفائدة لك من ذبحي؟ وانا لم يبق مني إلا نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت:

لست بذي لحم، فأصلح للأكل، لأن الدهر قد أكل لحمي، ولا جلدي يصلح للدباغ، لأن الأيام قد مزقت أديمي، ولا لي صوف يصلح للغزل؛ لأن الحوادث قد حصت وبري، فإن أردتني للوقـود فكـف بعْر ابقى من ناري، ولن تفي حرارة جمري بريح قتاري[٢]، فلـم يبـق إلا أن تطلبنـي بـذحل[٣] أو بينـي وبينك دم. فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مشورته، ولم اعلم من أي أمريه اعجب؛ أمـن مماطلتـه للدهر بالبقاء، أم من صبره على الضر واللأواء[٤]، أم من قدرتك عليه مـع أعـواز مثلـه، أم مـن تأهيلـك الصديق به مع خساسة قدره؟»[٥].

بلغت سخرية أبي الخطاب بالحمل وصاحبه الـذي أهـداه أوجهـا، بمـا اعتمـده مـن أسـاليب متنوعة في تأدية المعاني التي رام الوصول إليها، حتى ظهرت القطعة

(١) البيت للمتنبي. ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح أبي البقاء العكبري المسـمى التبيـان في شرح الـديوان، صححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون: ٣٦٦/٣ (شركة ومكتبة ومطبعة - مصطفى البابي الحلبـي وأولاده - مصر - الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م). أشار الـدكتور مصـطفى جـواد إلى خطـأ نسـبه هـذا الشرـح إلى العكـبري، وإنمـا هـو في الحقيقة لتلميذ العكبري عفيف الدين علي بن عدلان الموصلي المتوفي سنة (٦٦٠هـ) معتمدا في ذلـك عـلى جملـة قرائن. ينظر: مقدمة كتاب لمتبع في شرح اللمع، أبو البقاء العكبري، تحقيق الدكتور عبد الحميـد الـزوي: ٤٧/١ - ٤٨ (منشورات جامعة قاربونس بنغازي - ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م).

(٢) القتار: ريح القدر وقد تكون من الشواء أو العظم المحترق وريح اللحم المشوي. اللسان، مادة (قتر).

(٣) الذحل: الحقد والعداوة يقال طلب بذحله أي بثأره والجمع ذحول. اللسان، مادة (ذحل).

(٤) اللأواء: الشدة وضيق المعيشة. اللسان مادة (لأى).

(٥) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢(٢) /٥٨٩.

السابقة وكأنها تعبير صادق عن حال الحمل، وما بلغ ذلك إلا بما توسل به من استخدامه لأسلوب التضمين الشعري إضافة إلى استخدامه أسلوب التشخيص، بمعنى إضفاء صفات إنسانية على الحمل مثل المحاورة بالكلام وبث الشكوى والشعور بالأسى على نفسه لما يواجهه من مصير الفناء.

وبعد الذي تقدم ذكره من صفات هذا الحمل، يعمد أبو الخطاب إلى إثارة السخرية الخاصة بمهدي هذا الحمل، والذي يصور عن طريق هذه الهدية بخل صاحبها ومحدودية عطائه. فيقول: «ويا ليت شعري إذ كنت - وإليك سوق الغنم، وأمرك ينفذ في الضأن والمعز، وكل كبش سمين وحمل بطين مجلوب إليك، مقصور عليك - تقول فيه قولا فلا ترد، وتريده فلا تصد، وكانت هديتك هذا الذي كأنه ناشر من القبور، أو قائم عند النفخ في الصور، فما كنت مهدياً لو أنك رجل من عرض الكتاب، كأبي علي[١] وأبي الخطاب، ما كنت تهدي إلا كلباً أجرب، أو قرداً أحدب»[٢].

وبهذا يخلص أبو الخطاب إلى زبدة القول في هذه الرسالة الفكهة، بأن الهدية الممثلة بالحمل بئس ما كانت هدية، لأن من أهداها غير معذور عليها، لما له من يد طولى في اقتناء الأفضل من بين الحملان إن هو أراد ذلك، ولكن البخل والحرص هو الذي جاء بهذه الهدية، كيف لا وشكل هذا الحمل يشبه الميت حال نشره من قبره أو المبهوت حال سماعه النفخ في الصور، وفي هذه الصورة من التوظيف القرآني ما هو ملحوظ كالإسباغ على هذا الحمل صفات الموتى المبعوثين من قبورهم الذين ترهقهم حالة من الفزع عند قيام الساعة.

ومحصلة القول في النهاية نلحظ إن الفكاهة في النثر استوعبت موضوعات مختلفة الرائد في بعضها إثارة الضحك لدى المتلقي في الدرجة الأساس مع ما

---

(١) شاعر بليغ ومترسل بينه وبين أبي العيناء مهاجاة ومكاتيب طيبه، وله فيه عدة أشعار، له كتاب رسائل وديوان شعر. الفهرست: ابن النديم: ١٣٧.

(٢) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٥٨٩/٢.

يتضمنها بعد ذلك من غايات فرعية تعود بالمصلحة على كاتبها وهذا ما لمسناه فيما سبق.

ب - الصفات الخلقية:

تعددت الوسائل التي يتخذها الفرد الساخر، واختلفت أسبابها في وصوله إلى الاضحاك مستغلا في سبيل ذلك كل ما يراه ملائما في توظيف قدراته ومواهبه، التي بوساطتها يتمكن من سلب ضحك المتلقي دون عسر أو صعوبة، فكان ذلك فناً يمارسه صاحبه واضعا فيه طاقاته وامكاناته لخروجه بالشكل الأمثل.

ومن هنا كان بعض ما يحتويه الجسد من مظاهر خلقية وعلى اختلاف هيآتها مثاراً للتندر والضحك، كما هو الحال بعض أعضاء جسم الإنسان أو ما يحلق بها من مكملات مثل اللحى؛ وان اختلف مفهوم الجمال والقبح من شخص لآخر، فما يعد قبيحا عند شخص ربما لا يكون كذلك عند آخر، وقل الشيء نفسه بالنسبة إلى الجمال.

قيل مرّ أعرابي بقوم يسأل عن ابن له ضيعه، فقالوا له: «صفه؛ فقال: دنينير، قالوا: لم نره؛ فلم يلبث القوم أن جاء على عنقه بجعل[(١)]؛ فقالوا: ما وجدت ابنك يا أعرابي؟ قال: نعم هو هذا؛ قالوا: لو سألت عن هذا لأخبرناك، ما زال منذ اليوم بين أيدينا»[(٢)].

فمنظر هذا الصبي الذي يشبه الجعل قبيح، إلا أن نظرة أبيه إليه هي عكس نظرة الآخرين فهو عنده أشبه ما يكون بدنينير، والعرب تضرب المثل بالدينار لجماله ورونقه؛ إذن فمعايير القبح والجمال تختلف من شخص لآخر. وهنا تكمن مهمة الفنان الساخر في التصوير، فهو بما يمتلكه من خصائص فنية يستطيع بلمساته

(١) الجعل: دويبة اكبر من الخنفساء، شديد السواد، في بطنه لون احمر، للذكر قرنان يوجد كثيرا في مراح البقر والجواميس ومواضع الروث، ومن عجيب أمره انه يموت من ريح الورد وريح الطيب. ينظر: حياة الحيوان، الدميري: ١/ ١٦٥.

(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٣ / ٩٥.

أن يحول القبح إلى جمال والعكس بالعكس. وهذا الأمر لا يتأتى لأي شخص بقدر ما يتأتى للفنان الساخر، والذي قلنا عنه قدرته على استغلال أدنى مظهر يواجهه في جسم الإنسان فيعمل فيه أسلوب المبالغة تصغيرا أو تكبيرا ليوصل بعد ذلك لما يصبو إليه من كسب التأييد من المتلقي الممثل بالضحك من الشذوذ البادي في الهيأة أو الحركة التي يبرزها بتصويره إياها.

ومن الملاحظ أن غاية مثل هكذا فكاهات، في معظمها الإضحاك لا غير، وإن كان يتوسل إلى ذلك بالسخرية والاستهزاء، لان معظمها صفات جوهرية في جسم الإنسان لا يمكن للفرد ان يغير فيها شيئا أو يستبدلها بأخرى أكمل وأحسن.

وهكذا روت جملة من كتب الأدب أخبارا عن هؤلاء الذين اصبحوا مثلة للغير لما استهزئ بهم وسخر منهم، لما وجده الساخر فيهم مادةً تصلح لأن تضحك الناس عليهم، وهم بذلك أحياناً يجدون في ضحكهم هذا القصاص العادل من بعض المعاناة التي احتوتها نفوسهم ممن يضحكون منهم.

وهذا ما يطالعنا به الجاحظ في رسمه صورة لأحمد بن عبد الوهاب في رسالة (التربيع والتدوير) التي وضعها للحط من قدره بسخرية وتهكم بشكل (كاريكاتوري) بين وجلي، فقد عرض الجاظ بأحمد هذا حين وصف جسمه على اعتباره مظهراً أو عرضاً يشتمل الفكر أو الجوهر الذي هو قوام الإنسان، فيقول: «كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر، ويدعي إنه مفرط الطول، وكان مربعا وتحسبه لسعة جفرته[١] واستفاضة خاصرته، مدورا؛ وكان جعد الأطراف قصير الأصابع، وهو في ذلك يدعي البساطة والرشاقة، وانه عتيق الوجه أخمص البطن، معتدل القامة، تام العظم؛ وكان طويل الظهر قصير عظم الفخذ، وهو مع قصر عظم ساقه يدعي إنه طويل الباد[٢] رفيع العماد عادي القامة عظيم الهامة، قد أعطي البسطة

(١) الجفرة: جوف الصدر وقيل ما يجمع البطن والجنبين، وجفرة كل شيء وسطه ومعظمه. اللسان، مادة (جفر).
(٢) الباد: يقال بد يبد بدداً: تباعد ما بين فخذيه من كثرة لحمهما. اللسان، مادة (بدد).

في الجسم، والسعة في العلم؛ وكان كبير السن متقادم الميلاد، وهو يدعي إنه معتدل الشباب حديث الميلاد»[١].

فالجاحظ حين يعرض لهذا التصوير، يسعى إلى الإلمام بالجزئيات والتفاصيل، فهو لم يقل مثلا ان صاحبه قصير القامة بدين؛ بل ذهب لأوسع من ذلك فاعتنى بتصوير أعضائه المختلفة التي تظهر ما هو عليه جسم أحمد بن عبد الوهاب في الواقع، مقارنة مع دعواه التي يدعيها المناقضة والمخالفة لها. ولا يعني هذا إن الجاحظ بما عرضه من وصف لجسم صاحبه انه اعتمد الحقيقة لا غير في هذا العرض، بل إنه أضاف إليها المبالغة في إبراز صورة متعددة الجوانب - ان جاز لنا ذاك - باعتماده الجزئيات والإغراق في نعتها، ثم تجسدت هذه المبالغة باعتماد التكرار في رسم الصورة وذلك بأن يعرض مثلا لهذا القصر بادعاءات هازئة ينحلها الجاحظ صاحبه قاصداً منها الإضحاك الساخر، كقوله: «وقد علمت - حفظك الله - إنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة وضخم الهامة، وعلى حور العين وجودة القد وعلى طيب الاحدوثة، والصنيعة المشكورة، وان هذه الأمور هي خصائصك التي بها تكلف ومعانيك التي بها تلهج»[٢]، ثم يعرض لجسم صاحبه بتكرار آخر قائم عل ادعاء أحمد الرشاقة في جسمه واللطافة في أعضائه فيقول: «وبعد فأنت، أبقاك الله، في يدك قياس لا ينكسر وجواب لا ينقطع، ولك حد لا يفل، وغرب[٣] لا ينثني، وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب، أن تقول: وما علي أن يراني الناس عريضا، وأكون في حكمهم غليظا، وأنا عند الله طويل جميل، و في الحقيقة مقدود رشيق، وقدعلموا، أبقاك الله، أن لك مع

(١) التربيع والتدوير، للجاحظ، عني بنشره وتحقيقه شارل بلات: ٥ (المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٩٥٥ م). اعتمدت تحقيق شارل بلات في إيرادي للنصوص الأولى من هذه الرسالة، اما باقي النصوص فالاعتماد كان على تحقيق عبد السلام محمد هارون الموجود في رسائل الجاحظ لأن التحقيق الاخير خال من النصوص الأولى في هذه الرسالة.

(٢) التربيع والتدوير، الجاحظ، تحقيق شارل بلات: ١٠.

(٣) غرب كل شيء حده. اللسان، مادة (غرب).

طول الباد راكبا، طول الظهر جالسا، ولكن بينه فيك، إذا قمت اختلاف، وعليك، إذا اضطجعت، مسائل»[١]، ويعود الجاحظ مدافعا عن أحمد هذا، بتقرير استهزائي لهذه الادعاءات المتكررة فيقول: «ومن غريب ما أعطيت، وبديع ما أوتيت انا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك، فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب، فيا شعراً جمع الاعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول. بل ما يهمك من أقاويلهم، ويتعضمك من اختلافهم، والراسخون في العلم، والناطقون بالفهم، يعلمون إن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وإن ما ذهب منك عرضا قد استغرق ما ذهب منك طولا، ولئن اختلفوا في طولك، لقد اتفقوا في عرضك»[٢]، ثم يسعى الجاحظ إلى تأكيد دعواه الاستهزائية عن طريق التشكيك فيما تلحظه الحواس من جسم أحمد بن عبد الوهاب، ويعتمد بدلا عنها العقل في التمييز فيقول: «ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذا كان زماما على الأعضاء، وعيارا على الحواس.

ومما يثبت أيضاً إن ظاهر عرضك مانع من إدراك حقيقة طولك، قول أبي دؤاد الإيادي في أبله:

سمنت فاستحش أكرعها لا الـ … ـنيُّ نيٌّ ولا السنام سنام[٣]

ولو لم يكن فيك من العجب إلا انك أول من عودة الله تعالى بالصبر على خطأ الحس وبالشكر على صواب الذهن؛ لقد كنت في طولك غاية للعالمين، وفي

(١) التربيع والتدوير، الجاحظ، تحقيق شارل بلات: ١٨.
(٢) م. ن: ١٨.
(٣) ينظر شعر أبي دؤاد في كتاب دراسات في الأدب العربي، غوستاف فون غرنباوم، ترجمة الدكتور احسان عباس وآخرين إشراف الدكتور محمد يوسف نجم: ٣٣٩ (منشورات دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - بيروت، نيويورك، ١٩٥٩ م). وفيه شعر مجموع لأبي دؤاد الإيادي.

عرضك مناراً للمضلين»[١].

وهكذا نجح الجاحظ في صب جام غضبه على أحمد هذا بأسلوب تهكمي ساخر، أو بما يدعى اليوم (الفن الكريكاتوري) حيث أخذ يرسم صورة لصاحبه قوامها التناقض بين الادعاء والحقيقة متوسلا بهذا إلى نقض انتحاله الفهم والعلم كونه من الكتاب، وهذا ما سعى إليه الجاحظ بحجب الثقة عن قول أحمد بن عبد الوهاب - إن صح ذلك تجوزا - من خلال عرض لكذبة في ادعاء ما ليس له من جسم، وهذا وحده كفيل بعدم التصديق أو الإيمان بما يدعيه من علم، والذي عرض له الجاحظ في باقي أجزاء الرسالة.

وكان قبح المنظر الذي مني به بعضهم سبباً في ظهور حكايات تروي حال أشخاص ابتلوا بهذا القبح هم أنفسهم أم كان القبح في غيرهم وتندروا هم عليه فقد روي أن رجلا تزوج بامرأة، فقالوا له: «إنها شابة طرية، من أمرها ومن أمرها، ويدلسون له عجوزاً، فلما دخل بها نزع نعليه، وهم يظنون أنه يضربها فقلدها إياهما وقال: لبيك اللهم لبيك، هذه بدنة»[٢]. وشبيه بذلك ما رواه التوحيدي، عن رجل قدم إلى القاضي امرأة مهنتها السعي للتوفيق في الزواج، أو كما يطلق عليها في بعض أقطارنا العربية (الخاطبة)، فقال: «اصلح الله القاضي، زوجتني هذه امرأة عرجاء، فقالت: أعزك الله زوجته امرأة يجامعها لم أزوجه حمارة يحج عليها»[٣]. فكانت الطامة الكبرى أن يرى الزوج من زوجته غير ما وصفت به أي العكس تماما، كما مرّ سلفاً، فكان الزوج قد أمل شيئا وفوجئ بشيء آخر.

فقبح الشكل عامة والوجه بخاصة يعد مادة للسخرية والاستهزاء لدى

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣/ ٥٨ - ٥٩.

(٢) البدنة من الابل والبقر بمنزلت الاضحية من الغنم تهدى في مكة، الذكر والانثى في ذلك سواء، سميت بذلك لأنهم كانوا يسمنونها، وكانت تميز بأن يجعل في عنقها نعل أو غيره ليعرف انها هدي وجمعها بدن. اللسان مادة (بدن)، حياة الحيوان الكبرى، الدميري: ١١٤/١.

(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢)/ ٦٨٥ - ٦٨٦.

بعضهم عندما ينظرون إليه، فيعبرون عن هذا القبح بكلمات تثير ضحك السامع لها، لاحتوائها على مبدأ المفاجئة في القول. قال السدري لأبي العيناء: «اشتهي ان أرى الشيطان فقال: انظر في المرآة»[١]. فدمامة السائل دفعت أبا العيناء إلى أن يصور شكله على انه شيطان، وفي ذلك استهزاء وسخرية بالسائل، فمثل هذا الوجه غير محبذة رؤيته من بعضهم لما جبلت عليه النفس الإنسانية من ميلها نحو الجميل من الأشياء وان اختلفت معايير الجمال. قيل نظر رجل دميم في مرآة وما ان نظر حتى ولى وجهه وقال: «الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه غيره»[٢]. فهذا القبح عند بعضهم مكروه أو بلاء محيط بهم.

هذا ما كان متعلقا بالشكل بصورة عامة، أما إذا أتينا لبعض الهيئات الجسدية وما يتعلق بها من عيوب لوجدنا إن بعضها قد عبرّ عنها أصحابها مبينين أثرها فيهم أو أشار إليها غيرهم بالسخرية.

فالبصر نعمة كبرى من نعم الله التي لا تحصى فبها يتدبر المرء ما يحيطه من أشياء وبها يستعين على قضاء حوائجه، وبدونها يلقى المرء عنتا كبيراً لا يسيغ له التصرف كيف يشاء فهناك أخبار تعرض لبيان حال أشخاص تعرضوا لعاهة أودت ببصرهم أو جزءٍ منه. فقد أورد صاحب عيون الأخبار أنه «جاءت رجلا أعور نشابة فأصابت عينه الصحيحة، فقال: يا رب وانا أيضاً على محمل»[٣]. أي أنه أصبح صاحب عاهة لا تتيح له القيام بكل ما يكفل حياته. فكلمات بعض أصحاب هذه العاهة التي تعبر عما يعانون تثير الضحك عند تعرضهم لبعض المواقف. من ذلك إن رجلا أعور أصاب عينه السليمة حجر «فوضع يده على عينه وقال: أمسينا وأمسى الملك لله»[٤].

(١) نثر الدر، الأبي: ٣/ ٢٠٦.
(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢)/ ٣٩٠.
(٣) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٤/ ٥٧.
(٤) الاجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٤٧.

وتسأل أعمى آخر عن العمى قائلاً: «ما أشد ذهاب البصر! فقال رجل أعور: عندي نصف الخبر»[١]. فكان ذهاب البصر يعد بحق شدة ليست بالهينة فهي تحرمه من الاطلاع على ما يحيط به بشكل واضح وجلي. قال التوحيدي ان رجلا أعمى تزوج بامرأة قبيحة وهو لا يعلم، فقالت: «رزقت أحسن الناس وأنت لا تدري: فقال لها: يا ... وأين كان عنك البصراء؟»[٢].

فهذا وشبيهه أمثلة عرضت لحال أصحاب هذه العاهة معبرين عنها بأنفسهم وهي لا تخلو من روح فكهة مضحكة رواها أرباب الأدب بقصد الإضحاك والتندر.

وهناك منظر آخر يدعو للضحك منه حال تصويره بشكل محاط ببعض المبالغة أو الإسراف في الوصف؛ وهذا المنظر هو شكل الأنف، فكل شيء يتجاوز المقدار المتعارف من حيث الشكل يصبح مثاراً للتأمل وقد يقود هذا التأمل إلى الضحك أحياناً لشكل هذا الشيء؛ من ذلك ماروواه الجاحظ عن عيسى بن مروان[٣] كاتب أبي مروان عبد الملك بن أبي حمزة، فقد كان هذا الرجل يملك أقبح أنف خلقه الله تعالى، حتى كان أقبح من الأخنس[٤]، ومن الافطس[٥]، والاجدع[٦]، ومن أخباره إنه خلا بامرأة وطلب منها ما يطلب الرجل من المرأة، فامتنعت، ثم أنه مناها وأظهر تعشقها إلا أنه لم يظفر بشيء، فسعى لمعرفة سبب هذا التمنع من جانبها: فقال: «خبريني، ما الذي يمنعك؟ قالت: قبح أنفك وهو يستقبل عيني...، فلو كان

(١) م، ن: ١٤٦.
(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (١) / ٢٤٥.
(٣) أبو موسى عيسى بن مروان الكوفي ذكره ابن النديم على انه اخذ عن المفضل بن سلمه وروى عنه، وله مصنفات. ينظر: الفهرست: ٧٧ ومعجم الأدباء: ١٦/ ١٥ - ١٥١
(٤) الخنس في الانف تأخره إلى الراس وارتفاعه عن الشفة، وليس بطويل ولا مشرف. اللسان، مادة (خنس).
(٥) الفطس: عرض قصبة الانف وطمأنينتها. اللسان، مادة (فطس).
(٦) الجدع: القطع وقيل القطع البائن في الانف والشفة واليد ونحوها، جدعه يجدعه جدعاً فهو جادع. اللسان، مادة (جدع).

أنفك في قفاك لكان أهون علي! قال لها: جعلت فداك: الذي بأنفي ليس هو خلقة وإنما هـو ضربـة في سبيل الله تعالى، فقالت واستغربت ضحكا: أنا ما أبالي، في سبيل الله كـان أو في سـبيل الشـيطان. إنمـا بي قبحه. فخذ ثوابك على هذه الضربة من الله. أما أنا فلا»[١]. فالتشويه الكائن في هذا العضو كـأن يكـون صغيراً أقل من المعتاد أو كبيراً متجاوزاً الحد المألوف في شـكله، كـل ذلـك مـن شـأنه ان يعطـي صـورة (كاريكاتورية) لشكل هذا الأنف تعتمد المبالغة والتهويل.

ومـــن ذلـــك قـــول أبي العينـــاء حـــين ذكـــر ولـــد مـــوسى بـــن عيسىـــ[٢] عنـــده: «كـــأن انـــوفهم قبـــور نصـــبت عـــلى غـــير القبلـــة!»[٣]. وقريـــب مـــن ذلـــك قـــول أبي زيد[٤] في انف أعرابي: «رأيت أعرابيا انفه كأنه كورٌ من عظمـه، فرآنـا نضـحك فقـال: مـا يضـحككم! والله لقد كنا في قوم ما يسموننا إلا الافيطس»[٥].

واللحى هي الأخرى أصبحت موضع تندر وسخرية بخاصة لمن كان يتخـذها وسـيلة يكسـب بوساطتها احترام الغير وتقديرهم بما يدعيه من مظاهر التقوى والصلاح، هذا من جانـب، ومـن جانـب آخر أصبح كبر حجم هذه اللحية مثار ضحك الغير لما تعطيه من منظر مقرف.

قال رجل لمجنون من مجانين الكوفة: «ما هذه اللحية - وكانت كبيرة -

---

(١) الحيوان، الجاحظ: ٦ /٢٦٤.

(٢) هو موسى بن عيسى بن محمد العباسي الهاشمي، أمير من بني العبـاس، وكـان جـواداً، عـاقلاً، ولي الامـارة للمنصـور والمهدي والرشيد مدة طويلة تخللتها فترات عزل إلى أن توفي في بغداد بعد عزله من مصر ـ سـنة (١٨٠هــ).ينظـر: الولاة والقضاة، الكندي: ١٣٢ - ١٣٧(طبعة بيروت، ١٩٠٨م)، النجوم الزاهرة: ٦٢/٢.

(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١) /٣٥.

(٤) أظنه سعيد بن أوس بن ثابت الانصاري، كان إماما نحويـا، صـاحب تصـانيف أدبيـة ولغويـة، غلبـت عليـه النـوادر والغريب، وكان ثقة في قوله، قيل فيه إنه يحفظ ثلثي اللغة، توفي في البصرة سنة (٢١٥هــ). ينظـر: بغيـة الوعـاة: ١/ ٥٨٢ - ٥٨٣.

(٥) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٤/ ٦٠.

فقال: «والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكداً»[١]، فلعظم هذه اللحية شبهها صاحبها بنبات كثيف مبارك في أرض مباركة طيبة.

وأنشد رجل رجلا من بعض شعره، فقال له الثاني: «لو ذهبت بهذا الشعر إلى البقال ما أعطاك عليه باقة بصل. فقال له: وأنت لو ذهبت بلحيتك إلى عطار ما عطاك عليها زبيل سماد»[٢].

فالرجل الأول لما أحس عدم اعجاب السامع بشعره بل راح يعيبه، لم ير شيئا في هذا السامع يفي بصب غضبه عليه سوى لحيته التي يتخذها عنوانا لصلاحه لذلك نراه يوجه سخريته إليه عن طريق هذه اللحية.

والصوت هو الآخر من صفات الإنسان إن حسن ولطف نعت صاحبه بحلاوته، فقد كلف الناس بالصوت الحسن، وراحوا يتغنون بتلك الأصوات سواء كانت صادرة عن رجال أم نساء. وعلى العكس من ذلك فقد مجت أسماعهم الصوت القبيح، وعابوه واستهجنوا سماعه. فليس عجبا أن يصبح صاحب الصوت السمج عرضة للتندر والضحك لما يملكه من هذه الصفة في صوته. يروي الجاحظ إن أبا دبوية الزنجي[٣]، مولى آل زياد ذو صوت يشبه صوت الحمار، فيقف «بباب الكرخ بحضرة المكارين، فينهق، يبقى حمار مريض ولا هرم حسير، ولا متعب بهير[٤] إلا نهق. وقبل ذلك تسمع نهيق الحمار على الحقيقة، فلا تنبعث لذلك، ولا يتحرك منها متحرك حتى كان أبو دبوبة يحركه. وقد كان جمع جميع الصور التي تجمع نهيق الحمار فجعلها في نهيق واحد. كذلك كان في نباح الكلاب»[٥].

---

(١)عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٤/ ٥٥. وقوله اقتباس من قوله تعالى وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَسورة لأعراف، آية: ٥٨.

(٢) الاجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٥٨.

(٣) من شخصيات الجاحظ في حيوانه التي لم أعثر لها على ترجمة.

(٤) البهير: المنقطع النفس من الإعياء. اللسان، مادة (بهر).

(٥) البيان والتبيين، الجاحظ: ١ /٦٩ - ٧٠.

فمحاكاته لأصوات بعض الحيوانات - هذه المحاكاة التي أهاجت باقي الحيوانات - مدعاة لضحك السامع. وكان قبح الصوت كثيراً ما يشبه بصوت الحمار لنشازته، وهذا ما حدث مع الجماز[١] حين غنى أمام أبي العيناء وقال له: «كيف ترى غنائي.قال: كما قال الله عز وجل «أن أنكر الاصوات لصوت الحمير»[٢]. فسخرية أبي العيناء بهذا المغني دفعته لأن يقتبس من القرآن الكريم آية وظفها في سخريته وتهكمه فكانت بحق لاذعة ومضحكة معا.

ومن أشكال العاهات التي تلحق الجسد والتي عبرّ عنها أصحابها بأساليب كلامية مضحكة عاهة الحدب، فهي توحي إلى الناظر أن صاحبها في هيأة متصلبة لا يقوى على تغيير شكله فهو انحناء قبيح. لهذا كان الأحدب يتمنى زوال هذه الانحناء منه وإن صوِّر ذلك بأسلوب فكاهي مضحك. فقد روى الجاحظ عن «رجل أحدب سقط في بئر، فاستوت حدبته وحدثت له أدرة[٣]في خصيته، فهناه رجل عن ذهاب حدبته، فقال: الذي جاء شرّ من الذي ذهب!»[٤]. فسرور هذا الأحدب لم يتم بزوال حدبته بل ظهرت فيه عاهة جديدة لم يكن يتوقعها من قبل. ورجل آخر احدب، أخذه بعض الولاة لجناية جناها ليقيم عليه الحد، فقال له: «لأضربنك ضرباً أقيم منه حدبتك. فقال: إذن أصبر صبر من يرجو أن تذهب حدبته»[٥].

فهذا الرجل لا يتحرج من وقع السياط عليه وان كانت موجعة إذا أدت إلى

---

(١) الجماز: محمد بن عمرو بن حماد من بني تميم يعرف بالجماز، من أهل البصرة، شاعر أديب، وكان ماجناً خبيث اللسان، و كان يقول إنه أكبر من أبي نؤاس، دخل بغداد أيام هارون الرشيد، وفي أيام المتوكل، فكان ان أمر له المتوكل بعشرة الاف درهم، فاخذها وانحدر فمات فرحا بها. ينظر: تاريخ بغداد، البغدادي: ٣/ ١٢٥ـ ١٢٦.

(٢) نثر الدر، الآبي: ٣/ ٢٠٠ (الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٨٤م). والآية: وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ، سورة لقمان، آية: ١٩.

(٣) الادرة: بالضم نفخة في الخصية، يقال رجل آدر بين الادر. اللسان، مادة (أدر).

(٤) الحيوان، الجاحظ: ٩/٥.

(٥) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٨٩.

زوال ما يكرهه من عاهة موجودة فيه.

وهكذا أصبحت العيوب الجسدية التي عانى منها أشخاص وعبروا عنها بما هاجت به أنفسهم من تعابير عرضت واقع حالهم مع هذه العيوب أو العاهات بحسب ما يرونه ويعتقدونه من أنها قبحا اشتملوه هم أو غيرهم، ولكنهم اظهروها بصورة هزلية مضحكة تعبر عما يعانونه؛ وترفه عن أنفسهم بتخفيف تلك المعاناة بابتسامة مرحة.

ج - زواج الأم:

تثير بعض الممارسات الاجتماعية السخرية والضحك حيال موضوعاتها، وإن كانت مثل هذه الممارسات مما هو غير خارج على حدود الشرع. ولكن تبقى النظرة الاجتماعية لأبناء مجتمع ما إليها كونها خارجة على العرف والمعتاد بشكل أو بآخر.

ومن ذلك موضوع (زواج الام) التي غاب عنها زوجها بموت أو طلاق من هذه الممارسات، فالشريعة الإسلامية لم تنكر على مثل هذه الامرأة أن تتمتع بحياتها وبخاصة في طلب الزوج، إذ يعد هذا الأمر حقاً من حقوقها المشروعة. ولكن تبقى نظرة المجتمع لهذه الامرأة نظرة يشوبها شيء من الانتقاص لشأنها، وهي نظرة شائعة في وقتنا هذا في كثير من المجتمعات.

ولما كان الأدب بشكل عام في جانب من جوانبه مرآة أو صدى لواقع المجتمع المعاش بكل ما تواضع عليه هذا المجتمع من إيجابيات أو سلبيات، فقد عرض من ثم لهذا السلوك. فنرى في هذه الحقبة من العصر العباسي وجهة نظر المجتمع واضحة وجلية من خلال نصوص نثرية عرضت لها. والظاهر منها أنها حالة لم تلاق الترحيب عندهم. فهذا أعرابي شاهد رجلا قد كثرت أبله فلما سال عن سبب زيادتها بعد إذ كانت قليلة، قيل له: «انه قد زوج أمّه فجائته بنافجة[١]»،

---

(١) النافجة: الإبل يحصل عليها الرجل فتكثر بها أبله. وكانت العرب تقول في الجاهلية للرجل

=

فقال: اللهم إنا نعوذ بك من بعض الرزق»[١]. وكان زواج الأم بخاصة من كان لها أبناء، مدعاة لخجل هؤلاء الأبناء، وكأن هذه الامرأة قد سعت إلى عمل يشين بها وبسمعه أبنائها، وما ذلك إلا لما صورة العرف الاجتماعي ذلك الحين من انعكاس على طبيعة حياة أفراده. فقد ذكر الجاحظ ان علي بن محمد المدائني[٢]، قال: «كان رجل من أهل الرأي يجالسنا، فأحتبس عنا، فأتيته فجلست معه على الباب، وإذا رجل يدخل ويخرج فقلت: من هذا؟ فسكت، ثم أعدت فسكتْ، فلما أعدت ثالثة قال: هو زوج أخت خالتي!»[٣].

ولم تقتصر هذه النظرة لهذا الزواج على العامة من أبناء المجتمع وحدهم، بل اشترك معهم بعض ذوي الفكر، والمعرفة في هذه النظرة فراحت بعض كتاباتهم تعبر بشكل صريح عن رأيهم حيال هذه القضية، وقد توسلوا إلى ذلك بأسلوب فكه ضاحك. ومن الملفت للنظر ان هذه الكتابات كان الغرض من عرضها المرح والهزل لا غير، لأنها تصدر بشكل رسائل إخوانية من شخص لآخر تربطه به صداقة فتكون هذه الرسائل مغرقة بالدعابة الظريفة.

وقد جسد هذا الأمر بشخصيات عرفت بأقلامها الرصينة مثل عمرو بن مسعدة[٤] الذي كتب إلى صديق له تزوجت أمه كاتباً حمل من الظرافة ما جعل

=

إذا ولدت له بنت: هنيئاً لك نافجة. أي المعظمة لمالك. وذلك انه يزوجها فيأخذ مهرها من الابل فيضمها إلى ابله فينفجها، أي يرفعها ويكثرها. اللسان، مادة (نفج)

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٣/ ٢٧٢.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله بن سيف المدائني صاحب الأخبار ولد سنة (١٣٥هـ)، روى عنه الجاحظ في بيانه وغيره من الأخبار، وله كم من التصانيف بلغت المائتين، توفي سنة (٢٢٥هـ) ينظر: الفهرست ابن النديم: ١١٣ - ١١٧.

(٣) البيان والتبيين، الجاحظ: ٤ / ٦.

(٤) أبو الفضل الصولي عمرو بن مسعدة بن سعد بن صول، احد الكتاب البلغاء كان يوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي أيام الرشيد وأتصل بالمأمون واصبح وزيرا له فرفع مكانته واغناه. كان مذهبه في الانشاء الايجاز واختيار الجزل من الالفاظ، وقد احتوت كتب الأدب

بعض كتب الأدب تحتفظ به. حيث يقول فيه:

«الحمد لله الذي كشف عنا [ستر] الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع بما شرع من الحلال انف الغيرة، ومنع من عضل[١] الامهات، كما منع من وأد البنات، استنزالاً للنفوس الأبية، عن الحمية، حمية الجاهلية، ثم عرض لجزيل الأجر من استسلم لواقع قضائه، وعوض جليل الذخر من صبر على نازل بلائه، وهناك الذي شرح للتقوى صدرك، ووسع في البلوى صبرك، وألهمك من التسليم لمشيئته، والرضا بقضيته، ما وفقك له من قضاء الواجب في أحد أبويك، ومن عظم حقه عليك»[٢].

فمن خلال ما تقدم نلحظ ابن مسعدة يصور هذا الزواج وكأنه مصيبة حلت بابن المتزوجة ثم انه يوصيه بالصبر عليها واحتساب الاجر عند الله بها، وهو في كل ذلك يعرضه بأسلوب ساخر عن طريق المبالغة في طرح الموضوع وبوساطة الاسهاب في الوصف مع التكرار في تأكيد المعنى. ثم يستمر فيقول: «وجعل الله تعالى جده ما تجرعته من انف، وكظمته من أسف، معدوداً فيما يعظم به أجرك، ويجزل عليه ذخرك، وقرن بالحاضر من امتعاضك بفعلها، المنتظر من ارتماضك[٣] بدفنها فتستوفي بها المصيبة، وتستكمل عنها المثوبة.

فوصل الله لسيدي ما استشعره من الصبر على عرسها، بما يستكسبه من الصبر على نفسها، وعوضه من أسره فرشها، أعواد نعشها، وجعل تعالى جده ما

=

الكثير من توقعاته، ومن صفاته انه كان جواداً فاضلاً نبيلاً، توفي في اذنه سنة ٢١٧ هـ ينظر: معجم الشعراء: ٢١٩، تاريخ بغداد: ١٢ / ٢٠٣، معجم الأدباء: ١٦ /١٢٧ - ١٣١، وفيات الأعيان: ٣/ ١٤٥، وأمراء البيان، محمد كرد علي: ٢٩١/١

(١) عضل المرأة عن الزواج حبسها، وعضل الرجل ايمه يعضلها ويعضلها عضلاً وعضلها منعها الزوج ظلماً. اللسان، مادة (عضل).

(٢) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٣/ ١٤٦.

(٣) ارتماضك: حزنك. اللسان، مادة (رمض).

ينعم به عليه بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يوليه بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة، فأحكام الله تعالى جده وتقدست أسماؤه جارية على غير مراد المخلوقين، ولكنه تعالى يختار لعباده المؤمنين، ما هو خير لهم في العاجلة، وأبقى لهم في الآجلة، واختار الله لك في قبضها إليه، وقدومها عليه، ما هو أنفع لها وأولى بها، وجعل القبر كفئا لها، والسلام»(١).

وهكذا نرى هذه القضية التي ظهرت في المجتمع العباسي، وفي كل مجتمع قديم كان أو حديث تنال اهتمام أبنائه فيعبرون عنها بمختلف الأساليب ومنها الأسلوب الهازل الساخر كما هو الحال مع كاتبنا عمرو بن مسعدة الذي أدلى هو الآخر بدلوه فيها.

فالمرأة المفقود عنها زوجها ذات الأبناء الكبار، وبخاصة إن كانوا معروفين بين أوساط مجتمعهم، يجب عليها أن تضرب صفحا عن الزواج حتى تلاقي ربها، هذا في نظر الأعراف الاجتماعية، وإلا لكان زواجها طامة تحل على الأبناء الذين لا مهرب يتوجهون نحوه خلاصاً من نقد المجتمع لهم بسخريته واستهزائه إلا الصبر، وهذا ما عبر عنه ابن مسعدة سلفاً.

كذلك فنحن لا نعدم غير ابن مسعدة في تناوله لقضية زواج الأم من الكتاب، بل هناك، كاتب آخر عرض لها بأسلوب فكاهي ساخر لا يخلو من ظرافة أيضاً هو أبو بكر الخوارزمي(٢) الذي كتب رسالة بعث بها إلى مسكويه(٣) بمناسبة

---

(١) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٣ / ١٤٦ - ١٤٧.

(٢) أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي، (الطبري) لأنه ابن أخت محمد بن جرير الطبري فكان يلقب لذلك، كما دعي (الطبخزمي) لان امه من طبرستان وأباه من خوارزم. ولد سنة (٣٢٣ هـ) في خوارزم ونشأ فيها. من ائمة الكتاب، واحد الشعراء العلماء. كان ثقة في اللغة ومعرفة الانساب. رحل في صباه إلى بعض البلدان ومنها سجستان فمدح وإليها طاهر بن محمد ثم هجاه فحبسه. وأقام في دمشق حيناً من الزمن سكن بعض نواحي حلب، وأنتقل إلى نيسابور فاستوطنها واتصل بالصاحب بن عباد، وتوفي فيها سنة(٣٨٣هـ) وكانت له مع يدبع الزمان اللهمذاني محاورات ذكرها ياقوت في معجمة. ينظر: يتيمة الدهر، الثعالبي: ٤/ ١٩٣، الوافي بالوفيات: ٣ / ١٩١، بغية الوعاة: ١٢٥/١.

(٣) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، مؤرخ أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي فيها سنة (٤٢١ هـ) =

زواج أمه. وفيها نلمح تعبيراً واضحاً لما آلت إليه هذه الحالة - زواج الأم - في هذا المجتمع فقد عورض هذا الأمر بالسخرية والاستهزاء المغلف بإطار فكه مضحك له أثره بشكل أو بآخر. يقول الخوارزمي في رسالته هذه: «العاقل أعزك الله تعالى لا يرى المحنة إذا تخطت دينه محنة. ولا يرى النعمة إذا تعلقت بذنب خطيئة نعمة. ولا يريد الشرف إلا بالتقوى. ولا يرى الضعة إلا ما وضع من رتبه في الدار الأخرى»[٢]. ومن بعد هذه المقدمة التي عدّ معها زواج الأم محنة ولكنها محنة لا تقدح في إيمان الفرد يخلص لصلب موضوعة بقوله: «وبلغني ما اختارته الوالدة صانها الله تعالى فحمدت الله تعالى الذي رزقك والداً لا يلزمك حق أبوته. ووعدك أخاً لا يجملك حمل اخوته. وقد كنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها. والآن أسأله أن يعجل لك بوفاتها. فإن القبر أكرم صهر. وإن الموت استر ستر. ولا تذهب نفسك حسرات على ما سبقك عليه الدهر وغلبك عليه الرزق فلا حمية فيما أحلّ الله. ولا مضايقة من حيث وسع الله - وللإنسان إباء والحمد لله الذي كان العقوق من جهتها. ووقع الجفاء من جنبتها. فإنك بررتها صغيرا. وبلغت مرادها كبيرا فاجتمع لك برّان ووقع لك على الله أجران»[٣].

=

١٩٣، الوافي بالوفيات: ٣ / ١٩١، بغية الوعاة: ١٢٥/١.

(١) أبو علي أحمد بن محمد بن يعقوب مسكويه، مؤرخ أصله من الري وسكن أصفهان وتوفي فيها سنة (٤٢١ هـ) اشتغل بعلوم متنوعة منها الكيمياء والفلسفة والمنطق ثم أولع بالتاريخ والأدب والانشاء. كان قيما على خزانة كتب ابن العميد ثم عضد الدولة بن بويه فلقب بالخازن. ثم اختص ببهاء الدولة البويهي معظم شأنه وكبر قدره عنده. الف عدّه كتب منها (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) في التاريخ انتهى به إلى السنة التي مات فيها عضد الدولة سنة (٣٧٢ هـ) وكتب أخرى صنفها. ينظر: الامتناع والمؤانسة: ١/ ٣٢. معجم الأدباء: ٥/ ٥ - ١٩، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا: ٣٣١ (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت).

(٢) رسائل أبي بكر الخوارزمي، تقديم الشيخ نسيب وهيبه الخازن: ٢١٣ (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٧٠ م)

(٣) رسائل أبي بكر الخوارزمي: ٢١٣ - ٢١٤.

والخوارزمي لا يخرج في رأيه حيال هذا الموضوع عما ذهب إليه ابن مسعده، بعدّه مصيبة تلحق الأبناء، وتظهر بشكل سخرية واستهزاء بهم يتوجب عليهم معها الصبر واحتساب الأجر في هذا الزواج.

وهكذا تبرز الفكاهة موضوعاً من موضوعات الحياة الاجتماعية في هذا العصر، وكيف أنها عرضت لوجهة نظر هذا المجتمع من خلال النصوص النثرية الهازلة التي عبرت عن وجهة نظر أصحابها بصدد ما قد كتبوا فيه متندرين ومضحكين للنفوس التي طالما عانت من متاعب هذه الحياة القاسية، فكانت الفكاهة في بعض مرادها الإضحاك تنفيساً عن هذه النفوس.

د - الحمقى:

والحمق من السلوكيات التي طبع عليها بعض الأشخاص وعيبوا عليها، لأنه يعكس انحطاطاً في مستوى فهمهم ووعيهم لمفردات الحياة المختلفة فيكون تصرفهم في ضوء هذا القصور في الفهم. ومن الطبيعي أن يصبح الأحمق بعد هذا وسيلة للضحك من خلال سرد أخباره التي تروي وقوعه في مواقف هو في غنى عنها، ولكن قصور إدراكه هو ما أدَّى به إلى هذه المواقف. فهو يجتهد غاية الاجتهاد في تدبير أمره ولكن تدبيره هذا كثيراً ما يأتي على عكس ما هو مألوف عند العقلاء، لما جبلت عليه نفسه من العجلة في تصرفاته القولية أو الفعلية، فحاله حال الجاهل الذي لا يميز بين مقامه وكلامه. وعلى هذا جاء نهي الإمام علي (عليه السلام) عن مؤاخاة الأحمق لما تجره مؤاخاته من تبعات على غيره، وظهر هذا بقوله: «لا تواخينّ ... الأحمق فإنه يجهد لك نفسه ولا ينفعك وربما أراد أن ينفعك فضرك، سكوته خير من نطقه وبعده خير لك من قربه وموته خير لك من حياته»[1].

ويمكن أن ندخل مع الحمق الغفلة، وان كانت إلى حين، لأنها تحكي عين ما يحكى عن الأحمق من مواقف؛ بمعنى إن صاحبها يطرأ عليه شيء شبيه بالحمق

(١) كتاب نهج البلاغة، شرح ابن أبي الحديد: ٤ / ٥٣٤.

أمام ما يواجهه من موقف.

فكانت أخبار هؤلاء الحمقى والمغفلين مثاراً لضحك من يسمع أخبارهم وتهكمه، بل تكون نوادراً تطرح في محافلهم ومسامراتهم يغدقون عليها من ضحكهم الشيء الكثير.

فقد روى الجاحظ أنه مات لرجل غلام «فحفر لهم أعرابي قبره بدرهمين، وذلك في بعض الطواعين، فلما أعطوه الدرهمين قال: دعوهما حتى يجتمع لي عندكم ثمن ثوب!»[١] وشبيه بذلك أن رجلا من الأزد أغمي عليه فصاح النساء واجتمع الجيران، وأتى أخوه بغاسل لتجهيزه، فلما وصل الغاسل وجده لم يمت بعد، فقال أخوه: «اغسله فإنك لا تفرغ من غسله حتى يقضي»[٢].

فالأعرابي، وأخو المغمى عليه لسذاجة تفكيرهما وبساطته يمكن أن ينعتا بالحمق لتمنيهم الموت لغيرهم، وان كان هذا التمني يصدر عن غفلة في التفكير ولو إلى حين. كما ورد ما يشبه ذلك عن أبي الطمحان الذي أتى يعود عليلا فعزاهم به؛ فقالوا: «إنه لم يمت؛ فرجع وهو يقول: يموت إن شاء الله، يموت إن شاء الله»[٣]. فيخيل للناظر أو السامع لهؤلاء الحمقى في أخبارهم أنهم في أثناء تصرفاتهم هناك حجاب موضوع على عقولهم، فهم يتفوهون بكلمات لا يعملون العقل فيها وكأنها تخرج من أفواههم من غير أن تمر على تفكيرهم. قيل مرّ بعض الحمقى بامرأة وهي قاعدة على قبر تبكي، فلما رقّ لها، جلس إليها. قال: «من هذا الميت؟ قالت: زوجي، قال: فما كان عمله؟ قالت: يحفر القبور؛ قال: أبعده الله أما علم أن من حفر حفرة وقع فيها!»[٤] بل يذهب بهؤلاء ضحالة التفكير إلى تبني أفكاراً مثيرة للضحك لسخافتها، كان أبو الغريب مسافرا إلى الجبل، ثم إنه عاد سريعا، فقيل له: «لم

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ١١/٤.
(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٢ / ٣٩.
(٣) م. ن: ٥٢/٢.
(٤) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٢/ ٥١.

عدْتَ؟ فقال: آخذ امرأتي فإني تركتها ببغداد، وكانت تزني، وكنت بالجبل أزني، فقلت: نزني جميعا في مكان واحد أفلح من ان نتفرق فتغلى المؤونة »[١]. فكانت هذه الأفكار تنم بحق عن شخصياتهم البسيطة بأوضح صورة.وقف مديني على قاض وهو يذكر الموت وما يلاقيه الميت من ضغط في القبر، فقال: «يا قوم كم في الصلب من الفرج العظيم ونحن لا ندري، فقال صاحبه: إنَّا نستصلب الله تعالى»[٢].

ولو نظرنا إلى رسائل بعض هؤلاء الذين وصفوا بالحمق والتي رويت من بعض ذوي الأدب لوجدناها ملأى بالمتناقضات وهي بعد ذلك لا تمت للمنطق السليم في التفكير، وهذا ما يثير ضحك السامع وسخريته من مثل هؤلاء.

فقد روى التوحيدي عن أبي العيناء ان بعض الحمقى كتب إلى صديق له كتاباً جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وأمتع بك، حفظك الله، وأبقى لك من النار سوء الحساب، كتبتُ إليك والدجلة تطفح، وسفن الموصل هيا هيا، والخبز رطلين، فعليك بتقوى الله، واياك والموت فإنه طعام سوء، كتب لإحدى وعشرين بقيت من عاشوراء سنة أفتصد[٣] عجيف، فولى أمير المؤمنين»[٤]. وشبيه بذلك كتاب أبي حفص بن المتوكل إلى أبي أحمد الموفق، وفيه: " أطال الله بقاءك يا عمي، وأدام عزك وأبقاك، أنا، وحق النبي صلى الله عليه وسلم أحبك أشد من المتوكل، واشد من والدي، ولا احتشمك أيضاً، وقد جابوا لك مطبوخ من عكبرا، واحب ان تبعث اليّ منه خمس دنان وإلا ثلاث خماسيات، ولا تردني فأحرد[٥] بحياتي»[٦]. فهذا الترتيب غير المنطقي للكلام والتكرار الوجود فيه هو السبب في إحداث الضحك

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (١) /٩٨.
(٢) م. ن: ٢(١) / ٩٨.
(٣) الفصد: شق العرق، فصده يفصده فصداً وفصاداً فهو مفصود وفصيد ... وافتصد فلان إذا قطع عرقه. اللسان، مادة (فصد).
(٤) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٣(١) / ٢٨.
(٥) الحرد: البغض والغضب. اللسان، مادة (حرد).
(٦) البصائر والذخائر، الوحيدي: ٣(١) / ٢٩.

للسامع من مثل هكذا مواقف، فالتناقض الحاصل في مثل هذا الكلام - لو شئنا - كفيل بإضحاكنا وحده. قال أبو العيناء إن أحمقاً كتب إلى أبيه من البصرة، فقال: «كتابي هذا، ولم يحدث علينا بعدك إلا خير، والحمد لله، إلا أن حائطنا وقع فقتل امي وأختي وجارتينا، ونجوت أنا والسنّور والحمار فعلت إن شاء الله»[١].

فمن خلال إيراد هكذا أخبار عن هؤلاء الحمقى نستبين ان أخبارهم كانت منتشرة وشائعة وكان الناس يقبلون عليها بالسماع لها والضحك منها حتى تصبح - لا شك - من الموضوعات التي يتكرر ذكرها لغرض التسلية والهزل، وهذا ما تؤكده كتب الأدب المختلفة التي احتوت على مثل هؤلاء الأشخاص بممارساتهم السلوكية الباعثة على الضحك.

(١) م، ن: ٣ (١) / ٢٦٩.

المبحث الثاني

الفكاهة الناقدة

في بادئ ذي بدء يجب أن نقرر أن كل سلوك ينتج عن بني البشر لا بدّ له من مقوّم يصدر حكما عليه أما بالصحة أو الخطأ، وفقا لأولويات متعارف عليها لدى ذوي الخبرة والمعرفة. هذه الأولويات التي تعد الحجر الأساس في هذه الممارسات السلوكية المختلفة، يعد الخروج عليها بمثابة الخروج عما يجب فعله أو تركه ضمن هذه الممارسات، فالعملية إذن تصدر في حيز التفكير العقلاني لدى الإنسان.

ونتساءل الآن عن كيفية هذا التقويم أو النقد وأثره فيما يوجه نحوه، ومالوسيلة الانجع في تعديل السلوك الخاطئ؟

اتخذ النقد الموجه نحو الممارسة السلوكية للإنسان خطين أساسيين أحدهما مباشر يعمل على مواجهة الأمر المنقود وجها لوجه من دون أي ساتر أو حاجز بإظهار العيوب والمساوئ دون تحرج، وهذا بدوره يعرض الشخص الناقد لأن يقع في مشاكل هو في غنى عنها ان هو التزم مساراً آخر يعتمده في نقده، وهذا ما ينطبق تماما على الهجاء الصريح.إذ أنه «تعداد للمعايب وكشف لبشاعة الرذائل والنقائص في الفرد والمجتمع بكل مظاهره السياسية والاجتماعية والأخلاقية»[(١)] بصيغ مكشوفة في الأعم الأغلب؛ ومسيرة الهجاء في الأدب دليل على ذلك.

ومن الملاحظ على هذا الاتجاه في النقد تخيل السامع له إنه يصدر عن جهة عليا ترى في نفسها حق اتباع الغير لها ممن يقع تحت مرمى تهكمها وسخريتها اللاذعة، فيبدو عنيفاً وقاسياً في آن، وهذا ما يدعو الطرف المنقود في معظم الأحيان إلى التعنت والإصرار على سلوكه، لأنه لتصوره ان الناقد له في هذا

(١) اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري، قحطان رشيد التميمي: ١٢ (طبع دار المسيرة - بيروت).

الشكل، لا غرض له سوى الحطّ من قيمته وابتذال شخصيته. هذا إلى جانب أن الإتجاه الناقد هذا ربما لا يروق للجميع بمعنى ان هناك بعض الفئات قد ترفض هذا النوع من النقد الموجّه بخاصة إذا علمنا احتواءه على كثير من السبِّ والشتم ومن إبراز العيوب والمبالغة فيها. كل ذلك قد يدعو إلى النفور منه والابتعاد عن سماعه ومن ثم إحداث نوع من الخلخلة بالمهمة الناقدة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي على وجه الخصوص. لذلك كان لا بدّ من تبنّي وسيلة أخرى في النقد هي أقوى في تأثيرها وأعمق في مداها الإصلاحي لجوانب الحياة المختلفة، وهذا ما اعتمدته الفكاهة الناقدة والتي يمكن التعبير عنها: بأنها وسيلة مهذبة وظريفة للإصلاح بعيدة عن كل فحش وإقذاع في القول وهي بهذا يمكن أن تعد أسلوباً متطوراً - بلغته المدنية المتحضرة - عن الهجاء الصريح الموسوم بالتخلف والسماجة.

وهذا الاتجاه غير المباشر في النقد وفّر بدوره الحماية لقائله ولو بقدر لما يحمله من أوجه في تأويل الأمر المنقود؛ هذا إضافة إلى دوره الفعال في التأثير بما تتمتع به الفكاهة من قبول وترحيب لدى العام والخاص للإحساس بأن قائلها لا يرمي من وراء قوله إلا الإصلاح للمعوج من السلوك. لذلك «فهي نعمة من نعم الحياة، وخاصة من خواص الإنسان، وعلامة من علامات الارتقاء. ولكنها خليقة أن تعدّ في النقم إذا هي سوّغت ما لا يساغ واباحت ما لا يباح، كالاذعان لحكم طغيان، والاجتراء على حقوق أو حرمات»[1].

ومما حّبب هذا النوع من النقد احساس السامع بأن الناقد الفكه لا يتعدى بطبقته طبقات الغير، وما ذلك إلا لما تحدثه الضحكه من دور في إزالة الفوارق الطبقية نوعا ما.

وبناء على ما تقدم ذكره نلحظ فعالية الفكاهة الناقدة في الحيزين الإداري - بما فيه السياسي - والاجتماعي في هذه الحقبة من العصر العباسي، على ما سنتناوله لاحقا، وكيف أنها عملت على توجيه الانظار نحو بعض الظواهر غير المرغوب فيها المشتمل عليها هذا العصر فحأولت بما أوتيت من قوة النفاذ إلى

(١) الفكاهة والطغيان، عباس محمود العقاد: ٤٩ (مجلة الرسالة العدد ٢٨٨، السنة السابعة، كانون الثاني ١٩٣٩ م).

معترك هذه الحياة بكل جوانبها.

أ - النقد الإداري:

ويقع في مقدمة هذا العنوان النقد المنصب على الممارسات السياسية وسلوك الحكام بخاصة إذا علمنا اضطراب الوضع السياسي في معظم حقب القرنين الثالث والرابع الهجريين مثل تحكم العناصر غير العربية في إدارة البلاد وما كان يلحق ذلك من ظلم واضطهاد عانته الرعية من جرّاء ما تطبع عليه بعض هؤلاء الحكام من سلوكيات.

فكان للفكاهة الناقدة حضور ملموس في هذا الجانب بما نقلته من حكايات بعضها حقيقة وبعضها محض خيال - باستخدام الرمز على سبيل المثال - يرمي صاحبها من ورائها إلى نقد وضع من الاوضاع بأسلوب ساخر ومتهكم املا في التنبيه عليه والاقلاع عنه. لذلك كان «النقد السياسي يحتاج إلى إثارة الرأي العام والرأي العام يطرب لهذه الحكايات وهذه الصور المبسطة»[١]، التي أوتيت من قوة الترحيب ما جعلها تحظى بالقبول الواسع بين اوساط الناس المعانين من تصرفات حكامهم.

فالنكتة الهادفة زيادة لما تحتوي عليه من خاصية تلطف معه وطأة الظلم الواقع، وتشعر المظلوم بأن قوله لها يعد انتصاراً لنفسه، إلا انها من جانب آخر سلاح مهيب من شأنه ان يجعل الحاكم الجبار اضحوكة في الافواه، ومهزلة للسامرين اللاعبين، وهي من ثم مضعف لسلطانه في عيون رعيته ومجري على مقامه الذي لا ينال، ودافع ومحرض على الثورة والانتفاض ضد كل رسم من رسوم الحكم الذي يشعر به أنه خالف ما كان يجب ان يكون عليه[٢].

١ - الجهل (عند القادة والولاة):

وأول من يطالعنا في هذا المجال الجاحظ بأسلوبه المعروف الذي جمع فيه

(١) الفكاهة في النقد السياسي والاجتماعي، سهير القلماوي: ٦٨. (مجلة الهلال عدد خاص بالفكاهة، العدد الثامن، السنة الرابعة والسبعون، ١٩٦٦ م. تصدر عن دار الهلال).
(٢) ينظر: الفكاهة والطغيان، العقاد: ٥٠.

بين الجد والهزل لبلوغ حاجة يراها ملحّة في تحقيقها. فهو في رسالته الموسومة (صناعات القواد) نـراه يستخدم الأسلوب الساخر الهازئ في نقده لظاهره عمّت واشتملت معظـم الـنظم الحاكمـة ممثلـة في جهل ومحدودية معرفة بعض ممن تولى مناصب إدارية في ظل لحكومة العباسية، إذ عبر الجاحظ عـن ذلك بما انطق به شخصيات اختارها عائدة من حرب دارت بين جـيش المعتصـم والـروم، بكلـمات تـنم عن سطحية معرفتهم وضحالة ثقافتهم، حيث يوجه الجاحظ لكل وأحد ممـن اختـارهم سـؤإلا واحـداً عن الحرب كيف كانت؟ فيكون الجواب بقطعة نثرية تليها أخرى شعرية تضم المعنى نفسـه. وفي هـذا الجواب تظهر شخصية المتكلم ومدى معرفته البسيطة حيث لا يجد بداً مـن اسـتخدام ألفـاظ شـاعت على لسانه مما ألفه من مهنة اعتادها قبل تسلمه لمقاليـد الوظيفـة الإداريـة الجديـدة. فـنرى صـاحب الخيل يعبر بمصطلحات مهنته، وصاحب الحمّام يعبر بألفاظ صنعته؛ ومـا ذلـك إلا إشـارة إلى أن بعـض الأشخاص المنسوبة إليهم الإدارة، هم ليسوا أهلا لها لما يستوجب توافره في الإداري من صـفات وخـلال تمكنه من إحكام سيطرته وسلطانه بكل ما تواضع عليه الحكـم مـن مقومـات لنجاحـه. فكـان للتعبـير القاصر الناجم عن المحدودية في العلم أثر في الطعن على الإداري والعيب عليـه، وفي هـذا إشـارة أيضـاً إلى ما آلت إليه الحياة في هذا العصر من اضطراب وخلخلـة في الـنظم كـان وجهـا مـن وجوههـا تـولي بعض من غير ذوي الكفاءة لمقاليد الادارة[1].

(١) اختلفت الاراء في سبب وضع الجاحظ لهذه الرسالة عـلى السـنة مجموعتـه المختـارة مـن هـؤلاء الأشـخاص اللـذين التقاهم حال عودتهم من معركتهم مع جيش الروم وطرحه سؤإلا عليهم يستفهم به عن هذه المعركة. فمن رأي يرى إن المقام الذي صنعت لأجله الرسالة هو الطعن على المعتصم في أمر سياسته، فهي جاءت ناقدة لمظهـر مـن مظاهر التوليه الإدارية في عهد المعتصم، بإشـارتها إلى ان جملـة مـن رجـالات دولـة المعتصـم وقـواده بخاصـة لم تتوافر حظوظهم إلا على اليسير من العلم والمعرفة، وهذا ملاحظ من اجاباتهم التي تعكـس واقـع مهـنهم الأولى قبل ان يتسلموا المناصب المرموقة في الدولة وذلك من شأنه أن يوقع البلاد في حيص بيص لجهل أولي الأمـر فيهـا. ومن هنا جاءت توصية الجاحظ للمعتصم بأن يأخذ أبناءه بصنوف العلم المختلفة لما له أثر في شخصياتهم. هـذا ما ذهب إليه الدكتور محمد مهدي البصير في كتابـه (في الأدب العبـاسي: ٥٣ــ ٥٤ (مطبعـة الـنعمان= =النجـف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠ م)، وقد تابعه على هذا الرأي الدكتور أحمد جاسم النجدي في رسالته

فكان أن وظف نقده الساخر التهكمي هذا بأسلوب أشاع فيه روح الفكاهة والضحك محاولا إبرازه بشكل تؤمن عواقبه، بأن يجرح من غير ألم وإنما لإلفات النظر لمثل هذه الظاهرة فقط وهذه هي المهمة الحقيقية للفكاهة الناقدة

فبعد ان بيّن الجاحظ أهمية المعرفة وفضائل العلم واللسان، وبعد إن قصد المعتصم بأن يأخذ أبنائه بالعلم وحثهم على تعلم ألوان المعرفة، يتحول إلى موضوع رسالته التي يصور فيها هذا اللقاء الخيالي بينه وبين بعض قادة المعتصم ورجالات دولته عند قدومهم من احدى معاركهم في أرض الروم، حيث يقول: «وذلك إني لقيت حزاماً[١] حين قدم امير المؤمنين من بلاد الروم، فسألته عن الحرب كيف كانت هناك؟ فقال: لقيناهم في مقدار صحن الاصطبل، فما كان بقدر ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرغة. وقتلناهم وجعلناهم كأنهم أنابير سرجين[٢]، فلو طرحت روثه ما سقطت إلا على ذنب

=

للماجستير الموسومة بـ (الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث الهجري): ١١٣ (جامعة بغداد، كلية الاداب، ١٩٧٢م).

أما الرأي الاخر فقد ذهب إلى أن هذه الرسالة في أصل وضعها إنما هي بيان لأثر الصنعة ومفرداتها في كلام المتكلم، وان كان العنوان يغري بعكس ذلك الذي لا يستبعد فيه أن يكون من وضع النساخ، وهو رأي الدكتور محسن غياض في كراسه (الخلاف في نشأة المقامات): ٩ـ ١١ (مطبعة الايمان - بغداد). وعاضده على رأيه الاستاذ حسين العلاق في بحثه المنشور الذي بعنوان: (فن السخرية في شعر الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري): ٣٦ - ٣٧ (مجلة المورد، السنة الرابعة، العدد الثانية، ١٩٧٥ م).

وانا لنرى ان التوفيق بين الرأيين أولى بالخروج بنتيجة هي اقرب للصواب قدر الامكان، وهو ما سنشير إليه في المتن.

(١) عرف الدكتور النجدي باكثر هذه الأسماء عندما تصدى للرد والدفاع عن رأيه امام العلاق في بحثه المنشور في مجلة صوت الجامعة والموسوم بـ (رسالة صناعات القواد للجاحظ والسخرية الهادفة) وهذا ما دفعنا إلى الاحجام عن ترجمة شخصياتها إلا ماندر.ينظر: مجلة صوت الجامعة: ٥٨ - ٦٣ (يصدرها المركز الثقافي في جامعة البصرة، العدد الثاني عشر، سنة ١٩٧٨).

(٢) النبر: الارتفاع. اللسان، مادة (نبر)، والمراد إنهم تركوهم وكأنهم أكداس مرتفعة من فضلات الحيوانات.

دابة»[١].

فحزام هذا حين يتعرض له الجاحظ بالسؤال عن حال الحرب، نراه يعطينا صورة لهذه الحرب التي خاضوها مستوحاة من مفردات تعودها اضفتها عليه ممارساته العملية، كونه كبير ساسة الخيل وهذا بدوره يدلل على بيان شخصية المتكلم بوساطة أسلوبه، زيادة لما يوحي به النص من تقوقع فكري لبعض من يتسنم جلائل الاعمال ضمن اطار نظام الحكم، فيعد هذا القصور الثقافي عيباً يوجه إلى من يتصف به. وعلى هذه الشاكلة يمضي الجاحظ في توجيه السؤال نفسه إلى شخصيات أخرى انتقاها دون غيرها. فيتوجه نحو بختيشوع[٢]فيقول: «وسألت بختيشوع الطبيب عن مثل ذلك فقال: لقيناهم في مقدار صحن البيمارستان، فما كان بقدر ما يختلف[٣] الرجل مقعدين حتى تركناهم في أضيق من محقنة، فقتلناهم فلو طرحت مبضعا[٤] ما سقط إلا على أكحل رجل»[٥]. وعن مثل ذلك يسأل جعفرا الخياط فيقول: «لقيناهم في مقدار سوق الخلقان، فما كان بقدر ما يخيط الرجل درزا[٦] حتى قتلناهم وتركناهم في أضيق جربان[٧]، فلو طرحت إبرة ما سقط إلا على رأس رجل»[٨]. وكذلك الحال مع إسحاق بن إبراهيم الذي كان - زراعاً -

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق محمد عبد السلام هارون: ١/ ٣٨٢.
(٢) هو بختيشوع بن جبريل بن بختيشوع، طبيب سرياني نبيل القدر وعظيم المنزلة عند المتوكل وكان يضاهيه في اللباس والفراش. ثم ان المتوكل افرط في اكرامه وادلاله ثم تغير عليه فنكبه وكانت سنة وفاته (٢٥٦هـ). ينظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا: ٢٠١ـ ٢٠٨ (منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٦٥م) الفهرست: ٣٥٤.
(٣) المراد دخوله المتوضأ إذا أخذه بطنه.
(٤) المبضع: المشرط وهو ما يبضع به العرق والاديم. اللسان، مادة (بضع).
(٥) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١ / ٣٨٣.
(٦) الدرز: زبر الثوب وماؤه وهو دخيل وجمعه (دروز). اللسان، مادة (درز).
(٧) الجربان: القميص لبنته فارسي معرب. ينظر: المعرب من الكلام الاعجمي، الجواليقي، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر: ٩٩ (طهران، ١٩٦٦م) وينظر: اللسان، مادة (جرب).
(٨) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ١/ ٣٨٤.

وقعت إلا في قدر».[١]

فأنظر إلى استعماله له لألفاظ مستلزمات المطبخ(الصحن الشوي، موقد نـار، مغرفـة، قـدر)، فكل هذه الألفاظ تؤدي المعنى الذي يريد، من أنهم التقوا اعداءهم في مكان ضيق فحـاصروهم فيـه، ثم كانت عملية الفتك بهم إذ لم تتجاوز الوقت الكثير لسيطرتهم المطلقة علـيهم، فتركـوهم أكداسـاً لا حول لهم ولا قوة؛ وقس الأمر نفسه على ما سبق من أقوال هؤلاء القادة. هـذا مـا عرضـت لـه رسـالة (صناعات القواد) للجاحظ وما أبدته من النقد، فكان الاطلاع وحب المعرفة، والسعي في طلـب العلـم، وبخاصة من ذوي المناصب المرموقة في الدولة، دليلا بينا على علو همـتهم في هـذا المضـمار، ومـن ثـم تأكيدا لما يمتازون به من احترام الغير لهـم، وعـلى العكـس مـن هـذا نـرى ان أصـحاب السـلطة وعـلى اختلاف مسمياتهم يصبحون هدفا لنقد الغير المعبر عنه بالسخرية والـتهكم بأشـكاله المتنوعـة. فصـور معرفة هذا الإداري أيا كان عنوانه ومحدودية ثقافته تعد عيبا ومنقصـة يتحمـل وزرهـا وحـده. ومـن ذلك فهذا ابن ثوابه[٢] كان له صديق، قد نصحه بأن يضيف لما يتمتـع بـه مـن أدب وفصـاحة وبراعـة، علوماً اخرى ذات معان سامية تكون بمثابة المكمل لشخصيته؛ كمعرفة البرهان القياسي، وعلم الأشـكال الهندسية، زيادة على ذلك قراءة وتدبر كتاب اقليدس، الذي تساءل عنه ابن ثوابة وعن صـاحبه. فكـان صديقه بدوره يقوم له بالتعريف به وبكاتبه، حتى إذا ما أغراه باقتناء هذه العلـوم، أتـاه بمـن يعلمـه إياها. ودعنا نمض مع ابن ثوابه وهو يسرد ما جرى له بقدوم هذا المعلم، متبعا بذلك مشورة صـاحبه، فنراه يقول في ذلك: «فأتاني بشيخ ديراني، شاخص النظر، منتشر عصب البصر، طويل، مشـذب، محـزوم الوسط، متزمل في مسكه، فاستعذت بـالرحمن إذ نزغنـي الشـيطان، ومجلسيـ قـد غـص بـالاشراف، كلهـم يرمقه، ويتشوف إلى رفعي مجلسه وإدنائه، وتقريبه، ويعظمونه ويحيونه، والله محيط بالكافرين، فأخذ

(١) م. ن: ١/ ٣٩٠ - ٣٩١.
(٢) هو أحمد بن محمد بن ثوابة. يعد من الكتاب والمنشئين الكبار في العصر العباسي، ولي كتابة ديوان الرسائل لمعز الدولة (أحمد بن بويه) قبل ولاية إبراهيم الصابي له، توفي في سنة ٣٤٩ هـ ينظر: معجم الأدباء: ٤/ ١٤٤ - ١٧٤ النجوم الزاهرة: ٣/ ٣٢٤.

وقعت إلا في قدر».[١]

فأنظر إلى استعماله له لألفاظ مستلزمات المطبخ(الصحن الشوي، موقد نـار، مغرفـة، قـدر)، فكل هذه الألفاظ تؤدي المعنى الذي يريد، من أنهم التقوا اعداءهم في مكان ضيق فحـاصروهم فيـه، ثم كانت عملية الفتك بهم إذ لم تتجاوز الوقت الكثير لسيطرتهم المطلقة علـيهم، فتركـوهم أكداسـاً لا حول لهم ولا قوة؛ وقس الأمر نفسه على ما سبق من أقوال هؤلاء القادة. هـذا مـا عرضـت لـه رسـالة (صناعات القواد) للجاحظ وما أبدته من النقد، فكان الاطلاع وحب المعرفة، والسعي في طلـب العلـم، وبخاصة من ذوي المناصب المرموقة في الدولة، دليلا بينا على علو همـتهم في هـذا المضـمار، ومـن ثـم تأكيدا لما يمتازون به من احترام الغير لهـم، وعـلى العكـس مـن هـذا نـرى ان أصـحاب السـلطة وعـلى اختلاف مسمياتهم يصبحون هدفا لنقد الغير المعبر عنه بالسخرية والـتهكم بأشـكاله المتنوعـة. فصـور معرفة هذا الإداري أيا كان عنوانه ومحدودية ثقافته تعد عيبا ومنقصـة يتحمـل وزرهـا وحـده. ومـن ذلك فهذا ابن ثوابه[٢] كان له صديق، قد نصحه بأن يضيف لما يتمتـع بـه مـن أدب وفصـاحة وبراعـة، علوماً اخرى ذات معان سامية تكون بمثابة المكمل لشخصيته؛ كمعرفة البرهان القياسي، وعلم الأشـكال الهندسية، زيادة على ذلك قراءة وتدبر كتاب اقليدس، الذي تساءل عنه ابن ثوابة وعن صـاحبه. فكـان صديقه بدوره يقوم له بالتعريف به وبكاتبه، حتى إذا ما أغراه باقتناء هذه العلـوم، أتـاه بمـن يعلمـه إياها. ودعنا نمض مع ابن ثوابه وهو يسرد ما جرى له بقدوم هذا المعلم، متبعا بذلك مشورة صـاحبه، فنراه يقول في ذلك: «فأتاني بشيخ ديراني، شاخص النظر، منتشر عصب البصر، طويل، مشـذب، محـزوم الوسط، متزمل في مسكه، فاستعذت بـالرحمن إذ نزغنـي الشـيطان، ومجلسيـ قـد غـص بـالاشراف، كلهـم يرمقه، ويتشوف إلى رفعي مجلسه وإدنائه، وتقريبه، ويعظمونه ويحيونه، والله محيط بالكافرين، فأخذ

(١) م. ن: ١/ ٣٩٠ - ٣٩١.

(٢) هو أحمد بن محمد بن ثوابة. يعد من الكتاب والمنشئين الكبار في العصر العباسي، ولي كتابـة ديـوان الرسـائل لمعـز الدولـــة (أحمـــد بـــن بويـــه) قبـــل ولايـــة إبـــراهيم الصـــابي لـــه، تـــوفي في ســـنة ٣٤٩ هـ ينظر: معجم الأدباء: ٤/ ١٤٤ - ١٧٤ النجوم الزاهرة: ٣/ ٣٢٤.

مجلسه، ولوى أشداقه[١]، وفتح أوساقه[٢]، فتبينت في مشاهدته النفاق، وفي ألفاظه الشقاق، فقلت له: بلغني إن عندك معرفة بالهندسة وعلما واصلا إلى فضل يفيد الناظر فيه حكمة وتقدما في كل صناعة، فهلم افدنا شيئا منها، عسى أن يكون عونا لنا على دين أو دنيا، وزينا في مروءة، أو مفاخرة لدى الاكفاء، ومفيداً نسكاً وزهداً فذلك هو الفوز العظيم فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز[٣]، وما ذلك على الله بعزيز. قال: فأحضرني دواة وقرطاسا فأحضرتهما فأخذ القلم فنكت به نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصري، ولحظها طرفي كأصغر من حبة الذر، فزمزم عليها بوساوسه، وتلا عليها من محكم أسفار أباطيله، ثم أعلن عليها جاهرا بإفكه، واقبل عليّ فقال: أيها الرجل: إن هذه النقطة شيء مما لا جزء له. فقلت: أضللتني ورت الكعبة، وما الذي لا جزء له؟ فقال: كالبسيط، فأذهلني وحيرني، وكاد يأتي على عقلي لولا ان هداني ربي، لأنه أتاني بلغة ما يمتعها والله من عربي ولا عجمي، وقد أحطت علما بلغات العرب، وقمت بها واستثرتها جاهدا، واختبرتها عامدا، وصرت فيها إلى ما لا احسب أحدا يتقدمني إلى المعرفة به، ولا سبقني إلى دقيقة وجليله: فقلت له: وما الشيء البسيط؟ فقال: كالله تعالى، وكالنفس، فقلت له: إنك من الملحدين، أتضرب لله مثإلا، والله تعالى يقول: فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ [٤]. لعن الله مرشداً أرشدني إليك، ودالاً دلني عليك، فما ساقك اليّ إلا قضاء سوء ولا كسعك[٥] نحوي إلا الحين، أعوذ بالله من الحين، وابرأ إليه منكم ومما تلحدون والله وليّ المؤمنين، إني بريء مما تشركون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم »[٦]. وبعد مشادة كلامية بين ابن ثوابة

(١) الشدق: جانب الفم، والمتشدق الذي يلوي شدقه للتفصح. اللسان، مادة (شدق).
(٢) الوسق: الحمل. اللسان مادة (وسق).
(٣) اقتباس من قوله تعالى: كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ سورة آل عمران، آية: ١٨٥.
(٤) سورة النحل، آية: ٧٤.
(٥) الكسع: أن تضرب بيدك أو برجلك بصدر قدمك على دبر إنسان أو شي. اللسان، مادة (كسع)
(٦) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٥٩ - ٦٠.

وهذا المعلم وبين بعض من حامى عنه، انتهت بطرده وابعاده تخلصا من شره كما يرى ذلك ابن ثوابة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تطوع إليه رجل آخر عارضا عليه معلما آخر هو خير من السابق واعلم. فوافق ابن ثوابة عليه وأمر بإحضاره.

فقال: «فأتاني برجل قصير، دحداح(١)، مجدور، آدم(٢)، اخنس العينين(٣)، أجلح(٤)، أفطس(٥)، مسئ النظر، قبيح الزي، فسلم فرددت عليه السلام، ورفعت مجلسه وأكرمته وقلت له: ما اسمك؟ فقال: أعرف بكنية قد غلبت عليّ، قلت: أبو من؟ فقال: أبو يحيى، فتفاءلت بملك الموت عليه السلام وقلت: اللهم إني أعوذ بك من الهندسة فكفني اللهم شرها، فإنه لا يصرف السوء إلا أنت، وقرأت الحمد والمعوذتين، وقل هو الله أحد ثلاثا، وقلت له: ان صديقاً لي جاءني بنصراني يتخذ الأنداد، ويدعي أن لله الأولاد ليغويني ويستفزني، ولولا رحمة ربي لكنت من المحضرين، فصرفته أقبح صرف، ثم ذكرت لي فرجوت بذكر إسلامك خيرا، فهلم أفدنا شيئاً من هندستك، وأقبسنا من طرائف حكمتك ما يكون لنا سببا إلى رحمة الله، ووسيلة إلى غفرانه، فإنها أربح تجارة، وأعود(٦) بضاعة»(٧)، ومن بعد هذه المقدمة التي أسهب بها ابن ثوابة في وصف المعلم وهيأته، وبعد أخذ
الحيطة والحذر من خلال التحصن بآيات القرآن الكريم وسوره، وبعد عرضه لما لاقاه على يدي المعلم السابق من شبهة كادت تؤدي به إلى نار جهنم، كما يدعي، يعمد المعلم الجديد إلى البدء بمدارسة ابن ثوابة فيقول: «أحضرني دواة وقرطاساً! فقلت: أتدعو بالدواة والقرطاس وقد بليت فيهما ببلية كلمها لم يندمل عن سويداء

---

(١) رجل دحدح ودحدح ودحداح دحداحة ودحادح ودحيدحة: قصير غليظ البطن. اللسان، مادة (دحح).
(٢) الأدمة: السمرة والآدم من الناس الاسمر. اللسان، مادة (آدم).
(٣) الخنوس الانقباض والاستخفاء. والمراد ان عينيه غائرتان وصغيرتان. اللسان، مادة (خنس)
(٤) الجلح: ذهاب الشعر من مقدم الرأس، أي انحسار الشعر عن جانبي الراس وأوله النزع ثم الجلح ثم الصلع. اللسان، مادة (جلح).
(٥) الفطس: عرض قصبة الأنف وطمأنينتها، وقيل الفطس بالتحريك انخفاض قصبة الأنف وتظامنها وانتشارها والاسم الفطسة. اللسان، مادة (فطس)
(٦) يقال الأمر اعود عليك أي أرفق بك وانفع لأنه يعود عليك برفق ويسر. اللسان، مادة (عود)
(٧) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٦١.

قلبي، قال: وكيف كان ذلك؟ قلت له: إن النصراني نقط لي نقطة كأصغر من سم الخياط وقال لي: أنها معقولة كربك الأعلى، فوالله ما عدا فرعون في إفكه وكفره، فقال لي: فإني أعفيك، لعن الله قويري، وما كان يصنع بالنقطة؟ وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟ فقلت: استجهلني ورب الكعبة، وأنا قد أخذت بأزمة الكتابة، ونهضت بأعبائها، واستقللت، يقول لي: لا تعرف فحوى النقطة، فنازعتني نفسي في معاجلته بغليظ العقوبة، ثم استعطفني الحلم إلى الأخذ بالفضل، ودعا بغلامه، وقال: إئتني بالتخت! فوالله ما رأيت مخلوقا بأسرع احضاراً له من ذلك الغلام. فأتاه فتخيلت به هيئة منكرة[١]، ولم أدر ما هو وجعلت أصوب الفكر فيه تارة، واصعد أخرى، وأحيل الرأي مليا، واطرق طويلا لأعلم أي شيء هو، أصندوق هو، مإذا؟ ليس بصندوق. اتخذت هو، ماذا؟ ليس بتخت، فتخيلته كتابوت لحد فقلت: لحد الملحد يلحد به النائين عن الحق. ثم اخرج من كمه ميلا عظيما فظننته متطببا، وانه لمن سرار المتطببين.فقلت له: ان أمرك لعجب كله، ولم ارَ في أميال المتطببين كميلك، اتفقأ به الأعين؟ فقال: لست متطببا، ولكني اخط به الهندسة، على هذا التخت، فقلت له: انك وان كنت مباينا للنصراني في دينه، انك لمؤازره في كفره، اتخط على تخت بميلك لتعدل بي عن وضح الفجر إلى غسق الليل، وتميل بي إلى الكذب باللوح المحفوظ وكاتبيه الكرام، أ إياي تستهوي أم حسبتني ممن يهتر[٢] لمكايدكم؟ فقال: لست اذكر لك لوحاً محفوظاً ولا مضيعا، ولا كاتبا كريما ولا لئيما، ولكني أخط به الهندسة وأقيم عليها البرهان بالقياس والفلسفة، قلت: اخطط! وأخذ يخط وقلبي مروّع يجب[٣] وجيبا، فقال لي غير مستعظم: ان هذا الخط طول بلا عرض، فذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له: قاتلك الله: أتدري ما تقول؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتشبيهك وتبديلك وتحريفك وتضليلك، انه لصراط مستقيم، وانه لأحد من السيف الباتر، والحسام القاطع، وأدق من الشعر،

(١) الأولى كتابة الهمزة على الف لأنها مفتوحة والذي قبلها ساكن والذي قبل الساكن مفتوح. فيكون رسمها على الف بهذا الشكل (هيأة).

(٢) الهتر: الولوع بالشيء. اللسان، مادة (هتر).

(٣) وجب القلب وجيبا اضطرب. اللسان، مادة (وجب).

وأطول مما تمسحون، وابعد مما تذرعون، ومداه بعيد، وهوله شديد، اتطمع ان تزحزحني عن صراط ربي؟ أم حسبتني غمراً[١] غبياً لا أعلم ما في باطن ألفاظك، ومكنون معانيك، والله ما خططت الخط، وأخبرت أنه طول بلا عرض إلا ضلة بالصراط المستقيم لتزل قدمي عنه، وان ترديني في نار جهنم»[٢]. وبعد هذه المحاورة المشتركة بين ابن ثوابة ومعلم الهندسة، والتي انتهت بانتصار ابن ثوابة لظنونه في هذا العلم من أنه يبعده عن رحمه ربه ويقربه من نار جهنم، يتبرأ ابن ثوابة من هذا العلم بالتجائه إلى الله فيقول: «أعوذ بالله، وأبرأ إليه من الهندسة، ومما تدل عليه، وترشد إليه، وإني بريء من المهندسين، ومما يعلنون ويسرون، ومما به يعملون، ولبئس ما سوّلت لك نفسك أن تكون من خزنتها بل من وقودها، وان لك فيها لأنكالا وسلاسل واغلالاً وطعاماً ذا غصة وعذابا اليما، قم إلى لعنة الله وغضبه».[٣]

وهكذا تنتهي هذه المقابلة بين ابن ثوابة ومعلمي الهندسة ينهرهما وطردهما، بل يمضي ابن ثوابة إلى أبعد من ذلك بأن يأخذ على نفسه وعلى ولده وأعقابهم العهود والمواثيق المؤكدة، بأن لا يقربوا هذا العلم حتى تصيح الساعة.

إذن فقد كان كلام ابن ثوابة والذي نقله التوحيدي إشارة إلى محدودية معرفة ابن ثوابة وقصورها، هذا الأفق الضيق في طلب العلم يعد عيبا لا يمكن التغاضي عنه وبخاصة إذا كان لدى شخصية ملكت مقاليد الأمور مثل الوزراء والولادة وغيرهم. وفي كل ذلك إشارة لما اصبح عليه ولاة الأمر في ذلك العصر. ثم إننا لا ننكر وجود مبالغة في كلام ابن ثوابة تمثل جهله وسطحية فهمه للعلوم والمعارف وعلى حسب ما نقله التوحيدي في مثالبه، هذا الأمر حدى بياقوت إلى القول: «لاشك إن أكثر ما في هذه الرسالة، مفتعل مزور، وما أظن برجل مثل ابن ثوابة، وهو بمكانة من العلم، بحيث تلقى إليه مقاليد الخلافة، فيخاطب عنها بلسانه

(١) رجل غمر بسكون الميم وضمها أي لم يجرب الأمور وبابه ظرف والانثى غمرة بوزن عمرة. اللسان، مادة (غمر).
(٢) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٦١ - ١٦٢.
(٣) م. ن: ١٦٢ - ١٦٣.

القاصي والداني، ويرتضيه العقلاء والوزراء، بحيث لايرون له نظيرا في زمانه، في براعة لسانه، تـولى كتابـة الإنشاء السنين الكثيرة، أن يكون منه هذا كله».(١) ولكن دفاع ياقوت هـذا لا يعنـي عـدم صـدور مثـل هكذا قول عن صاحبه، وان كان هذا القول لا يخلو من مبالغة يعرض بابن ثوابة ويبـين قـدر جهلـه في هذا العلم.

أقول أن هذا لا يمنع من قصور فهم ابن ثوابة في غير ما تخصص وتعوده من علـم بلـغ فيـه شأوا بعيداً كالكتابة، أما غيرها من العلوم الأخرى فليس بالمستبعد أن يكون غير مطلع عليهـا.وهـذا في نظر التوحيدي - الذي يروي الخبر - يعد منقصة تحيط بمن يلي إدارة ما.

وهذا ما انطبق على الصاحب بن عباد(٢) برأي التوحيدي الذي قصد من إيراد خبره مع معلم للهندسة الطعن عليه عن طريق استغلاق فهمه وقصور معرفته حيال علوم أخرى سوى النظم والكتابة حيث يقول: «وسمعته يسب أصحاب الهندسة ويقول: جاءني بعض هؤلاء الحمقى، ورغبني في الهندسة فابتدأ [فأثبت خمسة وعشرين، وخط خطا، ووضع شكلا، وطول، وزعم انه يعمل برهانا على ذلك، فقلت له: كنت أعرف ان هذا خمسة وعشرون ضرورة، وقد شككت. الآن فـ](٣)ـأنا مجتهد حتى اعلمه بالاستدلالات، وهذا هو الخسار والدمار»(٤).

وهكذا نلاحظ أن محدودية المعرفة عند بعض الإداريين ممن تسنم المناصب السياسية يعد أمراً لا مندوحة من عيبه واحتقار صاحبه، لذلك نرى أن جل

(١) معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ٤ / ١٧٣.
(٢) أبو القاسم الطالقاني إسماعيل بن عباد بن العباس، ولد سنة ٣٢٦ هـ وزير غلب عليه الأدب فكان من نوادر عصره استوزره مؤيد الدولة بن بويه الديلمي ثم اخوه فخر الدولة.ولقب بالصاحب لصحباه مؤيـد الدولـة منـذ صـباه. كانت ولادته في طالقان من أعمال قزوين واليها نسب، وكانت وفاته في سنة ٣٨٥ بالري ونقل إلى أصبهان فـدفن فيها، له جملة تصانيف وديوان شعر. ينظر: المنـتظم: ٧، ١٧٩، معجـم الأدبـاء: ١٨٦/٦ - ٣١٧، وفيـات الاعيـان: ١ /٢٠٦، ومعاهد التنصيص على شواهد التلخيص، الشيخ عبد الرحيم العباسي، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد: ٤ /١١١ (عالم الكتاب _ بيروت، ١٩٤٧م).
(٣) الزيادة في معجم الأدباء، ياقوت: ٤ /١٧٤.
(٤) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٦.

خلفاء بني العباس كانوا أصحاب ثقافات متنوعة، وكانت مجالسهم لا تخلو من الأديب والطبيب والفيلسوف والمحدث وغير هؤلاء من الذين كانت تقام بينهم وبين الخليفة محاورات ومدارسات ومجادلات تنم عن حب طلب العلم وتتبع مساره.

٢ - الشدة والقسوة:

وكان ما تمتع به بعض هؤلاء الإداريين من شدة وغلظة طغت على شخصياتهم أو ممارساتهم الإدارية التي بدورها دعت إلى تذمر الناس وانزعاجهم حيال ما يواجهون به من تصرفات لا تخلو من ظلم وقسوة، رائدها إشباع رغبات هؤلاء الولاة سواء كانت صادرة عنهم مباشرة أو عن اتباعهم والتي تحسب عليهم أيضاً.

كل ذلك هيأ إلى ظهور أرضية مناسبة لبروز نوع من النقد القائم على استغلال هذه الصفات وعرضه بأسلوب فكه لا يخلو من سخرية واستهزاء وتهكم بمثل هؤلاء الإداريين وأعوانهم، فتكون الضحكة بمثابة الحصن الحصين الذي يحتمي خلفه المضطهد من الظلم الواقع عليه وان كان مؤقتا. وقد كان هذا النقد يستوجب إقدام وجرأة من الناقد يمكناه من ولوج هذا المعترك، فقد روى عن أبي العيناء حين ذكر عنده محمد بن طاهر[١] قوله: «ما دخلت عليه قط إلا ظننت إنه من طلائع القيامة، قصير القامة، مشؤوم الهامة، خرج من خرسان وهو أميرها، ويطمع فيها وهو طريدها ويلي على أسير الصغار وليق الهزيمة!».[٢]

فلشدة طباع ابن طاهر هذا وقسوتها نرى أبا العيناء يعطيه صفة من صفات يوم القيامة المتمثلة بهولها، وجزع من يحضر ذلك اليوم لما يعتري المرء فيها من خوف ووجل عظيم، كذلك حال من يدخل على محمد بن طاهر، حيث يلحظ

---

(١) محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي. ولي إمارة خراسان بعد أبيه سنة ٢٤٨ هـ إلا أنه أسر على يد يعقوب الصفار عند محاربته له، وتخلص من هذا الأسر عند هزيمة الصفار سنة (٢٦٢ هـ)، ثم أنه ولي الامارة مرة أخرى سنة (٢٧١ هـ)، ثم عزل في أخريات حياته، فسكن بغداد إلى أن توفي. ينظر تاريخ بغداد: ١/ ٣٧٧، دول الإسلام: ١٤٣/١، الوافي بالوفيات: ٣/ ١٦٥، النجوم الزاهرة: ٢/ ٣٢٨، ٣/ ٦٥.

(٢) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٣٤.

رجلا قصيرا تغلب على طباعه الشدة والحزم.

وقول آخر لأبي العيناء يعبر به صراحة عن هذه القسوة الممثلة في شخص الوزير صاعد[١] ابن مخلد بوساطة التوظيف القرآني في التعبير النثري.حيث يقول له: «أنت خير من رسول الله! فقال: ويلك!! كيف؟ قال: إن الله تعالى قال له:" وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ" [٢] وأنت فظ، ولسنا ننفض»[٣].

فتقرير أبي العيناء بأن صاعدا خير وأفضل من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يدفع ولا شك إلى التساؤل بل ويقود إلى القول باستهزاء الرجل بالرسول الكريم وتفضيل غيره عليه والعياذ بالله، وهو خير من خلق الله تعالى، ولكن الأمر يزداد وضوحا حين نعلم أنه كان يعرض بصاعد بن مخلد من جهة الصرامة والقسوة، وكأن الرجل قصدان الرسول الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد تنزه عن مثل هذه الصفة لما له من خلق كريم يكسب به للهداية، وأنت على العكس من ذلك تلتزم لك من الخلق القاسي والفضاضة المفرطة ونحن مع ذلك نلازمك ونتجمع حولك، فكأنه عد هذه الخصلة ميزة له من باب السخرية والتهكم، فكان التوظيف القرآني بحق وسيلة من وسائل النقد ذات تأثير بالغ في النفس.

ولم تكن هذه الشدة والغلظة نابعة من لا شيء بل أنها تنبع من تكبر الشخص على غيره وتتجلى إذا اقترن هذا الشخص بمنصب يهيء له التسلط على

(١) صاعد بن مخلد من وزراء بني العباس كان نصرانيا ثم أسلم على يدي الموفق العباسي وجعله كاتبا له في أول أمره وذلك سنة (٢٦٥ هـ)، ثم أسندت إليه مهمات أخرى ولقب بذي الرياستين، وكان صاحب دين، حازما نبيلا كريما، ثم انه وقعت بينه وبين الموفق جفوة سببها ان الموفق كان بحاجة إلى مال في حربه مع عمرو بن الليث الصفار فتلكأ صاعد، بمده بذلك المال، فحنق عليه الموفق بسبب ذلك، فسجن مرات ثم توفي في بغداد ينظر: الديارات: ٥٤، ١٧٥، ثمار القلوب: ٢٣٣، المنتظم: ٦٦/٥، ١٠١، الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٨٤، ٣٤٦.

(٢) مقتبس من قوله تعالى: "فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ "آل عمران: آية: ١٥٩.

(٣) نثر الدر، الآبي: ٣/ ١٩٨.

رقاب الناس. قال ابن القصار الفقيه[1] إن الصاحب بن عباد قد طلع عليه في داره، وهو مشغول بكتابة أشياء كلفه الصاحب بها يقول: «فلما أبصرته قمت قائما، فصاح بحلق مشقوق اقعد فالوراقون أخس من أن يقوموا لنا، ... واستحال الغيظ تعجبا من خفته وسخفه لأنه قال ها ولد لوى شدقه، وشنج أنفه، وأمال عنقه، واعترض في انتصابه، وانتصب في اعتراضه، وخرج في مسك[2] مجنون قد أفلت من دير جنون»[3].

فهذه الغلظة في القول ناشئة بما يشعر به الصاحب من تكبر يدفع به إلى النظر إلى من هو دونه على أنه لا يمثل شيئا، ومن ثم ليس له شرف المثول بين يديه. ولم يقتصر هذا التكبر على القول الذي ظهر بأسلوب فظ، بل جسد هذا التكبر وشوهد في جملة من أعضاء جسده بتصويرها لهذه الخصلة، والتي عرضها التوحيدي بشكل (كوميدي) مضحك الهدف منها الاستحقار والانتقاص.

فقد روى التوحيدي حكاية عن الصاحب وقعت أمامه، مفادها أن ابن عباد خرج من باب سري في دار مؤيد الدولة خشية أقوام كانوا يرقبونه، فبينما هم كذلك إذ قامت له عجوز قد عرفته فدعت له ومدت يدها بكتاب فيه حاجتها، فقال: «ما تريدين يا بظراء، يا بخراء[4]، يا عفلاء[5]، يا فقماء[6]! على هذا إلى ان تباعد، فبقيت العجوز مبهوته وقالت: مسكين هذا الرجل قد جن، فقلت لبعض أصحابه: ما هذا

---

(١) أبو صالح، حمدون بن أحمد بن عمارة القصار النيسابوري، وكان من الصوفية وشيخ أهل الملامة بنيسابور، عالما فقيها، ومنه انتشر مذهب الملامة من مذاهب الصوفية والذي يجمع بين خوف القدرية ورجاء المرجئة، وقد ذهب ابن القصار مذهب سفيان الثوري إلا انه اتخذ طريقة خاصة. توفي سنة ٢٧١ هـ ينظر طبقات الصوفية: ٧٢.

(٢) رجل ذو مسكة ومسك أي رأي وعقل يرجع إليه، وفلان لا مسكة له أي لا عقل له، ويقال ما بفلان مسكة أي ما به قوة ولا عقل. اللسان، مادة (مسك)

(٣) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٩٩.

(٤) البخر: بفتحتين نتن الفم وبابه طرب فهو ابخر. اللسان، مادة (بخر).

(٥) العفل: فرج المرأة. اللسان، مادة (عفل).

(٦) امرأة فقماء ملفع المائلة الحنك، وقيل هو تقدم الثنايا السفلى حتى لا تقع ليها العليا. اللسان، مادة (فقم).

النذل والفحش والخفة والطيش؟ فقال: هذا دأبه إذا جاع!»[1].

فعدم قضاء حاجات الناس أو المساعدة في قضائها من ذوي النفوذ، واستخدام هؤلاء لكلمات قاسية آملا في صرف الناس عن حاجاتهم تدعو إلى اقتناص الفرصة وتوظيفها في الانتقام ولو بأسلوب مضحك كما هو الحال مع العجوز السالفة الذكر التي قالت إن الصاحب قد جن، ويكثر ضحكنا إذا علمنا إن سبب هذه الشدة والقسوة في القول إن الصاحب كان جائعا. فكانت مثل هذه المواقف تعد متنفسا عما يعتلج في النفوس من ظلم تحسه.

قيل وقف أعرابي بباب بعض الملوك فقال: «أعينوا الجائع الضعيف، فقال البواب، وكان سمينا: لعنكم الله فما اكثر جائعكم، فقال: والله لو فرق قوت جسمك في أبدان عشرة منا لكفانا شهرا كان، وانك لعظيم السرطة[2]، جسيم الضرطة، ولو ذري بجيفتك بيدر لكفته »[3].

وهنا، أن هذا الأعرابي ما أن منعه الحاجب منتقصا منه حتى انفجر بالتعبير عما يجول بداخله من كلمات لم تر لها متنفسا إلا عندما رفض إعطاؤه ما يسد جوعه بتصوير أعطى هذا الحاجب السمين ما يستحقه من السخرية.

وقد تحول الشدة المفرطة من بعض هؤلاء الإداريين بما يتمتعون به من تجبر واضطهاد وقسوة موجهة نحو أبناء الرعية، وأخذهم بكل ما من شأنه أن يعد ظلما باختلاف أشكاله، إلى عدم تصدي هؤلاء الرعية لمثل هذه المظالم وجها لوجه، بأن يصدروا انتقاداتهم بشكل مباشر بل يسعون إلى هذا النقد عن طريق التعريض بما هو ملقى عليهم من ذلك الظلم. وهنا تصدر بعض هذه الانتقادات لوضع ما بشكل حكاية قديمة عن ملك مبهم أو حاكم مجهول تتناول موضوعا شبيها بما يلاقونه.

فطبيعة الخلافة العباسية وبخاصة بعد عهد المعتصم وما آلت إليه سياسة الدولة من تسلط العناصر غير العربية، على مقاليد الأمور، جعلت الظلم ظاهرة

---

(١) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٩٥ - ١٩٦.
(٢) سرط الشيء بلعه وبابه فهم وسترطه ابتلعه. اللسان، مادة (سرط).
(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (٢)/ ٦٧٥.

متفشية بين أوساط هؤلاء الإداريين إلا ما ندر. وأصبح اهتضام كثير من المتسلطين حقوق الغير أمرا مشروعا لهم، وكان سكوت الناس عن ذلك شيئا مفروضا عليهم وفيه سلامه لهم.

على هذا صدرت حكايات تحمل بين جوانبها فكاهات ساخرة لمثل هكذا اوضاع. روى صاحب البصائر ان ثعلبا ابتلع عظما: «فبقي في حلقه فطلب من يعالجه ويخرجه فجاء إلى كركي[١]، فجعل له أجرا على أن يخرج العظم من حلقه، فأدخل رأسه في فم الثعلب واخرج العظم بمنقاره ثم قال للثعلب: هات الأجرة. فقال الثعلب: أنت أدخلت رأسك في فمي وأخرجته صحيحا لا ترضى حتى تطلب أجرا زيادة!»[٢].

ففي هذه الحكاية تصوير لاستحواذ بعض ذوي السطوة والسلطان على حقوق الغير واستيلائهم على ممتلكاتهم عنوة وكرها. وأمام هذا لا يجد المرء في ذلك العصر إلا الالتزام والانصياع لما يؤمر به، فكان كثيرا ما يكره الناس على اتباع تعاليم تفرض عليهم دون مناقشة أو إبداء رأي، فلا يجدون سوى الحكايات يتندرون بها على هذه الأوامر والتعليمات التي يؤخذون باتباعها. روى إنه «كان في الزمان الأول ملك نهى الناس أن ينتشروا بالنهار في حوائجهم، ونادى بالتصرف في الليل، والنوم بالنهار، وأقام الحرسي يدور بالنهار، فأخذ الحرسي رجلا على حمار، فأتى به الملك فأمر بعقوبته، فقال له: أصلحك الله هل نهيت عن الدلجة[٣]؟ قال: لا، قال: فأنا رجل مسافر أدلجت هذا الوقت كما كنا نبكر في نصف الليل، قال: صدق، خلو سبيله »[٤].

فكان من نتائج الاضطراب السياسي وبخاصة أيام تسلط العناصر غير العربية ان طغى الظلم وعم الجور وأصبح الناس في حيص بيص يخشى الواحد منهم على نفسه لكثرة الفتن، فصار لزاما على أبناء ذلك العصر السمع والطاعة،

---

(١) الكركي: طائر كبير أغبر طويل، وهو من الحيوان الذي لا يصلح إلا برئيس لأن في طبعه الحذر والتحارس، له مشتات ومصايف. حياة الحيوان: ٢٧٣ - ٢٧٦.

(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ١ / ٧٠٥.

(٣) أدلج بتشديد الدال سار من آخر الليل والاسم الدلجة والدلجة. اللسان، مادة (دلج).

(٤) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (٢)/ ٤٥٨.

حفاظا وسلامة على أنفسهم، فكان بعضهم يتجنب كل ما من شأنه ان يوقع حيف السلطان عليه، قيل نظر ثعلب إلى جمل يعدو هارباً فقال له: «ما وراءك؟ قال: جعلت فداك، سخرت الحمير والبغال، فقال: وما أنت والحمير والبغال؟ فقال: أخاف جور السلطان»[١]. فمن شدة جور هذا السلطان وما يقوم به من أعمال ترهق رعيته، هذه الشدة تجعل حتى البريء في وجل على نفسه من أن يناله الظلم. وفي هذا كله إشارة إلى طبيعة حياة الرعية في ظل تسلط قاس لا يرحم الصغير ولا الكبير.وبخاصة تسلط عناصر الاتراك والفرس على زمام الأمور في عهد الخلافة.

وهكذا أصبح الرمز استخداما على وجه الإيحاء تهربا به من تبعات التصريح، وهو في الوقت نفسه يعطي مجالا أوسع في التعبير عن كل ما يخطر ببال الناقد من دون تحرج أو وجل لما يغيب فيه من عنصري المكان والزمان أحياناً، فكان وسيلة من وسائل النقد ومن ثم التخفيف من غضب المتكلم.

٣ - البخل والمنع:

ومن المطاعن الأخرى التي أخذت على مثل هؤلاء الإداريين بوساطة ممارساتهم السلوكية المنتهجة ضمن إطار إدارتهم، البخل أو المنع، حيث عدّ عيبا ومنقصة تلحق صاحب السلطة أياً كان عنوانه، ووجد العامة فيه مادة ثرة للحطّ من قيمة هكذا أشخاص ومنزلتهم، من خلال رواية أخبارهم التي تحكى بخلهم، بل راحوا إلى اكثر من ذلك بوضع حكايات مأطرة بالإطار الفكاهي الغرض منها السخرية والاستهزاء والتهكم، تنفيسا عن حرمانهم، وثأراً لأنفسهم.

ولم تقتصر الحكاية الفكاهية التي تروي بخل أو منع هؤلاء النخبة على هذا العصر- الذي يخص مادة الدراسة، بل هناك أقوال تروى عمن سبق هذا العصر من شخصيات كان لها نفوذ وسطوة ذلك الحين. فقد روي إن المغيرة بن عبد الله بن أبي عقيل الثقفي[٢] الذي كان والياً على الكوفة، له جدي يطبخ ويوضع على مائدته، ولم يكن هناك شخص يمسه أن هو لم يمسه، فأقدم عليه أعرابي - وقد كان جاهلاً بطبيعة مائدة هذا الوالي - فراح يأكل منه بل ويتعرق عظامه، فلم يكن هذا المنظر

(١) م. ن: ٢ (٢)/ ٧١٩.
(٢) لم أعثر له على ترجمة فيما هو متوافر لي من مصادر.

ليعجب الوالي، فأقبل عليه وقال: «يا هذا، تطالب عظام هذا الجدي بذحل[١] ؟ هل نطحتك أمه؟»[٢]. فكانت هذه السيرة - لا شك - معرضا لهجوم وتنكيل العامة بنسبة حكايات البخل والذم عن مثل هكذا شخصيات.

فكان المنع دافعا للذم ومن ثم، يعد مطعنا سياسيا يؤخذ على صاحب السلطة، بخاصة ان كان هذا المنع بدافع شخصي لا يدخل في باب الحرص، على أموال المسلمين وان كان هذا من وجهة نظر القاصد لهم، بغية نيل العطاء، فقد روى الجاحظ حكاية عن وال كان بفارس، ننجم بين يديه شاعر، فمدحه بشعر عظمه ومجده فيه وأسبغ عليه كل فضيلة وحسنة، فما كان من الوالي إلا أن أمر كاتبه بإعطائه عشرة آلاف درهم: «ففرح الشاعر فرحاً قد يستطار له، فلما رأى حاله قال: وإني أرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع؟ اجعلها عشرين ألف درهم، فكاد الشاعر يخرج من جلده. فلما رأى فرحه قد ضعف، قال: وإن فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول؟ أعطه يا فلان أربعين ألفا. فكاد الفرح يقتله»[٣]. ثم إن الشاعر لما رأى كرم هذا الوالي وما أمر له من المال مما لم يكن بحسبانه، عجز عن تأدية حق هذا الوالي، فمال عليه بالشكر والثناء عرفانا له ثم خرج. وكان بعد ذلك إن أقبل عليه كاتبه وقال: «هذا كان يرضى منك بأربعين درهم، تأمر له بأربعين ألف درهم؟ قال: ويلك! وتريد ان تعطيه شيئا؟ قال: ومن إنفاذ أمرك بد؟ قال: يا أحمق، إنما هو رجل سرنا بكلام، فسررناه بكلام. هو حين زعم أني أحسن من القمر، واشد من الأسد، وإن لساني أقطع من السيف، وإن أمري أنفذ من السنان، جعل في يدي شيئا أرجع به إلى بيتي؟ ألسنا نعلم أنه قد كذب؟ ولكنه سرنا حين كذب لنا، فنحن أيضاً نسره بالقول ونأمر له بالجوائز وإن كان كذباً، فيكون كذب بكذب وقول بقول، فأما أن يكون كذب بصدق وقول بفعل، فهذا الخسران المبين الذي سمعت به»[٤].

---

(١) الذحل: الحقد والعداوة يقال طلب بذحلة أي بثأره والجمع ذحول. اللسان، مادة (ذحل).
(٢) البخلاء، الجاحظ: ١٤٨.
(٣) البخلاء، الجاحظ: ٢٦.
(٤) م. ن: ٢٦ - ٢٧.

فكان اليأس والقنوط من النوال أمرا يزعج قاصديه، فكيف إذا كان المقصود شخصا معروفاً وصاحب سلطة، لا بدّ أن يكون هذا الشخص غرضاً يستهدف بكل ما يحط من قدره بالقول الصريح أو التعريض.

قيل أتى رجل بعض الولاة وكان صديقا قديما له، إلا أنه رأى من هذا الصديق الوالي تشاغلا عنه وجفاء له، فتراءى له يوماً، فقال: «اعذرني فإني مشغول؛ فقال: لولا الشغل ما أتيتك»[١]. وفي هذا القول تعريض بالوالي الذي ظن على صاحبه عندما اعتلى منصة الحكم والرياسة.

ومما جاء ضمن حيز هذا الإطار من النقد اللاذع المكسو بثوب فكاهي والذي أسبغت عليه من البلاغة ألوان رسمتها فرشاة فنان الغرض منها توجيه الأنظار إلى أن الشخص المقصود بهذا النقد غير جدير بما أتي من مكانة مرموقة فهو لا يستحقها مع وجود من هو أجدر منه وأحظى بهذه المكانة ولكن الأبصار عنه عميت والحظ في شغل بغيره، كل ذلك نراه جليا عند التوحيدي في مثالبة؛ حين راح يتفنن في إقامة نقده المبني على إظهار العيوب بأسلوب ساخر تهكمي. حيث شمل بنقده هذا الوزيرين ابن عباد وابن العميد[٢]، بطريقة تجمع بين النقيضين من تعداده لفضائلهما مع سخريته القائمة على المبالغة في هذا الثناء والمدح، كقوله: «وانهما لو بقيا لنزل عليهما الوحي، ولتجدد بهما الشرع، وسقط بمكانتهما الاختلاف، وزال بنظرهما ما فيه الأمة من هذا العيش النكد، والشؤم الشامل، والبلاء المحيط، والغلاء المتصل، والدرهم العزيز، والكسب الدنس، والخوف الغالب، ولكانت الأرض تخرج أثقالها، وتلفظ كنوزها، ويستغنى من ألم الفقر أهلها، ومن فضيحة الحاجة أربابها، ويعود ذوي[٣] الدين ناظراً، وخامل المرؤة

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٣/ ١٢٥.
(٢) أبو الفضل محمد بن الحسين العميد بن محمد. وزير عباسي حسن السياسة خبير في تدبير الملك، من كبار الكتاب لقب بالجاحظ الثاني في كتاباته قصده جملة من الأدباء لمدحه من بينهم المتنبي فأجازه بثلاثة آلاف دينار. ينظر: يتيمة الدهر: ٣/ ٢. الكامل: حوادث سنة (٣٥٩هـ)، وفيات الأعيان: ٤/ ١٨٩.
(٣) ذوى البقل يذوي بالكسر ذوياً مضموم مشدد فهو ذاوٍ أي ذابل. اللسان، مادة (ذوى)

نبيهاً»[١]. فبوساطة هذا العرض القائم على الغلو في بيان صفات تدور حول محوري العلم والعدل، والذي نفاهما التوحيدي أو قلل من توافر خط الوزيرين عليهما، نلمح أحكام التوحيدي لسخريته منهما وتهكمه بهما بتقريره إن ظهور هذه الصفات أو الخصائص منوطة ببقائهما واستمرار سلطانهما. ولا بدّ من الإشارة هنا إلى إن التوحيدي لم يتجرأ في هجاء الوزيرين وتعداد مثالبهما لو أنهما أنالاه بغيته، وحققا رجاءه وأمله، ولكنه لما خاب في خطبة رضاهم، وآيس من نوالهما، أخذ بتتبع سيرتهما ورواية مثالبهما أو ما اصطنعه من مثالب وما يدخل في هذا الباب.

فمن جملة المآخذ التي أخذها على الرجلين: الصاحب وابن العميد، البخل والمنع، إذ عدّ ذلك منقصة لحقتهما ولحقت إدارتهما السياسية، كما هو الحال مع الرواية آلاتية:

فقد كان بعضهم يحتال للوصول إلى نيل العطاء وان كلفه ذلك الإحاطة بما يعتد به من قيم ومثل، بل قد يستدعي ذلك الخروج عما هو معروف عن إنسان بعينه من صفات وشمائل خص بها. فقد روى التوحيدي عن أبي الفرج الصوفي البغدادي[٢]، حين سأله عن سبب حضوره مجلس ابن عباد ومعاطاته الحديث، على ماله من مكانة مشهورة بين المتصوفة مع عدم تمتع ابن عباد بالمكانة العلمية التي يستحق معها المحاورة والمحادثة في كلام المتصوفة، فأجابه قائلا: «هذا رجل رقيع رفيع، وأنا ثقيل الظهر بالعيال، محتاج إلى القوت، فأحمق له ساعة حتى أنال منه هذا الحطام، والذي قد تهالك عليه الخاص والعام»[٣].

فهذا الرجل على ماله من مقام رفيع وعلم كثير يلتجئ إلى اصطناع مالا يتفق والمعروف عنه من طابع التصوف، وما هذا الاختلاف إلا توصلا لعطاء، ظن به معطيه، عله يستطيع معه أن يسد احتياجاته المختلفة. وكذلك الحال مع ابن العميد والذي عرض التوحيدي ببخله، بمرويات لوّح عن طريقها بالطعن عليه.

---

(١) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٥٦.
(٢) لم أعثر له على ترجمة له فيما هو متوافر لدي من مصادر.
(٣) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٨٨.

فقد روى عن القاضي ابن عبد الرحيم[١]، الذي كان خصيصا به والقائم بأمره، إن شاعراً قصد ابن العميد في بعض الأيام وأنشده شعرا فهش ابن العميد لذلك ووعد الشاعر بجائزة، وظل الشاعر يترقب هذه الجائزة أياما، حتى أتى القاضي الذي لم تكن بيده وسيلة ينجح بها طلبة الشاعر، إلا أنه دله على شخص آخر له منزلته عند ابن العميد يدعى (روبين) فما كان من الأخير إلا أن وعده خيراً بقدومه على ابن العميد. فدخل عليه وقال: «هذا الشاعر البائس قد سمعت منه شعره، وأسمنت أمله، وهو على ذلك يغدو ويروح، ويشكو وينوح، فلو أمرت له بشيء كان أقطع لشعبه، وأجلب لشكره، وادعى إلى السلامة من عتبْه، وهؤلاء برد الآفاق، ولهم الإلحاح، والطلب، والتذرع باللسان والتوصل إلى كل حال بكل حيلة»[٢]. وبعد هذا العرض الذي بين حال الشاعر وما به من الأمل، وتقرير عظيم خطر مهمة الشاعر ودوره الفعال؛ تأتي إجابة ابن العميد على ما تقدم ذكره التي يبدو فيها بخله في عدم مدّ يد العطاء لمبتغيه وانظر كيف يصور ذلك التوحيدي ساخراً ومتهكماً بوساطة عرضه لكلام ابن العميد وما يتضمن من حجة تعلل منعه للعطاء بقوله: «ما يريد؟ إن شاء أجبته عن قصيدته في رويها بعدد أبياته وعروضه وأعيان معانيه وأزيد، وإذا رددت شعرا بشعر، فليس علي بعد ذلك لوم، ولا أنا مقصر ولا ظالم ... فقد ضيعنا في هذا مالاً، وأنا بعد في لذع الحسرة على ذلك لأن الشباب له عرام[٣] ولم يكن لي في تلك الحال تجربة ولا يقظة ولا معرفة بحق المال، والقيام بحفظه إذا حمل، والشغل بجمعه إذا انتقل، ونعوذ بالله من الحور[٤] بعد الكور، المال عافاك الله عديل الروح، وكمال الحياة، وقوام الظهر وسرور القلب، وزينة العيش، ومجن الحوادث، وحبل اللذات، ومنعة الإنسان ومادة البقاء، ومن لا مال له لا عقل له، ومن لا عقل له فلا حياة له، ومن لا حياة له فلا لذة له،

(١) لم أعثر على ترجمته فيما توافر لي من مصادر

(٢) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٢٢٠.

(٣) العرام: الشدة والقوة والشراسة. اللسان، مادة (عرم).

(٤) قولهم نعوذ بالله من الحور بعد الكور. قيل الحور النقصان والرجوع، الكور الزيادة أخذ من كور العمامة. اللسان، مادة (كور).

ومن لا لذة له فهو في قبيل المعدوم»[١].

فكان هذا التصرف الصادر عن ابن العميد الذي يمثل وجها من وجوه بخله بشكل مبالغ فيه حتى يصبح معه مثار للسخرية والاستهزاء عندما نعلم أن الرجل غاية كرمه إنشاء قصيدة فيها خصائص قصيدة المادح نفسها، وهو بهذا قد أجاز الشاعر عن مدحه والإشادة به، وتشتد هذه السخرية التي يشوبها ضحك متهكم عندما نلمح دفاعه ومحاماته عن المال وكيف انه لم يفطن لأهمية المال منذ الشباب، فلذلك نراه يصوّر قيمة المال ودوره في حياة الفرد بأسلوب تسلسلي يبدأ بالجزئيات وصولا للنتيجة الكلية والتي هي فناء حياة الإنسان المعدم بطريق عرضه لمسوغات هذا الفناء والتي تتراوح مدلولاتها بين الصدق والكذب.

٤ - القضاة

وشمل أمر السخرية والاستهزاء بعض القضاة الذين خألف مخبرهم منظرهم فلم يحظ بعضهم بالاحترام والتقدير الواجب لمثلهم بل راح بعضهم يتندر عليهم لما احسه فيهم من فراغ علمي والذي هو عماد قضائهم وما هم فيه من مزية تسنموا بوساطتها هذه الرتبة، فكانت نقاط ضعفهم تستغل من العام والخاص لأجل إظهار حقيقتهم.

ومن ذلك ما حصل مع أبي العيناء وردِّه على القاضي إسماعيل[٢] عندما غلط في اسم رجل وكنية آخر، فأنتهره بعضهم بسبب تصرِّفه هذا وقال: «أتردّ على القاضي - أعزه الله - ؟ قال: نعم، لِمَ لا أردّ على القاضي وقد رد الهدهد على سليمان؟ وقال: (أحطت بما لم تحط به[٣]»، وأنا أعلم من الهدهد، وسليمان أعلم

(١) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٢٢٠.

(٢) هو أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حمّاد بن زيد الأزدي البصري القاضي ببغداد، كان إماماً في الفقه والعربية ولد سنة (١٩٩هـ) وتوفي سنة (٢٨٢هـ). شذرات الذهب في أخبار من ذهب، العماد الحنبلي: ١٧٨/١ (دار الكتب العلمية - بيروت).

(٣) الآية فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍسورة النمل، الآية: ٢٢.

من القاضي»[١].

فكان جلّ النقد الموجّه نحو هؤلاء منصبّاً على درجة تمتع أحدهم بما يحمل من علم يشير إلى علو همته، وهو ما دعى أبو العيناء إلى التجرء على هذا القاضي عندما لمس خطأه لشعوره بأن من يتسنم هكذا منصب يجب أن يكون منزهاً عن الخطأ والزلل.

وشبيه بذلك ما صنعه الهمذاني حين أخذ يتندر على قاضٍ لا يملك من أدوات القضاء سوى المظهر ضارباً صفحاً عما يجب توافره في القاضي من صفات وميزات علمية وأخرى خلقية يستند إليها في حكمة. فيقول: «ولي القضاء من لا يملك من آلاته إلا السبال، ولا يعرف من أدواته غير الاختزال، ولا يتوجه في أحكامه إلا في الاستحلال، ولا يرى التفرقة إلا في العيال، ولا يحسن من الفقه غير جمع المال، ولم يتقن من الفرائض إلا قلة الاحتفال وكثرة الافتعال، ولم يدرس من أبواب الجدل إلا قبح الفعال، وزور المقال[٢]». ثم إن الهمذاني يتعدى بسخريته من هذا القاضي إلى تهكم لاذع وطريف بتشبيه حاله وما هو عليه من الخطأ والزلل المستمر في أحكامه وفتاواه وإصراره على ذلك الجهل وإن ولّد ذلك انتقاص لقدره بحال صبي يصفع في كل مرة وهو لا يدري من يصفعه فيقول: «فما أشبهه بقضاياه، وتحيّره في خطاياه، إلا بالصبي يسلم إلى عديله، ويلف وجهه بمنديله، ويجتمع عليه أترابه فيُحنى قذاله[٣] كل رفعه، بصفعه، ويسأل عن ضاربها، فإن غلط في صاحبها، أعيد على وجهه اللَّف، وعلى قدالة الكف»[٤].

ثم يؤكد الهمذاني جهل هذا القاضي في العلم وأنه لا يملك من إمارة هذا المنصب سوى النهب والسلب يعمد إليه بوسائل تيسر ذلك عليه، ومن ثم فإنه يعطي صورةً لما آلت إليه الأمور عند بعض القضاة أو بالأحرى عند من يدّعي الصلاح والنسك في حياته ليكسب بهذه الدعوة ما يصبو إليه من مغانم، فيقول:

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١) / ١٥٩ - ١٦٠
(٢) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: ٧٤. (مطبعة الجوائب بالاستانة العلية، ١٢٩٨هـ).
(٣) القذل: جماع مؤخر الرأس من الإنسان، والجمع أقذله وقذل. اللسان، مادة (قذل).
(٤) رسائل بديع الزمان الهمذاني: ٧٤.

«أيكفي أن يصبح المرء بين الزق والعود، ويمشي بين موجبات الحدود، حتى يتم شبابه، وتشيب أترابه، ثم يلبس دنيّته، ليخلع دينيّته، ويسوي طيلسانه، ليحرف يده ولسانه، ويقصر سباله، ليطيل حباله، ويبدي شقاشقه[١]، ليغطي مخارقه، ويبيض لحيته، ليسود صحيفته، ويظهر ورعه، ليخفي طمعه، ويغشى محرابه، ليملأ جرابه، ويكثر دعاءه، ليحشو وعاءه، ثم يخدم بالنهار أمعاءه، ويعالج بالليل وجعاءه، ويرجو أن يخرج من بين هذه الأحوال عالما، ويقعد حاكماً»[٢]. وهكذا يسير الهمذاني في وصم هذا القاضي بكل قبيح من الأفعال بناء على سيرته في القضاء، التي خرجت على حدود الأدب والأخلاق الواجب توافرها في القاضي بشكل عام، وبهذا أصبح بعض أفراد هذه الفئة عرضة للنقد ومن ثم محاولة الاصلاح، وهو ما عرضت له الفكاهة الناقدة.

٥ - المعلمون:

اعتزم النقد توجيه نظرته نحو كل ما يواجهه في الحياة من موضعات اتخذت عناوين مختلفة على تنوع مقوماتها أملاً في إطراح كل من شأنه أن يعد شيئاً ومن ثم التنبيه على كل ما هو حسن وأولى بالاتباع.

والمعلم من الموضوعات التي تناولها بعض الناقدين بالتندر والسخرية عند نظرهم في فئات المجتمع، فكان لما تمتع به المعلم ذلك الوقت من جهلٍ وحمقٍ بصفة عامة بحسب إدّعاءات بعضهم سبباً لأن يوضع في دائرة التندر والسخرية والتهكم. والظاهر أن الجاحظ هو أول من فتح هذا الباب من التنذر على المعلمين ببعض من تصريحاته التي نعتهم فيها بالحمق[٣]، إضافة لما حملت رواياته عنهم من روحٍ ساخرة مستهزئة تحط من قدرهم وتزيد من الضحك عليهم. وليت شعري لم هذا التحامل على هذه الفئة من الناس من الجاحظ. ألم يكن لهم دور في تعليم

(١) الشقشقة: لهاة البعير ولاتكون إلا بالعربي، وقيل هو شيء كالرئة يخرجها البعير من فيه إذا هاج والجمع الشقاشق، ومنه سمي الخطباء شقاشق شبهوا المكثار بالبعير الكثير الهدر، والمراد كثرة الكلام. اللسان، مادة (شقق).

(٢) رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني: ٧٥.

(٣) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٢٤٩/١

الصبيان؟ أيسره تعليمهم القراءة والكتابة. ثم أن بعضهم صاحب عقل نابه ارتقى درجات العلم وصار يشار إليه بالبنان، وجملة من علمائنا الأوائل وعلى اختلاف مجالاتهم لو نظرنا إلى مهنهم الأولى لوجدنا إنهم كانوا معلمين للصبيان، نعم قد تكون وجهة نظر الجاحظ في بعضهم صائبة وبخاصة من اتصف منهم بالجهل والحمق، حالهم حال بعضهم اليوم ممن نواجههم. ولكن تعميم الرأي فيهم جميعاً ووسمهم بالحمق كما فعل الجاحظ فهذا أمر مبالغ فيه، بل يحمل بين جنبيه تجنياً وظلماً لا مسوغ له.ولكنا على أية حال نعرض ما رآه النقد من عيب وخطأ حاول إصلاحه ضمن النظام الإداري الممثل بصورة من صوره المتعددة وهي شخص المعلم.

ألمحنا أن الجاحظ قد اهتم بنقد هذه الفئة وإبداء مساوئها، بل إنه دأب على النيل منهم والانتقاص من شأنهم، بما أشاعه من حماقاتهم وجهالاتهم. فراح يصور كل ذلك بنوادر مضحكة تحمل قدراً كبيراً من السخرية والتهكم اللاذع لمثل هكذا سجايا هي ملازمة للمعلم، بحسب رأيه فيهم.

فقد أثر عنه تأليفه لكتاب في نوادر المعلمين، إلا أنه عزم على تمزيقه وربما كان هذا لإحساسه بأنه قد تجنى على هذه الفئة عندما طعن عليهم ونسبهم إلى الحمق والرقاعة، إلا أن فكرة التمسك بهذا الكتاب سيطرت عليه بعد موقف وقع بينه وبين معلم إلتقاه. وتعال ننظر إلى هذا الموقف الذي دعا الجاحظ إلى تأكيد نظرته في المعلمين.

فقد روى أنه التقى معلماً على هيأةٍ حسنة، وحاوره وباحثه في صنوف العلم والمعرفة كعلوم القرآن والفقه والنحو والمنطق وكذلك رواية أشعار العرب، فوجده ماهراً فيما طارحه من علوم، فكان هذا الأمر هو الداعي إلى لوي عزيمته عن الاحتفاظ بكتابه المؤلف. ثم أخذ الجاحظ يختلف إلى هذا المعلم ويزوره، فصادف أن أتاه يوماً على عادته في زيارته فلاحظ أن الكُتاب مغلق فراح يسأل عنه فقيل له أن أحداً قد مات له وجلس في البيت لتلقي العزاء فيه. فما كان من الجاحظ إلا أن توجه نحو بيته، حتى إذا ما أذن له في الدخول، يقول وجدته جالساً فقلت له: «عظم الله أجرك، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة، كل نفس ذائقة الموت فعليك بالصبر. ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت:

فأخوك؟ قال: لا، فقلت: فزوجتك؟ قال: لا، قلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي- هذه أول المناحس، فقلت: سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها. فقال: أتظن أني رأيتها. قلت: وهذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم تر؟ فقال: أعلم أني كنت جالسا في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلا عليه برد وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ... ردي علي فؤادي أينما كانا

لا تأخذي فؤادي تلعبين به ... فكيف يلعب بالإنسان إنسانا[١]

[كذا] فقلت في نفسي لولا أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر فعشقتها فلما كان منذ يومين مر ذلك الرجل بعينه وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمرو ... فلا رجعت ولا رجع الحمار[٢]

فعلمت إنها ماتت فحزنت عليها وأغلقت المكتب وجلست في الدار. فقلت: يا هذا إني ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى»[٣].

فكانت هذه الرواية التي يرويها الجاحظ عن هذا المعلم وما امتاز به من حمقٍ وسذاجة تعكس وجهة نظره في المعلم بل وتؤكدها. ولكن ليت شعري هل ما رواه الجاحظ عن هذا المعلم حقيقة لا مجال للمبالغة فيها. رجل يعشق امرأة ورد ذكر اسمها في بيت شعر وربما لا يكون هناك امرأة قط، بل اسم يذكر على عادة الشعراء في أشعارهم.

أقول إن ذلك أمراً غير معقول، ولكن الذي يشفع لنا في قبوله على مضض إن الجاحظ هو الراوي، الذي عرفنا عنه دقته في تقصي الأخبار وموسوعية معرفته لأحوال المجتمع بفئاته المتنوعة. وقد أورد الجاحظ في هذا الموضوع أكثر من خبر واحد إضافة لما سبق ذكره. فذكر إنه مر بمعلم صبيان، ورأى عنده عصا طويلة

(١) لم أعثر على قائل هذين البيتين فيما توافر لي من مصادر.
(٢) لم أتمكن من معرفة صاحب هذا البيت.
(٣) المستطرف، الأبشيهي: ٢٤٢/٢ - ٢٤٣.

وأخرى قصيرة وكرة وطبلاً وبوقاً، فقال له: «ما هذه؟ فقال: عندي صغار أوباش، فأقول لأحدهم إقرأ لوحك فيصفر له بضرطة فأضربه بالعصا القصيرة. فيتأخر فأضربه بالعصا الطويلة، فيفر من بين يدي فأضع الكرة في الصولجان وأضربه فأشجه فيقوم إليّ الصغار كلهم بالألواح فأجعل الطبل في عنقي والبوق في فمي وأضرب الطبل وأنفخ في البوق فيسمع أهل الدرب ذلك فيسارعون إليّ يخلصونني منهم»[1].

فهذه الرواية تحكي قسوة هذا المعلم مع تلاميذه، وكيفية عقابه لهم، إلا إنه لا ينجو من عقابهم فيستعين بطبل وبوق للتخلص منهم. فصورة هذا المعلم تثير الضحك بحق، رجل على هذه الهيأة محاط بأطفال يوجهون إليه الضرب، رسمها الجاحظ بأسلوب (كاريكاتوري) حاو على تهكم واستهزاء.

وشبيه بذلك ما كان يمارسه معلم آخر مع تلاميذه من قسوة تعبر عن رقاعته. يقول الجاحظ: «مررت على خربةٍ فإذا بها معلم وهو ينبح نبيح الكلاب، فوقفت أنظر إليه، وإذا بصبي قد خرج من دارٍ فقبض عليه المعلم وجعل يلطمه ويسبه، فقلت: عرفني خبره! فقال: هذا صبي لئيم يكره التعليم ويهرب ويدخل الدار ولا يخرج، وله كلب يلعب به، فإذا سمع صوتي ظنّ إنه صوت الكلب، فيخرج فأمسكه»[2]. فهذا المعلم لا يترفع عن أن يحاكي الكلب بصوته في سبيل القبض على صبي لا يرغب في التعلم، وإن مثل هكذا تصرف يتنافى مع ما يجب أن يكون عليه المعلم من وقار وهيبة.

وأمام ما تقدم يظهر أن المعلم كان يعاني من تلاميذه الذين يحضرون الكتاب لما يقومون به من أعمال ومشاكسات لا يقوى هذا المعلم على ردعها إلا بشق الأنفس. وقد تؤدي مشاكساتهم إلى إلحاق الأذى بمعلمهم. يقول الجاحظ: «رأيت معلماً في كتّاب وحده، فسألته، فقال: الصغار داخل الدرب يتصارعون. فقلت: أحب أن أراهم. فقال: ماأشير عليك بذلك. فقلت: لا بدّ. قال: فإذا جئت إلى رأس

(١) المستطرف، الأبشيهي: ٢٤١/٢
(٢) المستطرف، الأبشيهي: ٢٤٢/٢

الدرب أكشف رأسك لئلا يعتقدوك المعلم فيصفعونك حتى تعمى»[١]. فما أشد ما يصوره الجاحظ من هوان المعلم على تلامذته فكيف حاله إذن بين أفراد مجتمعه، وهذا يعطي بدوره صورة سيئة غاية السوء عن هذا المعلم والتي لا تخلو من مبالغة، وما ذلك إلا بسبب ما رآه المنتقصون لشخص المعلم من انحطاط في سلوكه وترد في مستوى فهمه إلى الحد الذي يصبح معه مثاراً لسخرية الساخر وغرضاً لعبث العابث، ملحقين فيه كل رذيلة وسالبين عنه كلّ مكرمة وحسنة.

وهكذا فقد اشتمل النقد الإداري هذه الفئة - فئة المعلمين - لما تمتعوا به من وضع إداري مكنهم من التحكم بالصبيان الذين كانوا يعلمونهم. بمعنى إن هذه الفئة تحقق فيها مبدأ الرئيس والمرؤوس، المعلم من جهة والتلميذ من جهة أخرى. فكان لزاما أن يُعرض لها في مؤلفات هذه الحقبة بإبداء ما تمتع به معلموها من ميزات حسبت لهم أو عليهم. ومن ثم فإن هذا يعطي تصوراً عن طبيعة مجتمع العصر العباسي من خلال معرفة أحوال أفراده وفئاته وما هم عليه من ممارسات وسلوكيات كانت بحق المقوم لشخصياتهم على اختلاف انتمائاتهم الفئوية.

النقد الاجتماعي:

١ - البخل والبخلاء

لا يخلو مجتمع من المجتمعات من عيوب يشتمل عليها بعض أفراده وتكون منقصة تلحق بهم وتقلل من شأنهم، وقد تفاوتت هذه العيوب فيما بينها فبرز منها ماكان له تأثير ملحوظ، وخبى ما لم يكن كذلك. ومن هذه العيوب التي لوحقت بالرصد والتعقيب بخل البخلاء. فقد كانت لهذه الظاهرة من المدلولات المنسحبة على أصحابها وعلى غيرهم ما جعلها تعد من الأمراض الاجتماعية التي تجب معالجتها والقضاء عليها.

ومن الجدير بالملاحظة أن مثل هكذا ظاهرة لا تنشأ اعتباطاً من لاشيء. نعم، قد يكون لطبيعة النفس الإنسانية عند بعضهم دور في بروزها بما يتعوده من عدم البذل والعطاء. ولكن هناك سبباً أدعى لظهور مثل هذه الظاهرة في مجتمع ما، وهو

---

(١) م. ن: ٢٤٢/٢

الاضطراب الاقتصادي وسوء أحوال المعيشة فإن مثل هكذا ظرف يساعد - لا شك - هذا العيب الاجتماعي على الظهور عن طريق محاولة جملة من أبناء المجتمع تأمين احتياجاتهم المعاشية بصورها المختلفة. وهذا من طبيعة النفس البشرية التي إذا أحرزت قوتها اطمأنت، ومن ثمَّ فإن هذا يؤدي إلى تفاوت الفرص في التحصيل فيولد الشح[1] والبخل عند بعض من تمكن من حياته بتوفير متطلباتها، والحاجة عند من حرم هذه المتطلبات. وهكذا تنشأ هذه الظاهرة صدى لعوامل نفسية محضة وأخرى بيئية بما يحكمها من عوامل مختلفة. وهنا يجئ دور المصلح والناقد في توجيه الأنظار إلى كل عيب أملاً في تجنبه أو تركه. واختلفت وسائل هذا النقد وتنوعت وبرزت منها الطريقة الساخرة والهازئة. فقد كان للفكاهة دور في الإصلاح والتقويم لكل خلل ونقص؛ ومنها ما كان متعلقاً بالبخل والبخلاء.

فقد اشتهر الجاحظ في تتبع هذه الظاهرة ورجالاتها عن طريق عرضه لأحوالهم بإسلوب هزلي مضحك في كتابه (البخلاء)؛ ويرجع بعضهم سبب اهتمام الجاحظ بهذه الظاهرة وتفوقه في إبراز مظاهرها كونه معتزلياً سمى به وبأصحابه - بحسب اعتقادهم - التفكير العقلي على غيرهم «فقد كان المعتزلة يحسون بأنهم من طبقة أخرى غير طبقات الناس العادية، وقد كان هذا الإحساس يدفعهم في كثير من الأحوال إلى السخرية من الناس والتهكم، ولكنهم كانوا حينما يسخرون أو يتهكمون، لا يصدرون في ذلك عن أحقاد شخصية أو ضغائن ذاتية، على نحو ما كان الأمر في ظاهرة الهجاء في الأدب العربي، ولكنهم كانوا يصدرون في ذلك عن فلسفة خاصة، قوامها العطف على الناس وتوجيههم إلى عيوبهم حتى يصلحوها»[2]. ومن هذا المنطلق عالج الجاحظ على وجه الخصوص هذه الظاهرة بأسلوب ملؤه التندر والعبث أملاً في إصلاح ما أفسده الدهر.

فهم بما صوروه لأنفسهم أولاً ثم بما بينوه لغيره من أن البخل إنما هو عملية حرص واقتصاد في إنفاق ما يملكونه من دون مجاوزة لحد هذا الإنفاق إلى التبذير

---

(١) الشح: البخل مع الحرص، وقيل الشح أشد البخل وأبلغ في المنع. اللسان، مادة (شحح).

(٢) أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، الدكتور عبد الحكيم بليغ: (٢٩٥ - ٢٩٦)(مكتبة نهضة مصر- بالفجالة، ١٩٥٩م).

والإسراف، بوضعهم تعليلات تفسر حرصهم هذا، الذي نعتوا بسببه بالبخلاء، وهيهات أن يكون تقتيرهم هذا نابعاً من محاولتهم إصلاح أحوالهم المعاشية المختلفة بمعزل عما يحيط بهم من ظروف، بل إن ما وصلت إليه «الحياة الاجتماعية من تعقد مشتبك النواحي، منذ انتقلت الدولة إلى الشرق، وأسرعت بتلك الحياة إلى ذلك التعقّد، فأصبحت متعددة الوجوه كثيرة المطالب وفارقتها تلك البساطة التي كانت ما تزال غالبة على المجتمع الإسلامي من قبل»[١]. جعل الكثير من الناس يسعون إلى تحصيل المال بشتى الوسائل، والعمل على التمسك به والمحافظة عليه أملاً بألا تمتد إليه يد الإنفاق.

ولكنهم أمام هذا كله وضعوا لأنفسهم، ولغيره - لدفع الشبهة عنهم - المسوغات التي تنزه تصرفهم هذا المنعوت بالبخل بعلل متنوعة. وخير ما يمثل ذلك كتاب (البخلاء) للجاحظ «الذي صور فيه أخلاق أهل البخل وصفاتهم وأساليبهم في الاحتفاظ بما يرزقون تصويراً طريفاً»[٢]. فهذا خالد بن يزيد[٣] يبدي بخله الذي يعده حرصاً بوصيته لابنه عند موته[٤]، وانظر لبعض حججه التي تسوغ حرصه على المال من خلال قوله: «فأول ما وقع في روعي إن مالي محفوظ علي، وإن النماء لازم لي وإن الله سيحفظ عقبي من بعدي، إني لما غلبتني يوماً شهوتي، وأخرجت يوما درهما لقضاء وطري، ووقعت عيني على سكتة، وعلى اسم الله المكتوب عليه، قلت في نفسي: إني إذاً لمن الخاسرين الضالين»[٥] ثم يأخذ بترتيب نتائج لا تخلو من سذاجة وحمقٍ وتبعث على السخرية والضحك، وكأن مرد هذا البخل في وجه من وجوهه هو تقوى الله وطلب بركته. يقول: «لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئاً عليه: «لا إله إلا الله» وأخذت بدله شيئاً ليس عليه شيء. والله إن المؤمن لينزع خاتمه لأمر يريده، وعليه (حسبي الله) أو (توكلت على الله) فيظن

---

(١) مقدمة كتاب البخلاء، طه الحاجري: ٣٤.
(٢) الجاحظ أكبر ساخر في الأدب العربي، جورج جرداق: ١١٥ (مجلة العربي، العدد: الثاني عشر سنة ١٩٥٩. تطبع وتصدر في الكويت).
(٣) لم أعثر على ترجمته في ما توافر لدي من مصادر.
(٤) ينظر البخلاء، الجاحظ ٤٦٠ ومابعدها.
(٥) م. ن: ٥١.

أنه قد خرج من كنف الله - جل ذكره - حتى يرد الخاتم في موضعه، وإنما هو خاتم واحد وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام كما هو؟ إن هذا لعظيم»[١].

وكذلك من دفاعات البخلاء عن البخل ما رواه الجاحظ عن أبي محمد عبد الله بن كاسب، الذي قال فيه الجاحظ: «كان أبخل من برأ الله، وأطيب من برأ الله. وكان له في البخل كلام وهو أحد من ينصره، ويفضله، ويحتج ويدعو إليه»[٢]. فقد كان لا يجد ضيراً في نعته بالبخل ووصمه مادام هذا الاسم يحافظ به على ماله من الإنفاق أو استدانة الغير له. ونستشف هذا من قول الجاحظ له مرة: «قد رضيت بأن يقال عبد الله بخيل؟ قال: لا أعدمني الله هذا الاسم. قلت: وكيف؟ قال: لا يقال فلان بخيل إلا وهو ذو مال، فسلم إلي المال، وادعني بأي اسم شئت. قلت: ولا يقال أيضاً فلان سخي إلا وهو ذو مال، فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال، واسم البخل يجمع المال والذم. فقد اخترت أخسّهما وأوضعهما. قال: وبينهما فرق. قلت: فهاته. قال: في قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخي إخبار عن خروج المال من ملكه. واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم، واسم السخي اسم فيه تضييع وحمد. والمال زاهر نافع مكرم لأهله معز، والحمد ريح وسخرية، واستماعك له ضعف وقسولة. وما أقل غناء الحمد - والله - عنه، إذا جاع بطنه وعرا جلده، وضاع عياله، وشمت به من كان يحسده»[٣].

وهناك العديد من التوصيات التي تبناها أشخاص عرفوا ببخلهم، في حمد البخل تبعث على الاستهزاء بقائلها والضحك من رأيه لما فيه من تزيين لهذه الصفة ومن ثم إلباسها زياً يحببها للغير ويشجع عليها. كما في قول يزيد بن عمير[٤] الأسيدي لبنيه في حثه لهم على تعلم الرد وعدم البذل، فهذا أصون لما لهم من الضياع بقوله: «لإن يقال لأحدكم: بخيل وهو غني خير له من أن يقال: سخي وهو

(١) البخلاء، الجاحظ: ٥١
(٢) البخلاء، الجاحظ: ٥٩
(٣) م. ن: ٦٢
(٤) لم أعثر على ترجمة لصاحب هذا الاسم في ما توافر لي من مصادر.

فقير»[١].

ويطالعنا الهمذاني في مقاماته وعلى الخصوص في مقامته (الوصية)، بشيء من هذا المرض على لسان راويته عيسى بن هشام بوصية للإسكندري موجهة إلى ولده حين جهزه للتجارة فأوصاه بإلتزام الصيام نهاراً والنوم ليلاً حتى لايكون لنفسه وشهوتها عليه من سلطان ثم يقول: «وكما أخشى عليك ذاك فلا آمن عليك لصّين أحدهما بالكرم واسم الآخر القرم[٢]. فإياك وإياهما إن الكرم أسرع في المال من السوس. وإن القرم أشأم من البسوس[٣]. ودعني من قولهم إن الله كريم إنها خدعة الصبي عن اللبن. بلى إن الله لكريم ولكن كرم الله يزيدنا ولا ينقصه وينفعنا ولا يضره. ومن كانت هذه حاله. فلتكرم خصاله. فأما كرم لا يزيدك حتى ينقصني ولا يريشك حتى يبريني. فخذلان لا أقول عبقري، ولكن بقري[٤]. أفهمتها يا ابن المشؤومة؟»[٥]. فعن طريق ما يصوره الهمذاني على لسان بطله من إبداء أو عرض لحالته النفسية، تراه يبتدأ وصيته بنصيحة تحمل بين جنباتها عطفاً وملاينة بالقول ونلمح ذلك من قوله «أخشى عليك»، ثم تشتد ثورته بخاصة عندما يتعلق الأمر بالمال وإنفاقه بالوجوه المختلفة وهنا يبرز طبعه الحاوي على البخل من قوله «ودعني من قولهم إن الله كريم. إنها خدعة الصبي عن اللبن...»، فقول المنفق للمال، للقائل له: بددت مالك! الله كريم أمر خارج على قواعد البخل والبخلاء. ومثله وصية الكندي[٦] لولده في الحرص حيث يقول: «يا بني! أما بعد: مع الناس

(١) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٣٨/٣
(٢) القرم: بالتحريك شدة الشهوة إلى اللحم ومنه قرم اللحم. اللسان، مادة (قرم).
(٣) البسوس بنت منقذ التميمية، شاعرة جاهلية. يضرب بها المثل لشؤمها لتسببها في حرب طويلة عرفت بحرب البسوس ينظر: الأغاني: ٥/ ٣٩، ثمار القلوب: ٢٤٥، مجمع الأمثال: ٢/ ١٨١.
(٤) البقري: الداهية، ومنها البقاري. اللسان، مادة (بقر).
(٥) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٢٨٤
(٦) الكندي: أبو يوسف يعقوب بن إسحاق الكندي فاضل دهره، وواحد عصره في معرفة العلوم له تصانيف كثيرة في مختلف العلوم، كان أول أمره معلماً للمعتضد ثم إختص به ملازماً له حافظاً لسره، إلاأنه أفشى سراً له فكان سبب قتله توفي سنة (٢٦٢هـ) ينظر: الفهرست: ٣٢٠ - ٣٢١.

كلاعب الشطرنج تحفظ شاهك وتأخذ شاههم فإنّ مالك إذا خرج عن يدك لم يعد إليك، واعلم أن الدينار محموم فإذا صرفته مات، واعلم إنه ليس شيئاً أسرع فناءً من الدينار إذا كسر والقرطاس إذا نشر، والجلد إذا قشر، والثوب إذا قصر، ومثل الدرهم مثل الطير الذي هو لك مادام في يدك فإذا طار صار لغيرك»[١].

لو أتينا على بعض ما مارسه بعض هؤلاء البخلاء من تصرفات تنم عن بخلهم في مأكلهم أو في إنفاقهم لأموالهم نجد فيها كثيراً من وجوه الفكاهة الباعثة على الضحك منهم، كالتهكم والسخرية والاستهزاء بهم، وما ذلك إلا ما تحتويه مواقفهم التي تعبر عن بخلهم من صور تزدحم فيها مشاهد (كوميدية) على صعيد اللفظة الواحدة أو العبارة أو على صعيد الحركات الصادرة عن ممارسيها.

ومن مرويات الجاحظ في بخلائه عن أبي إسحاق النظام[٢] أنه دعاه مرة جار له وآخرين لمأدبةٍ أعدها، يقول النظام: «فأطعمنا تمراً وسمناً وسلاء، ونحن على الخوان ليس عليه إلا ما ذكرت، والخراساني معنا يأكل فرأيته يقطر السمن على الخوان حتى أكثر من ذلك فقلت لرجل إلى جنبي: ما لأبي فلان يضيّع سمن القوم، ويسئ المواكلة، ويغرف فوق الحق؟ قال: وما عرفت علته؟ قلت: لا والله. قال: الخوان خوانه وهو يريد أن يدسمه، ليكون كالدبغ له. ولقد طلق امرأته - وهي أم أولاده - لأنه رآها غسلت خواناً بماء حار، فقال: هلا مسحتِه»[٣]..

فصورة هذا البخيل الذي تعرض لسلوكه على مائدة الطعام وما يقوم به من عمل يبعث على الريبة من تصرفه، ترينا أنه يخرج على حدود آداب المائدة وما يجب على المرء فعله في هكذا مجالس، إلا إن هذه الريبة والاستفهام يزول بمعرفة سبب ذلك، فالرجل قد طلق زوجته لأنها غسلت خواناً له، لذلك فهو يعمد إلى جعل السمن على قدره ليعلم غيره إن قدره هذا يكثر الطبخ فيها، ومن ثم دفع شبهة

---

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٧١٠/١

(٢) أبو إسحاق إبراهيم السيار بن هانئ البصري اختلف في سبب تسميته بالنظام، من أئمة المعتزلة وله آراء انفرد بها وتابعه على ذلك جملة من المعتزلة عرفوا بالفرقة النظامية نسبة إليه توفي سنة (٢٣١هـ). ينظر: أمالي المرتضى: ١/ ١٣٢، تاريخ بغداد: ٦/ ٩٧، خطط المقريزي: ١/ ٣٤٦، النجوم الزاهرة: ٢/ ٢٣٤.

(٣) البخلاء، الجاحظ: ٢٣ - ٢٤

البخل عنه، والموقف ككل يبرز جانباً من جوانب نفسيات هؤلاء البخلاء. فيتجلى نتيجة لذلك موقف ملآن تهكماً وسخريةً معبراً عنه بالضحك وإن كان هذا الضحك مستوراً.

وانظر بخيلاً آخر كيف يوجه بخله وطمع الآخرين في طعامه وجهة جدلية يضع الحق والصواب إلى جانبه بما يورده من موقف يقوم على قرع الحجة بالحجة والدليل بالدليل.

يقول إبراهيم بن السندي[١]: كان في ربض الشاذروان[٢] شيخ من أهل خراسان منزهاً عن الهوى بعيداً عن الرشوة والفساد إلا إنه كان مشهوراً في بخله وتدقيقه في نفقاته، وكان من عادته في كل يوم جمعة أن يحمل معه منديلاً فيه جرذقتان[٣] وقطع لحم سكباج[٤] مبرد، وقليل من الجبن والزيتون والملح، وأربع بيضات وصرة فيها أشنان[٥] وخلال، فكانت عادته أن يحمل هذا معه ويدخل بستاناً يتخير فيه موضعاً على نهرٍ جارٍ فيجلس تحت شجرة وسط الخضرة، فيأكل ويشتري بدرهم رطباً أو عنباً. فيأكل ويتخلل ويغسل يديه ثم يتمشى قليلاً وينام إلى وقت الجمعة. يقول إبراهيم «فبيناً هو يوماً من أيامه يأكل في بعض المواضع، إذ مرّ به رجل فسلم عليه فردّ السلام، ثم قال: هلم عافاك الله. فلما رأى الرجل قد ثنى راجعاً، يريد أن يطفر الجدول أو يعبر النهر، قال له: مكانك، فإن العجلة من عمل الشيطان. فوقف الرجل، فأقبل عليه الخرسانيٌّ وقال تريد ماذا؟ قال: أريد أن أتغدى. قال: ولم ذاك؟ وكيف طمعت في هذا؟ ومن أباح لك مالي؟ قال الرجل: أو ليس قد

---

(١) هو إبراهيم بن السندي من شاهك، روى عنه الجاحظ في كتبه. وأبوه السندي بن شاهك كان يلي الجسرين ببغداد للرشيد. انظر: الجهشياري: ١٣٦ - ١٣٧

(٢) لم يذكره ياقوت في معجمه وكذلك البكري في معجمه.

(٣) الجرذق: الرغيف: الألفاظ الفارسية المعربة، أدي شير: ٣٩

(٤) السكباج: مرق يعمل من اللحم والخل معرب سكبا وهو مركب من (سك) أي خل و(با) أي طعام. الألفاظ الفارسية المعربة. أدي شير: ٩٢

(٥) الأشنان: الحرض. والحرض ماتغسل به الأيدي على أثر الطعام. ينظر اللسان، مادة (حرض) وكتاب الألفاظ الفارسية المعربة. أدي شير: ١١

دعوتني؟ قال ويلك، لو ظننت أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام. الآيين[١] فيما نحن فيه أن تكون، إذا كنت أنا الجالس وأنت المار، أن تبدأ أنت فتسلم، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك: وعليكم السلام. فإن كنت لا آكلاً شيئاً سكت أنا وسكت أنت، ومضيت أنت وقعدت أنا على حالي. وإن كنت آكل فهنا آيين آخر، وهو أن أبدأ فأقول: هلم، فتجيب أنت فتقول: هنيئاً. فيكون كلام بكلام، فأما كلام بفعال وقول بأكل هذا ليس من الإنصاف، وهذا يخرج علينا فضلاً كبيراً قال: فورد على هذا الرجل شيئاً لم يكن في حسابه»[٢].

فهذا الموقف الصادر عن هذا الشيخ حتماً يدفع إلى الضحك منه استهزاءاً وتهكماً به لما أظهره من تعليلات يصف فيها آداب الدعوة والرد عليها. تجعل المتلقي يفغر فاه ضحكاً، لما يورده هذا البخيل من كلام يجعل المقابل ينسى أمر الطعام، وهذا ما أكدته نهاية هذه الحكاية من إن الرجل ورد عليه ما لم يكن في حسابه.

وكان شدة التدقيق في الإنفاق بشتى أشكاله من هؤلاء البخلاء مثاراً لأن يصبح ما ينقل عنهم من تصرف مادة فكاهية تترجم بالضحك.

ومثل هذه الحكايات ما رواه الجاحظ نقلاً عن بعض أصحابه من أن جماعة من خراسان اجتمعوا في منزل، وعملوا على الانتفاع بالمصباح ما أمكنهم ذلك، ثم إنهم سعوا إلى الاشتراك لشراء زيت للمصباح، إلا واحداً منهم فقد أبى، يقول الجاحظ: «ثم إنهم تناهدوا[٣] وتخارجوا، وأبى واحد منهم أن يعينهم وأن يدخل في الغرم معهم. فكانوا إذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ولازال و لايزالون كذلك إلى أن يناموا ويطفئوا المصباح، فإذا أطفؤوه أطلقوا عينيه»[٤]. فعمل هؤلاء إذا جن عليهم الليل أن يعصبوا عيني صاحبهم الذي لم يشترك معهم في ثمن الزيت حتى لا يتسنى له الانتفاع بضوء المصباح.

---

(١) الآيين: معرّب معناه العادة. الألفاظ الفارسية المعربة، أدي شير: ١٣
(٢) البخلاء، الجاحظ: ٢٤ - ٢٥
(٣) تناهد: إخراج كل واحد من الرفقة نفقة على قدر نفقة صاحبه.اللسان، مادة (نهد).
(٤) البخلاء، الجاحظ: ١٨

وكذلك ما رواه أبو كعبٍ[١] من إن موسى بن جناح[٢] دعا جيرانه وفيهم أبو كعب ليفطروا عنده في شهر رمضان، وبعد أن صلوا المغرب أقبل عليهم موسى بن جناح بالإرشاد بعدم العجلة لأنها من عمل الشيطان، ثم يحدثهم عن بعض آداب الأكل وما يجب فعله واجتنابه عند الجلوس إلى المائدة فكان للبخلاء عادات تراعى عند الأكل، فقد حث موسى بن جناح على عدم الأكل إن طلب واحد من الجالسين الماء ليشرب، بل يتوجب عليهم انتظاره حتى يفرغ من شربه، هذا ويعلل لذلك بأسباب متعددة. قال أبو كعب: «فربما نسي بعضنا فمد يده إلى القصعة، وقد مد يده صاحبه إلى الماء فيقول له موسى: يدك يا ناسي. ولولا شيء لقلت لك يا متغافل»[٣]. ثم يصف أبو كعب بعض أصناف أكله فيقول: «وأتانا بأرزة ولو شاء إنسان أن يعد حبها لعدّه، لتفرقه ولقلته. قال: فنثروا عليها لبكة[٤] من دبس مقدار نصف أسيكرة فوقعت ليلتئذ في فمي قطعة - وكنت إلى جنبه - فسمع صوتها حين مضغتها، فضرب يده على حنبي ثم قال: «أجرش يا أبو كعب»؛ قلت: «ويلك! أما تتق الله! كيف أجرش جزءاً لا يتجزأ؟»[٥].

فقوله (أجرش) فيه من المبالغة ما يدعو السامع أو الرائي للموقف إلى الضحك، بخاصةً إذا علمنا أن ما وضع من معنى لهذه الكلمة لا يتناسب مع واقع حال الآكل في سياق هذه الحكاية. فهذه الأرزة التي وضعت قدام المدعوين وعلى حد تعبير أبي كعب لو شاء لعد حباتها لقلتها. إلا أن صاحبهم البخيل يعظم شأنها ويبالغ فيها فيخرج بذلك على حدود المعقول.

هذا ما كان متعلقاً بتصرف بعض البخلاء وما يقومون به من سلوكيات سواءً كانت فعلية أم قولية حول الطعام ويظهر لنا وجهاً آخر يعرض لحالتهم من خلال تصرفهم في أموالهم، وفيه عرض فكه لا يخلو من تهكم وسخرية أو استخفاف لمن يطلع عليهم. يقول الجاحظ في بخلائه أنه سمع حديثاً قد شاع وانتشر مفاده أن

(١) من شخصيات الجاحظ في بخلائه لم أعثر على ترجمة لها فيما توافر لي من كتبٍ.
(٢) أيضاً من شخصيات الجاحظ لم يتيسر لي معرفة ترجمة عنها.
(٣) البخلاء، الجاحظ: ١٢٧
(٤) الليك: الخلط لبكت الأمر ألبكه لبكاً واللبكة الشيء المخلوط. اللسان، مادة (لبك).
(٥) البخلاء، الجاحظ: ١٢٧ - ١٢٨

رجلاً طغت عليه صفة البخل حتى صار إماماً فيه، وأنه إذا تحصل على درهم خاطبه وناجاه بقول منه: «كم من أرضٍ قد قطعت، وكم من كيس قد فارقت، وكم من خامل رفعت. لك عندي أن لا تعرى ولا تضحى»[١] ثم يلقيه في كيسه ويقول له: «اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذل ولا تزعج منه»[٢]. ثم أن أهله تمنوا عليه إنفاق درهم في حاجة لهم، وبعد اللتيا والتي أذعن لطلبهم فحمل درهماً واحداً فقط وخرج «فبيناه ذاهب إذ رأى حواءً قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه، فقال في نفسه: أتلف شيئاً تبذل فيه النفس، بأكلة أو شربة؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله. فرجع إلى أهله، ورد الدرهم إلى كيسه»[٣].

وكان هذا الأمر - ضنهم بالدرهم - ينعكس على تصرفهم مع السائلين الذين يأتون لطلب المعونة منهم ومن غيرهم. يقول المصري إن جاراً له يدعى بالدار دريشيء صاحب مال كثير، وكان لا يعطي السائلين له شيئاً بل هو ينهرهم إذا قصدوه. يقول فقلت له: «ما أبغض إليك السؤال، قال: أجل عامة من ترى منهم أيسر مني. قال: فقلت له: ما أظنك أبغضتهم إلا لهذا. قال: كل هؤلاء لو قدروا على داري هدموها، وعلى حياتي لنزعوها. أنا لو طاوعتهم فأعطيتهم كلما سألوني كنت قد صرت مثلهم منذ زمان. فكيف تظن بغضي يكون لمن أرادني على هذا»[٤].

ولا فرق في عدم البذل لهؤلاء السائلين سواء كانوا ذوي قربى أم من غيرهم، فالبخيل بخيل مع أقاربه أو مع الغرباء. فقد ورد أن رجلاً فقيراً لا يملك شيء، وكان له أخ صاحب مال كثير إلا إنه كان مفرط البخل. فقال له أخوه يوماً: «ويحك، أنا فقير معيل، وأنت غني خفيف الظهر، لا تعينني على الزمان، ولا تواسيني ببعض مالك، ولا تتفرج لي عن شيء؟ والله ما رأيت قط، ولا سمعت، بأبخل منك. قال: ويحك! ليس الأمر كما تظن، ولا المال، كما تحسب، ولا أنا كما تقول في البخل ولا في اليسر. والله لو ملكت ألف ألف درهم لوهبت لك منها خمس مائة ألف

(١) م، ن: ١٢٧ - ١٢٨
(٢) البخلاء، الجاحظ: ١٣١
(٣) م. ن: ١٣١
(٤) م. ن ١٣٣

درهم. يا هؤلاء، فرجل يهب ضربة واحدة خمس مائة ألف يقال له بخيل؟»[١]. ومثله، إن قوماً أتوا عبادياً[٢] فقالوا: «نحب أن تسلف فلاناً ألف درهم وتأخره سنة. فقال: هاتان حاجتان، وسأقضي لكم إحداهما، وإذا فعلت ذلك فقد أنصفت. أما الدراهم فلا تسهل علي ولكني أؤخره سنتين»[٣].

وكذلك ما رواه صاحب الأجوبة وهو ما يدخل بدائرة المنع والبخل من أن سائلاً وقف على باب فقال: «تصدقوا علي. فقالت الجارية: ما عندنا خبز وستي في المأتم؛ فقال: يافاعلة يكون مأتم أكثر مما أنتم فيه، ليس عندكم خبز»[٤]. فكان هؤلاء المكدون لا ينالون أي عطاء كان، إذا هم قصدوا البخلاء في مسألةٍ، بل انهم يرجعون بخفي حنين من عندهم، هذا إذا هم لم ينتهروا أو ينتقص منهم.

حيث ورد إن رجلاً سأل آخر أن يعطيه شيئاً، فمنعه الثاني وشتمه، فقال السائل: «تردني وتشتمني، قال: كرهت أن أردك غير مأجور»[٥]. فكان الدرهم عند هؤلاء البخلاء كالقطب الذي تدور عليه الرحى فهو شغلهم الشاغل عن كل تصرف آخر يمنع من تحصيله.

وقد يمنى بعض البخلاء بأشخاص لا يملكون معهم حولاً ولا قوة في ردهم عن مائدتهم فيكونون بمثابة الطامة الكبرى والمصيبة العظمى التي تنزل على رؤوسهم. كالمتطفلين عليهم بالأكل والنظر. فقد كان علي الأسواري[٦] جالساً مع عيسى بن سليمان بن علي يأكل، فوضعت أمامهم سمكة كبيرة فائقة السمن. وانظر للجاحظ كيف يصوره على هذه المائدة، فيقول: «فجلط بطنها جلطة، فإذا هو يكتنز

(١) البخلاء، الجاحظ: ١٩٥
(٢) العبادي سبة إلى العباد، وهم أقوام من قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا على النصرانية، فأنفوا أن يتسموا للعبيد وقالوا نحن العباد. اللسان، مادة (عبد).
(٣) البيان والتبيين، الجاحظ: ٦/٤
(٤) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٦١
(٥) م. ن: ١٤٧
(٦) هو الأسواري الذي من معاصري الجاحظ وإحدى شخصياته في بخلائه وكان أكولاً، وصفه الجاحظ بأنه «نهش بضعة لحم تعرقاً فبلع ضرسه وهو لايعلم». وكان من المحمقين. ينظر: البخلاء، الجاحظ: ٧٩، والبيان والتبيين: ١٨٨/٢

شحماً، وقد غص بلقمة، وهو - المستسقي - ففرغ من الشراب، وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمة غرقة. وكان عيسى ينتخب الأكلة، ويختار منهم كل منهوم فيه ومفتون به. فلما خاف علي الأسواري الإخفاق، وأشفق من الفوت - وكان أقربهم إليهم عيسى - استلب من يده اللقمة بأسرع من خطفة البازي وانكدار العقاب، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته. فقيل له: ويحك! استلبت لقمة الأمير من يده، وقد رفعها إليه وشحا لها فاه، من غير مؤانسةٍ ولا ممازحة سالفة. قال: لم يكن الأمر كذلك، وكذب من قال ذلك.ولكنّا أهوينا أيدينا معاً، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ووقعت يده في مؤخر الشحمة، معاً. والشحم ملتبس بالأمعاء. فلما رفعنا أيدينا معا، كنت انا أسرع حركة، وكانت الأمعاء متصلة غير متباينة فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي، لاتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر»[١].

فسخرية الجاحظ وتهكمه سائر في اتجاهين الأول منهما على ناقل هذا الخبر للجاحظ وهو (الحارثي) حيث يصوره على أنه مراقب لتصرفات الآكلين على هذه المأدبة إذ لم يكن له شغل شاغل غير متابعة طرق أكلهم، ثم هناك سخرية أخرى منصبة على الأسواري الذي كان بخيلاً أيضاً على الطعام خوفاً من نفاذه قبل أن يشبع نهمه وهذا واضح من سلوكه المضحك وفي دفاعه عن نفسه حين عيب بذلك السلوك حتى إنه استعمل المصطلحات الفلسفية لتسويغ تصرفه مثل قوله: «فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي، لإتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر».

كذلك ما رواه رمضان[٢] أحد شخصيات الجاحظ في بخلائه، في مرافقته لشيخ أهوازي في قارب. وكان هو في الذنب والشيخ في صدر القارب، ثم حان وقت الغداء، فأخرج الشيخ في حال جلسته هذه دجاجة وفرخاً واحداً مبرداً. ثم أقبل يأكل ويتحدث ولا يدعوا رمضان للأكل معه. ثم إن رمضان راح ينظر إلى الشيخ مرة وإلى الطعام مرة أخرى فظن الشيخ أنه يشتهي ذلك الطعام أو يطلب

---

(١) البخلاء، الجاحظ: ٦٩

(٢) من معاصري الجاحظ وقد أورد عنه بعض الأخبار. ينظر: الحيوان: ٥/ ٤٧٥.

إعطاءه منه. فقال الشيخ له: «لم تحدق النظر؟ من كان عنده أكل مثلي، ومن لم يكن عنده نظر مثلك. قال: ثم نظر إلي وأنا أنظر إليه، فقال: يا هناه أنا رجل حسن الأكل، لا آكل إلا طيب الطعام وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة وعين مثلك سريعة، فاصرف عني وجهك. فوثبت عليه، فقبضت على لحيته بيدي اليسرى، ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى. فما زلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي. ثم تحول إلى مكاني، فمسح وجهه ولحيته، ثم أقبل علي فقال: قد أخبرتك إن عينك مالحة، وإنك ستصيبني بعين. قلت وما شبه هذا من العين؟، فال: إنما العين مكروه يحدث. وقد أنزلت بنا عينك أعظم مكروه»(١). يقول رمضان فضحكت ضحكاً ما ضحكت مثله.

فكانت مشاركة الغير للبخيل فيما يملك تعد محنة تتطلب الصبر العظيم من هؤلاء البخلاء، لما تعودوه من المنع وعدم الجود بما لديهم يسيراً كان أم جسيماً، وهذا ما ظهر بشكل جلي بما عرضه الجاحظ من حال هذا البخيل صاحب الطعام وحرصه على عدم امتداد يد الغير لطعامه، بل هو يتجاوز في بخله حد المشاركة الفعلية في الطعام إلى طرد كل متطفل نحوه بالنظر، وهذا هو دأب البخيل في جميع أحواله. فإكرامه للغير أو بذله لبعض من ماله أو طعامه يتطلب منه الكثير من الشجاعة والإقدام لما جبلت عليه نفسه من الأخذ وعدم العطاء وهذا ما عبر عنه بخيل حين سئل عن الشجاعة في البشر، فقيل له: «من أشجع الناس؟ قال: من سمع وقع أضراس الناس على طعامه. ولا تنشق مرارته»(٢).

وأمام ما تقدم ذكره نلمح اهتمام الأدب بتسجيل ما يصادفه من أحوال فئات الشعب ذلك الحين. كاشفاً عما احتوته من عيوب ومساوئ أو ما اشتملت عليه من حسنات وميزات، عن طريق تسجيله إياها محاولاً إصلاح الفاسد منها بأساليب متنوعة منها المباشر ومنها غير المباشر كما هو الحال مع العرض الفكاهي الحاوي على السخرية والتهكم ببعض تلك التصرفات أملاً في التنبيه عليها وتجاوزها وهو ما جوبه به البخلاء وهو عرضنا له سلفاً.

---

(١) البخلاء، الجاحظ: ١٤٧ - ١٨٤

(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢)/٧٤٨

٢ - التطفل والطفيليون

لمحنا فيما سبق إلى طبيعة الحياة التي عاشها أبناء مجتمع هذا العصر ـ وأشرنا إلى وجود تفاوت طبقي فيما بينهم دعا هذا الأمر إلى أن تحيا الأقلية منهم في دعة ورفه من العيش، فكل ما يتمنونه في حياتهم متوفر من مطعم ومسكن وملبس. يقابل هذه الأقلية أكثرية أبناء هذا المجتمع ترتقي بأنظارها إلى مباهج الحياة وضرورياتها دون أن تلمسها، وإن هي لمستها فبقدر ضئيل قياساً إلى غيرها. من خلال هذا الجو طفت فئات حاولت اقتناص أدنى فرصة لإشباع رغباتها المحرومة بشتى الطرق، ومن هذه الفئات (الطفيليون) أولئك الذين لا يجدون تحرجاً في إرضاء شهواتهم - بخاصة فيما هو متعلق بالطعام - فظهر نهمهم في الأكل، وظهر عدم مبالاتهم من ولوج البيوت ذات المحافل والدعوات أملاً منهم في تحصيل أكلة قد أحبوها، أو حضور وليمة قد استحسنوها. وهم إلى جانب ذلك يرخصون لأنفسهم هذا الأمر بإعطائهم المسوغات، وعرضها من قبيل ما رواه صاحب البصائر من أن أعرابياً عوتب على التطفل فقال: «إنما بنيت المنازل لتدخل ووضعت الموائد لتؤكل، ومالي لا أدخل مستأنساً وأبسط وجهي إذا كان رب البيت عابساً»[١]. فمثل هذه الفئة تطرح الأمور ببساطة وسذاجة فأين الضير - على رأيهم - في الجلوس إلى مائدة أعدت للأكل على الرغم من صاحبها؟ وبخاصة إن كان من ذوي البخل والحرص، فيكون إقدام الطفيلي حين ذاك متعمداً للأكل غاضة لصاحب المائدة كما في تسويغ أعرابي من بني تميم، وهو مشابه لما سبق، عندما عوتب على التطفل فقال: «والله ما بنيت المنازل إلا لتدخل ولا وضع الطعام إلا ليؤكل... وإذا وجدت شحيحا بخيلاً اقتحم مستأنساً، وأضحك إن رأيته عابساً، فآكل برغمه وأدعه بغمه وما أحترق في اللهوات طعام أطيب من طعام لا تنفق فيه درهماً ولا تعني إليه خادماً»[٢].

وهكذا صار التطفل سلوكاً اجتماعيا - عند الذين مارسوه - أشبه ما يكون بمهنة راحوا يمتهنونها ويواظبون على ممارستها حتى لقد كان لهذه الممارسة آثارا في أساليبهم الكلامية وجواباتهم. كما في قول طفيل العرائس عندما سئل: «كم

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٦٤١/٢
(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٣(١)/٢٩ - ٣٠

اثنان في اثنين؟ قال: أربعة أرغفة»[١]، وكقول رجل في حديثه لآخر: «انتظرتك على الباب بقدر ما يأكل الإنسان جردقين»[٢]. وغير ذلك من عبارات تدل على مدى شغف مثل هذه الفئة بالطعام فأصبح أمر الأكل شغلهم الشاغل، الذي لا يجدون دون التفكير به والكلام عليه سبيلاً لهم.

ومن ذلك ما قيل لطفيلي قدم من مكة: «كيف سعر النعال بمكة، قال: النعال بحمل، وطبق فاكهة!»[٣]. فكان كل صاحب مهنة متأثراً بما تمليه عليه مهنته من تمازج وتألف معها، وكذلك كان الطفيليون.

أصبح متبعوا هذه المهنة (التطفل) - إن صح هذا التعبير تجوزاً - يتبعون أوامر وتوصيات تصدر عن شخص أشبه ما يكون بالرئيس لهم يطاع فيما يدعوهم إليه فكأنهم يؤلفون بمجموعهم جمعية فيها الرئيس والمرؤوس. فقد كان طفيل العرائس الذي ينسب إليه الطفيليون يوصي أصحابه، بقوله لأحدهم: «إذا دخلت عرساً فلا تتلفت تلفت المريب وتخير المجلس، وأجد ثيابك واعمل على إنها العقدة التي تشغل وإن كان العرس كثير الزحام فمر وانه. ولا تنظر في عيون أهل المرأة ولا في عيون أهل الرجل، فيظن هؤلاء أنك من هؤلاء وهؤلاء أنك من هؤلاء.وإن كان البواب غليضاً وقاحاً فابدأ به ومزه وانهه من غير أن تعنف عليه، وعليك بكلام بين النصيحة والإدلال»[٤]. فكانت هذه التوصيات للمتطفلين نابعة من الحرص على الفوز باغتنام حضور الولائم والجلوس إلى الموائد للتمتع بألوان الطعام والشراب دون إنفاق أو بذل للأموال.

ومن هذه الحكايات التي تروى عنهم، ما قيل في قصد قوم من الطفيليين لمأدبة فقال رئيسهم: «اللهم لا تجعل البواب لكازاً في الصدور، دفاعاً في الظهور، طراحاً للقلانس، هب لنا رأفته ورحمته ويسره، وسهل علينا إذنه، فلما دخلوا تلقاهم فقال متكلمهم: غرة مباركة، موصول بها الخصب، معدوم معها الجدب، فلما

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢٢١/٣
(٢) م. ن: ٢٢١/٣
(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١)/١١٢
(٤) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٢٣٢/٣

جلسوا على الخوان قال: جعلك الله كعصا موسى، وخوان إبراهيم، ومائدة عيسى- في البركة، ثم قال لأصحابه: افتحوا أفواهكم، وأقيموا أعناقكم، وأجيدوا اللف، وأترعوا الأكف، ولا تمضغوا مضغ المتعللين الشباع المتخمين، واذكروا سوء المنقلب، وخيبة المضطرب، كلوا على اسم الله تعالى»[١]. ولكن أجمل وأروع ما قيل في أمر التطفل، وما نثر فيه من توصيات موجهة لأصحابه، ما روي لأبي إسحاق الصابي[٢] في هذا الشأن، فقد كان عهده المكتوب في التطفل والذي أخذ شكل المراسيم والعهود السلطانية غاية في الظرف لما له من أسلوب فكه مضحك، فقد تعمد الصابي إبرازه بأثواب الفكاهة والهزل. فقد أنشأه بناءً على طلب معين الدولة بن بويه الديلمي على لسان شخص يدعى (عليكا) أشتهر بالتطفل، وقد كان السلطان يسخر منه. فيبتدئه الصابي وكأنه مرسوم صادر عن جهة عليا بالآتي:

«هذا ما عهد علي بن أحمد المعروف بعليكا إلى علي بن عرس الموصلي، حين استخلفه على إحياء سننه، واستنابه في حفظ رسومه؛ من التطفل على أهل مدينة السلام وما يتصل بها من أرباضها وأكنافها، ويجري معها في سوادها وأطرافها»[٣]؛ ثم ينتقل بعد ذلك لبيان أسباب إسناد هذا العهد (للموصلي)، الذي تمتع بصفات وخلالٍ أمكنته من الاستئثار بهذا الأمر، بما «توسمه فيه من قلة الحياء وشدة اللقاء وكثرة اللقم، وجودة الهضم»[٤]، وغير ذلك من صفات عدها فيه. ثم ينتقل الصابي بعهده هذا على لسان (عليك) إلى جملة توصيات فارضاً على

---

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢)/٣١٢ - ٣١٣

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن زهرون الحراني، أوحد الدنيا في إنشاء الرسائل، ولد سنة ٣١٣ هـ وكان قد خدم الخلفاء والأمراء من بني بويه، وتقلد أعمالاً جليلة ومدحه الشعراء. وكان لما تمتع به من إحترام وتقدير أن عرض عليه عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بويه الوزارة إن هو أسلم، إلا أنه امتنع عن ذلك. وفي سنة ٣٦٧هـ قبض عليه لما وجد عليه عضد الدولة من جراء مكاتبات كتبها على لسان عز الدولة، وأودع الحبس، ثم صودرت أمواله، إلى أن جاء صمصام الدولة بن عضد الدولة. فخرج من سجنه. توفي سنة ٣٨٤ هـ ينظر: الإمتاع والمؤانسة: ٦٧/١، وفيات الأعيان: ٣٤/١ وما بعدها. والنجوم الزاهرة ٣٢٤/٣

(٣) صبح الأعشى في صناعة الإنشا، تأليف أبي العباس القلقشندي، بقلم محمد عبد الرسول: ٣٦٠/١٤، (نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية الهيأة المصرية للكتاب، ١٩٨٥م).

(٤) صبح الأعشى، القلقشندي: ٣٦٠/١٤

(الموصلي) الانصياع لها، والأخذ بها، حتى يستتب له أمر التطفل. وأول ذلك تذكيره بتقوى الله وخشيته، والتزام أوامره واجتناب نواهيه، ثم يخلص لصلب موضوعه بقوله: «وأمره أن يتأمل اسم التطفل ومعناه، ويعرف مغزاه ومنحاه؛ ويتصفحه تصفح الباحث عن حظه بمحموده، غير القائل فيه بتسليمه وتقليده؛ فإن كثيراً من الناس قد استقبحه ممن فعله، وكرهه لمن استعمله؛ ونسبه فيه إلى الشره والنهم وحمله منه على التفه والقرم؛ منهم من غلط في استدلاله، فأساء مقاله؛ ومنهم من شح على ماله، فدافع عنه باحتياله، وكل الفريقين مذموم، وجميعهما ملوم، لا يتعلقان بعذر واضح، ولا يعتريان من لباس فاضح؛ ومنهم الطائفة التي ترى فيها شركة العنان: فهي تتدله إذا كان لها، وتتدلى عليه إذا كان لغيرها؛ وترى المنة في المطعم للهاجم الآكل، وفي المشرب للوارد الواغل، وهي أحق بالحرية، وأخلق بالخيرية، وأحرى بالمروءة، وأولى الفتوة؛ وقد عرفت بالتطفيل، ولا عار فيه عن ذوي التحصيل، لأنه مشتق من الطفل وهو وقت المساء، وأوان العشاء؛ فلما كثر أستعمل في صدر النهار وعجزه، وأوله وآخره؛ كما قيل للشمس والقمر: قمران أحدهما القمر، ولأبي بكر وعمر: العمران وأحدهما عمر، وقد سبق إمامنا بيان[1] رحمة الله عليه إلى هذا الأمر سبقاً أوجب له خلود الذكر، فهو باق بقاء الدهر ومتجدد في كل عصر؛ وما نعرف أحدا نال من الدنيا حضا من حظوظها فبقى له منه أثر يخلفه، وصيت يستبد به إلا هو وحده، فبيان رضوان الله عليه يذكر بتطفيله كما تذكر الملوك بسيرها، فمن بلغ إلى نهايته، أو جرى إلى غايته؛ سعد بغضارة عيشه في يومه، ونباهة ذكره في غده؛ جعلنا الله جميعاً من السابقين إلى مداه، والمذكورين كذكراه»[2].

وبأسلوبه الهازل يحدد الصابي من يجب على الطفيلي طرقه وغشيانه من أصناف الناس مما تتوافر عليه موائدهم لأنواع وألوان الأطعمة المتنوعة، ويتجلى هذا الشأن عند علية القوم من أمراء ووزراء وما شابه ذلك. يقول: «وأمره أن يعتمد

---

(١) لم نتبين هذا الاسم، فقط هناك اسم (بنان) ذكره الخطيب البغدادي في كتابه التطفيل وحكايات الطفيليين، وكان من المعروفين بالتطفل وإماماً فيه: ٨٣ - ١١١.

(٢) صبح الأعشى، القلقشندي: ٣٦٢/١٤

موائد الكبراء والعظماء بغزاياه، وسمط الأمراء والوزراء بسراياه؛ فإنه يظفر منها بالغنيمة الباردة، ويصل عليها إلى الغريبة النادرة؛ وإذا استقراها وجد فيها من طرائف الألوان، الملذة للسان؛ وبدائع الطعوم، السائغة في الحلقوم؛ ما لا يجده عند غيرهم، ولا يناله إلا لديهم؛ لحذق صناعهم، وجودة أدواتهم، وانزياح عللهم، وكثرة ذات بينهم؛ والله يوفر من ذلك حظنا، ويسدد نحوه لحظنا، ويوضح عليه دليلنا، ويسهل إليه سبيلنا»[١]. ثم يأخذ بوصف كبار التجار وموائدهم، حيث يقول: «وأمره أن يتبع ما يعرض لموسري التجار، ومجهري الأمصار؛ من وكيرة الدار، والعرس والأعذار، فإنهم يوسعون على نفوسهم في النوائب، بحسب تضييقهم عليها في الراتب، وربما صبروا على تطفيل المتطفلين، وأغظوا على تهجم الواغلين؛ ليتحدثوا بذلك في محافلهم الرذلة، ويعدوه في مكارم أخلاقهم النذلة؛ ويقول قائلهم الباجح بإتساع طعامه، المباهي بكثر حطامه: إنني كنت أرى الوجوه الغريبة فأطعمها، والأيدي الممتدة فأملؤها. وهذه طائفة لم ترد بما فعلت الكرم والسعة، وإنما أرادت المن والسمعة؛ فإذا اهتدى الأريب إلى طرائقها وصل إلى بغيته من إعلان قضيتها، وفاز بمراده من ذخائر حسنتها، إن شاء الله»[٢].

ويمضي الصابي في عهده وتوصياته لـ (عليك)، بأن يتنبه على اعتماد وسائل وتبني سبل تهيئ له حصوله على ما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة، ومن مظاهر هذه الوسائل، وهي أشبه ما تكون بحيل يتخذها المتطفل طريقاً لإشباع رغباته؛ مصاحبة مدبري المنازل والطباخين ومصادقتهم فإن في ذلك المنال المنشود. يقول: «وآمره أن يصادق قهارمة الدور ومدبريها، ويرافق وكلاء المطابخ وحماليها، فإنهم يملكون من أصحابهم أزمة مطاعمهم ومشاربهم، ويضعونها بحيث يحبون من أهل موداتهم ومعارفهم؛ وإذا عدت هذه الطائفة أحداً من الناس خليلاً من خلانها، واتخذته أخا من إخوانها؛ سعد بمرافقتها، ووصل إلى محابه من جهاتها، ومآربه في جنباتها»[٣].

(١) م. ن: ٣٦٢/١٤
(٢) صبح الأعشى، القلقشندي ٣٦٢/١٤ - ٣٦٣
(٣) م، ن: ٣٦٣/١٤

ووسائل أخرى يجب أن يستخدمها المتطفل، تكفل له حضور الولائم والجلوس إلى الموائد مثل حضور الأسواق ومراقبة المتبضعين منها، فلا بدّ أن يعثر على شخص يعد لوليمة تكثر فيها أصناف من الأطعمة، ومن ثم اعتماد تدابير تسهل له حضورها. يقول: «وأمره أن يتعهد أسواق المتسوقين، ومواسم المتبايعين؛ فإذا رأى وظيفة قد زيد فيها، وأطعمة قد احتشد مشتريها؛ اتبعها إلى المقصد بها، وشيعها إلى المنزل الحاوي لها واستعلم ميقات الدعوة، ومن يحضرها من أهل النسيان والمروءة؛ فإنه لا يخلو فيهم من عارف به براعي وقت مصيره إليها ليتبعه، ويكمن له ليصحبه ويدخل معه؛ وإن خلا من ذلك اختلط بزمر الداخلين، وعصب الراحلين؛ فما هو إلا أن يتجاوز عتب الأبواب، ويخرج من سلطان البوابين والحجاب؛ حتى يحصل حصولاً قل ما حصل [عليه] أحد قبله فانصرف [كذا] عنه إلا ضليعاً من الطعام بريقاً من المدام؛ إن شاء الله»[1].

ومن هذه التوصيات كذلك تحري المتطفل لكل اجتماع يلمس فيه إقامة مأدبة أو إنشاء دعوة لفئات المجتمع المختلفة. يقول: «وأمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين ومواطن الأبليات[2] والمخنثين؛ فإذا أتاه خبر لجمع يضمهم، ومأدبة تعمهم؛ ضرب إليها أعناق إبله، وأنضى نحوها مطايا خيله؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتهم، والليث الهاصر[3]، والعقاب الكاسر؛ إن شاء الله»[4].

وهو إلى جانب هذا قد حذرّه من الاقتراب من دور العوام المقلين وغيرهم من الرعاع في هذا المجتمع، لما يمتازون به من كونهم ذوي نفوس ضيقة، وأموال قليلة، وفي كل ذلك أثر يلحق المتطفل في مروءته، فالأولى من كل ذلك اجتناب مثل هكذا محافل وعدم حضورها والاقتراب منها[5].

وهناك ممارسات سلوكية يجب على المتطفل مراعاتها وتطبيقها حال تمكنه

(١) صبح الأعشى، القلقشندي: ١٤ /٣٦٢
(٢) لم يذكرها الشارح، إلا أنها قد تكون مواطن للخمر. ينظر في ذلك: المعرب للجواليقي في معنى (الأبلة): ١٧.
(٣) الهصر: الكسر. هصرت الشيء ووقصته إذا كسرته. اللسان، مادة (هصر).
(٤) صبح الأعشى، القلقشندي: ٣٦٣/١٤
(٥) ينظر: صبح الأعشى، القلقشندي: ٣٦٣/١٤ - ٣٦٤

حضور وليمة من الولائم في بيت من البيوت، حتى يتسنى له بعد ذلك القيام عن هذه الوليمة وهو شبعان ريان، يقول صاحب العهد: «وأمره أن يحرز الخوان إذا وضع، والطعام إذا نقل؛ حتى يعرف بالحدس والتقريب؛ والبحث والتنقيب؛ عدد الألوان في الكثرة والقلة، وافتنانها في الطيب واللذة؛ فيقدر لنفسه أن يشبع مع آخرها، وينتهي منها عند إنتهائها؛ ولايفوته النصيب من كثيرها وقليلها، ولا يخطئه الحظ من دقيقها وجليلها. ومتى أحس بقلة الطعام، وعجزه عن الأقوام؛ أمعن في أوله إمعان الكيس في سعته، والرشيد في أمره، المالئ لبطنه؛ من كل حار وبارد، وخبيث وطيب؛ فإنه إذا فعل ذلك سلم من عواقب الأعمار الذين يكفون تطرفاً، ويقلون تأدباً؛ ويظنون إن المائدة تبلغهم في آخر أمرهم، وتنتهي بهم إلى غاية سعيهم؛ فلا يلبثوا أن يخجلوا خجلة الواثق، وينقلبوا بحسرة الخائب؛ أعاذنا الله من مثل مقامهم، وعصمنا من شقاء جدودهم إن شاء الله»[1].

والمتطفل نتيجة لتطفله ربما لا ينجو من تبعات هذا التطفل، فقد يواجه بالكلمات النابية، وقد يتعرض لضربة من هذا أو ذاك، لذلك فعليه أن يروض نفسه لتحمل ما يلاقيه في عمله هذا. يقول: «وأمره أن يروض نفسه، ويغالط حسه؛ ويضرب عن كثير مما يلحقه صفحاً، ويطوي دونه كشحاً ويستحسن الصمم عن الفحشاء؛ وإن أتته اللكزة في حلقه، وصبر عليها في الوصول إلى حقه؛ وإن وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع أضراسه؛ وإن لقيه لاقٍ بالجفاء، قابله باللطف والصفاء؛ إذ كان قد ولج الأبواب، وخالط الأسباب، وجلس مع الحضور، وامتزج بالجمهور، فلا بدّ أن يلقاه المنكر لأمره، ويمر به المستغرب لوجهه؛ فإن كان مراً حيياً أمسك وتذمم، وإن كان فظاً غليظاً همهم وتكتم؛ وتجنب عند ذلك المخاشنة؛ واستعمل مع المخاطب له الملاينة؛ ليبرد غيظه ويفل حده؛ ويكف غربه[2]، ويأمن شغبه؛ ثم إذا طال المدى تكررت الألحاظ عليه فعرف، وأنست النفوس به فألف؛ ونال من المحال المجتمع عليها، منال من حشم وسئل الذهاب

(١) م. ن: ٣٦٤/١٤
(٢) الغرب والغربة الحدة ويقال لحدي السيف غرب ويقال في لسانه غرب أي حدة. اللسان، مادة (غرب).

إليها»[١].

ويضرب لما سبق مثلاً يؤكد ما ذهب إليه في نصائحه بقوله: «وقد بلغنا أن رجلاً من العصابة كان ذا فهم ودرايه، وعقل وحصافة، تطفل على وليمة، لرجلٍ ذي حال عظيمة؛ فرمقته فيها من القوم العيون، وصرفت بهم فيه الظنون؛ فقال له قائل منهم: من تكون أعزك الله؟ فقال: أنا أول من دعي إلى هذا الحق. قيل له: كيف ذاك ونحن لانعرفك؟ فقال: إذا رأيت صاحب الدار عرفني وعرفته نفسي- فجيئ به إليه، فلما رآه بدأه بأن قال له: هل قلت لطباخك؛ أن يصنع طعامك زائدا على عدد الحاضرين ومقدار حاجة المدعوين؛ قال: نعم! قال: فإنما تلك الزيادة لي ولأمثالي وبها يستظهر لمن جرى مجراي، وهي رزق لنا أنزله الله على يدك وبك، فقال له: كرامة ورحباً، وأهلاً وقرباً؛ والله لأجلست إلا مع علية الناس ووجوه الجلساء، إذ أطرفت في قولك، وتفننت في فعلك. فليكن ذلك الرجل إماماً يقتدى به، ويقتفى طريقه، إن شاء الله»[٢].

وقبل نهاية العهد أمر صاحبه بشرب ما يساعد على الهضم من الأشربة مثل الجوارشن لما لها من دور في تقوية المعدة - بحسب قوله - زيادة على تحفيزها المعدة لتقبل الطعام، فبها يستقيم أمر الطفيلي في مأكله ومشربه، بل يجب المداومة على هذه الجوارشنات شأن الطفيلي في ذلك شأن الكاتب الذي يداوم على بري أقلامه، والجندي الذي يتعاهد سيفه بالصقل، والصانع مع آلته[٣]. وفي نهاية هذا العهد يختمه كما لو إنه مرسوم موجه من السلطة العليا في الدولة بقوله: «هذا عهد علياً بن أحمد إليك، وحجته لك وعليك؛ لم يألك في إرشاداً وتوفيقاً، تهذيباً وتثقيفاً؛ وبعثاً وتبصيرا، وحثاً وتذكيرا؛ فكن بأوامره مؤتمرا، وبزواجره مزدجرا؛ ولرسومه متبعا، وبحفظها مضطلعا؛ إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته»[٤].

(١) صبح الأعشى، القلقشندي: ٣٦٥/١٤.
(٢) صبح الأعشى، القلقشندي: ٣٦٥/١٤.
(٣) ينظر: م. ن: ٣٦٥/١٤.
(٤) م. ن: ٣٦٥/١٤.

يلاحظ مما تقدم إن عدد من اتصف بهذه الخصلة (التطفل) لم يكن نادراً أو محدودا ممن كان ينتمي لهذا المجتمع بحيث إنك لا ترى منهم إلا النزر، بل على العكس من ذلك ترى الكثير من الناس ممن لم توافهم الحياة فعاشوا في بأس وحرمان يتطلعون لما في أيدي غيرهم. وهذا يستشف من الروايات التي تروي وجود حجاب وبوابين يقامون على الأبواب في الدور التي تقام فيها الولائم خشية ولوج المتطفلين إليها. وهذا دعى كثيراً من أبناء هذه الفئة إلى اعتماد حيلٍ لطيفة وخدع جميلة يتمكنون بها من دخول مثل هذه الدور والجلوس إلى موائدها مهما كلفهم ذلك من مشقة. كهذا الطفيلي الذي رام الدخول إلى عرس فمنع، «فأخذ قرطاساً فطواه ثم ختمه ولم يكتب فيه شيئاً وعنون «من أخي العروس إليها» ثم جاء به كالمدل فقيل له: كأنه كتب الساعة قال: نعم ومن العجب، للعجلة، إنه لم يكتب فيه شيء، فاستملحوه، وأخذوه وأدخلوه»[١].

ومن هذه الحيل اللطيفة التي تبناها بعض الطفيليين تظاهر أحدهم بأنه قد أكل وشبع ولا حاجة له بعد بالطعام عندما أحس بأنه سيمنع من دخول إحدى الولائم فكان منه أن «أخذ إحدى نعليه في كمه وعلق الآخر في يده وأخذ خلالاً وجعل يتخلل، ودنا من الباب فمنع فقال للبواب: يا هذا! قد أكلت. فقال البواب إنما قد منعتك من الغداء فإذا تغديت فادخل فدخل وأكل»[٢]. وطفيلي آخر منع من الدخول فسعى إلى أن يرهن نعليه «على سكرجات[٣] عند البقال وعاد إلى الباب فدخل وجعل السكرجات في كمه ثم قعد وأكل، فلما فرغ رد على البقال وقال: ليس يرضونها يريدون شامية جيدة»[٤].

وبعد فقد عرضت الفكاهة هنا واقع فئة من فئات المجتمع العباسي، وإن كانت مثل هذه الفئة يتوافر عليها كل زمان ومكان عرضت الكتابة النثرية ذلك بأسلوبها المضحك الناقد عن طريق إبدائها لوجهات نظر هؤلاء النفر من الناس فيما

---

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١)/١٢٠
(٢) صبح الأعشى، القلقشندي: ٢(١)/٢٠٤
(٣) السكرجات: فارسية معربة واحدتها (السُكرَجَة - السُكُرَّجة) ومعناها الصفحة. الألفاظ الفارسية المعربة، أدي شير: ٩٢
(٤) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١)/٢٠٤

يقومون به من عمل واضعين له المسوغات والحجج، وعرضت كـذلك بعضاً مـن توصـياتهم لبعضـهم البعض حتى يغتنموا بها كل أكلةٍ يريدونها أخذاً ببعض الحيل والسلوكيات الممارسة في هذا الصدد.

وإذا كان الطابع العام في هذا السرد هو طـابع فكـه هـازل ضـاحك إلا إنـه يرمـي إلى معالجـة المجتمع من هذا المرض (التطفل) بعرض أحوال أصحابه.

٣ - الثقل

من الطبيعي أن تختلف طبيعة النفس الإنسانية وتتفاوت استعداداتها من شخص لآخر، فـلا يمكن العثور على إنسان يماثل آخر في كل ما تحويه النفس من ادراكات وأحاسيس. فلا بـدّ مـن وجـود تفاوت بين بني البشر عامة على أثره تختلف سلوكياتهم.

ومن هنا يمكن القول أن صفة الثقل التي جبل بعضهم عليها سلوك إنساني يختلف تقبلـه مـن شخص لآخر، فالثقيل نفسه ربما لايرى تحرجاً من جلوس آخر إليه زمناً طويلاً؛ لأنه لا يرى في ذلـك مـن بأس عليه لما تعوده من سلوكه، وربما لايروق مثل هكذا شخص لآخر لما يجـد فيـه مـن كـابوس يجـثم على صدره لا يمكنه الخلاص منه إلا بما تلاقيه النفس من شدة وتعب.

لذلك كان الثقيل لا يلاقي الترحيب بين الناس إلا ماندر، وإن فرض الترحيب به فإنه يكون عـلى مضض. لذلك فقد أوصى بعضهم بإعارة الثقيل الأذن الصماء والعين العميـاء تخلصـاً مـن غمـه بنفسـه وسؤاله[1]. هذا ما يتعلق بالأشخاص وهناك ثقل آخر يحس به بعض الأشخاص حيـال عنـاوين سـلوكية بعينها كالعبادات مثلاً، يرونها ضريبة تصادر فيها حرياتهم وما يقومون به من أعمال وهـذا مـا ضربنـا دونه صفحاً لحساسية موضوعه. فمما ورد في شأن الثقل قولهم للتخلص مـن الضـيف بخاصـةً إن كـان غير مرغوب فيه أقوال مختلفة منها ما ورد في رواية الجاحظ أن المروزي يقـول للزائـر إذا أتـاه أو لمـن جلس وطال جلوسه: «تغديت اليوم؟ فإن قال: نعم قال: لولا أنك تغديت لغـديتك بغـداء طيـب، وإن قال: لا. قال: لو كنت تغديت

(١) ينظر عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٣١١/١.

لسقيتك خمسة أقداح»[١] فيقوم الزائر خائباً لم يحصل على شيء وفيه، خلاص من هؤلاء الزوار.

وقد يؤدي كثرة الإلحاح في السؤال إلى ضيق يلحق الشخص المزار، فيعمد إلى وسائل يحاول بها إشعار المقابل بهذا الملل أو الضجر، أملا بتخلصه منه. قيل مرض رجل من الأعراب، فصار الناس يدخلون عليه لعيادته، فيقولون: «كيف أصبحت وكيف كنت، فلما أكثروا عليه قال: كما قلت لصاحبكم»[٢]. أو كفعل رجل آخر من أهل المدينة وقع فوثئت[٣] رجلاه «فجعل [الناس][٤] يدخلون عليه ويسألونه، فلما كثروا عليه وأضجر كتب قصته في رقعة، فكان إذا دخل عليه عائد وسأله دفع إليه الرقعة»[٥]. فالزائر الثقيل أو غير المرغوب قد تصطنع من أجله طرق تعجل انصرافه وقد تكلل بعض تلك الطرق بالظفر والنجاح، وربما لا تجدي مثل هذه الوسائل نفعاً مع آخرين، ثم لا يجد الشخص المقصود بالزيارة مناصاً من الاجتماع بهم أو النزول على رغباتهم. من ذلك أن جماعة صاروا إلى باب ابن الجنيد[٦] يستأذنون الدخول عليه، وكان ضجراً، فقال لغلامه: «أخرج فقل لهم قد مات، فخرج ورجع وقال قد قلت لهم فجلسوا ينتظرون الجنازة»[٧].

وقد تجسدت هذه الفكرة عند الخوارزمي حينما راح يصور لنا رسولاً أتاه من قبل أبي حامد الأديب بقومس[٨]، تصويراً ظريفاً يعرض فيه بهذا الرسول لما يحمل من صفات الشدة والثقل التي لا تجدي معها أي محاولة للخلاص منه.

(١) البخلاء، الجاحظ: ١٧.
(٢) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٤٧/٣.
(٣) الفثء: الكسر، يقال فثأته أفثؤه فثئاً. اللسان، مادة (فثأ)
(٤) زيادة لا بدّ منها حتى يستقيم السياق.
(٥) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٤٧/٣
(٦) أبو علي، محمد بن أحمد بن الجنيد، من أهل الري وكان من الفضلاء ثقة جليل القدر، له نحو خمسين مؤلفا. ينظر: الفهرست، الطوسي، صححه وعلق عليه السيد محمد صادق آل بحر العلوم: ١٣٤ (المطبعة الحيدرية) - النجف في ١٩٣٧م) الرجال، النجاشي: ٢٩٩
(٧) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٦٨.
(٨) قومس: بالضم ثم سكون فكسر الميم، كورة كبيرة واسعة تشتمل على مدن وقرى ومزارع، وهي ذيل جبل طبرستان، من مدنها المشهورة بسطام وبيار. معجم البلدان: ٤/: ٤١٤.

وانظر إليه كيف يعرض لحالته مع هـذا الرسـول قـائلاً: «كتبـت إلى شـيخي كتابـاً سـامحت فيـه يـدي وخاطري. وغالطت فيه قلبي وناظري. لأن رسوله كان أعجل من عامل حضر- مشخصة. ومـن حـاج لم يبق بينه وبين الموقف سوى ليلة. أو بياض غدوة. وهو على فراسخ بعيدة. وفـوق مطيـة بليـدة. ومـن منهزم رأى خلفه سواد الطلب. وخاف عاقبة فوات الروح والسلب. ومن الحشر- في يـوم الجمعـة وقـد سمع الأذان. وركب السلطان. فلازمني حتى ضغطني ضـغط الغـريم. وضـبط الخصـيم. وشـغلني عـن بسم الله الرحمن الرحيم. فكتبت ويدي ترتعش. وقلبي ذهـل دهـش. وأنـا أرى لشـيخي أن يسـتعمل هذا الرسول في جباية المال. واستحثاث العمال واجتلاب الصدقات والحوال. فإنه يحاسب على اللحظـة. ويضايق في اللفظة. ويتقاضى تقاضياً يزهق النفس. ويقطع النفس. فلو عرف ملـك المـوت سره لجعلـه خليفته وفوض إليه أمره. فإنه أكرم منه لقاء. وأشد اقتضاء. وحاجتي أن لا يرده شيخي إلي فـإني أرحـم الأرض من ثقله وأحب بطنها وأبغض ظهرها من أجله. والسلام»[١].

فكان ما يمتاز به هذا الرسول من شدة وغلظة وإسرافٌ في التـدقيق كـل ذلـك يـدعو إلى الملـل منه والضيق به، كيف لا، وهو «يحاسب على اللحظة ويضايق في اللفظة»، أضـف إلى ذلـك أن تقاضيـه مروع يزهق النفس، وكأنه ملك موكل بقبض الأرواح لشدته ووطأته على النفس فكانت صـفاته مملـة تثقل رائيه بالهم والغم، مما حدى بالخوارزمي إلى تمني الموت وحبه حتى لا يراه أو يجتمع معه.

والثرثرة في الكلام والهذيان المسرف بغير معنى يوجب الإنزعاج والملل من المتكلم، وكثر من هم على مثل هذه الشاكلة، فهم يتوسعون في الكلام بمختلف الموضوعات من غير ما سبب يربط بـين هـذه الموضوعات ومناسبة المقام، مما يولد ضيقاً وضجراً للسامع يود الخلاص منه بوسيلة من الوسـائل وقـد بين الهمذاني في بعض مقاماته مثل هذه الحالة مجسدة بشخصية بطلها أبو الفـتح الإسـكندري. يقـول الهمذاني أن راويته عيسى بن هشام قد طلب مـن غلامـه أن يختـار لـه حجامـاً يـده خفيفـة وملابسـه نظيفة مع قلة فضوله، وبعد خروجه من الحمام، جاءه غلامه بحجام

(١) رسائل الخوارزمي، تقديم نسيب وهيبة الخازن: ١٨١ (دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٧٠م).

لطيف الشكل والهيئة. وحين دخل عليه سلم وسأل عن بلد عيسى بن هشام فلما أجابه بأن بلده قم. قال: «حياك الله من أرض النعمة والرفاهة وبلد السنة والجماعة، ولقد حضرت في شهر رمضان جامعها وقد أشعلت فيه المصابيح، وأقيمت التراويح، فما شعرنا إلا بمد النيل، وقد أتى على تلك القناديل، لكن صنع الله لي بخف قد كنت لبسته رطباً فلم يحصل طرازه على كمّه، وعاد الصبي إلى أمه، بعد أن صليت العتمة واعتدل الظل، ولكن كيف كان حجك؟ هل قضيت مناسكه كما وجب، وصاحوا: العجب العجب؟ فنظرت إلى المنارة، وما أهون الحرب على النظارة، ووجدت الهريسة على حالها، وعلمت أن الأمر بقضاء من الله وقدر. وإلى متى هذا الضجر، واليوم وغد، والسبت والأحد، ولا أطيل، وما هذا القال والقيل؟ ولكن أحببت أن تعلم أن المبرد في النحو حديد الموس فلا تشتغل بقول العامة، فلو كانت الإستطاعة قبل الفعل لكنت قد حلقت رأسك فهل ترى أن نبتدئ؟»[1]. فما كان من عيسى بن هشام إلا أن بقي متحيراً من هذا البيان في كل هذا الهذيان، وخاف أن يطول مجلس هذا الحجام، ويزداد ثقله مما دفع به إلى القول بأنه سيحلق غداً تخلصاً وفراراً منه.

هذا بعض ما سجلته الفكاهة الناقدة من سلوك بعض الأشخاص، هذا السلوك الذي مجّه الذوق العام فضلاً عن الخاص والمتمثل بثقل الأشخاص على غيرهم أو كما يعبر عن مثل هؤلاء في وقتنا الحاضر بأنهم (ثقيلي الظل)؛ أملاً في تنبيه من يروم تهذيب نفسه.

٤ - الاحتيال:

من مجربات الأمور أن الاضطراب السياسي وما يتبعه من خلخلة في الوضع الاقتصادي يؤدي دوراً فعالاً في البناء الاجتماعي لأفراد بيئة ما في عصر ما. فالتكوين الطبيعي لكل مجتمع لا بدّ أن يصيبه مرض ما ينأى بمسيرته عن جادة الصواب إن تداخلته عوامل هدّامة تعمل على تقويض كيانه بشتى الوسائل والتي من صورها الفقر والفاقة.

(١) شرح المقامات، المقامة الحلوانية: ٢٣٧ - ٢٤٢

لقد أدى الاختلاف في مدخولات الأفراد وما يمتلكونه بسبب الاضطراب الاقتصادي في العصر العباسي وبخاصة حقبة القرنين الثالث والرابع إلى تدني القيم الأخلاقية والاجتماعية عند بعض أفراده الذين راحوا يرون أن التمسك بهذه القيم يشكل عليهم عبئاً لا طاقة لهم على تحمله. لذا نرى بعضهم قد تبنى سبلاً وأساليب تكفل له عيشة من مأكل أو حصوله على بعض المال بوساطة إتباع طرق ملتوية ممثلة بالحيلة والخديعة الموجهة نحو أناس يشعر أن بحوزتهم شيء يحقق رغبة المحتال أو المخادع.

وهكذا فقد شاع في هذا العصر الكثير من صور هذا الاحتيال والتلاعب بالناس بعضها حقيقة وبعضها خيال ولكنها تصور بعض ما آل إليه بعض أفراد المجتمع. وقد رصدت الفكاهة المصوغة بأقلام الأدباء أشكالاً من هذه الظاهرة عارضةً غايتها وباعثها، وإن كان بعض منها الغرض منه الهزل والضحك لا غير.

فقد وردت الكثير من الحيل، صبا فاعلوها إلى الخلوص نحو رغباتهم المختلفة، وتحقيقها بوسائل متنوعة، ويقع في مقدمتها إحراز المأكل لهم بأقل كلفة ومؤنة. يروي الجاحظ إن أبا القماقم[١] دعته امرأة وقالت له: «ويحك يا أبا القماقم إني قد تزوجت زوجاً نهارياً، والساعة وقته وليست علي هيئة [كذا] فأشتر لي بهذا الرغيف آساً، وبهذا الفلس دهناً، فإنك تؤجر. فعسى الله أن يلقي محبتي في قلبه فيرزقني على يدك شيئاً أعيش به، فقد والله ساءت حالي، وبلغ المجهود مني، فأخذهما وجلعهما وجهه. فرأته بعد أيام. فقالت: سبحان الله أما رحمتني مما صنعت بي؟ قال: ويحكِ سقط والله مني الفلس، فمن الغم أكلت الرغيف»[٢]. فكان هذا التخلص الفكه يحمل بين حوانحه حيلة وفرت لأبي القماقم إحراز ذلك القوت بأدنى جهد ومشقة، فهو من شدة جزعه على ذلك الفلس الذي ضاع منه، أكل الرغيف علّه ينسى المعضلة التي وقع فيها.

(١) أبو القماقم بحر السقاء، من أصحاب النوادر والفكاهات وقد شهر بها كثيراً، إمتهن السقاية ومنها جاء اسمه (أبو القماقم) على الأرجح. ذكر في البيان تحت اسم (أبو القماقم). ينظر: البيان والتبيين ١٩٣/٣، الكامل: ٢٢٩/٢، جمع الجواهر: ١٦٠

(٢) البخلاء، الجاحظ: ١٢٤

وهناك حيل أخرى تتبع لتحقيق هذا الغرض، من ذلك ما قام به أعرابي في قسمة الدجاج بينه وبين مضيفيه، فهذا الأعرابي كان يستوطن البصرة وله من الأهل امرأة وابنان وابنتان، يروي ما وقع لهم من مفارقة مع أعرابي آخر نزل عليهم ضيفاً، فطلب الأول من امرأته أن تعمل لهم دجاجة لغدائهم، ثم طلبوا من ضيفهم أن يقوم بتقسيم تلك الدجاجة بينهم، أملاً في السخرية به والضحك منه. وهنا تقع المفارقة المضحكة مما كان متوقعاً من هذا الأعرابي بأن يثير ضحك أهل المنزل بقسمته، ولكن الأمر يأتي على النقيض بأن احتال هذا الأعرابي بشيء من الحذلقة ضمن لنفسه النصيب الأوفر من هذا الطعام. يقول صاحب البيت: «فأخذ رأس الدجاجة فقطعه فناولنيه، وقال الرأس للرأس وقطع الجناحين وقال: الجناحان للابنين. ثم قطع الساقين فقال: الساقان للابنتين. ثم قطع الزمكي وقال: العجز للعجز. قال: الزور للزائر. قال: فأخذ الدجاجة بأسرها وسخر بنا. فلما كان من الغد قلت لامرأتي: اشوي لنا خمس دجاجات فلما حضر الغداء قلت: اقسم بيننا. قال: إني أظن إنكم وجدتم في أنفسكم! قلنا: لا! لم نجد في أنفسنا فاقسم. قال: أقسم شفعاً أو وتراً، قلنا: اقسم وتراً. قال: أنت وامرأتك ودجاجة ثلاث. ثم رمى لنا بدجاجة. وابناك ودجاجة ثلاثة ثم رمى إليهما بدجاجة. ثم قال: وابنتاك ودجاجة ثلاث، ثم رمى إليهما بدجاجة. ثم قال: أنا ودجاجتان ثلاث، وأخذ الدجاجتين وسخر بنا. قال: فرآنا ونحن ننظر إلى دجاجتيه. فقال: ما تنظرون! لعلكم كرهتم قسمتي الوتر، لا يجيء إلا هكذا، فهل لكم في قسمة الشفع؟ قلنا: نعم. فضمهن إليه ثم قال: أنت وابناك ودجاجة أربعة، ورمى إلينا بدجاجة، ثم قال: والعجوز وابنتاها ودجاجة أربعة، ورمى إليهن بدجاجة، ثم قال: أنا وثلاث دجاجات أربعة، وضم إليه الثلاث، ورفع يديه إلى السماء وقال: اللهم لك الحمد أنت فهمتنيها!»[1]. فكانت هذه الوسائل تكفل لأصحابها ما يبتغون من مأكل أو مشرب. مستغلين بذلك غفلة المقابل وما يتمتع به من سذاجة وبساطة تجعل من السهل أن تنطوي عليه الحيلة.

ومن هذه الحيل التي اتخذها أصحابها وسيلة لهم ما قام به مزبد مع أعرابي تغدى معه فأراد شغله عن الطعام وتمكنه منه وحده، فقال للأعرابي: «كيف مات

---

(١) الحيوان، الجاحظ: ٣٥٧/٢ - ٣٥٩

أبوك فأقبل الأعرابي يحدثه ومزبد يمضي في الأكل، فلما فطن الأعرابي قطع الحديث وقال له: وأنت كيف مات أبوك؟ قال مزبد: فجأة»[1]. فهذه الوسائل ومثلها كثير مازال جماعة من ذوي الحيل اليوم يقومون بها بحذلقة تكفل ما يبغونه.

وما أن نطالع الهمذاني في مقاماته التي تروي جوانب حياة أفراد ذلك المجتمع، الذي كان يعاني من تبعات الأحوال الاقتصادية فيه، حتى نرى تبني قسم منهم خداع الناس بصور مختلفة، هؤلاء الناس الذين يعكس انخداعهم طيبة نفوسهم وبساطة تفكيرهم، وكأنهم يعاملون المقابل لهم بما انطوت عليه شخصياتهم من طيبة وسذاجة معاً.

ففي مقامته (البغدادية) يصور الهمذاني فيها جانباً من جوانب حيل المحتالين على الناس بغية تحقيق مآربهم، فالمحتال في هذه المقامة يختار فريسته ممن تشيع فيه الغفلة والسذاجة حتى يتمكن من إيقاعه في شراكه فلا يترك له منفذاً يحاول معه التخلص منه.

فهذا عيسى بن هشام كان في بغداد ولم يكن له من المال ما يسد به شهوته من طلب الزاد، فراح يتجول في محلات بغداد حتى وصل الكرخ. فإذا هو برجل لم يكن من أهل بغداد لهيأته مع حماره، فانتهز عيسى بن هشام فرصة رؤيته لهذا الرجل ليضمن به غداءه وشرابه من غير أن ينفق في ذلك شيئاً؛ ولكن كيف يتوصل إلى ذلك السوادي وبأية حيلة يسعى إليه؟ فما كان منه إلا أن هجم عليه بكنية يعلمه بها أنه يعرفه فتكون بمثابة المدخل إلى السير في حيلته. ودعنا نرى كيف صور الهمذاني هذا المشهد وما بعده، فلما رأى عيسى الرجل، قال: «ظفرنا والله بصيد. وحياك الله أبا زيد. من أين أقبلت. وأين نزلت. ومتى وافيت وهلم إلى البيت. فقال السوادي: لست بأبي زيد ولكن أبو عبيد. قلت: نعم لعن الله الشيطان. وأبعد النسيان. إنسانيك طول العهد. واتصال البعد. فكيف حال أبيك؟ أ شاب كعهدي. أم شاب بعدي. فقال: فقد نبت الربيع على دمنته. وأرجو أن يصيره الله إلى جنته. فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ومددت يد

(١) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٣٨

البدار، إلى الصدار، أريد تمزيقه. فقبض السوادي على خصري بجمعه[١]. وقال: نشدتك الله لا مزقته. فقلت: هلم إلى البيت نصب غداءً أو إلى السوق نشترِ شواءً. والسوق أقرب وطعامه أطيب»[٢]، وهنا يدخل عيسى بن هشام قنيصته الشرك، بم استعاره من كرم تزين به فأغرى السوادي به الذي راح يطمع فيه، فأكبّ به بطنه وأجهزت عليه شهوته يقول عيسى بن هشام: «ثم أتينا شوّاءً يتقاطر شواؤه عرقاً وتتسايل جوذاباته[٣] مرقاً فقلت: إفرز لأبي زيد من هذا الشواء. ثم زن له من تلك الحلواء. واختر من تلك الأطباق. وانضد عليها أوراق الزقاق. ورشّ عليها شيئاً من ماء السمّاق. ليأكله أبو زيد هنيّا. فانحنى الشواء بساطوره. على زبَدةٍ تنوره فجعلها كالكحل سحقاً وكالطحن دقاً ثم جلس وجلست ولا يئس ولا يئست. حتى استوفينا وقلت لصاحب الحلوى: زن لأبي زيد من اللوزينج[٤] رطلين فهو أجرى في الحلوق. وأمضى في العروق. وليكن ليليّ[٥] العمر. يومي النشر. رقيق القشر ـ كثيف الحشو. لؤلؤي الدهن. كوكبي اللون يذوب كالصمغ قبل المضغ. ليأكله أبو زيد هنياً. قال: فوزنه ثم قعد وقعدت. وجرّد وجرّدت. حتى استوفيناه. ثم قلت: يا أبا زيد ما أحوجنا إلى ماءٍ يشعشع بالثلج لقمع هذه الصارّة[٦] ويفثأ[٧] اللقم الحارة اجلس يا أبي زيد حتى نأتيك بسقّاء. يأتيك بشربة ماء. ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني أنظر ما يصنع. فلما أبطأت عليه قام السوادي إلى حماره. فاعتلق الشوّاء بإزاره. وقال: أين ثمن ما أكلت؟ فقال أبو زيد: أكلته ضيفاً. فلكمه لكمةً وثنّى عليه بلطمة. ثم قال الشوّاء: هاك ومتى دعوناك. زن يا أخا القحة عشرين.

---

(١) بمعنى إنه قبض بكل يده عليه ليمنعه من تمزيق صداره. شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، محمد محيي الدين: ٧١

(٢) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٧٠ - ٧١.

(٣) الجوذابة: رغيف يخبز وفوقه طائر أو قطعة لحم.

(٤) اللوزينج: من الحلواء، شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز. المعرب من الكلام الأعجمي على حروف المعجم، الجواليقي: ٢٩٩، الألفاظ الفارسية المعربة، أدي شير: ٢٤٢

(٥) بمعنى أنه صنع ليلاً وعرض نهاراً ليكون قد شرب دهنه وعسله. ينظر: شرح مقامات الهمذاني، محمد محيي الدين: ٧٢

(٦) الصارّة: العطش وجمعه صرائر نادر. اللسان، مادة (صرر).

(٧) أفثأ الحر: سكن وفتر. اللسان، مادة (فثأ).

فجعل السوادي يبكي ويحل عقده بأسنانه ويقول: كم قلت لذاك القريد[١]. أنا أبو عبيد. وهو يقول: أنت أبو زيد»[٢].

فكانت هذه المقامة بحقٍ تقطر ملاحة وظرفاً، فقد جسدت بأسلوب فكه مضحك إحدى حيل المخادعين والتي كانت معروفة في ذلك المجتمع، فكان عرض الهمذاني لها عرضاً يصلح معه التنبيه والحذر من مثل هؤلاء المخادعين وحيلهم فكان عرضها هو عرض مزدوج، بمعنى أنها تحمل بين جنباتها التسلية للقارئ، والنقد لمظهر سيئ من مظاهر تردي الأوضاع الاقتصادية ذلك الحين.

وهناك حيل أخرى سعى فاعلوها إلى تحصيل المال والاستحواذ عليه من غيرهم، باعتماد أعمال مختلفة ضمنت لهم ذلك وكانت معظم هذه الحيل مبنية على استغفال الناس لما هم فيه من بساطة في التفكير أو سذاجة في التدبر، يكونون معها صيداً يسهل اقتناصه. فقد ذكر الجاحظ أن رجلاً كان يدعي أنه يعمل رقيةً تقي آلام الضرس لمن يصيبه ألم في أسنانه، وهو بهذا يسخر بالناس. فإذا أتاه شخص يشتكي ضرسه يقول له بعد أن يرقيه: «إياك أن تذكر إلى صرت إلى فراشك القرد؛ فإنك إن ذكرته بطلت الرقية! فكان - إذا آوى إلى فراشه - أول شيء يخطر على باله ذكر القرد، ويبيت على حاله من ذاك الوجع، فيغدو إلى الذي رقاه فيقول له: كيف كنت البارحة، فيقول: بت وجعاً! فيقول: لعلك ذكرت القرد! فيقول: نعم! فيقول: من ثم لم ينتفع بالرقية!»[٣]، فصاحب هذه الحيلة يسعى بحيلته إلى إلى تحصيل المال من جهة، ومن جهة أخرى يحاول التخلص من تبعات حيلته هذه بأن يضع شرطاً لنجاح رقيته بالا يذكر الشخص المتألم القرد عندما يخلد إلى النوم.

وقد استخدم آخرون حيلاً تنجيهم من مواقف حرجة يقعون فيها فلا يجدون مناصاً إلا باعتماد أسلوب مخادع يحاولون به وضع العذر لهم، وهم بذلك يسعون إلى ترضية الخواطر.

فقد روى الجاحظ، أن رجلاً من أهل المدينة تراكمت عليه الديون مما حدى

---

(١) التقريد: الخداع، والمراد أنه مخادع. اللسان، مادة (قرد)
(٢) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ١٣٠ - ١٣١
(٣) الحيوان، الجاحظ: ٦٥/٤

به إلى التواري عن غرمائه في منزله، فأتاه غريم له عليه شيء يسير، وبجميل من التلطف وصل إليه، فقال له: «ما تجعل لي إن أنا دللتك على حيلة تصير بها إلى الظهور والسلامة من غرمائك؟ قال: أقضيك حقك، وأزيدك مما عندي مما تقرّ به عينك. فتوثّق منه الأيمان»[١]، فكان أن علمه حيلة تقوم على إدعاء المرض وأوصاه بأن يأمر خادمه قبل صلاة الصبح بتنظيف مدخل بيته، وأن يفرش حصراً على باب دكانه ويضع متكئاً له، وأن يصبر حتى يكثر الزحام من الناس، وأوصاه بأن لا يزيد على النباح من يسلم عليه، بل وحتى مع أهله وغرمائه، حتى يرتفع خبره للوالي الذي لا يجد بداً من إسقاط ديونه لما به من مسٍ قد أصابه. وهكذا بدأ بتطبيق الحيلة «فمر به بعض جيرانه فسلم عليه، فنبح في وجهه، ثم مر آخر ففعل مثل ذلك، حتى تسامع غرماؤه فأتاه بعضهم فسلم عليه فلم يزده على النباح، ثم آخر، فتعلقوا به، فرفعوه إلى الوالي فسأله الوالي فلم يزده على النباح، فرفعه معهم إلى القاضي، فلم يزده على ذلك فأمر بحبسه أياماً وجعل عليه العيون، وملك نفسه وجعل لا ينطق بحرف سوى النباح، فلما رأى القاضي ذلك أمر بإخراجه ووضع عليه العيون في منزله، وجعل لا ينطق بحرف إلا النباح، فلما تقرر ذلك عند القاضي أمر غرماؤه بالكف عنه. وقال: هذا رجل به لمم فمكث ما شاء الله تعالى. ثم أن غريمه الذي كان علمه الحيلة، أتاه متقاضياً لعدته[٢] فلما كلمه جعل لا يزيده على النباح، فقال له ويلك يا فلان!! وعلي أيضاً، وأنا علمتك هذه الحيلة؟!»[٣] ولم يزد صاحبه هذا على النباح شيئاً حتى انصرف خائباً وآيساً منه. فكانت مثل هذه الحيل تعد تنصلاً عن طارئ لا يجد المرء دفعه إلا بتبني نوعاً من الخداع علّه ينجو بذلك منه.

وهناك حكاية تروى عن الجاحظ نفسه يلمس منها اعتماده لحيلةٍ مع أبي العيناء الذي طلب منه كتاباً إلى محمد بن عبد الملك الزيات[٤] في شفاعة لصاحب

(١) الحيوان، الجاحظ: ٢/ ١٧١.
(٢) أي جاءه مستوفياً لما وعده من مال حال نجاح هذه الخطة.
(٣) الحيوان، الجاحظ: ١٧١/٢ - ١٧٢
(٤) محمد بن عبد الملك بن أبان بن حمزة، كنيته أبو جعفر، استوزر للمعتصم والواثق العباسيين عول عليه المعتصم في تدبير أمور الدولة وكذلك ابنه الواثق. عمل على تولية ابنه عندما

له. فكتب الجاحظ الكتاب وناوله الرجل الذي عاد به لأبي العيناء يخبره أمر كتابة الكتاب، فقال أبو العيناء: «فهل قرأته؟ قال: لا، لأنه مختوم. قال: ويحك فضّ طينة أولاً من حمل ظنة، لا تكون صحيفة المتلمس[1]، ففض الكتاب فإذا فيه موصل كتابي سألني فيه أبو العيناء، وقد عرفت سفهه، وبذاء لسانه، وما أراه لمعروفك أهلاً. فإن أحسنت إليه فلا تحسبه علي يداً وإن لم تحسن لم اعتده عليك ديناً. والسلام. فركب أبو العيناء إلى الجاحظ وقال له: قد قرأت الكتاب يا أبا عثمان. فخجل الجاحظ وقال: يا أبا العيناء، هذه علامتي فيمن اعتني به. قال: فإذا بلغك إن صاحبي شتمك فاعلم أنه علامته فيمن شكر معروفة»[2].

فالجاحظ من خلال هذه الرواية حاول التنصل من هذه الوساطة لما بينه وبين أبي العيناء من جفاء وبغض، لذلك عمد إلى الحيلة في هذا المجال بأن يظهر بمظهر الوسيط المرحب بما عوّل عليه من تكليف، وهو بهذا يرضي طرفي هذه الوساطة بأن يسعى إلى تحقيق طلب أبي العيناء من جانب، ثم أنه في داخل الرسالة يتناقض في رأيه مع ما أظهره لأبي العيناء، رامياً من وراء ذلك عدم تحمله لتبعات هذه الوساطة وما تجره من إشكاليات قد تحدث. وهذا الأمر فطن إليه أبو العيناء لحدسه مقارناً هذا الكتاب بصحيفة المتلمس المشهورة وهذا ما حدث بالفعل.

وجدير بالملاحظة أن بعض هذه الفكاهات الخاصة بموضوع الحيل عبرت عن رأي قائلها حيال جانب من جوانب اعتقاده في مسألة من المسائل، فهو يثيرها

=

مرض الواثق لأجل حرمان المتوكل من الخلافة، إلا أنه لم يفلح في ذلك، وعندما ولي المتوكل نكبه وعذبه إلى أن مات ببغداد. كان ابن الزيات صاحب دهاء وقوة وحزم. وكان عالم باللغة والأدب وكان من بلغاء الكتاب والشعراء وله ديوان شعر. ينظر: الطبري: ٢٠/٩، ١٥٦ - ١٦١. تاريخ بغداد: ٣٤٢/٢ وخزانة الأدب: ٢١٥/١ - ٢١٦.

(١) وخلاصتها أن المتلمس وطرفة بن العبد هجوا عمرو ابن هند في شعر لهما، ثم كان بعد ذلك أن أتياه فكتب لكل واحد منهما صحيفة إلى عامله على البحرين وهجر يأمره بقتلهما إن أتوه، ففطن المتلمس لذلك وفض صحيفته، أما طرفة فأبى حتى قتل. الأغاني، أبو الفرج: ٩٧٨٨/٩ وما بعدها.

(٢) نثر الدر: ٢٠٤/٣

تدليلاً على ما يذهب إليه من رأي. وهذا ينطبق ويظهر جلياً عند القاضي التنوخي[1] في نشواره. الذي عكس عن طريق ما رواه من حيل للصوص وجهة نظره في الأرواح وشكه في خيرها وشرها، كونه معتزلياً صميماً لهذا تراه «يتخيل مواقف طريفة يظهر فيها اللصوص في ثياب الملائكة أو الشياطين بين جماعات من الناس»[2]. بأسلوب هازل مضحك يعرض فيه وجهة نظره.فقد روى عن أبيه أن رجلاً يدعى بأبي عبد الله المزابلي كان يسكن بجبل أنطاكية المعروف بجبل اللكام[3] ويتعبد فيه وكان هذا الرجل من الصالحين المجتهدين، يكتفي من قوته بما يلقاه في المزابل عند نزوله من الجبل، ولهذا عرف بالمزابلي أو بما يأكله من ثمار الأشجار في الجبل، ومع ذلك كان يشك في عقله. وكان في هذه المنطقة رجل آخر معروف بمجونه وحماقاته واسمه موسى الزكوري، الذي كان له جار جرت فيما بينهما مشاجرة، فشكاه للمزابلي الذي لعنه فتسامع الناس بذلك فأتوا دار الزكوري ناهبين لها ولقتله إلا إنه توارى عنهم.

أما كان الزكوري لما طال استتاره عن الناس عمل على التخلص من المزابلي بحيلة رادعة له. فطلب أشياء تعينه على هذه الحيلة مثل ثوب أبيض جديد وشيء من الند والمسك ومجمرة وغلمان يأنسونه في طريقه حتى الجبل فلما وصل الزكوري وذلك في نصف الليل «صعد فوق الكهف الذي يأوي إليه المزابلي، فبخر بالند والمسك، فدخلت الريح إلى كهف أبي عبد الله، وصاح بحلق عظيم: يا أبا عبد الله المزابلي. فلما شم تلك الرائحة وسمع الصوت، أنكرهما. فقال: مالك

---

(١) المحسن بن علي بن محمد بن أبي داود التنوخي البصري، وكنيته أبو علي، يعد من العلماء الأدباء الشعراء. وكانت ولادته في البصرة سنة (١٣٧ هـ) فنشأ وتعلم فيها، ولما كبر ولي القضاء في جزيرة ابن عمر وعسكر مكرم، إضافة لتقلده أعمال أخرى سكن بغداد إلى أن توفي فيها سنة (٣٨٤هـ) له عدة كتب مثل (الفرج بعد الشدة) و (نشوار المحاضرة أو جامع التواريخ والمستجاد من فعلات الأجواد) وديوان الشعر ينظر: يتيمة الدهر: ٣٤٦/٢، تاريخ بغداد: ١٥٥/١٣، وفيات الأعيان: ٣٠١/٣، معجم الأدباء: ٩٢/١٧ - ١١٦. النجوم الزاهرة ١٦٨/٤.

(٢) دراسات في الأدب الإسلامي، محمد خلف الله: ١٤٦

(٣) اللكام: بالضم: الجبل المشرف على أنطاكية وبلاد ليون والمصيصة في سوس. معجم البلدان، ياقوت: ٣٦٤/٤

عافاك الله، ومن أنت؟ فقال ابن الزكوري: أنا الروح الأمين، جبريل، رسول رب العالمين، أرسلني إليك. فلم يشك المزابلي في صدق القول، فأجهش بالبكاء والدعاء، وقال: يا جبريل من أنا حتى يرسلك رب العالمين إلي. فقال: الرحمن يقرؤك السلام. ويقول لك: موسى ابن الزكوري غداً رفيقك في الجنة. فصعق أبو عبد الله، وسمع صوت الثياب، وقد كان خرج فرأى بياضها، فتركه موسى ورجع. فكان من الغد، كان يوم الجمعة فأقبل المزابلي يخبر الناس برسالة جبريل ويقول: تمسحوا بابن الزكوري، واسألوه أن يجعلني في حلٍ واطلبوه لي. فأقبل العامة إرسالاً إلى دار ابن الزكوري، يطلبونه ليتمسحوا به ويستحلوه للمزابلي، فظهر وأمن على نفسه»[١].

فالتصوير الذي قام به التنوخي لهذا الرجل وكيف أنه احتال ودبر مكيدة تمكن بها من أخذ الثأر لنفسه مستعيناً بما ادعاه من أنه ملك مرسل، تعبر عن رأي التنوخي المعتزلي والذي يعكس مذهب المعتزلة في تصور الأرواح، خيرها وشرها، وما يتعلق بها من أخبار وحكايات في قديم الزمان. كما هو الحال في إشكالية معرفة كنه الجن[٢]. لذلك نراه يعرض وجهة النظر هذه بأسلوب هازل مشكك في هذه المسألة عن طريق بسطها بشكل حيلة مخادعة كان بطلها ملك أظهر من الصفات ما روته الحكاية آنفاً. ثم إنه يعرض من جانب آخر بعض ما مني به أبناء ذلك المجتمع من سذاجة وبساطة في التفكير بحيث تنطوي عليهم الخدع والمكايد بسهولة ويسر إلى الحد الذي لا يجدون من تصديقها بد.

وهذه حكاية أخرى تعرض للموضوع نفسه بالأسلوب الساخر الهازل رواها التنوخي أيضاً ومفادها، إن لصاً نوى السطو على منزل عجوز كان ديدنها القيام والصيام، لنهب مال يعود إلى ابن لها مهنته الصيرفة، والذي كان من عادته أن يقضي معظم نهاره في دكانه، ثم يعود في العشاء إلى منزله فيخفي كيسه عند والدته العجوز ثم يمضي إلى لهوه وشرابه. وكان اللص قبل ذلك قد هيأ لسرقة هذا الكيس

(١) نشوار المحاضرة، الشوقي: ٣٤٩/٢ - ٣٥٠

(٢) تنظر على سبيل المثال آراء الجاحظ التي تعكس رأي المعتزلة في الجن والخرافات الأخرى، الحيوان، الجاحظ: ١/ ٢٩٩ وما بعدها، ٦/ ١٦٨ - ٢٦٥.

فتبع الابن في إحدى الليالي ودخل خلفه الدار والابن غير شاعر بذلك واختبأ، حتى إذا ما علم اللص بإعطاء الابن الكيس إلى أمه لتخبئه في مكان ما في الغرفة مع أمتعتها من قماش وغيره وقد خرج لقضاء لهوه. أخذ اللص يحدث نفسه في كيفية السطو وموعده بقوله: «هذه الساعة تفطر، وتكسل، وتنام، وأنزل فأفتح الباب، وآخذ الكيس والقماش قال: فلما أفطرت، قامت إلى الصلاة، فظن اللص أنها تصلي العتمة وتنام. فانتظرها، فمدت الصلاة، وتطاول عليه الأمر، ومضى نصف الليل. وتحير اللص مما نزل به، وخاف أن يدركه الصبح، ولا يظفر بشيء»[1].

ومن خلال هذا الموقف الحرج الذي وقع فيه اللص وخوفه من أن يفتضح أمره، سعى إلى حيلة يتخلص بها من هذه العجوز ومن ثم يتوصل إلى سرقة المال. ولكن كيف يتم له ذلك؟ إذ استعان اللص بما لاحظه على هذه العجوز من عبادة وانقطاع إلى الله، بأن يتمثل لها على شكل ملك مرسل، الأمر الذي يسهل عليه مهمته في إمكانية تصديقه في دعواه هذه ما ترجوه هذه العابدة من الاتصال بالله وتجلي الحقائق لها. وهذا ما تسرده الحكاية مبينة لحال هذا اللص الذي «طاف في الدار، فوجد إزاراً جديداً وطلب جمراً فظفر به، ووقع في يده شيء كان لهم فيه دخنة طيبة، فلبس الإزار، وأشعل ذلك البخور، وأقبل ينزل على الدرجة، ويصيح بصوت غليظ وتعمد أن يجعله جهورياً، لتفزع العجوز... ففطنت لحركته، وإنه لص، فلم تره إنها فطنت. وقالت: من هذا؟ بارتعاد وفزع شديد. فقال لها: أنا رسول الله رب العالمين، أرسلني إلى ابنك هذا الفاسق لأعظه، وأعامله بما يمنعه من ارتكاب المعاصي. فأظهرت إنها قد ضعفت، وغشي عليها من الجزع، وأقبلت تقول: ياجبريل سألتك بالله، ألا رفقت به، فإنه واحدي. فقال اللص: ما أرسلت لقتله. فقالت: فما تريد؟ وبما أرسلت؟ قال: لأخذ كيسه، وأولم قلبه بذلك، فإذا تاب رددته إليه. فقالت: شأنك، يا جبريل، وما أرسلت. فقال تنحي عن باب البيت. فتنحت وفتح هو الباب، ودخل ليأخذ الكيس والقماش، وإشتغل في تكويره. فمشت العجوز قليلاً قليلاً، وجذبت الباب بحميّة، فردته، وجعلت الحلقة في الرزة، وجاءت بقفل فقفلته. فنظر اللص إلى الموت بعينيه، ورام حيلة في داخل البيت، من

---

(١) نشوار المحاضرة، التنوخي: ٣٤٠/٢

نقب أو منفذ، فلم يجدها. فقال لها: افتحي الباب لأخرج فقد اتعظ ابنك. فقالت: يا جبريل أخاف أن أفتح الباب، فتذهب عيني من ملاحظتي لنورك. فقال: إني أطفئ نوري حتى لا تذهب عينك. فقالت: يا جبريل، إنك رسول رب العالمين، لا يعوزك أن تخرج من السقف أو تخرق الحائط بريشة من جناحك، وتخرج، فلا تكلفني أنا التغرير ببصري. فأحس اللص إنها جلدة، فأخذ يرفق بها، ويداريها، ويبذل التوبة»[١]. فما كان جواب العجوز إلا الرفض، وظلت قائمة تصلي خلف الباب واللص يتوسل لها في الخروج حتى عاد أبنها فأعلمته الخبر، والذي بدوره أتى بصاحب الشرطة للقبض عليه.

وهكذا تصور هذه الحكاية رأي المعتزلة في الأرواح عن طريق هذه العجوز المعتزلية، ودورها مع هذا المدعي للبعثة من السماء. وما ذلك إلا لاعتماد العقل في استبيان الحقائق والإيمان بها، خيرها وشرها[٢].

وختاماً نستخلص أن الفكاهة في النثر استجلت معظم جزيئات حياة أفراد المجتمع العباسي ذلك الحين ومنها هذه الحيل والخداع الذي قام به بعض أفراد المجتمع رامين من كل ذلك تحقيق مكاسب تعود عليهم وحدهم وتلحق الضرر بغيرهم. فكان دور العرض الفكه لتلك الممارسات التنبيه والتحذير لما فيها من دجل ومكيدة حريٌ بالفرد المستقيم أن يتجنبها ويبتعد عنها لعواقبها السيئة على الفرد والمجتمع.

٥ - المتنبئون:

كان من جراء ما أبدته سياسة الدولة العباسية من حرية لمعظم أبناء مجتمعها في ممارسة نشاطاتهم وعلى اختلاف أوجهها من فكرية ودينية وسلوكيات اجتماعية دون المساس بها إلا ما كان متعلقاً منها بالإلحاد والزندقة والممارسات الخارجة عن الأخلاق؛ أن شاع الكثير من البدع والضلالات التي رام أصحابها الوصول لمبتغى قصدوه. وهذا ما أكده جرجي زيدان وذهب إليه في اعتقاده إن من ميزات

(١) نشوار المحاضرة، التنوخي: ٣٤٠/٢ - ٣٤١

(٢) ينظر المعتزلة، رسالة تبحث في تاريخ المعتزلة وعقائدهم وأثرهم في تطور الفكر الإسلامي، زهدي حسن جار الله: ١٠٧ وما بعدها (مطبعة القاهرة - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٧م).

هذا العصر تحرير الفكر وإطلاقه من كل قيد إلا ما يمس الدولة أو الخلافة[١].

فكانت هذه البدع والضلالات وليدة عوامل أهمها العامل الاقتصادي الذي وزع فئات هذا المجتمع إلى فئتين أساسيتين، الأولى منهما غلب عليها الغنى والبذخ وهي تظم الأقلية من أبناء هذا المجتمع، والأخرى وتشمل الأغلبية ممن انعكست عليه حياة البؤس والحرمان، فسعى بعضهم إلى اعتماد سبلاً تكفل لهم الدخل الوفير الذي يسد ما هم فيه من حاجة، فكان من هذه السبل (إدعاء النبوة).

ففي هذه الحقبة ظهر في المجتمع العباسي الذي عانا أفراده بسبب الاضطراب السياسي والاقتصادي، أناس ممن ادعى النبوة، وكيف أخذ الواحد منهم يخبر بأنه نبي مرسل يوحى إليه من الملكوت الأعلى لتبليغ أمر ما.

والظاهر أن مثل هكذا دعوات راحت تستقطب من حولها جموعاً من الناس إلى الحد الذي يشيع معها أمر هذا المدعي للنبوة فيؤتى به إلى الخليفة.

ومن خلال حصر النماذج النثرية التي عرضت لهذا الموضوع - المتنبئون - في القرنين الثالث والرابع الهجريين نرى إن أكثرها قد ظهر في عهد الخليفة المأمون، وقد يكون من بين الأسباب التي دعت وشجعت على بروزها ما تمتع به عصر المأمون من انفتاح كبير على المستويين الثقافي والاجتماعي، لذلك عد هذا العصر متميزاً بكل جوانبه وبخاصة الفكرية. فقد روي من أخبار هؤلاء النفر ممن ادعى النبوة الكثير وقد حملت أخبارهم جانباً ملحوظاً من الفكاهة والضحك عند استجواب الخليفة لهم أو غيره. وقد ظهرت في كتب الأدب وغيره تحت اسم (نوادر المتنبئين).

إذ روي أن في عهد المأمون رجلاً ادعى النبوة، فجيء به إلى المأمون، فقال له: «مامعجزتك؟ قال: سل ما شئت؛ وكان بين يديه قفل، فقال: خذ هذا القفل فافتحه. فقال: أصلحك الله، لم أقل إني حداد. فضحك منه واستتابه وأجازه»[٢].

فكانت إجابات هؤلاء المدعين إجابات مضحكة تنمُ عن سذاجة وحمق

---

(١) ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان: ١٨/٢ (مطبعة الهلال بالفجالة بمصر، ١٩١٢م).
(٢) نهاية الأرب، النويري: ١٦/٤

ظاهر يستشف من المحاورات التي تجري معهم. وقد يكون هذا الإدعاء مبنياً على اعتماد ما أتى به الأنبياء عليهم السلام من معجزات وبراهين، بل قد يتعدى ذلك إلى القول بانتحال شخصية نبي من الأنبياء. من ذلك ما روّجه رجل في أيام المأمون من أنه إبراهيم الخليل عليه السلام، فلما أحضر إلى المأمون ومثل أمامه قال له: «إن إبراهيم كانت له معجزات وبراهين. قال: وما براهينه؟ قال: أضرمت له نار وألقي فيها فصارت عليه برداً وسلاماً ونحن نوقد لك ناراً ونطرحك فيها فإن كانت عليك كما كانت عليه آمنا بك. قال: أريد واحدة أخف من هذه. قال: فبراهين موسى. قال: وما براهينه؟ قال ألقى عصاه فإذا هي حية تسعى، وضرب بها البحر فانفلق، وأدخل يده في جيبه فأخرجها بيضاء. قال: وهذه عليّ أصعب من الأولى. قال: فبراهين عيسى. قال: وما هي؟ قال: إحياء الموتى. قال: فكأنك قد وصلت أنا أضرب رقبة القاضي يحيى بن أكثم وأحييه لكم الساعة. فقال يحيى: أنا أول من آمن وصدق بك»[1].

فكانت مطالبة مثل هؤلاء المدعين لأمر النبوة الإتيان بدليل أو برهان يثبت صدق دعوتهم، يعد بحق تحدياً لهم لامناص من الفشل أمامه وحصول الخذلان بسببه. فقد أبدى في حضرة المأمون مدعٍ للنبوة معجزة ممثلة بإذابته لحصاة يلقيها في الماء. فقال الحاضرون: «رضينا. فأخرج حصاةً معه وطرحها في الماء فذابت. فقالوا: هذه حيلة، ولكن نعطيك حصاةً من عندنا ودعها تذوب. فقال: لستم أجل من فرعون ولا أنا أعظم من موسى، ولم يقل فرعون لموسى لم أرض بم تفعله بعصاك حتى أعطيك عصى من عندي تجعلها ثعبانا. فضحك المأمون وأجازه»[2]. ومن ذلك ما قاله المأمون لمتنبئ آخر: «أريد منك بطيخاً في هذه الساعة. قال: أمهلني ثلاثة أيام. قال: ما أريده إلا الساعة. قال: ما أنصفتني يا أمير المؤمنين إذا كان الله تعالى خلق السموات والأرض في ستة أيام ما يخرجه إلا بين ثلاثة أشهر فما تصبر أنت على ثلاثة أيام. فضحك منه ووصله»[3].

---

(١) المستظرف، الأبشيهي: ٢٤٣/٢.
(٢) المستظرف، الأبشيهي: ٢٤٣/٢.
(٣) م. ن: ٢٤٣/٢.

ولم يتوقف أمر هذا الإدعاء على الرجال فقط، فقد أدلت بعض النساء بدلوها في هذا الأمر، بل راحت تبرهن على صدق دعوتها بما تراه عين الصواب. فقد قيل إن امرأة ادعت النبوّة في عهد المأمون ولما أحضرت إليه قال: «من أنت؟ قالت: أنا فاطمة النبية. فقال لها المأمون: أتؤمنين بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم؟ قالت: نعم، كل ما جاء به فهو حق. فقال المأمون: فقد قال محمد صلى الله عليه وسلم «لا نبيّ بعدي». قالت: صدق عليه الصلاة والسلام فهل قال: لا نبية بعدي؟ فقال المأمون لمن حضره: أما أنا فقد انقطعت، فمن كانت عنده حجة فليأت بها، وضحك حتى غطى على وجهه»[١]. وقد يندفع المدعي للنبوة إلى التنصل عن دعواه بخاصةً عندما يشعر أن الخطر قد أحاط به، وأن ليس هناك من مفر غير الإنكار. ففي عهد المأمون طلب مدّع للنبوة ودعي له بالسيف والنطع؛ فقال: «ما تصنعون؟ قالوا: نقتلك. قال: ولم تقتلونني؟ قالوا: لأنك ادعيت النبوة. قال: فلست أدعيها. قيل له: فأي شيء أنت؟ قال: أنا صِدِّيق. فدعي له بالسياط؛ فقال: لم تضربونني؟ قالوا: لادعائك أنك صديق؛ قال: لا أدعي ذلك. قالوا: فمن أنت؟ قال: من التابعين لهم بإحسان: فدعي له بالدرّة. قال: ولم ذلك؟ قالوا: لادعائك ما ليس فيك؛ فقال: ويحكم أدخل إليكم وأنا نبي، تريدون أن تحطّوني في ساعة واحدة إلى مرتبة العوام! لا أقل من أن تصبروا علي إلى غد حتى أصير لكم ما شئتم»[٢].

وشبيهه ما حصل لآخر مثُل بين يدي المأمون فقال له: «من أنت؟ قال: أنا أحمد النبي. قال لقد ادعيت زوراً؛ فلما رأى الأعوان قد أحاطت به وهو ذاهب معهم قال: يا أمير المؤمنين أنا أحمد النبي فهل تذمه أنت. فضحك المأمون منه وخلى سبيله»[٣].

ولم يكن عهد الخليفة المأمون هو العهد الوحيد الذي ظهر فيه مدعو النبوات بل شمل عهوداً أخرى شاع فيها مثل هذه الدعوات، كما هو الحال في زمن المتوكل فقد ادعى النبوة رجل فلما أحضر بين يديه قال له: «أنت نبي؟ قال: نعم. قال: فما

---

(١) نهاية الأرب، النويري: ١٤/٤ - ١٥.
(٢) نهاية الأرب، النويري: ١٦/٤.
(٣) المستطرف، الأبشيهي: ٢٤٣/٢ - ٢٤٣.

الدليل على صحة نبوتك. قال: القرآن العزيز يشهد في قوله تعالى

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾[١]. وأنا اسمي نصر الله. قال: فما معجزتكَ! ائتوني بامرأة عاقر أنكحها تحمل بولد يتكلم في الساعة ويؤمن بي. فقال المتوكل لوزيره الحسن بن عيسى: أعطه زوجتك حتى تبصر كرامته. فقال الوزير أما أنا فأشهد أنه نبي الله، وإنما يعطي زوجته من لا يؤمن. فضحك المتوكل وأطلقه»[٢].

وكذلك زمن المعتصم لم يخلو هو الأخر من مثل هؤلاء المدعين، فقد روي أن مدع للنبوة مثُل أمام المعتصم فقال له: «أنت نبي؟ قال: نعم. قال: إلى من بعثت؟ قال: إليك. قال: أشهد أنك لسفيه أحمق. قال: إنما يبعث إلى كل قوم مثلهم. فضحك المعتصم وأمر له بشيء»[٣].

هذا ما أثبتناه من أمر المنتحلين لهذه الصفة والتي تعرض لواقع بعض الأشخاص ممن أرهقتهم أعباء الحياة فلم يجدوا بداً من أن يطرقوا أبواب الاحتيال علّها تفتح في وجوههم بعض أسباب الرزق ليجدوا فيه بلغتهم.

٦ - الكذب والمبالغة:

يعمد جملة من الناس إلى التصنع في الكلام أو إظهاره على خلاف الواقع، ويعود السبب في ذلك لما يعانيه مثل أولئك الناس من أمراض نفسية تحبذ لهم القيام بهذا السلوك الذي يكون مستولياً على نفوسهم أو يكون محاولة منهم لسد نقص فيهم عن طريق تعويض ذلك بلفت الأنظار نحوهم بما يتفوهون به من كلام قائم على المبالغة أو الكذب الصريح.

ولم يغفل أدباؤنا الأوائل عن ترصد مثل هذه الظاهرة عند بعض أفراد المجتمع العباسي لهذه الحقبة الحقبة فراحوا يسجلونها ويدونونها مضفين عليها من لمساتهم ما دعاها لأن تكون نصوصاً أدبيةً فكهة، حاوية على صور التهكم والسخرية بمثل هؤلاء الكذابين أو المدعين بالقول في محاولة منهم لإصلاح ما

---

(١) سورة النصر، آية: ١.
(٢) المستظرف، الأبشيهي: ٢٤٤/٢.
(٣) م. ن: ٢٤٣/٢.

اعوجّ من أمر أفراد هذا المجتمع.

فقد ذكر الجاحظ أن أبا الهذيل[١] أهدى إلى مويس[٢] دجاجة غير سمينة، إلا أن مويساً لحسن خلقه أظهر تعجبه ودهشته لسمنها وطيب لحمها. فيسأله أبو الهذيل: «كيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة؟ قال: كانت عجباً من العجب، فيقول: وتدري ما جنسها؟ وتدري ما سنها؟ فإن الدجاجة تطيب بالجنس والسن. وتدري بأي شيء نسمنها، وفي أي مكان كنا نعلفها؟»[٣] ثم لا يزال مستمراً في ذلك ومويس يضحك. ويمضي أبو الهذيل إلى ابعد من ذلك فيقارن دجاجته هذه التي أهداها بباقي الطيور والبهائم. «فإن ذكروا بطة أو عناقاً أو جزوراً أو بقرة، قال: فأين كانت هذه الجزور في الحزر، من تلك الدجاجة في الدجاج؟، وإن استسمن أبو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم قال: لا والله لا تلك الدجاجة، وإن ذكروا عذوبة الشحم قال: عذوبة الشحم في البقر والبط وبطون السمك والدجاج ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج»[٤]، بل راح لشدة مبالغته في هذه الدجاجة أن أخذ يؤرخ بها فإن «ذكروا ميلاد شيء، أو قدوم إنسان قال: كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة، وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم»[٥]. فكانت هذه الدجاجة لعظيم المبالغة في شأنها تعد مثلاً يضرب للبيان أو تاريخاً تعرف في ضوئه

(١) محمد ابن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي المعروف بالعلاف، من موالي عبد القيس، من كبار أئمة المعتزلة ولد في البصرة سنة (١٣٥هـ) واشتهر بعلم الكلام وله مناظرات ومجالس في الاعتزال، كف بصره في أواخر حياته، توفي في سامراء وقد اختلف في سنة وفاته فقيل سنة (٢٣٥هـ ٢٢٦هـ ٢٢٧هـ). ينظر: أمالي المرتضى: ١/ ١٢٤، تاريخ بغداد: ٣٦٦/٣، وفيات الأعيان: ٣٩٦/٣.

(٢) مويس بن عمران وقد يرد باسم (موسى) أحد معاصري الجاحظ أورد له جملة أخبار في بعض مؤلفاته وهو رجل موسر كريم، ينسب في مذهبه إلى المعتزلة وله فيها آراء. ينظر: البخلاء: ٧١، ١٣٠، ٢٠٥. الحيوان: ٤/ ٤٦٨، المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، المنتظم، اعتنى بتصحيحه توما ارنلد: ٣٩ (مطبعة دار المعارف النظامية بحيدر آباد - الدكن، ١٣١٦هـ).

(٣) البخلاء، الجاحظ: ١٣٥

(٤) البخلاء، الجاحظ: ١٣٥.

(٥) م. ن: ١٣٥.

الحوادث، فأصبحت هذه المبالغة في الوصف مدعاةً للضحك استخفافاً وسخريةً بصاحبها.

قال أعرابي: «أُتينا ببُرٍّ كأفواه النغران[١]، فخبزنا منه خبزة زيت في النـار: فجعـل الجمـر يتحـدّر عنها تحدر الحشو عن البطنين، ثم ثردنا فجعل الثريد يجول في الإهالـة جـولان الضـبعان[٢] في الصـفرة. ثم أتانا بتمر كأعناق الورلان، يوحل فيه فيه الضرس»[٣].

وشبيه بهذه المبالغة قول أعرابي آخر: «تمرنا جرد فطّس يغيـب فيـه الضرس، كـأن نـواة ألسـن الطير، تضع التمرة في فيك فتجد حلاوتها في كعبيك»[٤].

وقد تتجاوز المبالغة في القول إلى الكذب فيه، متعديةً حدود المعقول إلى أشياء خياليـة لا تمـت إلى الواقع بسبب فيثير هذا الكذب المبالغ فيه حفيظة السـامع الـذي لا يجـد بـداً مـن إظهـار تعجبـه بضحكة يظهرها أو يسترها بغطاء الإقبال على المتكلم بسمعه وبصره. قـال بعـض الكـذابين: «كـان لأبي منقاش اشتراه بعشرين ألف درهم، فقيل له: كان من جوهر، أو مكلل بجـوهر؟ فقـال: لا. قـالوا: فقـد أمكن الله منك. قال: كان هذا المنقاش إذا نتف به شعرة بيضاء عادت مكانها سوداء»[٥].

كذلك رواية التوحيدي التي تقول، أنه كان بالمدائن دهقانٌ يدعى دينارويه، وهو خبيث. فقال له والي المدائن: «إن كذبت كذبةً لم أعرفها فلك عندي زق شراب، ومسلوخ، ودراهـم، فقـال دينارويـه: هرب لي غلام فغاب عني دهراً لا أعرف له خبراً، فاشتريت يوماً بطيخاً فشققت واحدة فإذا الغلام فيهـا يعمل قفافاً فإذا هو اسكاف، قال العامل: قد سمعت بهذا، قـال: كـان عنـدي بـرذون دبـر فوصـف لي قشور الرمان فألقيته على دبرته فخرجت في ظهره شجرة رمان عظيمة، قال العامل: وقد سمعت بهـذا، قال: كان لغلام لي فروة فوقع فيها القمل فطرحها فحملها القمل

---

(١) النغر: بضم النون وفتح العين المعجمة طيور كالعصافير حمر المناقير والجمع نغران. حياة الحيوان: ٣٦٢/٢.
(٢) مذكر ضبعانة والجمع ضباع.اللسان، مادة (ضبع).
(٣) البخلاء، الجاحظ: ١٧٩ - ١٨٠.
(٤) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ٢٠١/٣.
(٥) الأجوبة المسكتة: ابن أبي عون: ١٨٤.

ميلين، قال: لقد سمعت بهذا، فلما رأى إنه يبطل عليه كل ما جاء به. قال: إني وجدت في كتبِ أبي صكاً فيه أربعة آلاف درهم والصك عليك، قال: ما سمعت بهذا. قال: فهاتِ الزق والمسلوخ والدراهم»[١].

محصلة القول فيما تقدم ذكره أن بعضاً من أعمال الأفراد عدت عيباً ومثلبةً تلحق من يعتمدها في قول أو فعل ومنها الكذب أو المبالغة في القول لما يؤديه من تبعات تلحق المتكلم نفسه كحجب الثقة عنه من قبل من يحيط به من أفراد، أو تبعات تلحق المجتمع بما يحدثه الكاذب فيه من خلخلة تخلق مشاكل بين بعض أفراده.

وهكذا عرضت الفكاهة الناقدة لهذا السلوك بالتهكم والسخرية بوساطة إبراز نماذج منه أملاً في الإقلاع عنه متخذةً من الأعراف الدينية والاجتماعية معياراً لها، للإرتقاء بمستوى الإنسان فوق كل شبهة أو رذيلة.

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١)/٢٣٩ - ٢٤٠.

المبحث الثالث

الفكاهة التعليمية

١ - التشادق في اللغة:

ضمنت اللغة مهمة التواصل الفكري بين أبناء المجتمع الواحد المتواضعين على استخدامها وفهم مدلولاتها.

فقد شهد العصر العباسي صاحب الأسلوب الرشيق والألفاظ العذبة - الذي لا يخلو من اللحن في الاستخدام اللغوي لدى العامة - أمراً خرج بهذه الأداة - اللغة - عند بعضهم عن مهمتها في إحداث هذا التواصل بين أبناء المجتمع الواحد.

فقد ظهر هناك أشخاص استخدموا الجافي من الألفاظ، بل راحوا يتصيدون كل غريب ونادر منها لتوظيفه فيما يقولون من كلام بحسب ما يمليه عليهم المقام، ظانين إنهم باستخدامهم لهذه المفردات أو لهذه الصيغ يصبحون قريبين من الفصاحة في الكلام والبلاغة في الأسلوب، ولكن العكس ما حدث؛ إذ أصبح هؤلاء وأشباههم مثاراً لسخرية الساخر واستهزاء المستهزئ ممن يواجهونهم.

وهذا ما تنبه عليه الجاحظ من إلتزام بعضهم للمعقد من الكلام وللغامض منه حيث عده عيباً يجدر الابتعاد عنه سواءً في المكاتبات أم في التعبير المباشر إذ يقول: «فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد، مغرقاً في الإكثار والتكلف فما أكثر من لا يحفل في استهلاك المعنى مع براعة اللفظ وغموضه على السامع بعد أن يتسق له القول، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة. فالمعنى بعد مقيمٌ على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً»[1].

فقد أثر عن شخصيات كانت تظهر فيما تتكلم به من الغريب والمعقد من الألفاظ حكايات، تمثل ما كان يقع بين أصحاب هذا التشادق وبين غيرهم من

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣٩/٣ - ٤٠.

مواقف لا تخلو من طرافة في عرض أفكار ذوي المفردات المبهمة، التي بها حاجة إلى ترجمان في الوصول إلى المعنى المراد منها.

وأنا لنرى إن مثل هؤلاء الأشخاص موجودون في كل عصر وكأنهم يرون أن شخصياتهم لا يكتب لها الكمال إلا باتباع سلوكيات القديم ومنها اللغة، فيعتمدون التقعير في كلامهم والتزام ما عفا عليه الزمن من المفردات لتوظيفها في أساليبهم الكلامية.

فهذا أبو علقمة النحوي[١] الذي عرف عنه إنه صاحب غريب رويت عنه أخبار تعكس مذهبه مذهبه في القول إذ أصبحت مادة تعرض لغرض الضحك سخريةً واستهزاءً إذ رويت عنه روايات تؤكد ما سلف. فقد حكى ابن جني إن أبا علقمة شاهد يوماً وهو مار عبدين أحدهما حبشي والآخر صقلي حدث بينهما شجار، فإذا الحبشي قد صرع الصقلي وأدخل ركبتيه في بطنه وأصابعه في عينيه وعض أذنيه وضربه بعصى كانت معه فشجه فسال دمه. فطلب الصقلي من أبي علقمة أن يشهد له بما رآه فمضوا إلى الأمير. فقال له الأمير: «بم تشهد يا أبا علقمة؟ فقال: أصلح الله الأمير، بينا أنا أسير على كودني[٢] هذا إذ مررت بهذين العبدين ورأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع، فمطأه على فدفد[٣]، ثم ضغطه برضفتيه[٤] في أحشائه حتى ظننت أنه قد تدمّج[٥] جوفه، وجعل يلج بشناتره[٦] بحجمتيه[٧] يكاد

(١) أبو علقمة النحوي النميري، قديم العهد يعرف اللغة، من أهل واسط وكان يتقعر في كلامه ويعتمد الحوشي من الكلام والغريب. ينظر: معجم الأدباء: ٢٠٥/١٢ - ٢١٥، بغية الرعاة: ٣٢٥.

(٢) الكودن: البرذون البطيء يوكف ويشبه به البليد. اللسان، مادة (كدن)، حياة الحيوان ٣٤٢/٢ (دار الطباعة).

(٣) حطأ به الأرض حطأً ضربها به وصرعه. اللسان، مادة (حطأ)، الفدفد: الفلاة التي لاشيء فيها وقيل هي الأرض الغليظة ذات الحصى وقيل المكان الصلب. اللسان، مادة (فدفد).

(٤) الرضفة والرضَفة: عظم مطبق على رأس الساق ورأس الفخذ، والرضفة طبق يموج على الركبة. اللسان، مادة (رضف).

(٥) تدمّج: تداخل. اللسان، مادة (دمج).

(٦) الشنترة: الإصبع بالحميرية، وقولهم لأضمنك ضم الشناتر وهي الأصابع. اللسان، مادة (شنتر)

(٧) حجمتيه: قال ابن دريد حجمة الإنسان عينة يمانية، وحجمتا الأسد عيناه في كل لغة.

=

يفقأهما، وقبض على صنّارتيه[١] بمبرمه[٢]، وكاد يجذهما جذاً ثم علاه بمنسأة[٣] كانت معه فعفجه[٤] بها، وهذا أثر الجريال[٥] عليه بيناً وأنت أمير عادل. فقال الأمير: والله ما أفهم مما قلت شيئاً، فقال أبو علقمة: قد فهمناك إن فهمت وعلمناك إن علمت، وأديت إليك ما علمت، وما أقدر أن أتكلم بالفارسية، فجعل الأمير يجهد أن يكشف الكلام فلا يفعل حتى ضاق صدره، فقال للصقلي: أعطني خنجراً فأعطاه وهو يظن أنه يريد أن يستقيِد له من الحبشي. فكشف الأمير رأسه وقال للصقلي شجّني خمساً وأعفني من شهادةِ هذا»[٦].

فهذا الأمير الذي يستمع لشهادة أبي علقمة يلاقي عنتاً كبيراً في فهم ما يدلي به الشاهد من كلام، بل يصل به اليأس من استكناه معنى الكلام إلى أن يطلب من المجني عليه بأن يقتصّ منه أضعافاً في سبيل أن يتخلص من شهادة هذا الشاهد.

قلنا إن مثل هؤلاء الأشخاص الذين يعتمدون الغريب في كلامهم موجودون في كل عصر وعلى اختلاف مستوياتهم لذا نرى كتب الأدب قد حكت أخباراً عنهم. فقد روى صاحب عيون الأخبار أن رجلاً أتى الهيثم[٧] بن العريان بغريم له قد مطله حقّه فقال: «أصلح الله الأمير، إن لي على هذا حقاً قد غلبني عليه، فقال له الآخر: أصلحك الله، إن هذا باعني عنجداً[٨] واستنسأته حولاً وشرطت عليه أن أعطيه مشاهرةً فهو لا يلقاني في لَقَم[٩] إلا اقتضاني؛ فقال له الهيثم: أمن بني أمية

= المخصص؛ ابن سيده: ٩٣/١ - ٩٤.

(١) صنارتيه: الصنارة الأذن بلغة أهل اليمن، ومن الخطأ تشديد النون فيها. اللسان مادة (صنر).

(٢) المبرمة: الحبل.

(٣) المنسأة: بكسر الميم العصا تهمز وتليّن. اللسان، مادة (نسأ).

(٤) عفجه بالعصا يعفجه عفجاً: ضربه بها في صدره ورأسه. اللسان، مادة (عفج)

(٥) الجريال: قيل اللون الأحمر، وفيه كناية عن جريان الدم.

(٦) معجم الأدباء، ياقوت: ٢١٠/١٢ - ٢١١.والنص موجود في بغية الوعاة للسيوطي: ٣٠٩/٢ مع اختلاف بعض الألفاظ.

(٧) لم أعثر على ترجمة له فيما توافر لدي من مصادر.

(٨) العُنجُد: حب العنب، والعَنجَد والعُنجَد رديء الزبيب وقيل نواه. اللسان، مادة (عنجد).

(٩) اللقَمُ: بالتحريك وسط الطريق. اللسان، مادة (لقم).

أنت؟ قال: لا؛ قال: فمن بني هاشم؟ قال: لا؛ قال: فمن أكفائهم من العرب؟ قال لا: قال ويلي عليك: انزع ثيابه يا جلواز[١]، فلما أراد نزع ثيابه قال: أصلحك الله، إن إزاري مُرَعبَل[٢]؛ قال: دعوه، فلو ترك الغريب في وقتٍ لتركه في مثل هذا الوقت»[٣].

فهذا الرجل صاحب غريب تعوده في أسلوب كلامه إلى الحد الذي لا يستطيع تركه وإن كان سبباً في تعجيل العقوبة عليه. هذه الأمثلة تمثل جانباً من جوانب الاستخدام اللغوي في أعصر سابقة لحقبة الدراسة. الذي لا يخلو هو الآخر من مثل هؤلاء الأشخاص الذين تشادقوا بألفاظهم، متصيدين لكل موقف ومحاولين من خلاله إظهار قدراتهم اللغوية المختلفة كالتمكن في الإعراب إلى إيراد الغريب في الكلام.

روى الجاحظ أن رجلاً من النحويين قدم آخر إلى السلطان في دين له عليه. فقال: «أصلح الله الأمير، لي عليه درهمان. فقال خصمه: لا والله أيها الأمير إن هي إلا ثلاثة دراهم، ولكن لظهور الإعراب ترك من حقه درهماً»[٤]. فلشدة إعجاب هذا النحوي بلغته واعتداده بنفسه عن طريق تمكنه من التعبير السليم بها، أسقط من حقه درهماً لأجل أن يظهر الإعراب واضحاً في كلامه حتى يقال عنه أنه متقن للغة في قواعدها.

وكان كثيراً ما ينفِّر الاستخدام المعقد للغة، كإيراد الغريب، الناس من الإقدام نحوها وتعلمها ويصبح نتيجة لذلك قائلها مادة للتندر والضحك. قيل سمع أعرابي أبا المكنون[٥] النحوي وهو جالس في في حلقته دعاءه في طلب الاستسقاء قائلاً «اللهم ربنا وإلهنا ومولانا صلِّ على محمد نبينا، ومن أراد بنا سوءً فأحط ذلك السوء به كإحاطة القلائد على ترائب[٦] الولائد ثم أرسخه على هامته كرسوخ السجيل على

(١) الجلواز: الشرطي والجمع جلاوزة. اللسان، مادة (جلز).
(٢) مرعبل: ثوب مُرَعْبَل أي ممزق. اللسان، مادة (رعبل).
(٣) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٦٣/٢.
(٤) البيان والتبيين، الجاحظ: ٢١٨/٢.
(٥) لم أتوصل لمعرفة ترجمته في ما توافر لي من مصادر.
(٦) الترائب: موضع القلادة من الصدر مفردها تربية. اللسان، مادة (ترب).

هام أصحاب الفيل؛ اللهم إسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً مجلجلاً[١] مسحنفراً[٢] هزجاً[٣] سحا[٤] سفوحاً[٥] سفوحاً[٥] طبقاً[٦] غدقاً[٧] مثعنجرا[٨]؛ فقال الأعرابي: ياخليفة نوح هذا الطوفان وربِّ الكعبة، دعني آوي آوي إلى جبل يعصمني من الماء»[٩].

فالتكلف بادٍ في استخدام هذه الألفاظ ومحاولة إظهارها على نسقٍ واحد، كل ذلك كان سبباً للتندر من صاحبها، بل ويبلغ هذا التندر حد السخرية مصوراً ذلك في قول الأعرابي (يا خليفة نوح) وكان ما ينزل بهذا الدعاء من غيث سيأتي على الأرض ومن عليها، لما تحمله مفردات هذا الدعاء من معنى، الأمر الذي دفع بالأعرابي إلى القول بعد ذلك أنه سيعتصم بحبل يقيه خطر هذا الماء النازل من السماء مشبهاً مقالته بمقالة ابن نوح حين داهمه الطوفان، كما صرّح بذلك القرآن الكريم[١٠].

إذن يستشف مما سبق أن أصحاب الغريب والتشدق في اللغة يصبحون - لا شك - مرمى لتندر العامة وسخريتهم ممن يصعب عليه فهم مثل هذه الكلمات التي

(١) المجلجل من السحاب الذي فيه صوت الرعد، وغيث جلجال شديد الصوت. اللسان، مادة (جلل).
(٢) أسحنفر المطر كثر، وقال أبو حنيفة المسَحنفر الكثير الصب الواسع. اللسان، مادة (سحفر).
(٣) الهزج: بفتحتين صوت الرعد. اللسان، مادة (هزج).
(٤) سح الماء صبه وسحَّ الماء بنفسه سال من فوق وكذا المطر والدمع وبابهما ردَّ. اللسان، مادة (سحح).
(٥) سفوحاً: سائلاً. اللسان، مادة (سفح).
(٦) مطر طبق أي عام. اللسان، مادة (طبق).
(٧) الغدق: بفتحتين الكثير، وقد غدِقت عين الماء أي غزرت وبابه طرب. اللسان، مادة (غدق).
(٨) المثعنجر: السيل الكثير، واثعجرت السحابة بقطرها واثعنجرت المطر نفسه يثعنجر إثعنجاراً. اللسان، مادة (ثعجر).

(٩) عيون الأخبار، ابن قتيبة: ١٦٤/٢.
(١٠) القول فيه إقتباس من قوله تعالى: وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ سورة هود، آية: ٤٢ - ٤٣.

تكون بحاجة إلى متبحر في اللغة حتى يستطيع فك رموزها.

فصار أمراً طبيعياً أن تصبح مثل هذه الأخبار مادة تُعرض بها الفكاهة، وما ورودها في كثير من كتب الأدب والتراجم إلا دليل على ذلك.

ورد أن محمد بن الحسن الجرجاني(١) كان متقعراً في كلامه، فدخل الحمام يوماً فقال للقيّم: «أين الجليدة التي تسلخ بها الضويطة(٢) من الإخفيق(٣)؟ فصفع القيم قفاه بجلدة النورة وخرج هارباً، هارباً، فلما خرج من الحمام وجه إلى صاحب الشرطة، فأخذ القيم وحبسه، فلما كان عشاء ذلك اليوم كتب إليه القيم رقعة يقول فيها: قد أبرمني المحبوسون بالمسألة عن السبب الذي حبست له، فإما خليتني وإما عرفتهم. فوجه من أطلقه، وإتصل الخبر بالفتح فحدث المتوكل، فقال: ينبغي أن يغنى هذا القيم عن الخدمة في الحمام. وأمر له بمائتي دينار»(٤).

فهذا القيم قد تبرم بكلام الجرجاني الغامض الذي لا داعي له إطلاقاً، ثم إنه لِمَ لا يتكلم بقول مفهوم كباقي الناس، هل يريد صاحبنا أن يبرز نفسه على أنه صاحب لغة وأدب؟ كل ذلك دفع القيم إلى ضربه وتهديده بأن يشيع سبب حبسه بين الناس. فاعتماد هكذا أسلوب في التعبير اللغوي يكون مدعاة لسخط العاقل والناس عامة، وهذا ما دفع كثيراً من الكتاب إلى عد مثل هذه الانتهاجات الأسلوبية عيباً ومنقصة تلحق قائلها فكان بحق «شر البلغاء من هيَّأ رسم المعنى قبل أن يهيّئ المعنى، عشقاً لذلك اللفظ، وشغفاً بذلك الاسم، حتى صار يجر إليه المعنى جراً، ويلزقه به الزاقاً حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ومنعه الإفصاح عنه إلا به»(٥).

وأمام ما تقدم نلحظ أن الفكاهة في هذا الجانب قد عرضت وجهاً من وجوه التعبير اللغوي غير السليم، راميةً من ورائه التنبيه عليه بأسلوب تعليمي تحذيراً أو إغراءً للوصول من ثم إلى صيغ كلامية أسمى وأرفع في لغتنا العربية.

---

(١) لم أعثر على ترجمة لصاحب هذا الاسم فيما توافر لدي من مصادر.
(٢) الضويطة: الحمأة والطين، وقيل الحمأة والطين في أصل الحوض.اللسان، مادة (ضوط)
(٣) الإخفيق: شق في الأرض، والجمع أخاقيق من أخقوق هكذا في اللسان، مادة (خقق).
(٤) الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي: ٢(٢)/٥٧.
(٥) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣/٣٩ - ٤٠.

٢ - الأسماء:

وكذلك قد عيبت بعض الأسماء التي تَسمى بها بعضهم، حيث يستشف منها التكلف والتصنع. إذ لم تغفل الفكاهة هذا الموضوع بل عالجته بنوع من السخرية والإستهزاء من أصحاب هذه الأسماء، وكأن هذه السخرية إشعار بعدم اللجوء لمثل هكذا أسماء مادام هناك كثير غيرها لها معانيها الرفيعة في لغتنا العربية.

فمن ذلك أن المبرد التقى رجلاً فقال له: «ما اسمك؟ قال: بحر. قال: أبو من؟ قال: أبو الفيض. قال: ابن من؟ قال: ابن الفرات. قال: ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلا في زورق»[(١)].

فهذه الأسماء بما تحمله من معنى واحد لا بدّ أن يصبح صاحبها مدعاة للسخرية لأن في ذلك من التكلف ما هو ظاهر، لذلك نرى المبرد يقول ساخراً «ما ينبغي لصديقك أن يلقاك إلا في زورق».

وشبيه بذلك وقوف أعرابي على جماعة يسائلهم، فقال لواحد منهم: «ما اسمك؟ قال: مانع؛ وقال للآخر: ما اسمك؟ قال: محرز؛ وقال للآخر: ما اسمك قال: حافظ؛ قال: قبحكم الله، ما أظن الأقفال إلا من أسمائكم»[(٢)].

فما احتواه القفل من صفات تشابه هي عينها أسماء هؤلاء الأشخاص دعا الأعرابي إلى التهكم من خلال دعائه على أصحاب هذه الأسماء بالقبح لما في أسمائهم من صفات الشدة.

٣ - التلاعب بالألفاظ:

امتازت لغتنا العربية بسعتها لتعبيرية باستخدام أساليبها المختلفة منها الصريح ومنها الغامض، بمعنى أن بعض هذه الأساليب تحمل أكثر من وجه واحد في الفهم، كالتورية مثلاً. والكناية هي الأخرى من أساليب الكلام في اللغة. وتحدث المغالطة في فهم السامع عندما يكنّى له عن أمر ما، يشابه كنية أمر آخر يكون معناه متبادراً وحاضراً في الذهن، كأن يكون الأول منهما رفيعاً في معناه والآخر وضيعاً.

(١) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٥٥.
(٢) الإمتاع والمؤانسة، التوحيدي: ٢(١)/٥٧.

وهكذا وضعت اللغة بين يدي مستخدميها أساليبها المختلفة في تحقيق ما يرمون إليه، وقد عرض النثر العربي من ذلك الشيء الكثير من خلال أقلام كتابه، ولم تكن الفكاهة بمنأى عن مثل ذلك، فقد وظفت هذه الروايات بشكلٍ فكهٍ وعرضتها بطريقة مضحكةٍ أتت أكلها، وكأن الغاية من عرضها لفت النظر على ما تحتويه اللغة من أساليب كفيلة بالتعبير عن متطلبات الحياة كافة، ومن ثم فهي وسيلة تعليمية في الاستخدام اللغوي.

فقد روى النظام عن بعضهم حين سأله آخر عن رجل أراد تزويجه بعض حريمه فقال: «هو يبيع الدواب. فلما نظروا في أمره وجدوه يبيع السنانير، فلما سئل عن ذلك قال: ما كذبت؛ لأن السنّور دابة»[١]. فهنا المغالطة ناشئة عن كلمة (دواب) فالمتبادر إلى الذهن أنه رجل تاجر بدليل تجارته بيع الدواب المشتملة على الإبل والخيل وأشباه ذلك، فلا يخطر ببال السامع أن السنانير تعد من الدواب لضآلتها وصغر شأنها والحال إنها كذلك.

وكذلك الحال مع رجل آخر سئل السؤال السابق نفسه وللغرض نفسه فقال إنه: «رزين المجلس، نافذ الطعنة. فحسبوه سيداً فارساً، فنظروا فوجدوه خياطاً! فسئل عن ذلك فقال: ما كذبت؛ إنه لطويل الجلوس، جيد الطعن بالأبرة»[٢]. فالكناية عن الخياط بهذه الصفات التي تصور مهنته أمر غير متوقع لانصراف الذهن نحو المعنى القريب المتمثل في حضور صورة الفارس.

ولو سئل عن رجلٍ يراد تسليفه مالاً عظيماً قال: «هو يملك ما كان يبيعه بمائة ألف ومائة ألف، فلما بايعه الرجل وجده معدماً ضعيف الحيلة، فلما قيل له في ذلك قال: ما كذبت؛ لأنه يملك عينيه وأذنيه وأنفه وشفتيه ويديه.حتى عدّ جميع أعضائه وجوارحه»[٣].

فمثل هذه النصوص التي تحمل وجهين في فهمهما تدعو إلى الضحك وبخاصة إن كان أحد هذين الوجهين أو المعنيين - وهو المقصود من ذلك -

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٣٣٨/١.
(٢) البيان والتبيين، الجاحظ: ٣٣٨/١.
(٣) م. ن: ٣٣٨/١.

سخيفاً لا يلتفت إليه أو يعتد به لعدم حضوره في الذهن بينما المعنى الآخر هو على العكس منه ذو معنى جليل يكون حضوره في الذهن متوقعاً؛ وهو ما عبرت عنه التورية الحاضرة في النصوص السابقة، التي تظهر لنا قدرة المتكلم على استغلال اللغة عن طريق التلاعب بالألفاظ لتأدية معانٍ مختلفة حيال موضوع من الموضوعات.

٤ - الأسلوب التعليمي:

ومن الوسائل التعليمية الأخرى للنثر الفكاهي في هذه الحقبة من العصر العباسي هو تهيئة صيغ وأساليب كلامية تطرح بأسلوب فكه ضاحك تساعد على التعليم والإرشاد، بمعنى إنها تعطي استخدامات تركيبية جاهزة أو مفردات لغوية تمكن المتلقي من أن يفيد منها في إنشاءاته أو ما يرسله من كلام مباشر.

وهذا النوع من الكتابة الفكهة تطالعنا به مقامات بديع الزمان الهمذاني التي جاءت وسيلة لتعليم الناشئة أساليب التعبير اللغوي[(١)].

فقد كان الهمذاني في مقاماته مشغوفاً بأشكال الصنعة البلاغية التي جعلت من إنشاءاته أشبه ما تكون بحديقة تظم أنواعاً من الأزهار اختلفت ألوانها وتعددت روائحها، منتظمة في أنساق مختلفة تخلب لبّ الناظر إليها وتعرفه كيفية التنسيق. كذلك الحال مع المقامات على حد تعبير بعضهم التي: «لا يستفاد منها سوى التمرن على الإنشاء والوقوف على مذاهب النظم والنثر»[(٢)].

وبغض النظر عن تحامل صاحب القول على المقامات وماتؤديه من وظائف أخرى، إلا إنه يؤكد ما لهذه المقامات من وظيفة إرشادية غايتها تعليم المبتدئين كيفية التعبير، أو الوقوف بهم على صور الإنشاء الأدبي، وقد تابعه على هذا الرأي معظم المحدثين أيضاً[(٣)].

---

(١) ينظر: مقامات أبي الفصل بديع الزمان الهمذاني، قدم لها وشرح غوامضها محمد عبده: ١٠، (المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٩٥٧م).

(٢) الفخري في الآداب السلطانية، ابن طقطقا: ١٥.

(٣) ينظر: فن المقامة، الدكتور شوقي ضيف: ٧ (دار المعارف - القاهرة، ١٩٥٤م)، الفن ومذاهبه، شوقي ضيف: ٢٥٠، القصة القصيرة في مصر، د.شكري عياد: ١٨ (مطبعة النهضة الجديدة -

=

وتتجلى هذه الخصيصة التعليمية في المقامات إذا ما علمنا أن الهمذاني كان «يتفهم مسالك اللغة الوعرة متعمداً في اصطياد شوارد الألفاظ، مترصداً الزخارف اللفظية، موفراً الصور البيانية مبتكراً المحسنات البديعية، عاكفاً على العبارات عكوف حاذق، يحصي حركاتها وسكناتها، موازناً في ذلك بين العبارة وسابقتها، دون كلل أو ملل»[(١)]. لذلك كانت مقاماته هذه بحق المعلم لمن يرجو إتقان الأسلوب في ذلك العصر من قبل الناشئة، بل أصبحت أساليبه الكلامية في مقاماته معيناً لا ينضب لغيره من الأدباء ممن عمل على إنشاء مقامات مماثلة لمقاماته سار في نهجه على هديها، بسبب أسلوبه المشرق وعمله الرائد فأصبحت «نموذجاً احتذاه المقاميون، فمنهم من اعتسف وأخفق ومنهم من رفرف وحلق»[(٢)].

وبهذا أصبح للنثر الفكاهي دور لا يقل أهمية عن دوره السابق الذي عرضنا له بحسب غاياته، هذا الدور أعطى للأدب بشكل عام اليد الطولى في فرض موضوعاته التي عكست صورة المجتمع العباسي في تلك الحقبة بوضع الحلول لبعض مشاكله بالنقد والتوجيه.

=

القاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٦٨).

(١) فن المقامة بين الأصالة العربية والتطور القصصي، الدكتور عباس مصطفى الصالحي: ٦٥ (الموسوعة الصغيرة (١٤٧) تصدرها دائرة الشؤون الثقافية والنشر - بغداد، ١٩٨٤م).

(٢) م. ن: ٦٧.

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

المبحث الأول

في الصياغة والأسلوب

بنية النص الفكاهي

لا بدّ في بادئ ذي بدء من أن نلقي نظرة على طبيعة تكوين القطعة النثرية الفكهة، من حيث الأسلوب الذي سار عليه المنشئ بها، لما لذلك من عظيم الأثر في استطلاع نفسية قائلها ومعرفة البيئة التي ظهرت فيها ومن ثَمَّ معرفة الغرض الذي من أجله أُنشئت.

كذلك كانت معرفة الشكل الظاهري للنصِّ النثري وتركيبه من بدايته حتى نهايته أمراً ضرورياً في استجلاء أهمِّ الخصائص والسمات المتعلقة بالألفاظ من جهة وأثرها في إبراز المعنى من حيث دلالة هذه الألفاظ عليه من جهة أخرى. وهذا ما سنعرض له لاحقاً إن شاء الله تعالى.

وعلى هذا الأساس سوف نمضي في تقصي أهم الخصائص في الصياغة والأسلوب لدى الفكاهة في النثر العباسي لهذه الحقبة، علَّنا نَتَلَمَّس طبيعة تكوينها.

أ - البدء والختام:

كانت التعبيرات الهازلة والساخرة في معظم الفكاهات الواردة في كتب الأدب كثيراً ما تخلو من عبارات الاستفتاح بحمد الله والثَّناء عليه والصلاة على رسوله، وكذلك كانت هذه الفكاهات تخلو من عبارات الاختتام، قياساً على الرسائل الدينية وما شابهها.

فكان أن جاءت هذه الفكاهات في النثر مُعَّراة من أسلوب الافتتاح وما يناسبه من عبارات وألفاظ، والحال نفسه مع خواتيمها، وما ذلك إلا لما تمتعت به النادرة أو النكتة من إيجاز في التعبير، بحيث يُؤدي المعنى المراد بأقلّ كلماتٍ ممكنة، وهذا نابعٌ مما يتطلَّبه الجواب فيها من سرعة في الخاطر بحيث يكون الردُّ على الموقف الحاصل أو الراهن حاضراً من غير تلّكُّؤ، وهذا - ولاشك - لا يحتاج

إلى تمهيد متمثل بصياغات الحمد والتمجيد. هذا إلى جانب أن الموقف نفسه الذي يؤدي إلى حصول هذه النادرة أو تلك النكتة إنما هو موقف في مجموعه هازل ساخر أيسر غاياته أو مراميه إظهار ضحكة المتلقي، وما كان الضحك الهوية الشخصية له لا بدّ وأن يستغني عن هذه المقدمات ويبتعد عن تلك الخواتيم إلا ما ندر.

هذا ما كان متعلقاً بالكتابات النثرية الفكهة القصيرة في محتواها الوجيزة في كلماتها وذات التلقائية والحضور المرتجل والعفوي «الذي يشهد لصاحبه بسرعة البديهة وحِدَّة الذكاء، وبراعة التعبير»[١].

أما إذا أتينا إلى الرسائل ذات الطابع الاجتماعي الفكه فإن المقاييس السابقة تنطبق عليها أيضاً، وإن كان أسلوب الرسالة يتطلب من كاتبها الوقوف على بدءٍ يشتمل على ذكر الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكذلك خاتمتها، إلا أننا لا نجد مثل هكذا مقدمات في هذه الرسائل الهازلة الا ما ندر، إذ يقتصر فيها أصحابها على الدخول إلى صلب موضوعاتهم من دون هذه المقدمات.

فالجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) لا نراه يحفل بأسلوب الرسالة من جهة البدء والختام بل نراه يقرر صفات صاحبه في مطلعها كما في قوله: «كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدعي أنه مفرط الطول، وكان مربعاً وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوراً ...»[٢]، إلا أنه يلتزم في نهاية رسالته الساخرة هذه ببعض صيغ التحميد والتمجيد كقوله: «.. فإن أنصفت فقد أغربت، وإن جرت فلم تَعْدُ ما عليه الزمان. وهب الله لنا ولك الإنصاف، وأعاذنا وإياك من الظلُّم، والحمد لله كما هو أهله، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. وصلى الله على سيدنا محمد خاصة، وعلى أنبيائه، وسلم»[٣].

وممن لم يحفل بشكل الرسالة من حيث البدء والختام أبو العيناء في

---

(١) أبو حيان التوحيدي، زكريا إبراهيم: ٢٥٦.
(٢) رسالة التربيع والتدوير، الجاحظ، تحقيق شارل بلات: ٥.
(٣) رسائل الجاحظ، عبد السلام محمد هارون: ١٠٩/٣، وهناك تغيير في بعض الألفاظ قياساً بتحقيق شارل بلات: ١٠٥.

رسالته في وصف البرذون الذي أُهدي إليه وقد مرَّ ذكره فيما سبق، وكذلك الحال مع الخوارزمي في بعض رسائله التي تحمل صفة الفكاهة فيها، كما في رسالته التي بعث بها إلى أبي حامد الأديب بقومس في نعت مبعوثه إليه، حيث يفتتحها بقوله: «كتبت إلى شيخي كتاباً سامحت فيه يدي وخاطري. وغالطت في انتقاده قلبي وناظري. لأن رسوله كان أعجل من عامل حضر مشخصه ...»[١].

أو قوله في رسالة أخرى بعث بها إلى مسكويه لمناسبة زواج أُمه إذ يُصَدِّرها بتراء بقوله: «العاقل - أعزك الله - لا يرى المحنة إذا تخطت دينه محنة ولا يرى النعمة إذا تعلقت بذنب خطيئة نعمة ...»[٢].

وهكذا الحال مع رسالة أبي إسحاق الصابي وكذلك أبي الخطاب الصابي اللتين مرَّ ذكرهما سلفاً. وما هذا الاقتضاب في مثل هذه الرسائل ذات الطابع الفكه إلا تعبير عن نفسيَّات كُتّابها وحالاتهم الشعورية. فالمقام لا يستوجب الإطالة أو الوقوف على ما يصح أو ما لا يصح من هيئة الرسالة بقدر ما تُعَبِّر مثل هذه الرسائل عن مناسبة القول في تأدية المعنى المراد.

ولكنّنا لا نعدم وجود بعض رسائل من هذا النمط احتفظت بشكل الرسالة من حيث المقدمة والخاتمة، كما هو الحال مع عمرو بن مسعدة في رسالته التي بعث بها إلى صديق تزوجت أُمه وقد ذُكرت من قبل[٣].

وكذلك رسالة إبراهيم بن ثوابة إذ تبدو فيها معالم هذا الفن واضحة، فهو بعد أن يعرض وصول رسالة من صديق له يطلب فيها بيان ما وقع مع معلم الهندسة، يُصَدّرها بعبارات التحميد والتمجيد فيقول: «الحمد لله مولى النعم والمتوحد بالقسم، إليه يُرَدُّ علم الساعة، وإليه المصير، وإياه أسأل ايزاع الشكر على ذلك ...»[٤].

ولو نظرنا إلى العهد الذي كتبه أبو إسحاق الصابي الذي وضعه للتطفل،

(١) رسائل الخوارزمي: ١٨١.
(٢) م. ن: ٢١٣.
(٣) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٣/ ١٤٧.
(٤) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٨.

نراه يسير فيه سيرة الرسائل أو العهود السلطانية من حيث البداية والخاتمة على الرغم من كون موضوع هذا العهد هو ضاحك وساخر في آن، وما كان إقدام الصابي على هذا النمط من الكتابة في عهده هذا الا ليعطيه صورة أكثر هزلية عن طريق عرضه بهذا الأسلوب الجاد الذي يترآى للقارئ له أول الأمر أنَّه رسم من رسوم السلطان أو عهد صادر عن بلاط ملكي، وهذه المبالغة والتعظيم لموضوع هذا العهد من ناحية الصياغة والأسلوب هي التي أعطت موضوعه روعةً وجمالاً، وعدا صاحبه به إلى مصافي الفكاهة العذبة والمقبولة.

فهو في مقدمة هذا العهد يقول بعد ذكر جهة أصداره ممن وإلى من: «آمره بتقوى الله التي هي الجانب العزيز، والحرز الحريز، والركن المنيع، والطود الرفيع؛ والعصمة الكالئة[١]، والجُنة الواقية؛ والزاد لنا في يوم المعاد، وحيث الأمثلة من الأزواد؛ وأن يستشعر خيفته في سره وجهره، ويراقبه في قوله وفعله ...»[٢] ويستمر بعبارات التعظيم والتمجيد لله تعالى في هذه الفقرة والفقرة التالية حتى يصل إلى صلب موضوعه. وكذلك الحال مع خاتمه هذا العهد حيث يُنهيه بالتنبيه على فقارَّ هذا العهد والأخذ بما جاء فيها من تعاليم لعلها تنفع من وُجِّهت إليه إن هو ألتزم بها فيقول: «هذا عهد عليكا بن أحمد اليك، وحُجَّته لك وعليك؛ لم يلأُلك فيه إرشاداً وتوفيقاً، وتهذيباً وتثقيفاً؛ وبُعثاً وتبصيراً، وحَثّاً وتذكيراً؛ فكن بأوامره مؤتمراً وبزواجرِه مُزدجراً؛ ولرسومه مُتَّبعاً، وبحفظها مضطلعاً؛ إن شاء الله تعالى، والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته»[٣].

أمَّا إذا أتينا إلى مقامات البديع وجدنا مقدماتها وخواتيمها تختلف عن طبيعة مقدَّمات الرسائل وخواتيمها، ففي المقامة تكون المقدمة مبنية على أساس المكان الذي يدور فيه الحدث ويكون من ثم مناسبة القول فيها، حيث تدور الأحداث وشخصياتها تبعاً لطبيعة ذلك المكان، وحسبنا أن نلقي نظرة على عناوين هذه المقامات للهمذاني لنستبين ذلك، كالبغدادية والموصلية والأصفهانية وغيرها.

(١) كلأك الله كلاءة أي حفظك وحرسك، والمفعول منه مكلوء. اللسان، مادة (كلأ).
(٢) صبح الأعشى، القلقشندي: ١٤/ ٣٦١.
(٣) م. ن: ١٤ /٣٦٥.

وقد يصادف أن بعضها تحمل عنواناً لغير المكان كما في المقامة (المضيرية والدينارية) الا أن هذا الاسم إنما وضع ليعبر عن طبيعة مكان ما، يذكر في مقدمة المقامة، وكذلك بعض حال ساكنيه. أما إذا جئنا إلى خواتيم هذه المقامات ألفينا الهمذاني يُنْهيها بأبيات شعرية في معظمها يُعبِّر بها عن طبيعة العصر وما يجب فعله حياله حتى يمكن للفرد إحراز قوته وكسبه وبغض النظر عن كون هذه الأبيات له أم لغيره.

هذا ما كان متعلقاً بعنصري البدء والختام في الفكاهة الحاضرة في النثر العربي ورأينا كيف أن نسبة وجودهما قد اختلفت في هذا النثر، وما ذلك إلا تبعاً لطبيعة النادرة وطبيعة الكتابة فيها.

ب - الجملة الاعتراضية

وهي ظاهرة من ظواهر الأسلوب التي شاعت في هذه الحقبة بين الكتَّاب في بعض من أشكال كتابتهم، المتمثلة بالعبارات الخارجة عن مضمون النصِّ، كجمل الدُّعاء بدوام العِزِّ والسؤدد والسعادة، أو طول العمر وامتداد السلطان وزيادة القوة، وما إلى ذلك من معاني الدعاء.

ولو استقصينا النثر الوارد في موضوعات الفكاهة - هذه الحقبة - لوجدنا أن كثيراً منه لا يشتمل على هذه الصيغة في أسلوبه، وبخاصة تلك الفكاهات التي تحكي موقفا طارئاً وسريعاً بين شخص وآخر - بغض النظر عن مكان هذا الموقف - تتجلى فيه العفوية والتلقائية في التعبير؛ من دون خلق أدنى سلوك يُلمس عن طريقه مراعاة المقامات ومن ثم التكلف في الأداء؛ ومعنى ذلك أنَّ النثر من هذا النوع لم يحفل في كثير من نصوصه بالصياغات الأسلوبية الدقيقة المتعارفه كما في إنشاء الرسائل على سبيل المثال، وإنما سعى منشئوا هذا النوع من النثر للوصول إلى مراميهم بالأسلوب الكلامي المعتاد بين عامة الناس. وكتب الأدب أوردت هذا النوع من النثر المُتَّسم بالقصر وقد قدَّمنا له في الفصول السابقة.

غير أننا لا نعدم وجود مثل هذه الظاهرة في أسلوب النثر الفكاهي، ولاسيما في الحكايات التي تُروى كالتي تحمل مساحة كلامية - ان صح ذلك تجوزاً - أوسع تتَّسعُ لتنوُّع أسلوب كاتبها.

فالجاحظ نلحظ في كتاباته الفكهة والساخرة هذه الظاهرة، كما هو الحال

مع بخلائه وعرضه لحكايات تتسم بالطول نوعاً ما، فهو حين يتكلم على بخل أهل خراسان ويورد حكاية الرجل البخيل الذي لا يتهاون في ضياع قطرة زيت تفيده في إيقاد مصباحه، وما عمله في سبيل ذلك من ربطه لعودٍ - لئلا يضيع - يُشْخِص به رأس الفتيلة إن انطفأ المصباح؛ إلا أن هذه الفكرة لم ترق لبخيل آخر فقال له: «يا فلان فررت من شيء ووقعت في شيء. أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أوليس قد كان البارحة عند أطفاء السراج أروى، وهو عند سراجك الليلة أعطش؟ قد كنت أنا جاهلاً مثلك! اربط - عافاك الله - بدل العود إبرة أو مسلة صغيرة ...»[١].

فجملة (عافاك الله) هي جملة اعتراضية من نوع الدعاء جاءت ضمن سياق الأسلوب عند الجاحظ.

وهكذا نلمس استعمال الجاحظ لأسلوب الجملة الاعتراضية في حكاياتها عن بخلائه في أكثر من موضع[٢].

ومن أجمل الدعائية الواردة في النثر الفكه ما أورده الجاحظ حكاية عن رجل طلق زوجته: «فمر في بعض الطرقات فسمع امرأة تسأل أخرى عنها فقالت: البائسة طلقها زوجها! فقالت: أحسن بارك الله عليه. وقال لها يا أمة الله، من شأن النساء التعصب بعضهن لبعض، واسمعك تقولين ما قلت. قالت: يا هذا، لو رأيتها لعلمت أن الله تعالى قد احل لزوجها الزنى، من قبح وجهها»[٣].

وكان هذه الصيغ الاعتراضية من كماليات الأسلوب، وسمة من سمات التواضع في القول وبخاصة إذا كان الخطاب موجهاً إلى مَن هو في منزلة ورتبة أعلى من مقام المتكلم، كالأمير والقاضي.

كقول الجاحظ أنا الرجل النحوي الذي قدم لأمير رجلاً استدان منه مالاً فتأخر عن دفعه له[٤]. أو كقول ذلك الرجل الذي خاصم امرأة أمام القاضي بدعوى

(١) البخلاء، الجاحظ: ١٩.
(٢) ينظر على سبيل المثال: البخلاء، الجاحظ: ٢٥، ٣٠، ٤١، ١٥٧.
(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٢/ ١٢٧.
(٤) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٢/ ٢١٨.

أنها غشته فقال: «أصلح الله القاضي زوجتني هذه امرأة عرجاء، فقالت: أعزك الله، زوجته امرأة يجامعها لم أزوجه حمارة يحج عليها»[١].

أما إذا أتينا إلى الفكاهة الواردة بشكل رسائل نثرية أخوانية أو ما يشاكلها سنجد فيها حضوراً ملحوظاً لمثل هكذا صيغ، وما ذلك إلا لما تشتمل عليه نفسية الأديب في حال كتابته الرسائل في هذا الموضوع من راحة واسترخاء ورضاً يعبر عنه بصياغات متنوعة من الكتابة، هذا إضافة إلى ما تتمتع به الرسالة من مساحة أوسع ومجال أرحب في التعبير اللغوي المقصود.

وهذا الجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) قد ضمنها أفانين من الصيغ والاستعمالات من بينها الجملة الاعتراضية حين يأتي بها بين كلماته وجمله وبخاصة الدعائية[٢]. كقوله في مطلع هذه الرسالة: «أطال الله بقاءك وأتم نعمته عليك، وكرامته لك»[٣].

من الأمثلة الأخرى على هذه الصيغة قول أبي العيناء في صفة البرذون الذي أهدي إليه: «أعلم الوزير - أعزه الله - أنا أبا علي محمداً أراد أن يبرني فعقني»[٤]. ثم أنه يكرر هذه الصيغة في نهاية رسالته في محاورته مع عبيد الله بن خاقان: «فقال عبيد الله: شكوت دابة محمد، وقد أخبرني الآن أنه يشتريه منك بمائة دينار، وما كان هذا ثمنه لا يشتكى. فقال: أعز الله الوزير، لو لم أكذب مستزيداً، لم أنصرف مستفيداً»[٥].

والحال نفسه حين نأتي إلى رسالة ابن ثوابة في الهندسة، حيث توافرت على هذه الصيغ في مواضع متفرقة[٦]. وكذلك فعل أبو الخطاب الصابي في رسالته التي أبن فيها ثوراً نفق بقوله: «التعزية على المفقود أطال الله بقاء القاضي

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢) /٦٨٥ - ٦٨٦.
(٢) ينظر على سبيل المثال: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٦١، ٦٨، ٧٥، ١٠٤.
(٣) التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلات: ١٠.
(٤) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٧.
(٥) م. ن: ٢/ ٥٨٧ - ٥٨٨.
(٦) ينظر: مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٧ - ١٦٤.

إنما تكون بحسب محله من فاقده»[١]. وكذلك قوله: «... وقلبي متعلق بمعرفة خبره، أدام الله عزه فيما أدرعه من شعار الصبر، واحتفظ به من آثار الأجر»[٢].

ولو أتينا إلى مقامات الهمذاني التي تحمل سمة الفكاهة لوجدناها حافة بالجملة الاعتراضية والدعائية على وجه الخصوص فقوله في (المقامة البغدادية) عند لقاء الإسكندري بالسوادي، وقول السوادي له: «لست بأبي زيد، ولكني أبو عبيد. فقلت: نعم، لعن الله الشيطان، وأبعد النسيان. أنسانيك طول العهد»[٣]. وكذلك قوله في (المقامة الحلوانية) عند استجواب صاحب الحمام له في قوله: «فقال الحمامي: يا رجل لا تقل غير الصدق، ولا تشهد بغير الحق، وقل لي: هذا الرأس لأيهما، فقلت: يا عافاك الله هذا رأسي، قد صحبني في الطريق»[٤].

وخلاصة القول إن الجملة الاعتراضية توافرت عليها بعض النصوص الفكهة دون غيرها، وبخاصة تلك النصوص التي انمازت بالطول قياساً إلى غيرها من النصوص القصيرة، بحسب الأغراض التي يهدف إليها المنشئ وحالته النفسية والاجتماعية. إذ إنه باستعماله لمثل هذه الصيغ يحاول أن يضفي على كتابته الفكهة صفة الجدية في القول وتصويرها تصويراً واقعياً، ومن ثم فإن هذا كفيل بأن يحدث عملية الضحك عند المتلقي.

جـ - التنويع بين الشعر والنثر:

جدير بالملاحظة أن بعض أشكال النثر في هذه الحقبة عمد كاتبوه إلى تطعيمه ببعض الأبيات الشعرية تضميناً لها أو لمعناها فيما يحدثون من آثار نثرية.

والفكاهة لم تخل من هذا الأسلوب فيما يعبر عنها بالكتابة النثرية؛ ونستشعر ذلك تحديداً في بعض الرسائل التي كتبها منشئوها والتي تحمل طابعاً فكهاً وعلى اختلاف مراميها، وكذلك الحال مع المقامات؛ إذ حرص بعض الأدباء في هذه الحقبة على ان تتضمن مقطوعاتهم النثرية أبياتاً شعرية، وما ذلك إلا

(١) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٤/ ١٠٣٢.
(٢) م. ن: ٤/ ١٠٣٤.
(٣) - شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٧٠.
(٤) م. ن: ٢٣٥.

لعزمهم على إظهار نتاجهم هذا بأبهى صورة توضح مدى قدرتهم وافتتانهم في هذا الأسلوب، هذا إلى جانب سعيهم لتأكيد المعنى المراد عرضه والفكرة المؤمل توصيلها، لذلك نراهم في كثير من الأحيان يتمثلون بالأبيات المشهورة تثبيتاً لمذهبهم في القول؛ وهذا من ثم أدعى لأن تسري مقطوعاتهم النثرية وتتلقف في الأصقاع، لذلك فهي في نتاجهم النثري تعطيه رونقاً أبهى وجمالاً أسنى.

فلو نظرنا إلى الجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) لوجدنا أنه قد أكد بعض آرائه التي ذهب إليها في سخريته من أحمد بن عبد الوهاب بهذا الأسلوب؛ وكيف أنه قد أدعى ما ليس له من جسم وعلم.

فالجاحظ حين يعرض في رسالته إلى زعم صاحبه وأنه يقول بما ليس فيه إنما كانت الغاية من هذا الزعم الشهرة وذيوع الصيت، لذلك نرى الجاحظ يستشهد ببيتين لخلف الأحمر في هذه المناسبة، فضلاً عما أورده من أقوال وأبيات؛ والبيتان[(١)] هما:

لنا صاحبٌ مولعٌ بالخلاف كثير المــرء قليـل الصواب

ألــج لجاجاً من الخنفساء وأزهى إذا ما مشى من غراب[(٢)]

وكذلك قوله في جسم صاحبه: «مما يثبت أيضاً ان ظاهر عرضك مانع من إدراك حقيقة طولك، قول أبي داؤد الإيادي في أبله:

سمنت واستحش أكرعها لا الـ نيُّ نيٌّ ولا السنام سنام»[(٣)]

فهو في سبيل تأكيد فكرة أن جسم أحمد بن عبد الوهاب يشكل على الناظر إليه، فلا يستطيع التمييز بين طوله وعرضه لتساويهما في ذلك، لأن طوله هو عرضه نفسه، وعرضه هو عين طوله؛ لذلك نراه يتمثل بقول أبي داؤد الإيادي في وصف أبله.

(١) البيتان في الحيوان للجاحظ: ٣/ ٥٠٠، وثمار القلوب للثعالبي: ٣٤٥، وقد أوردهما صاحب ناظريه بما الحيوان الكبرى أنهما في هجاء العتبي: ١/ ٣٠٨، وفي معجم الأدباء لياقوت: ١٦/ ١٦١ إنهما في هجاء أبي العيناء.
(٢) رسالة التربيع والتدوير، الجاحظ: ١٢.
(٣) م. ن: ١/ ٥٩.

وفي الجملة يسعى الجاحظ إلى بيان جهد صاحبه في تحسين هيأته أمام ناظريه بما يدعيه من أوصاف - أتى عليها الجاحظ - ليست فيه، فيقول في ذلك: «وأنت يا عم حين تصلح ما أفسد الدهر، وتسترجع ما أخذت منك الأيام، لكما قال الشاعر[١]:

عجوزٌ تُرجي أن تكون فتيةً ... وقد لحب الجنبان واحدودب الظهر
تدس إلى العطار سيرة أهلها ... وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر[٢]

فالجاحظ حين يعمد هنا إلى هذا الأسلوب فهو يعطي بعداً أعمق للصورة التي يروم الأتيان بها على أتم وجه، وما ذلك إلا لما قد يحمله البيت الشعري المستشهد به من معنى وافٍ لا يستطيع الناثر معه الإتيان بشيء جديد عليه، لذلك فهو يتوقف على استعماله لهذا الشعر لاحتوائه على المعنى الذي فيه الكفاية.

ولم يتوقف أمر التمثل بالشعر وتوظيفه ضمن سياق النثر على الجاحظ فحسب، بل هناك من أتبع السبيل نفسه في أدائه الأسلوبي من مزج الشعر بالنثر تحقيقاً لغرض يرمي إليه.

فهذا أبو إسحاق الصابي في رسالته التي أبن فيها ثوراً نفق، يعمد إلى أن يوفق بين ما يأتي به من شعر وبين موضوع كتابته، وانظر إليه كيف يعمل على هذا التوظيف فيقول: «... وقد أبلغني أن القاضي أصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكياً، وأجهش عليه باكياً، وللندم عليه والهاً، وحكيت عنه حكايات في التأبين له، وإقامة الندبة عليه، وتعديد مت كان فيه من فضائل البقر التي تفرقت في غيره، واجتمعت فيه وحده؛ فصار كما قال أبو نواس، في مثله من الناس:

ليس على الله بمستنكر ... أن يجمع العالم في واحد

لأنه يرب الأرض مغمورة، ويثيرها مزروعة، ويرقص في الدواليب ساقياً،

---

(١) ينظر: الكامل في اللغة والأدب، المبرد، مراجعة ومقابلة وشرح تغاريد بيضون ونعيم زرزور: ١/ ٢٥٧ (دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٩٨٩م) وفيه نسباً إلى شيخ من الأعراب. وكذلك في عيون الأخبار لابن قتيبة: ٤/ ٤٤ نسباً إلى رجل من الأعراب كانت له امرأة عجوز تشتري العطر بالخبز فأنشد فيها البيتين.
(٢) التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلات: ٢٣، وهناك تغيير في بعض كلمات البيتين عند عبد السلام: ٦٦.

وفي الأرحاء طاحناً»[١]. والحال نفسه نراه عند أبي الخطاب الصابي في رسالته عند وصفه لحمل مهدى[٢].
مهدى[٢].

ولو سرنا مع الهمذاني في مقاماته لوجدناه قد أخذ بهذا الأسلوب، فهو حين يعرض لأي مقامة من مقاماته، نراه ينهيها بأبيات شعرية جميلة يلقيها على لسان بطله الإسكندري، حيث تعبر عن وجهة نظره في الحياة وما يتوجب على المرء فعله حيالها.

ولم يكتف الهمذاني باعتماد البيت الشعري والاستشهاد به في نهاية قطعته النثرية فحسب، بل راح يصهر بعض الأبيات في بوتقة أسلوبه ويضعها في خضم نثره بحيث يولد منها جملاً متلاحمة مع ما يأتي به من نثر، وهذا - لا شك - دليل على قدرة الكاتب على التحكم باللغة وجعلها طوع بنانه يصرفها كيف يشاء.

ومن ذلك ما قاله الهمذاني في مقامته (المضيرية) على لسان بطله الإسكندري عندما راح يحكي قصته مع المضيرة وما لاقاه بسببها من ضرب وسجن، فيقول: «فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس، فنذرت أن لا آكل مضيرة ما عشت، فهل أنا في ذا يا لهمذان ظالم؟»[٣].

فالتضمين في قوله (فهل أنا في ذا يا لهمذان ظالم) وهو عجز بيت وظفه الهمذاني في كلامه، وصدره «وكنت إذا قوم غزوني غزوتهم»[٤]. وكذلك في قوله في مقامته (الأرمينية) التي تروي احتيال الإسكندري الإسكندري في سبيل تحصيله الأكل، فيصور الراوي عيسى بن هشام هذا الاحتيال على بائع ألبان فيقول: «وصار إلى رجل قد صفف أواني نظيفة فيها ألوان الألبان، فسأله عن الأثمان، واستأذن في الذوق، فقال: أفعل، فأدار في الآنية إصبعه، كأنه يطلب شيئاً ضيعه، ثم قال: ليس مَعي ثمنه، وهل لك

(١) زهر الآداب / الحصري القيرواني: ٤/ ١٠٣٣.
(٢) ينظر: زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٩.
(٣) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ١٤٣.
(٤) لم أعثر على هذا البيت وقائله فيما توافر لي من مصادر، واكتفى محمد محيي الدين بذكر الصدر كما إنه لم يسم قائله.

رغبةٌ في الحِجامة؟»[١]، فالهمداني في أسلوبه هذا قد ضمَّن قول لبيد بن ربيعة[٢]:

يُخبِرُكَ عن هذا خيرٌ فَسمَعَهْ ... مَهلاً أبيتَ اللَّعنَ لا تأكلْ معهْ

إنْ أستهُ من بَرَصٍ مُلمّعهْ ... وإنَّه يُدخلُ فيها إصبعه

يُدخلها حتى يواري أشجعه ... كأنَّما يَطلبُ شيئاً ضَيعهْ

وفي النهاية نقول: إنَّ التنويع في النثر والشعر من الظواهر التي اعتمدها كبار المشئين ذلك العصر، هذا ما لحظناه في بعض الرسائل والمقامات التي تحمل طابعاً ضاحكاً؛ أَمَّا إذا أتينا الى الفُكاهة الواردة في النصوص القصيرة فإننا نعدم وجود مثل هكذا أسلوب، وما ذلك إلا لطبيعة هذه النصوص المتّسمة بالقصر.

كذلك فإن هذه الظاهرة هي نتيجة لأسباب ودواع عدّة على رأسها حرص المنشئ على إظهار تفوقه في هذا الفن، وكذلك محاولة الكاتب تنبيه القارئ ودفع السأم والملل عنه عند شعوره بطول القطعة النثريَّة، ومن ثم الخروج بمحصلةٍ مفادها تلازم الشعر والنثر وارتباطهما ضمن إطار الأدب، وهذا ما تُعبر عنه نفسية الكاتب وقدرته في تجسيد غرض الكتابة.

د - الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف:

مما اتسمت به الفكاهة في النثر هذا العصر، قدرة أصحابها على ان يقتبسوا آيات قرآنية أو أحاديث نبوية أو أمثالا عربية وتوظيفا في آثارهم المطروحة في سبيل تحقيق مبتغاهم من القول، وهذا ما ينطبق على استخداهم للأشعار كما نوهنا فيما سلف.

وتجدر الإشارة إلى أن الاقتباس من القرآن الكريم على وجه الخصوص والحديث الشريف يكاد يشتمل جميع موضوعات النثر التي عالجتها الرسائل والكتب، بحيث لا يقتصر الأمر على الموضوعات الدينية كالوعظ والزهد وما شابه ذلك، بل إن الأمر قد يتجاوز ذلك حيث يلاحظ الاقتباس حتى في موضوعات الهجاء والسخرية والهزل.

(١) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٢٨٢ - ٢٨٣.
(٢) شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري، حققه وقدم له إحسان عباس: ٣٤٣ (التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢م).

ولكن ما الداعي لاستعمال اصحاب الفكاهات الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والأمثال؟

لا بدّ من التقدير أن القرآن الكريم، بما امتاز بـه مـن صـفات تفـرد بهـا مـن حيـث العمـوم والشمول في معالجته للموضوعات والقضايا المتعلقة بحياة الناس أفراد أو جماعـات، كـل ذلـك جعلـه معينا لا ينضب أستلهم منه كثيرا من الأدباء أفكارهم التي طالـت نرجموهـا إلى قطـع نثريـة أو أبيـات شعرية راحت تنطلق بها عن الموضوعات التي عالوجوها ومنها الفكاهة؛ وكل ذلك ناجم عما تمتـع بـه القرآن الكريم من حضور قوي بين أفراد الناس وشيوع آياته على ألسنتهم بالحفظ والمداولة لما لها مـن دقة في التصوير وبراعة في التعبير، تعرض لمواقف لها علاقة بحياة الفرد والمجتمع، لذلك كثر الاستشـهاد والتمثل بها في مختلف المجالات، وقل الشيء نفسه عـن الحـديث الشريـف، والمثـل السـائر وان هـبط مستواهما في التمثل وانحصر لمن تميز بالاطلاع والثقافة العامة.

فالجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) يعـرض جملـة مـن الآيـات القرآنيـة يستشـهد بهـا في مسيرته الساخرة من صاحبه أحمد بن عبد الوهاب، كقوله في أيلتزم صاحبه بما فيه من صفات حقيقية و ألا يعول على ما يدعيه من خصال، فيقول: «فقل معروفا، فإذا من أعوانك، واقتصد فأنا من أنصـارك. وهات فإنك لو أسرفت، فقلنا لقد اقتصد، ولو جـرت لقلنـا قـد اهتـديت ولكنـك تجـيء بشيـء (تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا) [١]»[٢]... وغير ذلك من مواضع في رسالته هذه.

وقد أثر عن أبي العيناء جملة من النوادر كان للقرآن فيها أثر ملمـوس بالاقتبـاس عـلى وجـه الخصوص، لذلك كانت فكاهاته ونوادره تحمل قوة تهكمية ساخرة، تجعل المقابل يحتـار في رد جوابهـا وهذا نابع - لاشك - مما تمتع به هذا الرجل من ثقافة وحضور بديهة مكنة مـن توظيـف بعـض آيـات القرآن في تحقيق غرضه.

---

(١) سورة مريم، آية: ٩٠.

(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٦٩/٣.

فقد نقلنا قوله في صاعد بن مخلد معرضا بقسوته وغلظته عن طريق ما استعمله من آية قرآنية في ذلك[١]، كما أن له فكاهات أخرى اقتبس لها آيات قرآنية مستخدما إياها جوابا لسؤال أو رد على قول. كقول محمد بن مكرم[٢] له يوما «يامخنث فقال:(وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ) [٣]»[٤]، وفيه تعريض لطيف بابن مكرم. وحين سئل عنه وعن العباس بن رستم[٥] قال: «هما الخمر والميسر (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا) [٦]» [٧].

وتتعدد اقتباسات هذا الرجل في فكاهاته وقد مر بنا استشهاده الجميل ببعض آيات القرآن الكريم، اعترض بها على البرذون الذي أهدي إليه، فكان اقتباسه واقعا موقعا حسنا أدى المراد منه. كذلك ما نقل عنه حين سئل عن مالك بن طوق، فقال: «لو كان في بني إسرائيل، ونزل ما ذبح البقرة، ما ذبح غيره. قيل فأخوه عمر؟ قال(كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) [٨]»[٩]، وهو يريد بهما جميعا كونهما لا يفقهون شيئا وحسبهما الادعاء في ذلك.

وهكذا ترى في اقتبسات الأدباء من آيات القرآن الكريم تزيينا لما أثر عنهم من كتابات نثرية فكهة وظفوها بأساليبهم المتنوعة، كما هو الحال مع أبي إسحاق الصابي في رسالته التي ذكرناها سلفا كقوله: «حتى انجز الله ما وعد به من تمحيص سيأتهم وتضعيف حسناتهم، والإمضاء بهم إلى الجنة التي رضيها لهم دارا، وجعلها لجماعتهم قرارا»[١٠]، ضمن الفقرات الاخيرة من كلامه هذا قوله تعالى: يَا قَوْمِ

(١) ينظر: نثر الدر، الآبي: ٣/ ١٩٨.
(٢) محمد بن مكرم كاتب بليغ مترسل، وله كتاب وسائل، الفهرست، ابن النديم: ١٣٨.
(٣) الآية: ٧٨ من سورة يس.
(٤) نثر الدر، الأبي، ٣/ ٢٠٠.
(٥) لم أعثر على ترجمة له فيما توافر لي من مصادر
(٦) الآية ٢١٩، من سورة البقرة.
(٧) نثر الدر، الآبي: ٣/٢٠٠.
(٨) آية ٣٩، من سورة النور.
(٩) زهرالأداب، الحصري القيرواني: ١/ ٢٨٤.
(١٠) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٤/ ١٠٣

إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ)[١]، وغير ذلك من مواضع كان للقرآن فيها حضور ملحوظ.

وأين ثوابه هو الآخر في رسالته في الهندسة يورد الكثير من الاشارات القرآنية ضمن سياق كلامه، فرسالته حافلة بهذه الاقتباسات في مواضيع متعددة منها، وهو يسعى أحينا إلى فك سياق الآية ونثرها أو دمجها بين كلماته بعد الحذف أو الاضافة، لتأتي جملته ذات ديباجة رائعة حاملة من المعنى الرفيع واللفظ الرشيق ما يعجز عن إتيانه إلا البليغ من الكتاب، ونرى ذلك في كلامه حين رأى الشيخ الديراني الذي جاء لتعليمه الهندسة، فقال فيه «فأتاني بشيخ ديراني شاخص النظر، منتشر عصب البصر، طويل مشذب، محزوم الوسط، متزمل في مسكه، فأستعنت بالرحمن اذ نزعني الشيطان»[٢]، إذ ضمن الفقرة الأخيرة قوله تعالى:(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) [٣].

ونلحظ هذه الخاصة وتضمين معنى الآية القرآنية للكلام المنثور في القطعة الأدبية الفكهة عند أبي الخطاب الصابي أيضا في رسالته التي وصف بها حمل اختلف مظهره عن مخبره فقال: «وحضر فرأيت كبشا متقادم الميلاد من نتاج قوم عاد، قد أفنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح في سفينته، وحفظ بهما جنس الغنم لذريته»[٤] ففي هذا المقطع من رسالته إشارتان للاقتباس القرآني أولاهما ذكر (قوم عاد) الذين ورد خبرهم في اكثر من موضع في القرآن الكريم، والأخرى تشبيه هذا الحمل بأحد الزوجين اللذين حملهما نوح (عليه السلام) في سفينته، وفيها أشارة إلى قوله تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

(١) سورة غافر آية ٣٩.
(٢) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٨.
(٣) سورة الأعراف، آية ٢٠٠
(٤) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٨.

الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ) [١]، وغير ذلك من المواضع التي ورد فيها الاقتباس القرآني بأشكال متعددة.

ولو أتينا إلى الهمذاني نطلعه في نطالعه في مقاماته لوجدناه كثيرا ما يضمن قوله آية قرآنية أو أكثر مقتبسا معناها أو جزءا منها ودمجه في سائر كلامه، وإظهاره بشكل قل من يوفق في إخراجه بهذا الشكل الجميل الأنيق فلا يبدو فيه أي تكلف أو عيب بعد منقصة في أسلوبه.

فمن توظيفاته للآيات القرآنية في بعض مقاماته ومنها (المقامات البغدادية) قوله حين سال السوادي عن حال أبيه واخبره بأنه مات كما صور ذلك على لسان بطله، قال: «... فكيف حال أبيك؟ أشاب كعهدي، أم شاب بعدي، فقال: قد نبت الربيع إلى دمنته، وأرجو أن يصيره الله إلى جنته، فقلت: إنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم»[٢]، وفي هذا القول اقتباس من قوله تعالى
(الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) [٣].

وكذلك في مقاماته (الموصلية) حين وصل إلى قرية يكاد السيل أن يأتي عليها وهنا يشرع بطل المقامة بحيله من حيله، فخاطب أهل القرية بقوله: «يا قوم أنا أكفيكم هذا الماء ومعزته، وارد عن هذه القرية مضرته، فأطيعون، ولا تبرموا أمر دوني، قالوا: وما أمرك؟ وما أمرك؟ فقال: أذبحوا في مجرى هذا الماء بقرة صفراء، وأتوني بجارية عذراء....»[٤].

اذ يورد في قوله هذا إشارة إلى خير بني إسرائيل وقصتهم التي ذكرت في القرآن الكريم، وكيف أمروا بذبح بقرة تكون ارهاصة لحدوث المعجزة، كذلك الاسكندري فعل ذلك وأمرهم بذبح بقرة لتكون سببا في إيقاف زحف السيل المتجه نحوهم، ثم أنه اختار اللون نفسه وهو الأصفر للإيهام على أن له دلالة في إحداث الإعجاز، وكل ذلك مقتبس من قوله تعالى حين خاطب بنو إسرائيل نبي

---

(١) سورة هود، آية: ٤٠
(٢) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٧٠ - ٧١
(٣) سورة البقرة: آية: ١٥٦.
(٤) ينظر: شرح المقامات: ١١٨.

الله موسى (عليه السلام) كما في الآية: ﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴾[١]... وهناك مواضع أخرى في مقاماته اعتمد فيها الهمذاني الآية أو المعنى القرآني وسيلة من وسائل أسلوبه، وهي ظاهرة ربانية للعيان، وحسب القارى تصفح المقامات ليرى كل ذلك جليا[٢].

ولم يتوقف أمر الاستشهاد بالنص على آيات القرآن الكريم بل تعداه إلى الأخذ من الحديث الشريف وإن كان التمثل به محدود جدا بالنسبة إلى وروده في النثر الفكه في هذه المرحلة، فلم نعثر على نصوص تؤكد استعمال الحديث الشريف فيما أنشاء المنشىء من نثر فكه إلا اللهم عند أبي العيناء الذي وظف ذلك في بعض فكاته.

فقد روى أبا العيناء أعترضه يوما أحمد بن سعيد[٣] فسلم عليه، فقال له أبو العيناء «من أنت؟ قال أنا أحمد بن سعيد فقال: إني بك لعارف، ولكن عهدي بصوتك يرتفع لي من أسفل، فما له ينحدر على علو: قال: لاني راكب. فقال: عهدي بك، وأنت في طمربن، لو أقسمت على الله في رغيف لا عضك بما تكره»[٤].

أشار أبو العيناء إلى تقلب الزمان وتغير صروفه بأحمد هذا، وكيف تحولت حاله من شأن لاخر.

ويؤكد أبو العيناء ذلك باحداث مقارنة بين ماكان عليه صاحبه وما أصبح عليه لاحقا، مدخلا في قوله حديثا نبويا شريفا مفاده قول الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): (ألا أخبركم بخير عباد الله الضعيف المستضعف ذو طمرين لو أقسم على الله لاير قسمه»[٥] ليعطي أبو العيناء بهذا التوظيف صورة تقلب الحال من شأن لآخر بشكل سخرية وتهكم بصاحبه.

---

(١) سورة البقرة، آية: ٦٩.
(٢) ينظر: شرح المقامات: ١٢٣، ٢٣٥، ٢٨٣، ٢٨٤.
(٣) لم أعثر على ترجمة له فيما توافر لدي من مصادر
(٤) نكت الهميان، صلاح الدين خليل بن ايبك: ٢٦٩ (المطبعه الجمالية - القاهرة، ١٣٢٩ هـ).
(٥) ينظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه منتخب كنز العمال: ٣/ ١٤٥، ٤٠٧/٥.

ومن هذه الفكاهات المستعمل فيها الحديث الشريف ولو كان تعريضا، ما حكي عنه أيضا من إهدائه لأبي علي البصير حجرا لمناسبة ولادة مولود له. وهو يذهب بذلك إلى أن المولود غير شرعي إشارة إلى قوله (صلى الله عليه وآله وسلم»: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»[١].

والأمثال هي الأخرى اتخذت وسيلة لتأكيد وتوثيق المعنى الذي يطرحه المتكلم من خلال خلق صورة تعمل على توضيح وتقريب ذلك المعنى.

وقد مثل التوظيف في الفكاهة الواردة في النثر في مواطن مختلفة منها قول الجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) التي وظف فيها من أشكال التعبير المتنوعة ومنها توظيفه للأمثال، التي رام من ورائها أحكام سخريته وتهكمه بصاحبه أحمد بن عبد الوهاب[٢]، أو كقوله في بخلائه على لسان خالد بن يزيد لابنه عند موته عارضا له ما عاناه وقاساه في سبيل تحصيل المال: «إني قد لابست السلاطين والمساكين وخدمة الخلفاء والمكدين وخالطت النساك والفتاك، وعمرت السجون كما عرفت مجالس الذكر، وحلبت الدهر اشطره وصادفت دهرا كثيرا الأعاجيب»[٣].

فموضع الشاهد هنا اقتباسه للمثل العربي (حلب الدهر اشطره» وهو يريد بذلك انه جرب الدنيا واختبرها في شرها وخيرها[٤].

وكذلك ماجاء في رسالة أبي الخطاب الصابي في توظيفه للمثل وقد مر ذكرها في موضوع سابق[٥].

والهمذاني نلتمس في بعض مقاماته هذا التوظيف الذي اضفى على اسلوبه جمالا وروعه كما في قوله في مقاماته (المضيرية) حين راح التاجر يفصل لعيسى بن

(١) ينظر: سنان الترمذي للامام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي: ٤٥٤/٣، تحقيق وتخريج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي، (شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٧٦ م)

(٢) ينظر على سبيل المثال التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلانت: ٧.

(٣) البخلاء، للجاحظ: ٤٨.

(٤) ينظر: مجمع الامثال، الميداني: ١/ ٣٤٧ - ٣٤٨.

(٥) ينظر: زهر الاداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٢٣١.

هشام كيف اشترى داره ساعده في ذلك اجتهاده وحسن حظه فيقول «ثم درجته بالمعاملات إلى بيعها حتى حصلت لي بجد صاعد وبخت مساعد وقوة ساعد ورب ساع تقاعد»(١).

وكذلك قوله في «المقامة الدينارية» كقول عيسى بن هشام حين أرأد أن يعطي دينارا نذر عليه لاشحذ رجل فاتفق أن دل على الاسكندري وكان مع شحاذ آخر فتنافسا فيه فقال عيسى بن هشام: (ليشتم كل منكما صاحبه فمن غلب سلب ومن عزيز»(٢). والمثل هو «من عزيز» وتفسيره الجملة التي قبله(٣).

وأمام ما تقدم ذكره اطلعنا على بعض اساليب الكلام المتبعة في الكتابة الفكهة التي أدت دورا بارزا في تحسين الاسلوب واعطاه مجالا افسح للتعبير عن عرض القول، فكان أسلوب الاقتباس واحدا من هذه الاساليب التي اتبعت عند بعض ذوي الفكاهة وبه عبروا أجمل تعبير.

هـ - الايجاز والإطناب

من طبيعة الطرفة أو النادرة ان تأتي سريعة كالبرق حتى يمكن لها أن تؤتي أوكلها من غير بطء أو تلكؤ، فهي تعالج الموقف الصادر عن شخص أو جماعة بأسلوب حازم وصارم من غير مقدمات أو تمهيدات ضربة واحدة إلا بعضها على ما سنأتي لبيانه.

وعلى هذا فقد امتازت هذه النادرة أو الطرفة بقصر عبارتها ودقة معناها فقد تؤدي بكلمة أو جملة أو أكثر بقليل، وما ذلك الا لكونها وليدة لحظتها توجه نحو فعل قولي أو حركي يصدر عن جهة ما لاحظناه في معظم الفكاهات التي تدور صياغتها حول الجواب المسكت أو الرد الحاضر.

ومن ذلك أن أجرينا اغتاب رجلا (فالتفت فرآه. فقال له: لو كان خيرا لما حضرته»(٤). أو كلام آخر عندما قيل له: «بم تغلب الناس؟ قال: ابهت الكذب،

---

(١) شرح المقامات محمد محيي الدين: ١٣٠ - ١٣١.
(٢) ينظر: مجمع الامثال: الهمذاني: ٢/ ٤٥ - ٤٧.
(٣) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٣٧٥.
(٤) الأجوبة المسكنة، ابن أبي عون: ٩٢.

واستشهد بالموتى»[١] فكان ميزت هذه الفكاهات الاقتضاب والايجاز في إيراد كلماتها، ويكفي أن يطلع القارئْ على الفكاهات التي أوردناه في الفصول السابقة والتي تحمل خصيصة الايجاز في القول، والتي لا يمنعها ذلك من أن نوجه اصبع الإشارة إلى مواطن الضحك وأسبابه.

ولكن سمة الأطناب والتطويل تبدو في جانب من جوانب النثر الفكاهي المتمثل بما اتسمت به القطعة النثرية الضاحكة على اختلاف صورها من حيث الشكل والبناء وكيفية بسط القول فيها، ويكفي أن نطالع الجاحظ في رسالته (التربيع والتدوير) وما أشاعه فيها من ألوان الإطالة والإسهاب في القول، فهو «كان يتبسط ويطنب في تصويره بمعنى انه كان يحشد للفكرة الواحدة ضروبا من الصور المختلفة التي تحددها وتوضحها وتنقلها إلى القارى كما هي ماثلة في خاطره ومقصورة في ذهنه»[٢].

ولو مضينا مع الجاحظ في بخلائه لوجدناه يعتمد التطويل في السرد في بعض حكايته كما هو الحال مع (قصة أهل البصرة من المسجدين)[٣] التي قاربت الست صفحات وغير ذلك من قصصه الموسومة بالطول، ويكفي الاطلاع على ما في كتبه من حكايات وقصص لاستبيان ذلك.

وهناك رسائل أخرى عرضنا لها سابقا اتسمت بالطول نوعا ما قياسا إلى غيرها فمنها رسالة أبي العيناء في وصف برذون[٤] ورسالة ابن ثواية في طعنه على علم الهندسة ومعلميه[٥]، وأبي إسحاق الصابي في رسالته التي ابن بها ثورا نفق[٦] وكذلك ما عمله من عهد باسم (عهد التطفل) وما ضمنته من أساليب التعبير المختلفة مستعينا بالإسهاب والإطناب في تصويره.

ويمكن أن ترجع ظاهرة الإسهاب والتطويل في بعض الرسائل الفكهة التي

(١) م، ن: ١٠٣.
(٢) النثر الفني واثر الجاحظ فيه، بلبع: ٢٨٩ (طبع ونشر مكتبة الانجلو المصرية، ١٩٥٤ م).
(٣) ينظر: البخلاء، للجاحظ: ٢٩ - ٣٤.
(٤) ينظر زهر الأداب للحصري القيرواني: ٢ / ٥٧٨.
(٥) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٨ - ١٦٤.
(٦) ينظر: زهر الأداب، الحصري القيرواني: ٤/ ٣٢ - ١ - ١٠٣٤.

تعني بتفصيل المعاني في جمل متعددة وعبارات متنوعة إلى محاولة الكاتب في حرصه على إظهار نتاجه الأدبي متصفا بسمة البساطة والوضوح والسهولة في عرضه البعيد عن كل تعقيد، وعرضه لحالته الشعورية من غير تكلف وهذا ما نلمسه في كل الرسائل المصاغة بشكل فكه التي مر ذكرها آنفا.

ثم انه يتوسل لهذه البساطة والوضوح في القول باظهاره الترادف في الجمل والتكرار في المعاني صائغا إياها في عبارات متنوعة تحمل المدلول نفسه، وهذا ما نراه في رسالة (التربيع والتدوير) للجاحظ فيهو حين يعمد إلى السخرية يبدي بعض ذلك في تقليب المعنى على صور لفظية عدة، مظهرا ادعاء صاحبه الكاذب في جسمه وعلمه، وقد استغرق هذا الوصف عند الجاحظ إحدى وعشرين صفحة[(١)] وكذلك الحال مع رسالته الموسومة (صناعات الفؤاد) فهو حين يعرض لأقوال من التقاهم من المحاربين مع المعتصم ضد الروم فإنه يوجه اليهم سؤالا واحد كيف كانت الحرب ثم يسرد مايتفوهون من قول يدور في معناه على انه التقوا أعدائهم والجؤهم إلى مكان ضيق وقتلوهم أشد تقتيل فتركوا جثثهم مبعثرة ولكن ولكن أنظر كيف ينقل الجاحظ ذلك مؤكدا تكرار المعنى بل وحتى الكلمات فيقول عند لقاءه (حزاما) وطرحه سؤاله «عن الحرب كيف كانت؟» فيقول «لقيناهم في مقدار صحن الصطبل، فمن كان يقدر ما يحس الرجل دابته حتى تركناهم في أضيق من ممرغة وقتلناهم فجعلناهم كأنهم انابير سرجين، فلو طرحت روثه ما سقطت الا على ذنب دابة»[(٢)].

وكذلك قول بختيشوع الطبيب عند سؤاله له: «لقيناهم في مقدار صحن البيمارستان، فما كان بقدر ما يختلف الرجل مقعدين حتى تركناهم في أضيق من محقنة فقتلناهم فلو طرحت مبضعا ما سقط إلا على أكحل رجل»[(٣)].

وهكذا يسير الجاحظ في رسالته هذه مع باقي الشخصيات التي التقاها متكررا الأسلوب ذاته من غير أن يكلف نفسه سوى بعض المفردات الدائرة حول

(١) ينظر: التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلانت: ٥ - ٢٥.
(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣٨٢/٢.
(٣) م. ن: ٢/ ٣٨٢ - ٣٨٣.

المعنى عينه. وهذا ما ولد في رسالته هذه سمة من الأصالة والإطناب. كذلك فإنا نرى التكرار في المعنى ظاهرا عند أبي العيناء في رسالته التي وصف فيها البرذون[١] ولو جئنا إلى ابن ثوابة في رسالته نلحظ وفرة كبيرة من الترادف في المعنى وتكراره كقوله لما خط معلم الهندسة خطا على تخت ليقيم عليه برهانه: «أن هذا الخط طول بلا عرض، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له: قاتلك الله لتدري ما تقول؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتشبيهك وتبديلك وتحريفك وتضليلك، إنه لصراط مستقيم، وانه لأخذ من السيف الباتر، والحسام القاطع، وأدق من الشعر، وأطول مما تمسحون، وأبعد مما تذرعون، ومداه بعيد، وهوله شديد»[٢]. فمن خلال هذا النص نلحظ تكرار المعنى الذي يدور في جمل عدة تؤكد الذي يدور في جمل عدة تؤكد ما يريد قوله صاحبه مع إكساء الأسلوب جمالا وطلاوة يشد قارئه إليه لما حمل من تركيب لطيف في صياغة العبارة.

والحال نفسه مع أبي إسحاق الصابي في رسالته وعهده للذين حملا جملة من عناصر الأسلوب الأدبي كسمة التكرار والترديد في المعنى الواحد، كقوله في رسالته في صفة ثور: «ولا يجري في الحائط مع شقيقه، ولا في الطريق مع رفيقه، إلا كان جلدا لايسبق، ومبرزا لايلحق، وفائقا لا ينال شأوه وغايته، ولا ينفع مداه ونهايته»[٣].وكذلك هو في عهده للمتطفلين حيث يتبع أسلوب الترديد في المعنى.

وأبو الخطاب هو الآخر في رسالته يأخذ بالأسلوب ذاته كما في قوله حين وصف الحمل: «وحضر فرأيت كبشا متقادم الميلاد من نتاج قوم عاد قد افنته الدهور، وتعاقبت عليه العصور، فظننته أحد الزوجين اللذين جعلهما نوح في سفينته، وحفظ جنس الغنم لذريته صغر عن الكبر، ولطف عن القدم»[٤] فالمعنى هنا يدور حول نحافة هذا الحمل وضعفه ولكن أنظر كيف ركز على هذا المعنى عن طريق ترديد وتكرار عبارات تحمل المدلول نفسه لتأكيد ما يصبو اليه من فكرة

(١) ينظر زهر الأداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٧ حيث يورد جملة عبارات تحمل المعنى نفسه.
(٢) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٦٢.
(٣) زهر الأداب، الحصري القيرواني: ٤/ ١٠٣٣.
(٤) م. ن: ٢/ ٥٨٨.

ورأي، وهو بهذا يغطي لأسلوبه صفة الأصالة والإطناب في الوصف.

ونرى هذه الصفة بادية في بعض مقامات بديع الزمان الهمذاني اذ نجده يعمد إلى تأكيد المعنى الواحد بصور متعددة بمعنى أنه يسعى للإطالة بالمعنى المراد عن طريق الهتمام بالجزئيات المكونة لهذا المعنى، وحسبنا ان نلحظ مقامته (المضيرية) التي تتجلى فيها هذه الصفة لنعلم أنه عرضها بقصد الاطالة والاطناب بوساطة العمل على تكرار المعاني فيها.

فهو حين يعرض لنقاء الماء على لسان صاحب الدعوة إلى أكل المضيرة نراه يقول: «ارسل الماء ياغلام، فقد حان وقت الطعام، بالله ترى هذا الماء ما أصفاه، ازرق كعين السنور، وصاف كقضيب البلور، استقى من الفرات واستعمل بعد البيات، فجاء كلسان الشمعة في صفاء الدمعة، وليس الشأن في السقاء، الشأن في الإناء، لايدلك على نظافة أسبابه، أصدق من نظافة شرابه»[(١)].

فما كان هذه الجمل وهذه العبارات إلا لتأكيد فكرة كون الماء نقي ونظيف، وهكذا تسير هذه المقامة بهذا الاسلوب من التطويل في عرض الفكرة الواحدة بجمل وعبارات عدة وهذا ما يدعوا إلى وسمها بأنها مسهبة في الوصف. وحسب القارىء أن يقرأ هذه المقامة ليعلم ذلك.اذن كان التكرار والترديد في المعنى الواحد وسيلة من وسائل الوضوح والبساطة عند الكاتب ساعيا فيه إلى التنويع في الجمل والعبارات لتؤدي المعنى الذي يرمي اليه، وهذا ما يدعو من ثم إلى الاطالة في عرض الموضوع والاحاطة به.

وهناك عامل آخر ساعد على هذا البسط في القول والاعتناء بالأسلوب بأعمال عنصر التنويع فيه كالاقتباس من القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو التمثل بالأمثال السائرة أضف إلى ذلك الإستشهاد بالأشعار وتضمينها للقطعة النثرية، بل وحتى إيرادهم لأسماء الشخصيات المختلفة بهدف تأدية المعاني المتوخاة في القطعة النثرية الفكهة، وقد مر ذكر هذا فيما سبق من مباحث[(٢)] وأمام ما تقدم ذكره نقرر أن الفكاهة في النثر العباسي قد اعتمدت في عرضها على

(١) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ١٣٦ - ١٣٧.
(٢) ينظر: مبحث التنويع بين الشعر والنثر وما بعده من هذا الفصل.

عنصري الإيجاز والإطناب، «على أن مسألة الإيجاز والإطناب تخضع دائما للظروف والمناسبات، فليس الإيجاز مطلوبا دائما كما أن الإطناب ليس مرذولا دائما»[١] فكان الأسلوب المقتضب والأسلوب المسهب جنبا إلى جنب يتعاضدان في تصوير حياة الفرد وتطلعاته في ذلك العصر بوساطة عرضها بالأسلوب النثري الفكه.

و - الواقعية:

ليس بخاف أن الأدب بأجناسه إنما هو تعبير عن الحياة وتصوير لأحوالها من وجهة نظر صاحبه الذي يقوم بدوره في هذه العملية باتخاذ وسيلة بها يعبر عما يريد البوح به باعتماد اللغة أداة للتعبير عن كل متناقضات الحياة.

وهذا ما مثله الاتجاه الواقعي في الأدب بفلسفاته المتنوعة كالاجتماعية أو الأشتراكية التي تعنى بإصلاح أحوال المجتمع والتي نظر اليها على أنها خارجة على المثل الرفيعة التي يسعى لبلوغها وفي ذلك سعادة للفرد والمجتمع[٢]. وهكذا نلحظ هذه السمة في جملة من الآثار الأدبية لدى كتابنا وخير من يمثل هذه النزعة هو الجاحظ في كتاباته إذ كان «يعنى بحكاية عصره وتمثيلا دقيقا بحيث تعد أعماله أهم مراجع تكشف لنا حقائق العصر الذي عاش فيه إذ نراه يصور هذه الحقائق بكل ما فيها من طهر ووزر، ودين وزندقة، وجد ولهو»[٣].

فمن صور الواقعية التي عرضت لهذا النصوص ذات الطابع الفكه في هذه المرحلة أنها عبرت عن طبية أبناء هذا المجتمع في بيئاتهم وما يلاقونه من أفراح وأتراح معلنين عن ذلك بألوان من الكلام الذي يعكس ما يختلج في نفسياتهم من مشاعر وأحاسيس. فلو رجعنا إلى النصوص التي عرضنها فيما سبق من فصول لوجدناه شواهد على ذلك فهي تمثل بوجه أو بأخر سلوكيات بعض أفراد هذا المجتمع أمام ما يواجهونه من موقف وبغض النظر عن كون هذه السلوكيات المعبر

(١) النثر الفني وأثر الجاحظ، بلبع: ١٤٧.
(٢) النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال: ٣٢٨ وما بعدها (دار الثقافة - دار العودة، بيروت، ١٩٧٣م.
(٣) الفن ومذاهبه في النثر العربي د. شوقي ضيف: ١٦٣.

عنها بهذا الأسلوب الفكه كان الغرض منها إحداث الضحك فحسب أم كان الغرض توجيه النظر فيها إلى عيب يجب على فاعله تركه والنأي عنه، فهي بذلك تعكس صورة من صور ذلك المجتمع وما يتخلله من سلوكيات تصدر عن أفراده تكون علامة لنظر الغير.

ويحق لنا أن نتساءل هنا عن الكيفية التي تلمس عن طريقها المنشؤون لمثل هذه الفكاهات واقعهم وأخذوا يعبرون عنه حتى يتسنى لنا القول أن ما نقل من نثر فكه ما هو إلا صور للمجتمع وأفراده بمعنى ما الوسائل التي اعتدها أصحاب هذا النوع من النثر لكي يوسم نثرهم بأنه واقعي في كثير من موضوعاته؟

نقول: كانت الموضوعات التي تناولها أصحاب هذا النثر ما هي إلا صدى لما عاشوه ولمسوه في واقعهم من جراء تداخلهم مع أفراد مجتمعاتهم ورؤيتهم لسلوكياتهم وهيئاتهم أو أشكالهم التي جبلوا عليها. فكان الناقل لاي مظهر من هذه المظاهر بمثابة العين الناظرة أو الضوء المسلط الذي يكشف به سلوك الفرد سواء كان سلوكا سلبيا أم ايجابيا. فلو أتينا إلى طبيعة الموضوعات التي تناولها النثر الفكه هذه المرحلة القيناها تعكس واقعا معاشا يؤكد مدى لصوق مسميات هذه الموضوعات بطبيعة النفس الإنسانية في ذلك العصر وفي كل عصر.

فموضوعات الجهل والظلم والبخل والتطفل والكذب والنقل والاحتيال وغيرها من موضوعات عرضناها ما هي إلا ممارسات لحضها المتابع لها وعبر عنها ناقلا أو محاكيا لها بأسلوبه، ويكفي ان نطلع على كتاب (البخلاء) واعتماد الجاحظ فيه «على إبراز الصورة كما يراها الراتي، وكما يرسمها المصور، لا على الصور الخيالية التي ينتزعها الخيال، والتي يستعين بها الشعر من التشبيه والمجاز والاستعارة»[١].

فهو حين يعرض لنهم علي الاسواري في الطعام وحرصه بألا يفوته منه شيء إنما يصور هذه الخصلة «النهم والحرص» عند بعض الأفراد بكل جزيئاتها[٢]. هذا إضافة إلى غير الجاحظ ممن عرض لحال المجتمع آنذاك بوساطة تصرفات بعض أفراده

(١) مقدمة كتاب البخلاء، طه الحاجري: ٢٥.
(٢) ينظر: البخلاء، الجاحظ ٧٩ - ٨٠.

كالخطيب البغدادي في كتابه التطفيل وحكايات الطفيليين. ومن سمات الواقعية الأخرى في هذا النوع من النثر، إيراد النوادر والنكت على حالها من غير تكلف أو تصنع في الأداء، بمعنى أن كثيرا من ناقلي الصور الفكهة إنما نقولها كما هي من غير تعديل أو تبديل في الألفاظ بل وحتى في الحركات. فمما هو متعلق بالألفاظ تأتي كلمة الجاحظ في ذلك لتكون الصراط لرواد الواقعية فهو يقول «إن الأعراب يفسد نوادر المولدين، كما أن اللحن يفسد كلام الأعراب لان سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورة وذلك المخرج وتلك اللغة وتلك العادة فإذا دخلت على هذا الأمر - الذي إنما أضحك بسخفه وبعض كلام العجمية التي فيه - حروف الأعراب والتحقيق والتثقيل، وحولته إلى صورة ألفاظ الأعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه، وتبدلت صورته»[١]، وقد ذكرنا جملة من النوادر التي تحمل مثل هذه الخصيصة في التعبير ممن دون التلاعب في ألفاظها كما في هذه الرواية التي حكاها الجاحظ عن سابق الأعمى الذي قرأ قوله تعالى(وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا) قال ابن جابان[٢] وأن أمنوا أيضا لم تنكحهم»[٣].

فقد أورد الجاحظ هذا اللحن فيه في القراءة من غير تعديل له بل أتى به كما سمعه مع علمه بموضوع اللحن فيه هذا، ويدخل في ذلك أيضا ما أوردناه من نوادر حول المتشادقين في اللغة وأصحاب الغريب فيها على اختلاف مصادرها الأدبية فيما سلف من عرض.

أما فيما يتعلق بالحركات والسكنات والتي بعد تصويرها جزءا من الأسلوب الواقعي في هذا النثر، فكان لما يتمتع به بعض الكتاب من قدرة فائقة على رصد التفصيلات الدقيقة والجزئيات الصغيرة التي يوظفها مع ما أوتي من موهبة خلاقة تعتمد الخيال في التصوير كل ذلك هيا لمثل هؤلاء الكتاب من أن يترسموا خطى الواقعية فيما يكتبون ويعبرون به من أسلوب يكون منار إعجاب وتقدير عند المتلقي

(١) الحيوان للجاحظ: ٢٨٢/١.
(٢) لم أعثر على ترجمة له فيما توافر لدي من مصادر، سورة البقرة آية ٢٢١.
(٣) البيان والتبيين للجاحظ: ٢/ ٢١٩.

الذي يشعر وكأنه أمام المشهد المصور وجها لوجه من غير وساطة.

وخير مايمثل ذلك تصوير الجاحظ لعلي الأسواري على لسان الحارثي احدى شخصيات كتابه البخلاء في كيفية أكله وما يعتريه من سلوك مصاحب للأكل[١]، وكذلك تلك الصورة التي رسمها القاضي عبدالله بن سوار، والتي أفتن بها الكثير، لما لها من دقة ملاحظة في تتبع حركات هذا الرجل الذي يتسم بالهيبة والوقار حال جلوسه في مجلس القضاء ثم ما يعتريه من تصرف في قسمات وجهه عند سقوط الذباب عليه[٢] والجاحظ بهذا «يعطيك الحقيقة التي لمسها أو الصورة التي رآها لكي يتمتع عينك بها كما أمتعت عينه دون أن يزيف عليك شيئا مما لمسه ورآه والكلمة هي خير عون له على ذلك فهو يحكم الصلة بينها وبين المعنى الذي تعبر عنه بحيث يستطيع أن يريك الصورة في إطارها الطبيعي[٣]. والحال نفسه ينطبق على التوحيدي في عرضه للتصوير الدقيق لما يواجهه من منظر ما فهو حين يعرض لبعض صفات الصاحب بن عباد نراه يصوره بأسلوب هزلي مضحك عاكسا ما رآه لقرأئه كما في قوله عن الصاحب إذا تكلم في مسألة يرى أنه لاتنال أجادته فيها «نفش لحيته بأصابع يده وعبث بها، وفتل رأسه، ولوى عنقه وشنج أنفه، وعوج شدقه»[٤].

ولو أتينا إلى المقامات ألقينا في بعضها نفسا واقعيا طرحه الهمذاني في بعض منها كما هو الحال مع مقاماته (الأصفهانية) التي عرضت لحال عيسى بن هشام وما جرى عليه في الصلاة فهي تحكي حال بعض الناس الذين تتعارض لديهم مسألة ألمهم والأهم، وقد تفوت عليهم فرصة الاختيار بسبب ذلك، وهي حالة ملحوظة ومعاشة لدى جملة من الأفراد تقريبا[٥].

ومن جملة الأثار الواقعية أيضا في الكتابة النثرية الفكهة ماهو متعلق بالألفاظ والكلمات فقد وردت الكثير من المفردات المستعملة بين أبناء العامة أو ما

(١) ينظر: البخلاء الجاحظ: ٧٩ - ٨٠.
(٢) ينظر الحيوان، للجاحظ: ٣٤٣/٣ - ٣٤٥.
(٣) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، بلبع: ٢٠٩.
(٤) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٦٥.
(٥) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٦١ - ٦٦.

يمكن أن نسميها (بالألفاظ الشعبية) - إن صح ذلك تجوزا - فقد نقلت جملة من هذه الألفاظ في سياق الكثير من الفكاهات لتعبر عن أساليب وصيغ أصحابها في التعبير، مثل كلمة (أيش) بمعنى (ماذا) أو (كيف)، ومنه قول رجل لآخر مخنث: «يا فلان أيش حالك؟ قال: تبت، : من أين معاشك؟ قال بقيت لي فضلة من الكسب القديم، قال: إذا نفقتك من ذلك الكسب القديم فلحم الخنزير طري خير منه قديد»[1]، هذا ناهيك عن استخدام الكثير من الألفاظ الدخيلة الأخرى كأسماء المأكولات أو المشروبات بل وحتى أسماء بعض الملبوسات في ذلك العصر وحسبك كتاب (البخلاء) للجاحظ ان يطلعك على هذه التسميات الواردة ضمن الاستعمال اليومي لأبناء ذلك المجتمع ولو مضينا في دراستنا هذه لتلمسنا صدى آخر للواقعية في هذا النوع من النثر الذي يلحظ من خلال الاستقراء لنصوصه، ونعني بهذه النصوص ما عرض منها للحكايات الماجنة أو ألفاظ المناكح وما هو متصل بها كل حسب مقامه.

فكان هذا النوع من الحكايات بما تحويه من ألفاظ هي مما يعاقه العرف الديني والأخلاقي والاجتماعي، شائعا بين بعض أفراد ذلك المجتمع فدفع ذلك بعض الأدباء إلى روايته من دون تحرج وحياء وهو من ثم طلاء لكتاباتهم بلون الواقعية.

ويكفي أن نطلع على ما كتبه الجاحظ في رسائله مثل (رسالة الجواري والقيان)[2] وكذلك ما رواه في بيانه في حديثه عن الموسومين أو عند حديثه أو عند حديثه عن بعض أخبار قاسم التمار[3]، وكذلك ماروراه التوحيدي في (الأمتاع والمؤانسة) اذ ضمن طياته الكثير من الحكايات الفكاهية الماجنة مما حدا ببعض الباحثون إلى القول بأن هذه الظاهرة في كتابات التوحيدي ما هي إلا صدى لواقع حياته وما عاناه من كبت غريزي بسبب طبيعة نفسيته[4].

(١) ينظر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٢/ ١٢٥ وما بعدها.
(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢ (٢) / ٦٨٨.
(٣) ينظر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٢/ ١٢٥ وما بعدها.
(٤) تصدير أحمد أمين لكتاب (البصائر والذخائر).

وقبل أن نختم كلامنا حول هذا الموضوع يجب أن ننبه على أن هناك حكيات فكهة أتخذت من الرمز وسيلة للأخبار، ولكن هذا الاستعمال الرمزي لمثل هذه الحكايات لا يعدو أن، يكون متنفسا لكتابيها وتعبيرا عن واقعهم بوجه آخر وكأن هذا الرمز المستعمل هو بمثابة القناع الذي يرتديه صاحبه حتى لا يبان لغيره ومن ثم يتمكن من القول على لسان غيره من دون تحرج أو خوف، فكان هذا الأداء الأسلوبي باعتماد الرمز هو في الحقيقة تعبير عن واقع معاش وملموس سعى إليه المنشئ لحاجة في نفسه اذ يستطيع أن يعرض وجهة نظره في ممارسات الحياة وقد ذكرنا فيما سبق نصوصا اعتمدت المز من شبيه توظيف الحيوان في الحكاية الفكهة. وهكذا تلمسنا الخطوط الواقية في هذا النوع من النثر ذلك العصر، وكيف أنه عبر في كثير من النصوص عما يصيب الفرد في تلك المرحلة من أفراح أو أتراح راح بعبر عنها بوسائل وصيغ تعكس سمات حياته فيما ينشئ أو يقول.

ز - الحوار:

قامت الفكاهة في كثير من نصوصها على مبدأ الحوار بين شخصياتها سواء في ذلك القصيرة المختصرة منها أم الطويلة وأبرز ظهور لهذا العنصر هو في القطع النثرية ذات الطابع القصصي، وكذلك في المقامات لطبيعة موضوعاتها حيث يكون بناؤها قائما على هذا العصر ومعتمدا عليه.

بيد أنه تجب الإشارة هنا إلى أن طبيعة هذا الحوار القائم في هذا النوع من النثر إنما أساسه المفارقة أو المفاجأة في الحدث ومن خلال هذه المفارقة يعبر المنشئ عما يريد الإتيان به من قول حول فكرة ما.

والحوار بوصفه أداة من أدوات التعبير تتجلى فيه قدرة الفنان على الإفصاح عن فكرته وكيفية جعلها واضحة ومفهومة عند المتلقي وبخاصة في موضوع الفكاهة التي تتطلب دقة في التعبير الموجه إلى أي جانب من جوانب السلوك النابع عن أفراد أو جماعات أو رصد هيأة من الهيآت التي يقتنصها المراقب ويعبر عنها، بمعنى أن تكون تراكيب الحوار وعبارته ذات نغمة عامة ملائمة لما يوصف وعلى اختلاف هذا الموصوف، فيصبح نتيجة لذلك «الأسلوب اللفظي حكاية الأسلوب

المعنوي, ويتحقق بذلك ائتلاف اللفظ والمعنى»[١].

وهذا ما عبر عنه الجاحظ من قبل في تأكيده على الملاءمة بين الشكل والمضمون أو اللفظ والمعنى بقوله: «وبالجملة ان لكل معنى شريف أو وضيع، هزل اوجد، وحزم أو إضاعة، ضربا من اللفظ هو حقه وحظه، ونصيبه الذي ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه»[٢].

وهكذا يكون الحوار معبرا عن مناسبة القول التي من أجلها اعتمد، ويكفي أن نطلع على الفكاهات الواردة في النثر التي عرضت حال المتشادقين في اللغة أو الإعراب في طريقة كلامهم التي مر ذكرها حتى نسبتين أثر الألفاظ المعبرةَ عن معناها في طبيعة حوار المتحاورين.

قلنا إن الحوار في النصوص النثرية الفكهة إنما مداره الفارقة في الحدث الذي يمثل مناسبات القول المتنوعة و المتولد على ألسنة الشخصيات والتي بدورها كانت بسيطة وسطحية، فيظهر الحوار على ألسنتها بشكل تناوبي من غير تعقيد، وهو في الغالب يكون بين شخصيتين تتناوبان اطراف الحديث كما هو الحال مع معظم الحوارات في هذا النوع من النثر، ومثال ذلك قول القاضي التنوخي حين يعرض بعض حكاياته التي تروي جانبا من بركة المعتزلة المتمثلة في عدم خوف صبيانهم من الجن فيقول: «إن لصاً حصل في دار المعتزلي، فأحس به، فنزل إلى بئر الدار. فأخذ الرجل حجرا عظيما ليدليه عليه فخاف اللص التلف فقال له: الليل لنا والنهار لكم، يوهمه أنه من الجن. فقال المعتزلي: فزن معي نصف الأجرة، ورمى بالحجر فهشمه. فقال له: متى يأمن أهلك من الجن؟ فقال المعتزلي: دع ذا عنك واخرج. فخرج فخلاه»[٣].

فمن خلال هذا الأسلوب الحواري وأمثاله سارت معظم الفكاهات النثرية في عرضها بحسب غايتها من القول والتي عرضنا منها نماذج فيما سبق، سواء في النصوص الصغيرة أم الطويلة مثل المقامات والتي بها جميعا تبدو طبيعة الواقع

---

(١) الاسلوب، أحمد الشايب: ١٠٦، (مطبعة السعادة بمصر، الطبعة السادسة، ١٩٦٦).
(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٤٠/٣.
(٣) نشوار المحاضرة، التنوخي: ٣٤٢/٢.

الاجتماعي للعصر العباسي ذلك الحين.

فكان الحوار المباشر بين شخصيات هذه القصص أو الحكايات هـو السـائد، ومـا ذلـك إلا لمـا امتازت به مثل هذه الحكايات من بساطة في التعبير وسطحية في عرض موضوعاتها.

فكان الاخبار في هذا النوع من النثر قائما على عنصر التقرير بحيث أن ناقله يسوقه للعلم لا للتأثير وأصبح نتيجة لذلك وحدة فنية معتمدة ينقل بواسطته المنشـئ معتقداتـه إلى الآخـرين، والتـي بدورها تصور حياته وانمـاط سـلوكه، ومـا تهيئـه للقـارئ والسـامع مـن متعـة في التصـوير ولـذة عنـد استماعها[١].

هذا ما كان متعلقا بطبيعة حوار الفكاهة الواردة في النثر، بشكل موجز حاولنا فيـه اسـتبيان ملامحه العامة.

(١) ينظر: القصة القصيرة في مصر، الدكتور شكري عياد

المبحث الثاني

اختيار الألفاظ وزخرفتها

ولمعرفة الكيفية التي اعتمدها المنشئ للنص النثري ذلك العصر وبخاصة فيما هو متعلق بالفكاهة الواردة فيه، يتحتم علينا دراسة اشكال التعبير وطرقه التي بوساطتها يتمكن المنشئ من تصوير افكاره وعرضها، عن طريق الربط بين اللفظ والمعنى.

فمما يخص اللفظ رأينا أن النثر الفكاهي لهذا العصر بشكل عام خال من التعقيد والغرابة في مفرداته إلا ما ندر، وكان يتوصل إلى ذلك بوساطة العرض للغة المحكية بين عامة الناس، أي بما هو متداول من استعمالات أسلوبية. هذا اضافة إلى توافر بعض النصوص على الزخرفة اللفظية مثل السجع والازدواج والجناس التي كان لها حضور في إبراز الفكاهة.

وتجدر الإشارة إلى أن جملة من النصوص النثرية الفكهة كانت غفلا من هذه المحسنات اللفظية ولا سيما القصيرة منها حيث يعود ذلك لأسباب عرضنا لبعضها في مواضعه وسنعرض لغيرها في وقته.

وأمام ما تقدم ذكره سنعرض لبعض هذه الوسائل المتبعة في عرض النص النثري الفكه وبيانه.

أ - السجع:

عني الكاتب العباسي بإظهار كلامه بمظهر القبول لدى المتلقي، بأن أبرزه بحلية مكللة بالجمال باتباع طرق التزيين والتحسين التي راح يؤطر بها الفاظه وعباراته. فكانت المحسنات اللفظية من الوسائل التي تهتم بالأسلوب على صعيد المفردة أو الكلمة؛ ولكن هذه المحسنات اختلف استعمالها من كاتب لآخر بل من

عصر لعصر بحسب طبيعة وتطور أذواق أفراده. ومن هذه المحسنات المعنية باللفظ السجع.

كان السجع وهو توافق فاصلتين من النثر على حرف واحد[1]، من المسلمات في الكلام العربي والذي اكده القرآن الكريم النازل في البيئة العربية بما جاء منه في آياته بمقادير مناسبة كسته رونقاً وجمالا رائعاً. فترسم في الأعصر التالية الأدباء والخطباء خطاه في كتاباتهم حتى أصبح السجع فنا يقصد لذاته، فيكون له أثره في اكساب الكلام زينة وحسنا[2].

وعليه فقد تباينت حظوظ المنشئين في استعمالهم للسجع إذ لم يكونوا على درجة واحدة، فمنهم المعتدل المجيد في استعماله، ومنهم المكثر الذي لم يكن له همّ سوى ان يولد تواحداً في نغمات كلماته.

فلو جئنا إلى النثر الفكه في هذه المرحلة من العصر العباسي نلاحظ فيه موقفين من السجع، الأول منهما انعدم فيه وجود مثل هذا المحسن اللفظي، ويظهر في النوادر والفكاهات التي تحمل صفة الايجاز والقصر في الأسلوب، فالفكاهة من هذا النوع بما تملكه من خصيصة الإيجاز التي لا تتجاوز معها الجملة أو الجملتين، والتي تنبع من طبيعة الموقف الذي يتطلب السرعة في حضور البديهة، وهذا لا يتطلب - ولا شك - الاطالة في الكلام وتوظيف المحسنات اللفظية فيه، ويبرز هذا في الفكاهات الموسومة بالأجوبة القصيرة أو ما عبر عنها بالأجوبة المسكتة.

ولكننا نلاحظ هذا الفن يظهر في الفكاهات التي تنماز باحتوائها على

(١) ينظر: المثل السائر، ابن الاثير، قدم له وحققه وشرحه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طباته: ١ / ٣٠٨ - ٣٧٥ (منشورات دار الرفاعي بالرياض، الطبعة الثانية، ١٩٨٣ م) الايضاح، القزويني، شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي: ٢ / ٥٤٧ - ٥٥٦ (منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣ م).

(٢) ينظر: النثر الفني في القرن الرابع الهجري، زكي مبارك: ٧٧ وما بعدها.

مساحة كلامية اوسع كالرسائل وغيرها، حيث يتمكن منشئوها من التعبير بشكل أكبر بجمل وعبارات يستطيع معها استخدام المحسنات اللفظية ومنها السجع.

فنظرة إلى رسالة عمرو بن مسعدة نجدها تحفل بجمل السجع اللطيف الرشيق في وقعه، فتواحد النغمات عنده يعطي أسلوبه طلاوة وحلاوة، فمن سجعه قوله: «الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع بما شرع من الحلال انف الغيرة، ومنع من عضل الأمهات، كما منع من وأد البنات»[١].

فالسجع في الكلمات (الحيرة - العورة - الامهات - البنات)، والرسالة تسير على هذا النهج من احداث التوافق الايقاعي بصور السجع بين جملها بأسلوب لطيف.

أما الجاحظ فقد تباين استعماله للسجع في جملة، إذ لم يكن يعتمده مذهباً في القول، إذ كان استعماله للسجع نادراً «ولكن التنغيم الموسيقي الجميل لم يكن يفارق جمله، فهي دائماً ممتعة تجلب إلى النفس الارتياح والاستمتاع»[٢] فهو إلى أسلوب الترسل أقرب لما تفرضه عليه طبيعة عرضه لمواضيعه ومنها الفكهة.

ومن أمثلة السجع عند الجاحظ قوله في رسالة (التربيع والتدوير) ساخراً بأحمد بن عبد الوهاب: «وبعد، فأنت - ابقاك الله - في يدك قياس لا يكسر وجواب لا ينقطع، ولك حدّ لا يفل وغرب لا ينثني، وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب، ان تقول: وما عليّ أن يراني الناس عريضا، وأكون في حكمهم غليظا وأنا عند الله تعالى طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق، وقد علموا - حفظك الله - أن لك مع طول

(١) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٣ / ١٤٧.
(٢) النثر الفني وأثر الجاحظ فيه، بلبع: ٢١٦.

الباد راكباً، طول الظهر جالساً»[١].

فجمل هذا النص وإن كانت غير مُسجَّعة تماماً إلا أننا نلحظ التنغيم الجميل الذي يحويها والتوازن الموسيقي الذي يكتنفها، وهذه هي طريقة الجاحظ في معظم كتاباته.

أما إذا أتينا إلى غيره ممن كتبوا رسائل فكهة ألفينا استعمالهم للسجع يتفاوت من واحد إلى آخر أيضا. فأبوا العيناء في رسالته التي جعلها في وصف برذون أعطي له نلحظه يعتمد سجعاً لطيفاً رشيقاً يزيد كلماته خلابة وعذوبة وهو في ذلك يقصد سجعاً قصير الفقرات، بمعنى ان جمله تحتوي توافقا وتوازنا جميلا[٢]. وكذلك الحال مع ابن ثوابة في رسالته التي عرضنا لها، إذ أكد على استعماله للسجع اللطيف كقوله: «فأتاني بشيخ دراني، شاخص النظر، منتشر عصب البصر طويل مشذب، محزوم، متزمل في مسكه، فاستعذت بالرحمن، إذ نزغني الشيطان، ومجلسي غاصّ بالاشراف من كل الاصناف، ... فأخذ مجلسه، ولوى أشداقه، وفتح أوساقه، فتبينت في مشاهدته النفاق، وفي ألفاظه الشقاق»[٣].

والخوارزمي كان يعمد إلى عمل الأسجاع القصيرة في كلامه كذلك وقد يوظف في كلامه الأسجاع الطويلة إلا أنه يعادل هذا الطول بأن يحدث توافقا نغميا داخل الإطار العام للجملة[٤] ويبدو أن ظاهرة القصر في الفواصل أو السجعات في الجملة الواحدة متفشية في معظم النصوص الفكهة التي وردت بشكل رسائل كما هو الحال مع أبي إسحاق الصابي في عهده الذي كتبه في التطفل حيث يقول: «وآمره أن يروض نفسه، ويغالط

(١) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣ / ٥٧.
(٢) ينظر: زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢ / ٥٨٧ - ٥٨٨.
(٣) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٨ - ١٥٩.
(٤) ينظر: رسائل الخوارزمي: ٢١٣ - ٢١٤.

حسه؛ ويضرب عن كثير صفحا، ويطوي دونه كشحا، ويستحسن الصمم عن الفحشاء، وإن أتته اللكزة في حلقه، صبر عليها في الوصول إلى حقه؛ وان وقعت به الصفعة في رأسه، صبر عليها لموقع أضراسه، وإن لقيه لاق بالجفاء، قابله باللطف والصفاء»[١].

فالصابي هنا يعادل ويوازن بين عباراته من خلال اعتماده الفواصل القصيرة في هذا النص وغيره، أو اتخاذه التنغيم الموسيقي الداخل ضمن اطار الجمل الطويلة.

قلنا إن السجع متفاوت في استعماله عند الكتاب منهم المعتدل فيه الذي يأتي به من حين لآخر من دون تكلف وتصنع يلحظ، وهو ما عرضنا له من نصوص. ومنهم من غلب السجع على معظم أسلوبه فلا تأتي جملة قصيرة كان أو طويلة إلا وكان للسجع فيها حضور؛ ومن الفئة الثانية للهمذاني في كتاباته ولا سيما المقامات. فالعادة المألوفة عند الهمذاني: «أن يسجع، ولا يترك السجع إلا نادراً. وكانت تسعفه في ذلك حافظة نادرة، وبديهة حاضرة، وذكاء حاد، وإحساس دقيق باللغة ومترادفاتها وأبنيتها واستعمالاتها المختلفة»[٢] ولتأخذ آية مقامة من مقاماته ذات الأسلوب المسجوع ولتكن (المقامة البغدادية) وانظر إليه كيف يرتب كلماته وكيف يحدث نغماته وكأنه عازف متحكم بأوتار عودة يتلاعب بها كيف شاء ليصدر من ثم ما يشجو وينعش من نغمات عذبة، كذلك الحال مع الهمذاني وسجعه فهو الفنان الذي لا يعجزه نغم يستخرجه من حروف كلماته.

فيقول: «اشتهيت الزاد، وأنا ببغداد، وليس معي عقد، على نقد، فخرجت انتهز محاله، حتى أحلني الكرخ، فإذا أنا بسوادي يسوق بالجهد

(١) صبح الاعشى، القلقشندي: ١٤/ ٣٦٤.
(٢) المقامة، شوقي ضيف: ٣٣.

حماره، ويطرف بالعقد إزاره، فقلت: ظفرنا والله بصيد، وحياك الله أبا زيد، من أين أقبلت؟ وأين نزلت؟ ومتى وافيت؟ وهلم إلى البيت»[١]. والناظر إلى هذا السجع يلحظ وكأنه سجع بين الكلمات لا الجمل كقوله (عقد) تليها (على نقد) و(أين أقبلت)، تتبعها (أين نزلت) وغير ذلك من سجع مما تمتلئ به المقامة. فهو يعتمد في أسلوبه إيراد السجع القصير وكأنه سجع مجتزأ في كلمات لا عبارات وجمل.

وهكذا كان السجع محط حرص كثير من الكتاب وعنايتهم وان لم يكن استعماله على درجة واحدة من الظهور غير أن الطابع العام له هو موافقة الطبع وخدمة العبارة النثرية والعمل على توضيحها لتأدية المعنى المقصود.

ب - الازدواج

ومن لوازم تحقيق الموسيقى الصوتية وتوافقها في العبارة لدى بعض الأدباء أن تتمتع بنوع من التنغيم الصوتي باعتماد وسيلة أخرى من وسائل المحسنات اللفظية إلى جانب السجع، وذلك عن طريق احداث الازدواج في العبارة؛ وهو أن تكون كل فاصلتين في النثر على قافية واحدة[٢].

فالكاتب يسعى من ورائه إلى أن يعادل بين جمله ويوازن في عباراته وكأنه بذلك يسبغ عليها من فرشاته ما يكسوها جمالا ورونقا تجد صاداها عند المتلقي ارتياحا واستمتاعا، بما يحققه فيها من التعادل الايقاعي بين مفرداتها.

فكان هذا العنصر من لوازم جماليات الأسلوب الأدبي الذي صرح به

---

(١) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٧٠.

(٢) ينظر: البيان والتبيين، الجاحظ: ٢ /١١٦، الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق وضبط الدكتور مفيد قمحه: ٢٨٥ - ٢٩٠ (دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩ م)، التبيان في علم البيان، لابن الزملكاني، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي: ١٧٢ - ١٧٣(مطبعة العاني بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٤ م).

القرآن الكريم في بنائه لكثير من آياته؛ الامر الذي دفع بعضهم إلى القول: «لا يحسن منثور الكلام لا يخلو حتى يكون مزدوجاً ن ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن، لانه في نظمه خارج من كلام الخلق وقد كثر الازدواج فيه حتى حصل في أوساط الآيات فضلا، عما تتزاوج في الفواصل منه»[١].

وعلى هذا نستبين مدى تأثر الكتاب ببعض هذه المحسنات اللفظية ومنها الازدواج جرياً مع أسلوب القرآن الكريم، ومن جانب آخر محاولة منهم التفلت من ربقة السجع باعتماد جمل قصيرة وأخرى طويلة لها من الانسجام والتنغيم الصوتي ما هو ظاهر بين كلماتها.

ولو أتينا إلى النثر الضاحك عند كتاب هذه المرحلة - القرنين الثالث والرابع - من العصر العباسي، رأينا أن سمة الازدواج تتجلى في بعض كتاباتهم ذات الإطار القصصي الواضح أو التي تتسم بالطول بشكل خاص دون غيرها من الفكاهات والنكت القصيرة.

فهذا عمرو بن مسعدة في رسالته يقول: «وهنأك الذي شرح للتقوى صدرك، ووسع في البلوى صبرك، والهمك من التسليم لمشيته، والرضا بقضيته، وما وفقك له من قضاء الواجب من أحد أبويك، ومن عظم حقة عليك»[٢].

فكل هذه الفقرات متساوية في الطول تقريباً مع اتفاق حركات كل فقرتين وسكناتهما وما ذلك الا تحقيق للتعادل الايقاعي بين الجمل.

والجاحظ الذي كان ينوع باستخدام أساليبه نراه يقول على لسان خالد بن يزيد في وصيته لابنه يحدثه فيها عن الحرص، فيقول: «... والحق لا يوصف عاجله بالحلاوة، كما لا يوصف عاجل الباطل بالمرارة. فإن كنت منهم فالقاضي

(١) الصناعتين، العسكري: ٢٨٥.
(٢) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٣/ ١٤٧.

لك، وإن لم يكن منهم فالله لك. فإن سلكت سبيلي صار مال غيرك وديعة عندك، وصرت الحافظ على غيرك. وإن خالفت سبيلي صار مالك وديعة عند غيرك، وصار غيرك الحافظ عليك ... يا ابن الخبيثة إنك وان كنت فوق ابناء هذا الزمان، فإن الكفاية قد مسختك، ومعرفتك بكثرة ما أخلف قد أفسدتك. وزاد في ذلك إن كنت بكري وعجزة أمك »[١].

فالازدواج ملحوظ في بعض جمل هذا النص، وان كان الجاحظ لا يلتزم ذلك في نص واحد، بل هو يسعي في سبيل تحقيق التوافق الايقاعي أو النغمي بين جملة إلى تبني السجع أحيانا والازدواج أحيانا أخرى أو تكوين مقاطع موسيقية متعادلة ليست بمسجوعة ولا مزدوجة. وهكذا الحال مع معظم كتاباته ومنها ذات الطابع الفكه.

وأيضاً نرى هذا الاستعمال للازدواج في جلّ الكتابات الفكهة عند من عرضنا لرسائلهم ذات الأسلوب الضاحك. فهذا أبو الخطاب الصابي في رسالته التي وصف بها حملا يتخذ هذا العنصر من عناصر المحسنات اللفظية على لسان الحمل الذي يقول: «فإن أردتني للوقود فكف بعر ابقى من ناري، ولن تفي حرارة جمري بريح قتاري! فلم يبق إلا أن تطلبني بذحل، أو بيني وبينك دم! فوجدته صادقاً في مقالته، ناصحاً في مشورته، ولم اعلم من أي امريه اعجب؟ امن مماطلته الدهر بالبقاء؟ أم صبره على الضر واللاواء؟»[٢]. والصابي يمضي في هذا النمط من الكلام في جميع مسألته هذه.

أما الهمذاني في مقاماته نراه يسير السيرة نفسها في صياغة جمله وتكوين عباراته فهو لا يخرج من السجع حتى يلج الازدواج فهو ديدنه في معظم مقاماته، ولنأخذ مثالا على ذلك (المقامة المضيرية) عندما خرج عيسى بن هشام يعدو ضجراً

(١) البخلاء، الجاحظ: ٤٩.
(٢) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٢٣٣.

لما ناله من كلام التاجر الثرثار من أذى، وأنظر للهمذاني كيف يتحدث على لسان راويته: «وخرجت نحو الباب، واسرعت في الذهاب، وجعلت اعدو وهو يتبعني ويصيح: يا أبا الفتح المضيرة، وظن الصبيان أن المضيرة لقب لي فصاحوا صياحه، فرميت أحدهم بحجر، من فرط الضجر، فلقي رجل الحجر، بعمامته، فغاص في هامته، فأخذت من النعال بما قدم وحدث، ومن الصفع بما طاب وخبث، وحشرت إلى الحبس، فأقمت عامين في ذلك النحس، فنذرت ان لا آكل مضيرة ما عشت»[١].

وهكذا يكون الازدواج من السمات الواضحة والخصائص المتبعة في الكتابة النثرية الفكهة في بعض نصوصها المتسمة بالطول، حتى ليكاد يطغى على السجع في استعماله، كما يلاحظ ان الازدواج قد اتسم بملاءمته للطبع والذوق، وعمله على المساهمة في إبراز المعنى بصورة جميلة شيقة ومؤثرة.

جـ - الجناس

وهو لون آخر من ألوان الصورة البديعية في الأسلوب الأدبي، أخذ الأدباء منه بنصيب فأعملوه فيما أنتجوه من آثار متنوعة. وفيه أن تتشابه لفظتان في نصّ ما في أربعة أشياء: نوع الحروف، وعددها، وهيأتها، وترتيبها، وهو ما يعرف بالجناس التام. أما غير التام ففيه أن تختلف إحدى اللفظتين عن الأخرى بواحد من هذه الأشياء الأربعة[٢].

وإذا نظرنا إلى نسبة توافر هذا العنصر في النصوص الفكهة الواردة في النثر لهذا العصر لوجدنا تفاوت حضوره في هذه النصوص. فبينما نعدم وجوده في النصوص المميزة بالقصر، إذ نادرا ما نجد المتكلم فيها يحفل بتزويق ألفاظه

(١) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ١٤٣.
(٢) ينظر للتفصيل: الصناعتين، العسكري: ٣٥٣ - ٣٧٠، المثل السائر، ابن الاثير: ١ / ٣٧٩ - ٣٨٦، الايضاح، القزويني: ٢/ ٥٣٥ - ٥٤٧.

وإظهارها بالمظهر الذي تغلب عليه الصنعة، وما ذلك إلا لميل المتكلم في مثل هذه الفكاهات إلى إرسال كلامه ارسالا خال من مثل هذا العنصر، لأنه وليد ساعته.بمعنى أنه إفراز لموقف طارئ اقتنصه صاحب الدعابة ليعبر عنه بأسلوبه، إضافة لذلك فإن كل تكلف من شأنه أن يخرج الطرفة والنادرة عن دورها في الإضحاك، فخير المضحكات ما أتى بسيطاً وعفوياً، وهذا ما نلمحه في الفكاهات ذات الاجوبة السريعة والمسكتة في آن.

أما إذا أتينا إلى النصوص النثرية الفكهة الأخرى والمتسمة بالطول قياسا إلى غيرها كالرسائل مثلا رأيناها تحفل بهذه الصناعة اللفظية نوعا ما؛ وفي ذلك دليل على قدرة الكاتب على التعبير وتمكنه من اداته (اللغة) بحيث يركبها بحسب ما يقتضيه المقام.

فالجناس التام نلاحظ وجوده سواء كان في الرسائل أو غيرها من النصوص الفكهة نادراً، إذ لا نرى المنشىء يعتني بإيراد مثل هذا النوع من الجناس فيما ينتجه من أثر أدبي، وأغلب الظن في ذلك لما يحمله تركيب الجناس التام من غموض في الفهم والادراك للمعنى المراد في المفردتين، بمعنى إنه يتطلب متلقيا قادراً على تحصيل المعنى الذي تحتوي عليه كل لفظة، وهذا لا يتوافر لكل متلق، لذلك كان استخدام هذا النوع من الجناس قليلاً في حضوره.

وبناء على هذا فإنا لا نرى لهذا الاستعمال أثر في كتابات الجاحظ الفكهة ربما لميله في النأي عن كل ما من شأنه ان يوحي بأن أسلوبه نوع من التكلف، لذا انعدم استعماله للجناس التام. وقس الامر نفسه على باقي الرسائل الفكهة أو النصوص القصيرة الأخرى ذات الطابع الفكه، ما خلا مقامات البديع.

ففي هذه المقامات نلحظ فيها نصا واحداً فقط تشتمل بعض عباراته على جناس تام وذلك في مقامته (المضيرية) حينما دعا بعض تجار بغداد الاسكندري إلى بيته لأكل المضيرة عنده، وكيف أبرم الإسكندري بصفات ونعوت راح يتفوه بها

التاجر عن كل ما يخطر به أو يصادفه من أشياء ومن جملتها كلامه عن النافذة الكائنة في داره فيقول: «هذه داري، كم تقدر يا مولاي انفقت على هذه الطاقة؟ انفقت والله عليها فوق الطاقة[(١)]».

فالجناس التام إنما هو في الكلمات (طاقة - طاقة) حيث تحمل الأولى منهما معنى النافذة أو الشباك، اما الكلمة الأخرى فهي تعطي معنى القدرة والسعة في الحال.

هذا ما كان متعلقا بشأن الجناس التام وووروده ضمن كتابات الكتاب الفكهة، والذي لاحظنا فيه ندرته الكبيرة في انشاءاتهم النثرية ضمن حدود هذه المرحلة من العصر العباسي.

أما إذا أتينا إلى صور الجناس غير التام في النصوص الفكهة ألفيناها اكثر وأوسع استعمالا في أساليب الكلام.

فهذا عمرو بن مسعدة يقول في رسالته التي بعث بها إلى صديق تزوجت أمه حاثاً إياه على الانقياد لأوامر الله والصبر وعليها: «وهنأك الذي شرح للتقوى صدرك، ووسع في البلوى صبرك.. وجعل الله - تعالى جده - ما تجرعته من أنف، وكظمته من أسف ... وجعل - تعالى جدّه - ما ينعم به عليه بعدها من نعمة، معرّى من نقمة، وما يوليه بعد قبضها من منحة، مبرأ من محنة»[(٢)].

فصور الجناس التام في هذا النص غير خافية على الناظر إليها حيث يسعى فيها الكاتب إلى إحداث نوع من التناغم والتوافق الصوتي بما يرصد لها من مكان في نهاية كل فقرة، حتى أنه ليسعى إلى عكس تركيب بعضها بما يقدمه من حروف أو تأخيرها لإحداث هذا النوع من الجناس كما في (منحة - محنة). وهو في كلها قد أدى معناه من خلال موضعه في الجملة.

---

(١) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ١٢٥.
(٢) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ٣ / ١٤٧.

والجاحظ يدلو بدلوه في هذا الفن أيضا وان كان لا يحفل بتزويق كلامه، إلا إننا نلمح وجود بعض صور الجناس غير التام في بعض فقار رسالته (التربيع والتدوير) وإن كان استعماله في هذه الرسالة غير كثير. كما هو حاله عندما عمد إلى السخرية بصاحبه عن طريق اكسائه صفات غير موجودة على الحقيقة فيه فيقول في بداية رسالته: «قد علمت، حفظك الله، إنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة، وضخم الهامة»[(١)]، أو كقوله متهكما بصاحبه ومؤكداً جهله وغباءه في معرفة حدّ الحسد والجبن، والبخل والإسراف: «وانت، جعلت فداك، لا تعرف هذا ولو ادخلتك الكور، ونفخت عليك إلى يوم ينفخ في الصور»[(٢)].

وأبو العيناء يوظف الجناس غير التام في رسالته التي وضعت لوصف برذون كقوله: «حباقه مقرون بسعاله، فلو أمسك لترجيت، ولو أفرد لتعزيت، ولكنه يجمعهما في الطريق المعمور، والمجلس المشهور، كأنه خطيب مرشد، أو شاعر منشد»[(٣)]، أو قوله عندما علم الوزير عبيد الله بمالبغته في هذا الوصف للبرذون: «لو لم أكذب مستزيدا لم انصرف مستفيداً »[(٤)].

فالكلمات (مرشد - منشد، مستزيداً - مستفيدا) حاوية على جناس غير تام من جهة تغير بعض الحروف فيها.

كذلك الحال في استعمال، أبي إسحاق الصابي لهذا النوع من المحسنات اللفظية كقوله في رسالته في رثاء ثور، وعرضه لحال صاحب الثور وما هو فيه من الهم والحزن لفقده: «وقد بلغني إن القاضي اصيب بثور كان له، فجلس للعزاء عنه شاكيا، واجهش عليه باكيا»[(٥)].

(١) التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلات: ١٠.
(٢) م. ن: ١٢.
(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٧.
(٤) م. ن: ٢ / ٥٨٨.
(٥) م. ن: ٤ / ١٠٣٣.

هذا ما كان متعلقا بورود صور الجناس غير التام في الرسائل النثرية ذات الصفة الهازلة والضاحكة.

أما إذا أتينا إلى مقامات الهمذاني لننظر صيغ استعماله لهذا النوع من الجناس ألفينا وفرة في مقاماته هذه لعنايته بمثل هذا النوع من المحسنات اللفظية.

ونضرب لذلك مثلاً واحداً، ففي مقامته (الأصفهانية) عندما سمع عيسى بن هشام نداء الصلاة وكان على عجلة من أمره لانتظاره القافلة التي يهم بالسفر معها، إلا أنه آثر الصلاة ليستعين ببركتها على مخاطر الطريق، فيقول: «فانسلت من بين الصحابة. اغتنم الجماعة ادركها، واخشى فوت القافلة اتركها، ولكني استعنت ببركات الصلاة على وعثاء الفلاة ... وتقدم الإمام إلى المحراب، فقرأ فاتحة الكتاب، بقراءة حمزة[1]، مدة وهمزة، وبي الغمّ المقيم في فوت القافلة، والبعد عن الراحلة، واتبع الفاتحة الواقعة، وأنا أتصلى نار الصبر وأتصلّب، وأتقلّى على جمر الغيظ وأتقلب[2]».

فصور الجناس تترى في هذا النص كما في (أدركها - أتركها، حمزة - همزة، أتصلى - أتقلى).

وهذا الاستعمال عند البديع نابع - لا شك - من قدرته على اللغة وذوقه الرفيع الذي «يعرف كيف يختار الكلمة المناسبة، وكيف يضعها في مواضعها، فلا نبوّ ولا شذوذ بل دائما دقة وضبط وإحكام في عذوبة وسلاسة وتناسق

(١) هو حمزة بن حبيب بن عمارة بن إسماعيل التيمي الزيات، من موالي التيم فنسب اليهم، ولد سنة (٨٠هـ)، من القراء السبعة عالماً بالقراءات. يقول عنه سفيان الثوري (ما قرأ حمزة حرفاً من كتاب الله إلا بأثر) توفي سنة (١٥٦هـ). ينظر: وفيات الأعيان: ١/ ٤٥٥، تهذيب التهذيب: ٣/ ٢٧..

(٢) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٦٢.

وانسجام»[1].

وهكذا شاع استعمال الجناس غير التام بين كلـمات البـديع في مقاماتـه في أكـثر مـن موضـع وحسب القارئ ان يلقي نظرة على هذه المقامات ليرى ذلك بشكل جلي.

ومهما يكن من أمر فإن احتواء القطعة النثرية الفكهة على صـور الجنـاس والتـي ازدانـت بهـا ألفاظهـا وعباراتها إن هو إلا دليل على قدرة الكاتب على التعبير وموهبته في التصوير، وهـذا مـا تبـين لنـا عنـد دراستنا لهذه القطع الفكهة.

(١) المقامة، شوقي ضيف: ٣٣ - ٣٤.

المبحث الثالث

التعبير عن المعاني

نجد إضافة للاهتمام بالمفردة، هناك عناية بالجملة والعبارة في الفكاهة الواردة في النثر، وما ذلك إلا لأن اللفظة مدخل لتكوين الجملة أو العبارة، فكان الاهتمام بالمظهر الخارجي لا يمنع من تأكيد ابراز المعنى بالشكل الامثل والمظهر الاروع باختيار طرق للتعبير عنه تشكل صورة ينقل بوساطتها المنشيء أفكاره ومشاعره وأحاسيسه حيال موضوعة الذي يروم التكلم عليه.

فكانت أشكال التعبير عن المعنى متنوعة ومفصحة عن غاية المتكلم حيث غدت معالجة لقضايا المجتمع المختلفة وأحوال أفراده من حيث علاقتهم ببيئتهم وما تواجههم من مشاكل أو صعوبات.

ولكن كيف تم للمتكلم ترجمة أفكاره أو نقله لحالته الشعورية إلى المتلقي؟ بمعنى ما الوسيلة التي تبناها في عرض الصورة التي تعكس تصوراته وآراءه أمام ما يعترضه من مواقف؟

هذا ما سنحاول عرضه ولو بإيجاز لنعطي به من ثم انطباعا عن كيفية تصوير المعنى في النثر الفكاهي.

أ - التشبيه:

تبدو الصورة المضحكة في كثير من النصوص الفكهة قائمة على عنصر التشبيه بين شيئين يشتركان بصفة واحدة، وأشد ما تكون هذه الصورة اضحاكا حين يعمد المتكلم إلى إبرازها بشكل غير متوقع مستغلا وجه شبه دقيق بين المشبه والمشبه به.

فهذا الفن الذي يعد من فنون التعبير الأدبي والذي يقع على رأس العناصر البيانية نراه واضحا في كثير من نصوص الفكاهة في النثر لهذه المرحلة التي تحكي حال أصحابها ووجهات نظرهم فيما يحيط بهم من أشياء سواء كانت عاقلة أم غير عاقلة. وإذا رجعنا إلى التشبيه لمعرفة حدّة في أبسط تعريفاته قلنا: هو عقد مماثلة بين شيئين يراد اشراكهما في صفة ما أو مجموعة من الصفات، ويتم ذلك بأداة تدعى اداة التشبيه، وقد تعددت أنواعه بحسب صياغاته[(١)].

وهكذا كان التشبيه عنصراً من عناصر التعبير عن الصورة في هذا النوع من الكتابة، فقد أورد الجاحظ روايات تحمل هذا العنصر، كروايته عن خالد بن صفوان[(٢)] إن رجلاً قال له: «مالي إذا رأيتكم تتذاكرون الأخبار وتتدارسون الآثار، وتتناشدون الأشعار، وقع عليّ النوم؟ قال: لأنك حمار في مسلاخ إنسان»[(٣)] فتشبيه السائل بالحمار لبلادته وجهله صورة مضحكة ولدتها الروح الفكهة عند القائل وهو تشبيه من نوع المفرد.

وهناك تشبيهات مضحكة تنشأ عن تشبيه أعضاء الإنسان بغيرها وهنا تبرز الصورة الهازلة في التشبيه. فهذا رجل يحدث مقارنة بين أبنائه وأبناء الاعاجم في بعض الصفات فيقول: «ابناء هذه الاعاجم كأنهم نقبوا الجنة وخرجوا منها، وأولادنا

(١) ينظر للاطلاع: الصناعتين، العسكري: ٢٦١ - ٢٨٢، اسرار البلاغة، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا: ٧٠ - ٢٠٧ (دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية). المثل السائر، ابن الاثير: ٢/ ١٢٣ - ١٦٣، الإيضاح القزويني: ٢/ ٣٢٨ - ٣٩٠.

(٢) خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم التميمي المنقري، كان يجالس عمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، نشأ بالبصرة وكان أكثر أهلها مالاً أدرك عهد أبي العباس السفاح العباسي وحظي عنده. وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمه. توفي سنة (١٣٣هـ). ينظر: أمال المرتضى: ٤/ ١٧٢، معجم البلدان: ١/ ٤٣٨، وفيات الأعيان: ٢/ ٢٢٥.

(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(١) / ٢٦٨.

كأنهم مساجر التنانير»[١].

فقد شبه أولاده بالعيدان السوداء التي توقد بها التنانير، قياسا مع أبناء غيرهم ممن يتصف بالجمال.

أو قول آخر في وصف ولد له وما يقوم به من عمل أمام المائدة بابنة له كانت عنده، فيقول: «كانت لي ابنة تجلس معي على المائدة فتبرز كفا كأنها طلعة، في ذراع كأنه جمارة، فلا تقع عينها على أكلة نفيسة إلا خصتني بها، فزوجتها وصرت أجلس معي على المائدة ابناً لي فيبرز كفا كأنها كرنافة، في ذراع كأنه كربة، فو الله ما إن تسبق عيني إلى لقمة طيبة إلا سبقت يده إليها»[٢].

فقد شبه هذا الرجل كفّ ابنته بالطلعة لنعومتها ولطافتها، وذراعها بالجمارة لبياضه وجماله؛ في حين شبه كفّ ولده بالكرنافة لقبحها ودمامة منظرها، وذراعه بالكربة لخشونتها وقبح لونها، والتشبيه هنا من نوع المفرد.

وأجمل ما يكون التشبيه ان هو اعتمد على آية قرآنية في رسم الصورة المطلوبة لما تحمله آيات القرآن الكريم من صور قل وجودها في كلام العرب، كذلك كان الاعتماد على القرآن الكريم في التشبيه يعطي الصورة حيوية وقدرة أكبر على التعبير، وهذا ما نلحظه عند أبي العيناء في بعض تشبيهاته كقوله حين سئل عن محمد بن مكرم والعباس بن رستم فقال: «هما الخمر والميسر (وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما)[٣]». فتشبيه أبي العيناء هنا تشبيه مفرد من نوع البليغ لحذف الأداة ووجه الشبه، ولو أتينا إلى التوحيدي الذي كان يعتني بإيراد التشبيه في كلماته وأخباره، كما في قوله على لسان بعض الطفيليين في دعائه بأن تصبح المائدة التي جلسوا إليها مباركة فيقول: «جعلك الله كعصا موسى، وخوان إبراهيم، ومائدة عيسى في

---

(١) عيون الاخبار، ابن قتيبة: ٤ / ٣٩،

(٢) م، ن: ٣١٩/٣.

(٣) نثر الدر، الآبي: ٣/ ٢٠١.

البركة»[١].

فالتشبيه هنا هو تشبيه مفرد وهو من نوع الحسي- الملموس. أو قوله في وصف هيأة الصاحب بن عباد حين ينشد الشعر والذي «كان ينشد وهو يلوي رقبته، ويجحظ حدقته، وينزي أطراف منكبيه، ويتسايل ويتمايل كأنه الذي يتخبطه الشيطان من المس»[٢]، حيث أسبغ التوحيدي على صاحبه صفات الجنون حين يبدأ بإنشاد الشعر، مصوراً ذلك بالتشبيه، والذي هو حسي- من نوع المرسل المفصل لذكر الاداة ووجه الشبه وهو الجنون.

هذا ما كان متعلقا بالتشبيه الوارد في النصوص النثرية الخارجة عن نطاق الرسائل. ولو نظرنا إلى الرسائل وجدنا الأديب يعمل على استغلال هذا العنصر في سبيل تصوير ما يروم التعبير عنه.

فالجاحظ مثلا في رسالته (التربيع والتدوير) يوظفه أيضاً كقوله ساخراً من أحمد بن عبد الوهاب: «ومن غريب ما أعطيت، وبديع ما أوتيت انا لم نر مقدودا واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك، فأنت المديد وأنت البسيط، وأنت الطويل وأنت المتقارب، فيا شعراً جمع الاعاريض، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول »[٣].

فالتشبيهات الواردة في هذا النص هي من نوع التشبيه البليغ لغياب الاداة ووجه الشبه، فضلاً عن تشبيهات أخرى احتوتها رسالته هذه.

وأبو العيناء عندما يعمد إلى وصف البرذون فإنه يوظف في ذلك عنصر- التشبيه لتشكيل صورة هازلة يلصقها به كما في قوله منددا به: «أمر لي بداية تقف للنبرة وتعثر بالبعرة، كالقضيب اليابس عجفا، والعاشق المجهود دنفاً، قد اذكرت

(١) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢/ ٣١٢ - ٣١٣.
(٢) مثالب الزيرين، التوحيدي: ٧٣.
(٣) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣/ ٥٧.

الرواة عروة العذري[١]، والمجنون العامري »[٢] فتشبيه هذا حسي إذ رسم فيه صورة لهذه الدابة التي تماثل في نحافتها عوداً يابسا أو عاشقاً ولهاناً اضر به العشق فجعله نحيلا، فضلاً عن تشبيهاته الأخرى.

كذلك اعتمد ابن ثوابة في رسالته حول الهندسة على عنصر التشبيه في بعضها[٣]، وكذلك الخوارزمي في رسالته لمسكويه لمناسبة زواج امه من ففيها صور التشبيه مختلفة[٤].

ونلحظ توارد صور التشبيه عند أبي الخطاب الصابي في رسالته التي وصف فيها حملا حيث يقول: «وصلت رقعتك ففضتها عن خط مشرق، ولفظ مونق»[٥].فالتشبيه في هذه الجمل هو تشبيه مؤكد مفصل لحذف الاداة وذكر وجه الشبه. أو قوله: «وكانت هديتك هذا الذي كأنه ناشر من القبور، أو قائم عند النفخ في الصور»[٦]. وفيه تشبيه من نوع المرسل المجمل لذكر الاداة وحذف وجه الشبه الذي هو الخوف والرعب. وغير ذلك من تشبيهات وردت في الرسالة.

ولو مضينا مع الهمذاني في مقاماته لوجدنا كثيرا من الصور القائمة على عنصر التشبيه في صياغاتها الأسلوبية، كقوله في مقامته (المضيرية) على لسان التاجر عن الحصير الذي اشتراه وكيف كان يبحث عن مثله فلا يجده حتى صادف هذا الحصير ثم اشتراه، : «والدهر حبلى ليس يدري ما يلد»[٧]. إذ عبر عن الزمان وما يأتي به من حوادث بالحبلى؛ بمعنى إن الأيام

(١) أشرنا إلى هذا التصحيف فيما سلف.
(٢) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٧.
(٣) مثالب الزيرين، التوحيدي: ١٥٨ - ١٦٤.
(٤) ينظر رسائل الخوارزمي: ١٨١.
(٥) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٢٣١.
(٦) م. ن: ٢٣٣/٢.
(٧) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ١٣٣.

مزدحمة بالحوادث، ولكن ما هي هذه الحوادث؟ أنه أمر غيبي كذلك المرأة الحامل يعلم انها تحمل جنيناً ولكن ما جنسه هو ما لا يعلم. فهو قد شبه حوادث الأيام بالمرأة الحامل وهذا التشبيه من النوع المرسل المفصل والمفرد لان وجه الشبه وأحد وهو (الغموض)، أو كقوله في (المقامة الحلوانية) على لسان صاحب الحمام الذي وقف لفض النزاع بين عاملي الحمام حين تكلم مع احدهم قائلا: «يا هذا إلى كم هذه المنافسة مع الناس، بهذا الرأس؟ تسلّ عن قليل خطره، إلى لعنه الله وحرّ سقره، وهب ان هذا الرأس ليس، وأنا لم نرَ هذا التيس»[1]. إذ شبه عيسى بن هشام بالتيس وهذا التشبيه مفرد من نوع المؤكد المجمل.

وعليه فقد كان للتشبيه دور في الفكاهة المعروضة في النثر لا يقل أهمية عن وجوده في باقي الموضوعات التي ترد في النثر أو الشعر، عَبَرَ بوساطته المتكلم عن رأيه بشكل أدى إلى الاضحكاك كما في الفكاهة.

ب - الاستعارة:

وهي ركن أساس من اركان المجاز، ويعبرّ عنها بكونها استعمال اللفظة لغير ما وضعت له في اصل اللغة مع قرينة مانعة من إيراد المعنى الأصلي[2].

فكان استعمال المتكلم لفنون المجاز ومنها الاستعارة امراً ضروريا وحتمياً

(١) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٢٣٦.

(٢) ينظر: الصناعتين، العسكري: ٢٠٥ - ٢٣٨، نقد النثر، قدامة بن جعفر: ٦٤، (دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٢م) أسرار البلاغة، الجرجاني، تصحيح وتعليق محمد رشيد رضا: ٢٦ (درا المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية) دلائل الاعجاز، الجرجاني، حققه وعلق عليه وقدم له محمد بن تاويت: ١/ ٣٨ - ٤٥ (المطبعة المهدية - تطوان). المثل السائر، ابن الاثير: ٢/ ٨٩ - ٩٣ و ١١٧، الإيضاًح، القزويني: ٢/ ٤٠٧ - ٤٥٣.

في مساعدته على تصوير أفكاره وتأدية معانيه، التي بدورها تعمل على الكشف عما يفيض به من مشاعر وأحاسيس نراه يذهب معبراً عنها بما يهدر به من أسلوب كلامي معتمدا فيه على مفردات علم البيان ومنها الاستعارة.

فلو مضينا مع النثر الفكاهي المأثور عن هذه المرحلة لعثرنا على الاستخدام المجازي المتمثل بالاستعارة بشكل بين في بعض الأساليب الكلامية التي عبر بها اربابها عما يدور في اخلادهم من غايات.

فقد روى الجاحظ عن الداردريشي إسرافه في البخل وحرصه الشديد إلى الحدّ الذي يبغض معه كل سائل، وحين سئل عن سبب ذلك البغض أجاب: «كل هؤلاء لو قدروا على داري هدموها، وعلى حياتي لنزعوها»[١].

فصورة الاستعارة واضحة في هذا النص وهي من نوع المكنية كما في قوله (على حياتي لنزعوها) حيث شبه المتكلم حياته بالثوب الذي يلبس، ثم حذف المشبه به ورمز له بقرينة تدل عليه وهي (النزع) بمعنى الخلع.

أو كقول أبي العيناء حين راح يسخر بمحمد بن طاهر عندما ذكر عنده قائلاً: «ما دخلت عليه قط إلا ظننت انه من طلائع القيامة، قصير القامة، مشؤوم الهامة، خرج من خراسان وهو أميرها، ويطمع فيها وهو أسيرها، ويلي على أسير الصغار، وطليق الهزيمة».[٢]

إذ تتجسد الاستعارة في قوله (أسير الصغار) عندما شبه الذل بالاستعباد الذي حذف ورمز له بقرينة تدل عليه وهو (الأسر)، وكذلك في قوله (طليق الهزيمة) وفيه استعارة أيضاً مكونة من تشبيه الهزيمة وماتمنّ به على بعضهم من حفظ للحياة إذ يتمكن بواسطتها المنهزم من فكّ رقبته من الموت المحتوم في المعركة، بالمشبه به وهو السيد صاحب العبيد الذي يمن على مملوكيه بالعتق والخلاص، فحذف

---

(١) البخلاء الجاحظ: ١٣٣.
(٢) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ٣٤.

المشبه به وجعل له لازمة تدلّ عليه وهي (الاطلاق)، والاستعارة من نوع المكنية في كلا المثالين.

ولو تفحصنا النثر الفكاهي الذي جاء على هيأة رسائل لعاينا بعض صور المجاز الممثلة بالاستعارة بشكل اوضح وذلك لعناية الكاتب في أن يبرز نتاتجه الفني وهو مشتمل على آيات الجمال المعبر عن أفكاره ومشاعره.

فمن هذه الرسائل والتي مرّ ذكرها في اكثر من موضع رسالة عمرو بن مسعدة الذي يقول في بعضها: «الحمد لله الذي كشف عنا ستر الحيرة، وهدانا لستر العورة، وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة»[1].

ففي هذا النص صورتان للاستعارة أولاهما قوله: (كشف عنا ستر الحيرة) إذ شبه ما تعتور الإنسان من حيرة تمنعه من تحديد ما يصبو إليه بالحاجز أو الساتر الذي يمنع رؤية ما هو خلفه كالجدار مثلا، ثم انه حذف المشبه ورمز له بقرينه تدل عليه وهي (الستر)؛ اما الصورة الأخرى فهي قوله: (وجدع بما شرع من الحلال أنف الغيرة) حيث شبه الغيرة بالإنسان الذي في أنفه قطع بائن ووجه الشبه بين المشبهين (الذلة) فحذف المشبة به ودلّ عليه بلازمة تشير إليه وهي (الجدع)، والاستعارة من نوع المكنية في كلا الصورتين.

ومن هذه الرسائل أيضاً رسالة أبي إسحاق الصابي المعروفة باسم (عهد التطفل) إذ يورد فيها من أشكال التعبير المجازي الشيء الكثير ومنها الاستعارة إذ يتوصل من خلالها لرسم جملة من الصور التي يروم التعبير عنها بشكل هازل ضاحك.

ومن كتاب الرسائل الهازلة أيضاً أبو الخطاب الصابي الذي جمل رسالته التي صنعها في وصف حمل لصور عدّة من الاستعارة كما في قوله: «وصلت رقعتك ففضضتها عن خط مشرق، ولفظ مونق، وعبارة مصيبة،

(١) وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٣ / ١٤٧.

ومعان غريبة»[١] ، فوجه الاستعارة في هذا النص ظاهر في قوله (خط مشرق) فقد شبه خط صاحب الرقعة لجماله بالشمس حال شروقها لما في منظرها حينذاك من جمال ورونق، ثم حذف وجه الشبه ورمز له بقرينة هي (الشروق)، والاستعارة هنا من نوع المكنية؛ وكذلك في العبارة التالية لها (لفظ مونق) وفيه استعارة مكنية أيضاً. هذا زيادة على قوله في الرسالة نفسها: «ما الفائدة من ذبحي، وانا لم يبقَ مني إلا نفس خافت، ومقلة إنسانها باهت لست بذي لحم فأصلح للأكل، لأن الدهر قد أكل لحمي، ولا جلدي يصلح للدباغ لأن الأيام قد مزقت ادمي »[٢].

ففيه من الاستعارة المكنية مإلا يخفى على الناظر كما في قوله (لأن الدهر قد أكل لحمي - لأن الأيام قد مزقت آدمي) ففي كلا الجملتين استعارة شبه المتكلم فيها الدهر والأيام بالسبع الضاري المفترس فحذف المشبة به ودلت عليه لازمة تشير إليه وهي (الاكل والتمزيق) ووجه الشبه الشدة والضيق في الحياة.

والمقامات هي الأخرى كانت ساحة لغرض صور الاستعارة التي أبدى فيها الهمذاني وبوساطتها تألقاً في كتابته التي عبر بها عن اخيلة جميلة عكست أفكاره.

ففي مقامته (الأرمنية) وهي ما سنكتفي بها من جملة مقاماته في بيان بعض صناعة الأسلوب عنده كالاستعارة قوله: «لما قفلنا من تجارة ارمينية اهدتنا الفلاة إلى أطفالها، وعثرنا بهم في اذيالها، وأناخونا بأرض نعامة، حتى استنطقوا حقائبنا، وأراحوا ركائبنا، وبقينا بياض اليوم، في أيدي القوم، قد نظمنا القد احزابا، وربطت خيولنا اغتصابا. حتى أردف الليل اذنابه، وقد النجم اطنابه، ثم أنتجوا عجر الفلاة، واخذنا صدرها، وهلم

(١) ينظر: صبح الاعشى، القلقشندي: ١٤ / ٣٦٠ وما بعدها.
(٢) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٣٢١.

جرا، حتى طلع حسن الفجر من نقاب الحشمة، وانتضى سيف الصبح من قراب الظلمة»[١].

الظلمة»[١].

فمن صور الإستعارة في هذا النص قوله (أهدتنا الفلاة) فشبه الفلاة بالإنسان الذي يقدم هدية لآخر فحذف المشبة به ودل عليه بقرينة هي (الاهداء) وهنا الاستعارة مكنية. وقوله كذلك (عثرنا بهم) حيث شبه لقائهم مع اللصوص وهم لا يودون ذلك اللقاء بالحجر الذي يعثر به الشخص وهو غير راغب فيه وغير متوقع له، فحذف المشبة به ورمز له بلازمة تدلّ عليه وهي كلمة (عثرنا).

ومن استعارات هذا النص قوله: (حتى طلع حسن الفجر من نقاب الحشمة)، إذ شبه القائل جمال وروعة طلوع الفجر بعد الظلام بفتاة حسناء بيضاء تضع على وجهها نقابا أو خماراً، فحذف المشبة به وترك قرينة تدل عليه هي (النقاب) هذا إلى غير ذلك من صور الاستعارة الأخرى التي احتواها النص أو مقاماته الباقية.

ومن خلال هذا العرض البسيط نرى بعضا من صور المجاز سيما الاستعارة في هذا النوع من النثر حيث تبدو في شكلها مقبولة لما امتازت به من الوضوح والسهولة في عرضها، وفي ذلك دليل عل ان الاستعارة هي ركن أساس من أركان التعبير العربي على صعيد الجملة الأدبية ومن ثم المعنى.

جـ - الكناية

وهي أن يريد المتكلم اثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع أو المخصص له في الاستخدام اللغوي، بل يأتي المتكلم إلى معنى اخر هو دال عليه فيجعله إشارة إلى المعنى المراد ودلالة عليه[٢].

(١) شرح المقامات: محمد محيي الدين: ٢٧٩ - ٢٨٠.
(٢) ينظر لمعرفة هذا الفن: دلائل الاعجاز، الجرجاني: ٥٢، التبيان، ابن الزملكاني: ٣٧. مفتاح

ولم يغفل استخدام هذا العنصر البلاغي فيما ورد من نصوص ضاحكة ضمن حيز النثر الفكاهي لهذه الحقبة من العصر العباسي.

فمن صور الكناية التي اعتمدت في صياغة الأسلوب الفكه قول أبي العيناء حين زحمة رجل بالجسر على حماره: «فضرب بيديه على أذني الحمار، وقال: يا فتى، قل للحمار الذي فوقك يقول: الطريق!»[١]، وفي هذا القول تعريض ساخر حين كنى أبو العيناء عن الحمار بقوله (يا فتى) وعن الرجل بقوله (يا حمار) ومراده قلب دلالة العاقل إلى غير العاقل، والكناية في هذا القول هي عن صفة.

أو كقول آخر فقير قد أصابه المرض فقيل له: «عليك بالحمية، قال: هي دائي»[٢]. فالكناية في قوله: (هي دائي) اذ نسب مرضه وعلته إلى اقتصاده المفرط في طعامه وما ذلك إلا لأنه فقير معدم، والكناية هنا هي عن نسبة.

وكذلك نرى بعض صور الكناية تشتمل في صياغاتها بعض الموضوعات السياسية، منها ما رواه التوحيدي عن نضلة[٣] انه مرّ بكناسين احدهما في داخل البئر والثاني على رأس البئر، فاذا بضجة «فقال الذي في البئر: ما الخبر؟ فقال [الآخر][٤]: قبض على علي ابن موسى[٥]. فقال: من اقعدوا بدله؟ قال: ابن الفرات[٦]؛ قال:

=

العلوم، السكاكي: ١٨٩ (مطبعة البابي الحلبي واولاده بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٣٧ م)، الإيضاح، القزويني: ٢/ ٤٥٦ - ٤٦٧.

(١) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ١/ ٣٢٥.

(٢) الأجوبة المسكتة، ابن أبي عون: ١٥٩.

(٣) لم أعثر على ترجمة له فيما توافر لدي من مصادر.

(٤) زيادة لا بدّ منها حتى يستقيم الأسلوب.

(٥) هو أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح البغدادي الحسني، ولد سنة (٢٤٤هـ) فارسي الأصل، نشأ كاتباً كأبيه، استوزره المقتدر والقاهر العباسيان استقدمه المقتدر من مكة وجعله وزيراً له فحمدت سيرته، ثم تراوحت حياته بين العزل والتولية من قبل المقتدر. له جملة مصنفات. ينظر: تاريخ بغداد: ١٢ / ١٤، المنتظم: ٦/ ٣٥١، دول الإسلام: ١/ ١٦٤.

(٦) هو أبو الحسن محمد بن موسى بن الفرات، ولد في النهروان الأعلى (بين بغداد وواسط) سنة

=

قاتلهم الله، اخذوا المصحف ووضعوا بدله الطنبور»[١].

وفي هذا القول من الكناية مالا تخفى على الناظر، حيث كني عن ابن موسى بـ (المصحف) وذلك لصلاحه، وعن ابن الفرات بـ (الطنبور) لفساده، وهذا النوع من الكناية هو عن صفة.

هـذا مـا كـان خاصـاً بالفكاهـة المجسـدة في النصـوص النثريـة مـن غـير الرسـائل والتـي عرضنا لنماذج منهـا. أمـا النصـوص الفكهـة التـي جـاءت بشـكل رسـائل ففيهـا مـن صـور الكنايـة مـا يظهـر بشـكل جـلي وبـارز، فمـن هـذه الرسـائل رسـالة (صـناعات القـواد) للجـاحظ إذ بنيـت في معظمهـا عـلى اسـتخدام الكنايـة في أسـلوبها[٢]. وكـذلك الحـال مـع رسـالة أبي العينـاء في وصـف بـرذون اعطـي لـه فهـي الأخـرى مـلىء بصـور الكنايـة المختلفـة التـي تـنم عـن قـدرة كاتبهـا في تحصيل المعنى الذي يروم إتيانه[٣].

والخـوارزمي أيضـاً تبـدو في بعـض فقـار رسـالته التـي بعـث بهـا إلى مسـكويه صـور الكنايـة كـما في قولـه: «وقـد كنـت اسـأل الله تعـالى ان يبـارك لـك في حياتهـا، والان أسـاله ان يعجـل لك بوفاتها. فإن القبر أكرم صهر وأن الموت استر ستر»[٤].

(١) الامتاع والمؤانسة، التوحيدي: ٢/ ٥٤.
(٢) ينظر: رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٣/
(٣) ينظر: زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢ / ٥٨٧.
(٤) رسائل الخوارزمي: ٢١٣.

فمن استخداماته للكناية قوله: (القبر اكرم صهر) وكذلك (الموت أستر ستر) وفي المثالين كناية عن موصوف إذ كنى عن الموت بأنه كفوء كريم لا يتوانى عن شيء وهو زيادة على ذلك طامس لمعايب الاشخاص واعمالهم المذمومة قبل اتيانهم لها.

ومن هذه الرسائل رسالة أبي إسحاق الصابي المعروفة باسم (عهد التطفل) حيث يورد فيه من اشكال التعبير البياني الشيء الكثير ليتوصل من خلاله إلى رسم جملة من الصور التي أخذ بالتعبير عنها بشكل هازل ضاحك، كما في قوله: «وآمره أن ينصب الأرصاد على منازل المغنيات والمغنين، ومواطن الابليات والمخنثين؛ فاذا أتاه خبر بجمع يضمهم، ومأدبة تعمهم؛ ضرب إليها اعناق ابله، وانضى نحوها مطايا خيله؛ وحمل عليها حملة الحوت الملتقم، والثعبان الملتهم؛ والليث الهاصر، والعقاب الكاسر؛ إن شاء الله»[١].

فمن صور الكناية في هذا النص ما أورده في نهايته في كيفية الانقضاض على المائدة، فكنى عن طريقة أكل الطفيلي بطريقة المخلوقات ذات الشره أو المبالغ في أكلها، فالصفة اللازمة من إيراد مثل هذه الصور هي النهم والامعان في الأكل، فالكناية هنا هي عن صفة.

وهكذا استغل معظم كتاب الرسائل الفكهة عنصر الكناية في صياغاتهم الأسلوبية معبرين بوساطته عن بعض افكارهم وتصوراتهم حيال ما يكتبون فيه كما هو الحال مع أبي الخطاب الصابي في رسالته التي وضعها في وصف حمل[٢].

والمقامات هي الاخرى كانت مسرحاً لبيان عناصر الصياغة الأسلوبية ومنها الكناية، إذ حشد الهمذاني فيها من صور الكناية الشيء الكثير دلت دلالة قاطعة على قدرة كاتبها وتفننه في أسلوبه؛ فمن هذه المقامات التي حفلت بعنصر الكناية

---

(١) صبح الاعشى، القلقشندي: ١٤ / ٣٦٣.
(٢) ينظر: زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٢٣١.

المقامة (الأسدية) فهو يقول في بعضها: «... إلى ان اتفقت لي حاجة بحمص، فشحذت إليها الحرص، في صحية أفراد كنجوم الليل، أحلاس[١] لظهور الخيل، وأخذنا الطريق ننّتهب مسافته، ونستأصل شأفته، ولم نزل نفري أسنمت النجاد بتلك الجياد، حتى صرن كالعصي، ورجعن كالقسيِّ»[٢]. فالكناية ماثلة في هذا النص بشكل واضح من خلال تركيب عباراته فمن صورها قوله: (أحلاس لظهور الخيل) إذ كنى عن شجاعة وفروسية رفاقه عن طريق ملازمتهم امتطاء ظهور خيولهم فهم لا ينفكون عن ديدنهم هذا بديل قوله (احلاس)، ونوع الكناية هي عن موصوف.

وكذلك في كلامه عن سيرهم ومثابرتهم في رحلتهم وسرعتهم في طريقهم الذي عبّر عنه راوي المقامة بقوله: (ننتهب مسافته، ونستأصل شأفته) وهو كناية عما تقدم ذكره من سيرهم الحثيث نحو قصدهم، ونوع الكناية هنا عن صفة.

هذا إلى غير لك من صور الكناية التي حفلت بها مقامات البديع كالمقامة (الأصفهانية) و (الموصلية) وما تزاحم فيهما من جمل عبّر عن بعضها بهذا العنصر البياني.

إذن عملت الكناية في الأسلوب الأدبي الفكه عملها كباقي صور المجاز الأخرى إن لم نقل بأنها كانت الاوفر حظا في هذا الحضور قياسا بعناصر البيان الأخرى.

د - الطباق:

من الوسائل التي توافرت عليها الفكاهة في النثر لهذا العصر على اختلاف مذاهبها في القول، والتي كان لها اثر في العناية بالتعابير والجمل ومن ثم المعنى

---

(١) الحلس والحلس: كل شيء ولي ظهر البعير والدابة تحت الرحل والقتب والسرج والجمع احلاس وحلوس، وكذلك ما يوضع تحت حر الفراش في البيوت. والمراد في أعلاه المداومة على ركوب الخيل.

(٢) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٣٥ - ٣٦.

المعبر عن المشاعر والعواطف المتنوعة لدى المتكلم بها أو المنشئ لها، صنوفاً من علم البديع، منها الطباق.

والطباق: هو الجمع بين المعنى وضده في الكلام، ويكون في صيغتين:

طباق ايجاب: وفيه تكون الكلمتان مختلفتين في اللفظ والمعنى.

طباق سلب: وفيه يكون الجمع بين المعنى وضده عن طريق وجود اللفظ ومنفيه في الكلام.وقد اسهب البلاغيون في تحديد الطباق وبيان أنواعه واقسامه[1].

فلو أتينا إلى صيغ الطباق وصوره في الآثار النثرية الفكهة وجدناها قد اختلفت قلة وكثرة بحسب طبيعة النص النثري. إذ نلمس ندرة صور الطباق في النصوص من غير الرسائل والمقامات، وما ذاك الا لطبيعتها التي لا تحفل بألوان البديع المختلفة، لاعتمادها البساطة في التعبير والعفوية في الاداء.

فمن التعابير التي استعملها منشئوها وفيها صور من الطباق، ما قاله الجاحظ حين عرض لنوادر المعلمين قوله: «مررت بمعلم صبيان وعنده عصا طويلة وعصا قصيرة وصولجان وكره وطبل وبوق»[2].

فصورة الطباق وهو من نوع طباق الايجاب في الكلمات (طويلة - قصيرة).

كذلك قوله في بخلائه حكاية عن بعض صور بخل أهل خراسان كاستخدام بعضهم لوسائل تحد من ضياع الزيت المستعمل في ايقاد المصباح، وابدال العود المستعمل لاشخاص فتيلته بمسلة من معدن، وهذا ما ذهب إليه بخيل آخر معللاً ذلك بقوله: «أما تعلم أن الريح والشمس تأخذان من سائر الأشياء؟ أوليس قد كان البارحة عند إطفاء السراج أروى، وهو عند أسراجك الليلة أعطش؟»[3].

---

(١) ينظر على سبيل المثال: الصناعتين، العسكري: ٣٩٩ - ٣٥٢، التبيان في علم البيان، ابن الزملكاني: ١٧٠ - ١٧٢، الايضاح، القزويني: ٤٧٧/٢ - ٤٨٥.

(٢) المستظرف، الابشيهي: ٢/ ٢٤١.

(٣) البخلاء، الجاحظ: ١٩.

فالطباق في الكلمات (أعطش - أروى)، ومن أشكال هـذا الطبـاق في أسـلوب الجـاحظ أيضـاً قوله نقلاً عن بعض أصحابة: «وكان رجل من أهل الري يجالسنا، فاحتبس عنّـا، فأتيتـه فجلسـت معـه على الباب، واذا رجل يدخل ويخرج فقلت: من هذا؟ فسكت، ثم أعدت فسـكت، فلـما اعـدت الثالثـة قال: هو زوج أخت خالتي!»[١]. فالطباق هنا وكذلك فيما سبق مـن امثلـة هـو اطبـاق ايجـاب كـما في الكلمات (دخل - خرج).

ونلحظ استخدام الطباق عند التوحيدي ايضا، في بعـض مـا رواه؛ كقولـه عارضـا قـول بعـض المغفلين في طوافه حول الكعبة: «رب! ارحم تزحم، واغفر ما تعلم وما لا تعلم»[٢]، وكـذلك حـين يـورد بعض ممارسات طفيلي عند تطفله، إذ يقول: «... وإذا وجدت شـحيحاً بخـيلاً أقـتحم عليـه مستأنسـاً وأضحك إن رأيته عابساً[٣]».

فالطباق في المثال الأول هو من نوع طباق السلب وذلك في (تعلم - لا تعلم)، وفي المثال الثاني هو من نوع طباق الإيجاب كما في (أضحك - عابس).

ولو مضينا مع نتاج الأدباء من الرسائل والمقامات لوجدنا ان الطبـاق خصيصـة ظـاهرة فيهـا إلى جانب أساليب التعبير الاخرى.

فهذا عمرو بن مسعدة في رسالته لمناسـبة زواج أم صـديق لـه يقـول: «ولكنـه تعـإلى يختـار لعبادة المؤمنين، ما هو خير لهم في العاجلة، وابقى لهم في الآجلة»[٤]، كما في قوله: (العاجلـة - الآجلـة) فهو من نوع طباق الايجاب. وكذلك الجاحظ في رسـالته (التربيـع والتـدوير) التـي يبـدو الطبـاق فيهـا عنصراً من عناصر أسلوبه الساخر

(١) البيان والتبيين، الجاحظ: ٦/٤.
(٢) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢/ ٥٦٨.
(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٣ (١) / ٣٠.
(٤) وفيات الاعيان، ابن خلكان: ١٤٧/٣.

والمتهكم بشخص صاحبه أحمد بن عبد الوهاب في اكثر من تركيب كما في قوله: «إنما يحسد - أبقاك الله - المرء شقيقه في النسب وشبيهة في الصناعة، ونظيرة في الجوار، على طارف قدره، اوتالد حظه أو على كرم في أصل تركيبه ومجاري أعراقه »[١].

وهو ظاهر في قوله تالد - طارف) وهو من نوع طباق الايجاب. وكذلك في قوله: «وأعلم إني وإياك متى تحاكمنا إلى كرمك قضي لي عليك، ومتى ارتفعنا إلى عقلك حسن العفو عني عندك، وفصل ما بيننا وبينك، وفرق ما بين اقدارنا وقدرك، أنا نسيء وتغفر، ونذنب وتستر، ونعوج وتقوم، ونجهل وتعلم»[٢]. فصيغ طباق الايجاب ظاهره وبينه في الفقرات الاخيرة من هذا النص.

ولم يكن الجاحظ في ايراده لصور الطباق المختلفة إلا ليحكم سيطرته في سخريته من صاحبه، وهذا واضح فيما سبق.

ولم يكن الجاحظ وحده من استعمل الطباق، بل هناك أبو العيناء في رسالته الهازلة ببرذونه، حين أخذ يندد بمحمد بن عبيد الله بن خاقان وعطيّته حيث يقول: «اعلم الوزير - اعزه الله - أن أبا علي محمداً أراد أن يبرني فعقني، وان يركبني فأرجلني»[٣] فصور الطباق الإيجاب هنا (يبرني - عقني، يركبني - ارجلني) ناهيك عن صبغ أخرى احتوتها رسالته.

ومن الرسائل التي احتوت على صور من الطباق رسالة ابن ثوية في الهندسة، إذ أورد استعماله لهذا الفن في تصويره حاله مع معلمي الهندسة[٤].

(١) التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلات: ١٠.
(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٧٧/٣.
(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٧.
(٤) مثالب الوزيرين، التوحيدي: ١٥٨ - ١٦٣.

والخوارزمي كذلك قد وظف هذا العنصر من عناصر علم البديع بقوله في رسالته التي بعث بها إلى مسكويه لمناسبة زواج أمه قائلا: «فإنك بررتها صغيرا. وبلغت مرادها كبيرا»[١]. ويظهر هذا العنصر في (صغيرا - كبيرا)، وكذلك الحال مع أبي إسحاق في رسالته في تأبين الثور الذي نفق[٢].

ولو مضينا مع الهمذاني في مقاماته لرأينا الطباق وصوره فيها ملحوظاً لاعتماد صاحبها على عناصر التزويق والجمال في الأسلوب.

ففي مقامته (البغدادية) وعند لقياه للسوادي، وسؤاله عن حال أبيه كما في قوله: «فكيف حال أبيك؟ أشاب كعهدي، أم شاب بعدي؟»[٣]، وقوله في المقامة نفسها عندما خرج من عند صاحب المطعم وتركه للسوادي هناك إذ يقول: «ثم خرجت وجلست بحيث أراه ولا يراني أنظر ما يصنع»[٤].

فصور الطباق في هذين الشاهدين مختلفة بين الإيجاب والسلب، كما في قوله: (شابٌّ - شاب) وهو طباق ايجاب، وقوله (أراه - لا يراني) وهو من نوع طباق السلب لأنه تضمن المعنى ومنفيه في الكلام. وكذلك نرى طباقا في مقامته (الحلوانية) عندما دخل عيسى بن هشام الحمام ونشب بعد ذلك صراع بين العاملين فيه حوله، وانتهى الأمر إلى أن يتقاضيا إلى صاحب الحمام، فجاء الرجلان عيسى بن هشام وقالا: «لنا عندك شهادة فتجشم، فقمت وأتيت، شئت أم أبيت»[٥]. فالطباق في كلمتي (شئت - أبيت) لاجتماع المعنى وضده ممثلا بالرضا والعصيان، إضافة إلى صور أخرى احتوتها هذه المقامة.

وما شيوع هذا الاستعمال عند الهمذاني في مقاماته إلا عناية منه بكل ما من

---

(١) رسائل الخوارزمي: ٢١٤.
(٢) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ١٠٣٢/٤ - ١٠٣٤.
(٣) شرح المقامات، محمد محيي الدين: ٧٠.
(٤) م. ن: ٧٢.
(٥) م. ن: ٢٣٥.

شأنه ان يظهر تعبيره بالأسلوب الامثل وفقاً لما كان شائعا في عصره من اعتماد المحسنات اللفظية بأنواعها المختلفة.

وفي الختام يجب التنويه بأن هذا العنصر لم يشع استعماله في الفكاهات القصيرة إذ جاء فيها نادراً ندرة كبيرة واقتصر استعماله على الرسائل والمقامات، زيادة على قلة ورود الطباق السلب قياسا بطباق الايجاب لأسباب عرضنا لهذا سلفا.

هـ - المقابلة:

وهو لون آخر من ألوان التزيين للعبارات والتحسين للمعاني، يرجى منها الاعتدال والتوازن في الالفاظ والمعاني.

والمقابلة: مجموعة من المعاني المتوافقة التي يؤتي بعدها بما يقابلها على سبيل التناقض والضدية، وتكون بين الجمل والعبارات، لا بين الالفاظ والمفردات.

وقد عدها جملة من البلاغيين صورة من صور الطباق الذي ينقسم بشكل عام إلى طباق مفرد، وهو ما عرضنا له فيما سبق من أمثلة؛ طباق مقابلة والذي سنتناوله الان(١).

وعلى أية حال فإن هذا العنصر البلاغي قد توفرت عليه بعض النصوص النثرية الفكهة، وتفاوت استعمال المنشيء له في الاثر النثري.

فالجاحظ حين يكتب في بخلائه نلحظ في أسلوبه بعض عبارات

(١) ينظر في سبيل تعرف هذا العنصر: الصناعتين العسكري: ٣٧١ - ٣٧٤، نقد الشعر، قدامة بن جعفر، عني بتصحيحه س. أ. بونيباكر: ١٢٤ - ١٢٦ (مطبعة بريل - ليدن، ١٩٥٦ م) العمدة، ابن رشيق القيرواني، حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد: ١٥/٢ - ٢٠ (مطبعة السعادة بمصر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣ م). الايضاح، القزويني: ٢/ ٤٨٥ - ٤٨٨.

المقابلة التي وزعها بين طيات كتابه. فمن عبارات المقابلة التي اعتمدها في سرد حكاياته قول عن ثمامة بن أشرس[1] قوله في شيوع ظاهرة البخل بين سكان مرو، بل وحتى طيورهم: «لم ارَ الديك في بلدة قط إلا وهو لافظ، ويأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدّام الدجاجة، إلا ديكة مرو، فإني رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما في مناقيرها من الحب. قال: فعلمت ان بخلهم شيء في طبع البلاد وفي جواهر الماء، فمن ثم عم جميع حيواناتهم»[2]. فأسلوب المقابلة في عبارات هذا النص ولا يخفى على الناظر إليه من خلال وضع كل معنى على طرف نقيض مع المعنى الآخر كما في مقارنته بين الديكة (يأخذ الحبة بمنقاره، ثم يلفظها قدام الدجاجة - تلسب الدجاج ما في مناقيرها من الحب).

أو ما أورده على لسان الحزامي عندما راح يعلل للبخل ويصوره بالشكل الأمثل الذي لا عيب فيه، بما جرى بينه وبين الجاحظ من محاورة، فيضع فرقا بين البخل والكرم بشكل لطيف، فيقول: «وبينهما فرق قلت: فهاته قال: قولهم بخيل تثبيت لإقامة المال في ملكه، وفي قولهم سخي اخبار عن خروج المال من ملكه. واسم البخيل اسم فيه حفظ وذم، واسم السخي اسم فيه تضييع وحمد»[3].

كذلك ما أورده الدنيوري في بعض ما رواه من نصوص فكهة، كقوله في بعض المعلمين الذي كان «يقعد أبناء المياسير والحسان الوجوه

(١) هو أبو معن ثمامة بن أشرس النميري من كبار المعتزلة وأحد الفصحاء والبلغاء اتصل بالرشيد ثم المأمون، وكان ذو ملح ونوادر روى عنه الجاحظ وكان تلميذه، توفي سنة (٢١٣هـ)، ينظر: البيان والتبيين: ١/ ١١١، تاريخ بغداد: ٧/ ١٤٥، الخطط للمقريزي: ٢/ ٣٤٧.

(٢) البخلاء، الجاحظ: ١٨.

(٣) البخلاء، الجاحظ: ٦٢.

في الظل، ويقعد الآخرين في الشمس، ويقول: يا أهل الجنة، ابزقوا في وجوه أهل النار»[١].

فالمقابلة في قوله: (أبناء المياسير والحسان الوجوه في الظل - الاخرين في الشمس).

هذا إلى غير ذلك ممن يعتني بعنصر المقابلة في رسم ما يبغي التعبير عنه. كما هو الحال مع أبي العيناء الذي اعترضه يوماً أحمد بن سعيد ، فسلم عليه، فقال له أبو العيناء: «من أنت؟ قال: أنا أحمد بن سعيد. فقال: إني بك لعارف، ولكن عهدي بصوتك يرتفع إلي من أسفل، فماله ينحدر عليّ من علو! قال: لأني راكب ...»[٢].

فأبو العيناء يسخر بصاحبه باتباع أسلوب بلاغي ممثل بالمقابلة بين الجمل والعبارات كما في قوله: (يرتفع الي من أسفل - ينحدر علي من علو)، وفي ذلك إشارة إلى تقلب الأحوال بين أبي العيناء وصاحبه.

فكان استخدام هذا العنصر البلاغي في الفكاهات الواردة في النثر قد أعطى جمالاً للفظ وكان وسيلة في تقريب المعنى المقصود.

وكان التوحيدي قد جمل أسلوبه بهذا العنصر في بعض ما نقله من فكاهات كما في قوله إن ابن سيابة نظر إلى مبارك التركي، وتحته دابة فرفع رأسه إلى السماء وقال: «يا رب هذا حمار وله دابة، وانا إنسان وليس لي حمار »[٣].

وهكذا كانت المقابلة من الفنون البلاغية التي استغلها المتكلم للتعبير عما يعتلج في نفسه من مشاعر، تترجم باساليب كلامية متنوعة. ولو القينا نظرة على النصوص النثرية الفكهة والتي جاءت بشكل رسائل ومقامات وجدناها لا تحفل بهذا النوع من الطباق إلا ما ورد في جزء يسير منها، لاعتمادها على الطباق المفرد الكائن

(١) عيون الاخبار، ابن قتيبة: ٤/ ٣٩.
(٢) نكت الهميان، الصفدي: ٢٦٩.
(٣) البصائر والذخائر، التوحيدي: ٢(٢)/٦٨٨.

بـين المفـردات أو الألفـاظ دون الجمـل والعبـارات. والحـال نفسـه يقـال عـن مقامـات الهمـذاني في نصوصـها ذات الطـابع الفكـه إذ خلـت مـن هـذا العنصرـ البلاغـي لاعتمادهـا عـلى الطبـاق المفرد أيضاً.

فمـما ورد مـن مقابلـة في الرسـائل، قـول الجـاحظ في رسـالته (التربيـع والتـدوير) سـاخراً بصـاحبه فيهـا بقولـه: «وأنـت تـزعم إن هـذه المعـاني خالصـة لـك مقصـورة عليـك، وإنهـا لا تليـق إلا بك ولا تحسن إلا فيك، وإن لك الكل وللناس البعض؛ وان لك الصافي ولهم المشوب»[١].

فصـيغ المقابلـة ظـاهرة في الفقـرات الاخـيرة مـن هـذا الـنص، وكـذلك في قولـه: «وكيـف أطمـع في نزوعـك عـن اللجـاج وقـد منعتنيـه قبلـه، وكيـف أرجـو اقـرارك جهـرا وقـد أبتيـه سراً، وكيـف تجـود بـه صـحيحا مطمعـا وقـد بخلـت بـه مريضـا مويسـاً »[٢]وغـير ذلـك مـن صـور للمقابلة استعملها الجاحظ في معرض رسالته هذه في سخريته من أحمد بن عبد الوهاب.

وهـذا أبـو العينـاء قـد اعتمـد في بعـض مـن رسـالته عـلى عنصرـ المقابلـة كـما في قولـه عنـدما حمـل كاتـب محمـد بـن عبيـد الله بـن خاقـان السـبب في اختيـار الـبرذون: «وإنمـا أوتيـت من كاتبه الاعور الذي ان اختار لنفسه أطاب وأكثر، وإن اختار لغيره أخبث وأنزر»[٣].

كذلك إذا سرنـا مـع هـذه الرسـائل عـلى قلتهـا نلحـظ بعـض صـور المقابلـة فيهـا، كـما هـو الحـال عنـد الخـوارزمي في رسـالته التـي بعـث بهـا إلى مسـكويه والتـي سـبقت اليهـا الإشـارة أكـثر من مرة، اذ يقول هازلا به:

«فحمـدت الله الـذي رزقـك والـداً لا يلزمـك حـق أبوتـه. ووعـدك أخـا لا يجملـك حمـل إخوته. وكنت أسأل الله تعالى أن يبارك لك في حياتها،

(١) التربيع والتدوير، تحقيق شارل بلات: ١٠.
(٢) رسائل الجاحظ، تحقيق عبد السلام محمد هارون: ٦٧.
(٣) زهر الآداب، الحصري القيرواني: ٢/ ٥٨٨.

والآن أساله أن يعجل لك بوفاتها»[1]. فصورة المقابلة في قوله (يبارك الله في حياتها - يعجل لك بوفاتها).

وبعد هذا العرض البسيط لاعتماد بعض المنشئين لصور المقابلة وصيغها في بعض النصوص النثرية، نلحظ الاهتمام العام للمنشيء ذلك الحين بأنواع الزخرف البياني والبديعي، فيما هو متعلق بالالفاظ والمفردات والجمل والعبارات، ومن ثم أثر كل ذلك في تأدية المعنى وابرازه بأتم وجه يضمن وصوله إلى المتلقي من غير عسر ومشقة.

وبعد هذا التجوال مع مفردات هذه الدراسة لا بدّ من الإشارة إلى أهم النتائج أو المحصلات التي وقفت عليها لتكون قبساً يُستضاء به في الدلالة على العلاقات البارزة أو الخطوط العامة، ولتكون من ثمَّ إشارات تدلُّ على ما ورائها بحيث تشدُّ القارئ إلى معاودة قراءته والنظر في تضاعيفه لفهم طبيعة الموضوع.

فمن هذه النتائج القول بأن الضحك عملية إنسانية تؤدي وظيفةً دلالية في حياة الإنسان يُعبِّر من خلالها عن بعض سلوكه حيال نفسه أو حيال الآخرين، ومن هنا تبرز وظيفة الضحك (النفسية والاجتماعية والانتقادية)، فكان الضحك بمثابة أداة تعبير أفصح بها الضاحك عن رَدِّ فعله أمام ما يواجهه من مواقف.

وقد تعددت صور هذا التعبير الغريزي عند الإنسان فكانت الفكاهة واحدة من هذه الصور التي ظهرت في الكلام بشطريه المنظوم والمنثور في مختلف العصور ومنها عصر بني العباس.

امتاز العصر العباسي بظاهرة الفكاهة في النثر على امتداد مراحله وبخاصة القرنان الثالث والرابع الهجريان لسطوع جملة من الأدباء الذين

(١) رسائل الخوارزمي: ٢١٣.

توافرت كتاباتهم على هذه الظاهرة ابتداءً بالجاحظ (ت ٢٥٥هـ) وانتهاءً بأبي الخطّاب الصابي (ت ٤١٨هـ)، حيث أثرت الكتابة العربية منها الشيء الكثير وعبرَّ بوساطتها الأدباء عن مختلف الموضوعات التي ظهرت في مجتمعاتهم.

وقد شاعت هذه الظاهرة ضمن إطار بيئي معين، بمعنى أن ظاهرة الفكاهة في النثر وعلى اختلاف غاياتها نمت وترعرت في بيئة لعبت مفرداتها من امتزاج عرقي بين العرب وغيرهم، وما توزع المجتمع العباسي من غنًى وفقر، وما لعبته المرأة ذلك الحين حرةً كانت أم جارية ومجالس الشراب والغناء من دورٍ بارزٍ في تهيئة الجو المناسب لشيوع هذه الظاهرة بين أفراد المجتمع العباسي.

وهذا ما أدى إلى أن تتعدّد موضوعات النثر الفكاهي لهذه الحقبة الزمنية من العصر العباسي؛ فكانت هناك موضوعات ذاتية بحتة هدفها الأساس الترويح عن النفس بنوادر وأخبار مضحكة من غير أن تتعلق بهدف غير الإضحاك، وهذا ما لحظناه في مبحث (الفكاهة الترفيهية).

وهناك فكاهات رائدها الأول الإصلاح والتهذيب لممارسات سلوكية صدرت عن أشخاص أو فئات اجتماعية عُدَّ سلوكها هذا بمثابة الشذوذ الذي يجب علاجه أو استئصاله، فكان الضحك سخريةً وتهكماً هو العلاج الناجع، وهو ما لسمناه في مبحث (الفكاهة الناقدة).

وهناك فكاهات غايتها التعليم والإرشاد إلى أمور متعلقة باللغة وحدها، كمحاولة إصلاح استخدام لغوي خاطئ أو توجيه نحو صيغ كلامية أو مفردات لغوية يمكن استغلالها في الكتابة الإنشائية كما هو الحال مع مقامات البديع؛ وهذا ما رأيناه في مبحث (الفكاهة التعليمية).

وكان من نتائج هذه الدراسة ما هو متعلق بدراسة النص الفكاهي، حيث اختلفت السمات الفنية من نصٍ لآخر أيضاً؛ فما كان متعلقاً بالبنية

الفنية للقطعة النثرية الفكهة لاحظنا أن النصوص النثرية الفكاهية المتسمة بالقصر- لا تحتوي الخصائص الفنية المتعلقة بالأسلوب قياساً إلى النص المطول بشكل عام.

فقد اختلفت هذه النصوص من حيث البدء والختام والجمل الإعتراضية، والتنويع ما بين الشعر والنثر وكذلك الاقتباس من القرآن الكريم والحديث الشريف والمثل السائر.

وهذا نابع عن صفة الإيجاز أو الإطناب في النص النثري الفكه، إذ أدى كل منهما دوره في التوظيف النثري الفكه بحسب المقام الذي يولّد هذا النص.

وقد تبيَّن ان معظم الفكاهات الواردة في النثر لهذه المرحلة قد امتازت بالقصر- وهذا ما أكدته مفردات هذه الدراسة.

كما برزت من دراسة النصوص الفكاهية صفة الواقعية في تأدية المعنى المراد التعبير عنه. إذ عكست معظم الفكاهات وقائع وشخصيات موجودة فعلا في تلك المرحلة من العصر العباسي فنقلت بشكل ضاحك باستغلال عنصر الحوار بين شخصياتها.

أمّا فيما يتعلق بالألفاظ فقد تنوعت الاستخدامات الزخرفية من سجع وازدواج وجناس، حيث برزت هذا المحسنات في النصوص المتسمة بالطول قياساً إلى غيرها؛ كما ان هذه النصوص قد تفاوتت من حيث اشتمالها على هذه المحسنات، فمثلاً نلحظ قلة واضحة في استعمال الجناس التام قياساً باستعمال الجناس غير التام، إلى غير ذلك من تفاوت في استعمال هذه المحسنات.

وبالجملة فقد أتت ألفاظ هذه النصوص مجللة بالبساطة والوضوح البعيد عن كل إسفاف أو تعقيد منافٍ للطبع أو الذوق والخارج على أصول اللغة المحكية إلا ما ندر.

ونلحظ في أثناء الدراسة عناية المنشئ بالمعاني المؤداة بالألفاظ باعتماد جملة عناصر مثل التشبيه الذي نجد له دوراً في إبراز الصورة المضحكة، وليس هناك فرق من حيث استعماله في النصوص القصيرة أو الطويلة إذ اشتمل كلا النوعين عليه، وكذلك الحال مع الاستعارة وبخاصة المكنيَّة منها، والكناية حيث ظهرت صورهما في هذه النصوص؛ زيادة على الطباق والمقابلة الوارد استعمالهما أكثر في النصوص الموسومة بالطول من النصوص النثرية الفكه الأخرى.

وفي الختام آمل أن تكون هذه الدراسة قد قدمت شيئاً ولو يسيراً إلى المكتبة العربية بشكل عام والدراسات الأدبية بشكل خاص عن طريق عرضها لظاهرة الفكاهة في النثر العباسي في القرنين الثالث والرابع الهجريين بشيء من التفصيل قدر المستطاع، رجاء التعرف على بيئتها وغاياتها أو مراميها، وبدعوى إنها ظاهرة طغت ورمت بظلالها على الأدب العربي بشطريه الشعر والنثر.

ثبت المصادر والمراجع

١. **القرآن الكريم.**

٢. **أبو حيان أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء.** تأليف الدكتور زكريا إبراهيم - الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسة أعلام العرب ٣٥.

٣. **أبو العيناء الأديب البصري الظريف.** تأليف الدكتورة إبتسام مرهون الصفار - دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٨م.

٤. **اتجاهات الهجاء في القرن الثالث الهجري.** تأليف قحطان رشيد التميمي - دار المسيرة - بيروت.

٥. **الأجوبة المسكتة.** تأليف ابن أبي عون الكاتب المتوفى سنة (٣٢٢هـ)، تحقيق وتعليق الدكتور محمد عبد القادر أحمد - مطابع الناشر العربي، ١٩٨٣م.

٦. **أدب المعتزلة إلى نهاية القرن الرابع الهجري.** تأليف الدكتور عبد الحكيم بلبع - مكتبة نهضة مصر بالفجالة، ١٩٥٩م.

٧. **أساس البلاغة.** تأليف جار الله الزمخشري المتوفى سنة (٥٣٨هـ)، تحقيق عبد الرحيم محمود، عرّف به أمين الخولي - مطبعة محمد النديم - القاهرة، ١٩٥٣م.

٨. **إسحاق الموصلي الموسيقار النديم.** تأليف الدكتور محمود أحمد الحنفي - الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسلة أعلام العرب ٢٤.

٩. **أسرار البلاغة في علم البيان.** تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة

(٤٧١ أو ٤٧٤هـ)، تصحيح وتعليق السيد محمد رشيد رضا - دار المطبوعات العربية للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية.

١٠. **الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية.** تأليف أحمد الشايب - مطبعة السعادة بمصر، الطبعة السادسة، ١٩٦٦م.

١١. **الإشارة إلى مَن نال الوزارة.** تأليف أمين الدين تاج الرياسة أبي القاسم علي بن منجب بن سليمان الشهير بابن الصيرفي المصري. المتوفى (٥٤٢هـ) عُني بتحقيقه والتعليق عليه عبد الله مخلص - مطبعة المعهد العلمي الفرنسي - القاهرة، ١٩٢٤م.

١٢. **الإصابة في تمييز الصحابة.** تأليف ابن حجر العسقلاني سنة (٨٥٢هـ) - مطبعة مصطفى محمد - مصر، ١٩٣٩م.

١٣. **الأغاني.** تأليف أبي الفرج الأصفهاني المتوفى سنة (٣٥٦هـ)، شرحه وكتب هوامشه الأستاذ عبد علي مهنا والأستاذ سمير جابر - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

١٤. **الألفاظ الفارسية المعربة.** تأليف أدي شير - المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين - بيروت، ١٩٠٨م.

١٥. **الألفاظ والأعلام القرآنية.** تأليف محمد إسماعيل إبراهيم - دار الفكر العربي، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

١٦. **الأم.** تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المتوفى سنة (٢٠٤هـ) - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

١٧. **أمالي المرتضى.** تأليف علي بن الحسين الشريف المرتضى المتوفى سنة (٤٣٦هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية، القاهرة،

١٩٥٤م.

١٨. **الإمتاع والمؤانسة.** تأليف أبي حيان التوحيدي علي بن محمد بن العباس المتوفى سنة(٤٠٠هـ)، تحقيق أحمد أمين وأحمد الصقر - دار مكتبة الحياة - بيروت.

١٩. **أمراء البيان.** تأليف محمد كرد علي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية، ١٩٤٨م.

٢٠. **الإيضاح في علوم البلاغة.** تأليف الإمام الخطيب القزويني المتوفى سنة(٧٣٩هـ) شرح وتعليق وتنقيح الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي - منشورات دار الكتاب اللبناني، الطبعة الخامسة، ١٩٨٣م.

٢١. **البخلاء.** تأليف أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ المتوفى سنة (٢٥٥هـ)، حقق نصه وعلق عليه طه الحاجري - دار المعارف بمصر، ١٩٥٨م.

٢٢. **بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع.** تأليف الإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني الحنفي الملقب بملك العلماء المتوفى سنة (٥٨٧هـ) - دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.

٢٣. **البداية والنهاية.** تأليف أبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي المتوفى سنة (٧٧٤هـ) - مكتبة المعارف - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٧م.

٢٤. **البصائر والذخائر.** تأليف أبي حيان التوحيدي، عُني بتحقيقه والتعليق عليه إبراهيم الكيلاني - مطبعة الإنشاء، ١٩٦٤م.

٢٥. **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة.** تأليف الحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي المتوفى سنة (٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٦٤م.

٢٦. **البلدان.** تأليف أحمد بن يعقوب بن واضح الكاتب المعروف باليعقوبي المتوفى سنة (٢٨٤هـ) - المطبعة الحيدرية - النجف، ١٩١٨م.

٢٧. **البيان والتبيين.** تأليف أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، ١٩٧٥م.

٢٨. **تاريخ آداب اللغة العربية.** تأليف جرجي زيدان - مطبعة الهلال بالفجالة - مصر، ١٩١٢ م.

٢٩. **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي.** تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن - مكتبة النهضة المصرية - القاهرة، الطبعة الخامسة، ١٩٥٩م.

٣٠. **تاريخ بغداد أو مدينة السلام منذ تأسيسها حتى سنة (٤٦٣هـ).** تأليف الحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣هـ) - المكتبة السلفية - المدينة المنورة.

٣١. **تاريخ الحضارة الإسلامية من عهد نفوذ الأتراك إلى منتصف القرن الخامس الهجري.** تأليف الدكتور محمد جمال الدين سرور - دار الفكر العربي، الطبعة الرابعة، ١٩٧٦م.

٣٢. **تاريخ الخلفاء.** تأليف الحافظ جلال الدين السيوطي - دار الفكر، ١٩٧٤م.

٣٣. **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب، ومصر، وسورية، وبلاد العرب.** تأليف الدكتور حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٩٥٨ م.

٣٤. **تاريخ الرسل والملوك.** تأليف أبي جعفر بن جرير الطبري المتوفى سنة (٣١٠هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف، الطبعة الخامسة، ١٩٦٨م.

٣٥. **تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري.** تأليف الدكتور عبد العزيز الدوري - دار المشرق - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٤م.

٣٦. **تاريخ اليعقوبي.** تأليف أحمد بن يعقوب الإخباري المتوفى سنة (٢٩٢هـ)، قدم له وعلق عليه العلامة السيد محمد صادق آل بحر العلوم - منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف، ١٩٦٤م.

٣٧. **التبصر بالتجارة.** تأليف عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٦ م.

٣٨. **التبيان في علوم المطلع على إعجاز القرآن.** تأليف ابن الزملكاني المتوفى سنة (٦٥١هـ)، تحقيق الدكتور أحمد مطلوب والدكتورة خديجة الحديثي - مطبعة العاني - بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٤م.

٣٩. **تجارب الأمم.** تأليف أبي علي أحمد المعروف بمسكويه المتوفى سنة (٤٢١هـ)، نسخ وتصحيح هـ ف. آمدروز - مطبعة شركة التمدن الصناعية بمصر، ١٩١٤م.

٤٠. **تراث فارس.** تأليف آ. ج. آربري، نقله إلى العربية محمد كنفاني وآخرون، مراجعة يحيى الخشاب - دار إحياء الكتب العربية، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٩م.

٤١. **التربيع والتدوير.** تأليف الجاحظ، عُني بنشره وتحقيقه شارل بلات - المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٩٥٥م.

٤٢. **التطفل وحكايات الطفيليين وأخبارهم ونوادر كلامهم وأشعارهم.** تأليف الحافظ المؤرخ أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي، قدم له وعلق عليه كاظم مظفر - منشورات المكتبة الحيدرية ومطبعتها - النجف، ١٩٦٦م.

٤٣. **التفسير الكبير.** تأليف الإمام الفخر الرازي المتوفى سنة (٤٠٦هـ) - المطبعة البهية المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٣٨م.

٤٤. **تكملة تاريخ الطبري.** تأليف محمد بن عبد الملك الهمذاني المتوفى سنة (٥٢١هـ)، تحقيق البرت يوسف كنعان - المطبعة الكاثوليكية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٥٩م.

٤٥. **تهذيب التهذيب.** تأليف ابن حجر العسقلاني المتوفى سنة (٨٥٢هـ) - دار صادر - بيروت.

٤٦. **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب.** تأليف أبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة (٤٢٩هـ) - مطبعة القاهرة - القاهرة، ١٩٠٨م.

٤٧. **الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي.** تأليف أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة المتوفى سنة (٢٧٩هـ)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٨م.

٤٨. **جحا الضاحك المضحك.** عباس محمود العقاد - المكتبة العصرية - بيروت، ١٩٥٦م.

٤٩. **جمع الجواهر، في الملح والنوادر.** تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري. القيرواني المتوفى سنة (٤٥٣هـ)، حققه وضبطه وفصل أبوابه ووضع فهارسه علي محمد البجاوي، دار احياء الكتب العربية، الطبعة الأولى،١٩٥٣ م.

٥٠. **جمهورية أفلاطون.** تأليف نظلة حكيم ومحمد مظهر سعيد - دار المعارف - القاهرة، ١٩٦٣م.

٥١. **الحالة الاجتماعية في العراق في القرنين الثالث والرابع.** تأليف الدكتورة مليحة

رحمة الله - مطبعة الزهراء - بغداد، ١٩٧٠م.

٥٢. **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام.** تأليف الأستاذ آدم متز، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريده، أعد فهارسه رفعت البدراوي - مكتبة الخانجي - القاهرة، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٦٧م.

٥٣. **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء.** تأليف الحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني المتوفى سنة(٤٣٠هـ) - مطبعة السعادة - مصر، ١٩٣٣م.

٥٤. **حياة الحيوان الكبرى.** تأليف العلامة الشيخ كمال الدين الدميري المتوفى سنة (٨٠٨هـ) - مطبعة الاستقامة - القاهرة، ١٩٦٣م.

٥٥. **الحيوان.** تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٩م.

٥٦. **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب.** تأليف عبد القادر بن عمر البغدادي المتوفى سن (١٠٩٣هـ) المطبعة الأميرية ببولاق، الطبعة الأولى، ١٢٩٩هـ

٥٧. **الخلاف في نشأة المقامات.** تأليف الدكتور محسن غياض - مطبعة الإيمان - بغداد.

٥٨. **دراسات في الأدب الإسلامي.** تأليف محمد خلف الله - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة، ١٩٤٧م.

٥٩. **دراسات في الأدب العربي.** تأليف غوستاف فون غرنباوم، ترجمة الدكتور احسان عباس وآخرون، إشراف الدكتور محمد يوسف نجم - منشورات دار مكتبة الحياة بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - بيروت - نيويورك، ١٩٥٩م.

٦٠. **دراسة المجتمع.** تأليف الدكتور مصطفى الخشاب - مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، ١٩٦٩ - ١٩٧٠م.

٦١. **دلائل الإعجاز.** تأليف الإمام عبد القاهر الجرجاني، حققه وعلق عليه ومهد له بمقدمة في تاريخ البلاغة العربية محمد بن تاويت - المطبعة المهدية - تطوان.

٦٢. **دول الإسلام في التاريخ.** تأليف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز التركماني الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ) - دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد الدكن، ١٣٣٧هـ.

٦٣. **الديارات.** تأليف أبي الحسن علي بن محمد الشابشتي المتوفى سنة (٣٨٨هـ)، تحقيق ونشر كوركيس عواد - مطبعة المعارف - بغداد، ١٩٥١م.

٦٤. **ديوان ابن المعتز** - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٦١م.

٦٥. **ديوان أبي الطيب المتنبي.** شرح أبي البقاء العكبري المتوفى سنة (٦١٦هـ) المسمى التبيان في شرح الديوان، صححه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون - شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٥٦م.

٦٦. **ديوان أبي نؤاس الحسن بن هانئ.** حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي - دار الكتاب العربي - بيروت.

٦٧. **ديوان حسان بن ثابت.** حققه وعلق عليه الدكتور وليد عرفات. تولى طبعه أمناء سلسلة جب التذكارية، ١٩٧١م.

٦٨. **ديوان النابغة الذبياني.** تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية.

٦٩. **الرجال.** تأليف أبي العباس أحمد بن علي بن أحمد بن العباس النجاشي

المتوفى سنة (٤٥٠هـ) - منشورات مركز نشر الكتاب - طهران.

٧٠. **رسائل أبي بكر الخوارزمي.** تقديم الشيخ نسيب وهيبه الخازن - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٧٠م.

٧١. **رسائل أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني.** تأليف أبو الفضل أحمد بن الحسين بن يحيى الهمذاني، المتوفى سنة (٣٩٨هـ)، مطبعة الجوائب بالاستانة العلية، الطبعة الأولى، ١٢٩٨هـ.

٧٢. **رسائل البلغاء.** تأليف محمد كرد علي - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، الطبعة الرابعة، ١٩٥٤م.

٧٣. **رسائل الجاحظ.** تأليف أبي عثمان عمر بن بحر الجاحظ، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون - مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٩م.

٧٤. **زهر الآداب وثمر الألباب.** تأليف أبي إسحاق إبراهيم بن علي الحصري القيرواني المتوفى سنة (٤٥٣هـ)، مفصل ومضبوط ومشروح بقلم الدكتور زكي مبارك. دار الجيل - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.

٧٥. **سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون.** تأليف جمال الدين بن نباته المصري المتوفى سنة (٧٦٨هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي، مطبعة المدني - القاهرة، ١٩٦٤م.

٧٦. **سمط اللآلي، ويحتوي على النصف الأول من اللآلي في شرح أمالي القالي.** تأليف الوزير أبي عبيد البكري الأويني المتوفى سنة (٤٦٧هـ)، نسخه وصححه ونقحه وحقق ما فيه عبد العزيز الميمني - دار الحديث للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.

٧٧. **سنن الترمذي.** تأليف الإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي،

تحقيق وتخريج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي - شركة ومكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر- الطبعة الثانية، ١٩٧٦م.

٧٨. **السياسة.** تأليف ارسطو طاليس، ترجمة لطفي السيد - منشورات الفاخرية بالرياض بالاشتراك مع دار الكاتب العربي في بيروت.

٧٩. **سيكولوجية الضحك.** تأليف أحمد عطية الله - دار النهضة العربية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

٨٠. **سيكولوجية الفكاهة والضحك.** تأليف الدكتور زكريا إبراهيم - مكتبة مصر - القاهرة.

٨١. **شذرات الذهب في أخبار من ذهب.** تأليف المؤرخ أبي الفلاح عبد الحي بن العماد الحنبلي المتوفى سنة (١٠٨٩هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت.

٨٢. **شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري.** حققه وقدم له إحسان عباس - التراث العربي، الكويت، ١٩٦٢م.

٨٣. **شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، أبي الفضل أحمد بن الحسين بديع الزمان الهمذاني.** تأليف محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة المدني، ١٩٦٢م.

٨٤. **الشعوبية نشأتها وتطورها.** تأليف الدكتور نزار عبد اللطيف الحديثي، سعيد عبد اللطيف الحديثي - دار الشؤون الثقافية العامة، الطبعة الأولى، ١٩٩٠م.

٨٥. **صبح الأعشى في صناعة الإنشا.** تأليف أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي المتوفى سنة (٨٢١هـ)، بقلم الأستاذ الشيخ محمد عبد الرسول - الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٥م.

٨٦. **صحافة الفكاهة وصانعوها.** تأليف جمال الدين الرمادي - الدار القومية - القاهرة.

٨٧. **صحيح سنن ابن ماجه.** تأليف محمد ناصر الدين الألباني - توزيع المكتب الإسلامي - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٨٨. **الضحك بحث في دلالة الضحك.** تأليف هنري برجسون، ترجمة سامي الدروبي وعبد الله عبد الدايم - دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٦٤م.

٨٩. **طبقات الصوفية.** تأليف أبي عبد الرحمن السلمي المتوفى سنة (٤١٢هـ)، تحقيق نور الدين سريبه - مطابع دار الكتاب العربي بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٣م.

٩٠. **الظرف والظرفاء.** تأليف أبي الطيب محمد بن أحمد بن إسحاق بن يحيى الوشاء المتوفى سنة (٣٢٥هـ)، دراسة وتحقيق الدكتور فهمي سعيد - دار الكتب، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م.

٩١. **ظهر الإسلام.** تأليف أحمد أمين - مكتبة النهضة المصرية، الطبعة السادسة، ١٩٤٥م.

٩٢. **العصر العباسي الأول.** تأليف الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف بالقاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٨٦م.

٩٣. **العصر العباسي الأول.** تأليف الدكتور عبد العزيز سالم - مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر - الاسكندرية، ١٣٩٨هـ

٩٤. **العصر العباسي الثاني.** تأليف الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة، الطبعة السادسة، ١٩٨٦م.

٩٥. **العقد الفريد.** تأليف شهاب الدين أحمد المعروف بابن عبد ربه الأندلسي المتوفى سنة (٣٢٨هـ)، تقديم الأستاذ خليل شرف الدين - منشورات دار مكتبة

الهلال - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦م.

٩٦. **العمامة.** تأليف بدري فهد، بغداد، ١٩٦٨م.

٩٧. **العمدة في محاسن الشعر، وآدابه، ونقده.** تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي المتوفى سنة (٤٥٦هـ) حققه وفصله وعلق حواشيه محمد محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السعادة بمصر - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٦٣م.

٩٨. **عيون الأخبار.** تأليف أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، المتوفى سنة (٢٢٦هـ)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية العامة - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ١٩٦٣م.

٩٩. **عيون الأنباء في طبقات الأطباء.** تأليف موفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة المتوفى سنة (٦٦٨هـ)، شرح وتحقيق الدكتور نزار رضا - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٦٥م.

١٠٠. **العيون والحدائق في أخبار الحقائق.** المؤلف مجهول، تحقيق نبيلة عبد المنعم داود - مطبعة الإرشاد - بغداد، ١٩٧٣م.

١٠١. **فجر الإسلام.** تأليف أحمد أمين - مكتبة النهضة العربية المصرية، ١٩٥٩ م.

١٠٢. **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية.** تأليف محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي المتوفى سنة (٧٠١هـ) - دار بيروت للطباعة والنشر، ١٩٦٦م.

١٠٣. **الفرج بعد الشدة.** تأليف أبي علي بن المحسن بن أبي القاسم المتوفى سنة

(٣٨٤هـ)، تحقيق عبود الشالجي - دار صادر، ١٩٨٧م.

١٠٤.**الفروسية في الشعر الجاهلي.** تأليف الدكتور نوري حمودي القيسي، منشورات مكتبة النهضة، مطابع دار التضامن - بغداد، الطبعة الأولى، ١٩٦٤ م.

١٠٥.**الفكاهة عند العرب.** تأليف أنيس فريحة - مكتبة رأس بيروت - بيروت، ١٩٦٢م.

١٠٦.**الفكاهة في الأدب أصولها وأنواعها.** تأليف الدكتور أحمد محمد الحوفي - دار النهضة للطبع والنشر - القاهرة، ١٩٦٦م.

١٠٧.**الفكاهة في الأدب العربي إلى نهاية القرن الثالث الهجري.** تأليف فتحي محمد معوض أبو عيسى - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر، ١٩٧٠م.

١٠٨.**فن المقامة بين الأصالة العربية والتطور القصصي.** تأليف الدكتور عباس مصطفى الصالحي - الموسوعة الصغيرة (١٤٧) تصدر عن دائرة الشؤون الثقافية والنشر - بغداد، ١٩٨٤م.

١٠٩.**الفن ومذاهبه في النثر العربي.** تأليف الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة، ١٩٦٠ م.

١١٠.**فهرست الطوسي.** تأليف شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي المتوفى سنة (٤٦٠هـ)، صححه وعلق عليه العلامة السيد محمد صادق آل بحر العلوم - نشر المكتبة المرتضوية ومطبعتها - النجف.

١١١.**الفهرست لابن النديم.** تأليف أبي الفرج محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالوراق المتوفى سنة (٤٣٨هـ)، تحقيق رضا تجدد - طهران، ١٩٧١م.

١١٢.**فوات الوفيات والذيل عليه.** تأليف محمد بن شاكر الكبتي المتوفى سنة

(٧٦٤هـ)، تحقيق الدكتور إحسان عباس - دار صادر - بيروت.

١١٣.في **الأدب العباسي.** تأليف الدكتور محمد مهدي البصير - مطبعة النعمان - النجف، الطبعة الثالثة، ١٩٧٠م.

١١٤.**في علم النفس.** تأليف الأستاذ حامد عبد القادر وآخرين، الطبعة المصرية - القاهرة، ١٩٣٤م.

١١٥.**في الفنون الإسلامية.** تأليف الدكتور زكي حسن - مطبعة الاعتماد، ١٩٤٠م.

١١٦.**القصة القصيرة في مصر.** تأليف الدكتور شكري عيّاد - مطبعة النهضة الجديدة - القاهرة، ١٩٦٧ - ١٩٦٨م.

١١٧.**الكامل في التاريخ.** تأليف العلامة أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عيد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين المتوفى سنة (٦٣٠هـ)، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي - دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.

١١٨.**الكامل في اللغة والأدب.** تأليف أبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي المتوفى سنة (٢٨٥هـ) - دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

١١٩.**كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر.** تأليف أبي الهلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري المتوفى سنة (٣٩٥هـ)، حققه وضبط نصه الدكتور مفيد قمحة - دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.

١٢٠.**كتاب نهج البلاغة،** الجامع لخطب وحكم ورسائل أمير المؤمنين أبي الحسن علي بن أبي طالب عليه وعلى آله السلام، جمع الشريف الرضي ومعه

شرح عز الدين أبي حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائني الشهير بابن أبي الحديد. ملتزم الطبع والنشر، دار إحياء التراث العربي، دار المثنى للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

١٢١. **الكشّاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل.** تأليف أبي القاسم جار الله محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي - دار المعرفة للطباعة والنشر.

١٢٢. **الكليات «معجم في المصطلحات والفروق اللغوية».** تأليف أبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي المتوفى سنة (١٠٩٤هـ)، قابلة على نسخة خطية وأعده للطبع ووضع فهارسه الدكتور عدنان درويش ومحمد المصري - منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي - دمشق، ١٩٧٥م.

١٢٣. **لسان العرب.** تأليف ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري المتوفى سنة (٧١١هـ)، طبعه مصوره عن طبعة بولاق - الدار المصرية للتأليف والترجمة.

١٢٤. **المتبع في شرح اللمع.** تأليف أبي البقاء العكبري، دراسة وتحقيق الدكتور عبد الحميد حمد محمد محمود النروي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي - ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.

١٢٥. **مثالب الوزيرين أخلاق الصاحب بن عباد وابن العميد.** تأليف أبي حيان التوحيدي، تحقيق الدكتور إبراهيم الكيلاني - نشر وتوزيع دار الفكر - دمشق، ١٩٦١م.

١٢٦. **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.** تأليف ضياء الدين بن الأثير المتوفى سنة (٦٣٧هـ)، قدم له وحققه وعلق عليه الدكتور أحمد الحوفي والدكتور بدوي طبانة - منشورات دار الرفاعي - الرياض، الطبعة الثانية،

١٩٨٣م.

١٢٧.**المجتمع العباسي من خلال كتابات الجاحظ.** تأليف الدكتور محمد عويس - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة، ١٩٧٧م.

١٢٨.**مجمع الأمثال.** تأليف أبي الفضل أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني المتوفى سنة (٥١٨هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الجيل - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.

١٢٩.**محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء.** تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني المتوفى سنة (٥٠٢هـ) - منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، ١٩٦١م.

١٣٠.**المخصص.** تأليف أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي الأندلسي- المعروف بابن سيده المتوفى سنة (٤٥٨هـ). - المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر - بيروت.

١٣١.**مروج الذهب ومعادن الجوهر.** تأليف أبي الحسين علي بن الحسين بن علي المسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ) - دار الأندلس للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٦٦م.

١٣٢.**المستطرف في كل فن مستظرف.** تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد بن أبي الفتح الأبشيهي المحلي المتوفى سنة (٨٥٠هـ). ملتزم الطبع والنشر عبد الحميد أحمد الحنفي - مصر.

١٣٣. **مسند الإمام أحمد بن حنبل وبهامشه كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال.** المكتب الإسلامي - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت.

١٣٤.**مصارع العشاق.** تأليف الشيخ أبي محمد جعفر بن أحمد بن الحسين

السراج القارئ المتوفى سنة(٥٠٠هـ) - دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٥٨م.

١٣٥.**مطالعات في الكتب والحياة.** تأليف عباس محمود العقاد - الطبعة التجارية - القاهرة، ١٩٢٦م.

١٣٦.**معاهد التنصيص على شواهد التلخيص.** تأليف الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي المتوفى سنة (٩٦٣ هـ)، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد - عالم الكتب - بيروت، ١٩٤٧م.

١٣٧.**المعتزلة.** رسالة تبحث في تاريخ المعتزلة وعقائدهم وأثرهم في تطور الفكر الإسلامي، تأليف زهدي حسن جار الله، مطبعة القاهرة شركة مساهمة مصرية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٤٧ م.

١٣٨.**معجم الأدباء.** تأليف ياقوت الحموي المتوفى سنة (٦٢٦هـ) - دار المستشرق - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٢٢م.

١٣٩.**معجم البلدان.** تأليف الشيخ الإمام شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي - دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٥٥م.

١٤٠.**معجم الشعراء.** تأليف الإمام أبي عبد الله محمد بن عمران المرزباني المتوفى سنة (٣٨٤هـ)، تصحيح وتعليق الدكتور ف. كرنكو - نشر مكتبة القدسي - القاهرة، ١٣٥٤هـ.

١٤١. **المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب.** تأليف رينهارت دوزي، ترجمة الدكتور أكرم فاضل - دار الحرية للطباعة - بغداد، ١٩٧١م.

١٤٢.**معجم مقاييس اللغة.** تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا المتوفى

سنة (٣٩٥هـ) تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٩م.

١٤٣. **المعرب في الكلام الأعجمي على حروف المعجم.** تأليف أبي منصور الجواليقي موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر المتوفى سنة (٥٤٠هـ)، تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - طبعة بالأوفست - طهران، ١٩٦٦ م.

١٤٤. **المغرب في حلى المغرب.** تأليف أبي الحسين نور الدين بن سعيد الأندلسي المتوفى سنة (٦٨٥ هـ)، تحقيق شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة، ١٩٦٤م.

١٤٥. **مفتاح العلوم.** تأليف أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر السكاكي، المتوفى سنة (٦٢٦هـ) - مطبعة المصطفى البابي الحلبي - القاهرة، ١٩٣٧م.

١٤٦. **المفردات في غريب القرآن.** تأليف أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني - نشر المكتبة المرتضوية - طهران.

١٤٧. **المقابسات.** تأليف أبي حيان التوحيدي، تحقيق وشرح حسن السندوبي - المطبعة الرحمانية بمصر، الطبعة الأولى، ١٩٢٩ م.

١٤٨. **المقامة.** تأليف الدكتور شوقي ضيف - دار المعارف - القاهرة، ١٩٥٤م.

١٤٩. **مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني،** قدم لها وشرح غوامضها الشيخ محمد عبده، المطبعة الكاثوليكية - بيروت، ١٩٧٥م.

١٥٠. **مقدمة ابن خلدون.** تأليف عبد الرحمن بن خلدون المتوفى سنة (٨٠٨هـ) ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس الأستاذ خليل شحاده، مراجعة سهيل زكار - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.

١٥١.**الملل والنحل.** تأليف أبي الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر الشهرستاني المتوفى سنة (٥٤٨هـ)، تحقيق محمد سيد كيلاني - دار المعرفة - بيروت، ١٩٨٢م.

١٥٢.**المنتظم في تاريخ الملوك والأمم**. تأليف الإمام أبي الفرج عبد لرحمن بن علي بن محمد بن علي بن الجوزي المتوفى سنة (٥٩٧هـ) - طبعة دار المعارف العثمانية - بحيدر آباد الدكن، الطبعة الثانية، ١٣٥٨هـ

١٥٣.**المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية.** تأليف تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقريزي المتوفى سنة (٨٤٥هـ) - طبعة بولاق، ١٢٩٤هـ وأعادت طبعه بالأوفست مكتبة المثنى - بغداد.

١٥٤.**الموسوعة العربية الميسرة**. إشراف محمد شفيق غربال - دار القلم ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ١٩٥٩م.

١٥٥.**نثر الدر.** تأليف الوزير الكاتب أبي سعيد منصور بن الحسين الآبي المتوفى سنة (٤٢١هـ)، تحقيق محمد علي قرنة، مراجعة علي محمد البجاوي - الهيأة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٤م.

١٥٦.**النثر الفني وأثر الجاحظ فيه.** تأليف عبد الحكيم بلبع - طبع ونشر مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٤ م.

١٥٧.**النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة.** تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردى الأتابكي المتوفى سنة (٨٧٤هـ)، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب - المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

١٥٨.**نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة.** تأليف القاضي أبي علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق عبود الشالجي المحامي - دار صادر - بيروت، ١٩٧١م.

١٥٩.**النقد الأدبي الحديث.** تأليف الدكتور محمد غنيمي هلال - دار الثقافة، دار العـودة - بـيروت، ١٩٧٣م.

١٦٠.**نقد الشعر.** تأليف قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي المتوفى سنة (٣٣٨هـ) - عُنـي بتصحيحه س. أ. بونيباكر - طبع مطبعة بريل - ليدن، ١٩٥٦م.

١٦١.**نقد النثر.** تأليف قدامة بن جعفر - دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٨٢م.

١٦٢.**نكت الهميان.** تأليف صلاح الدين خليل بن أيبك المتوفى سـنة (٣٣٧هـ) - المطبعـة الجماليـة - القاهرة، ١٩٢٩م.

١٦٣.**نهاية الأرب في فنون الأدب.** تأليف شـهاب الـدين بـن عبـد الوهـاب النـويري - مطبعـة دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٣٥م.

١٦٤.**همع الهوامع في شرح جمع الجوامع.** تأليف الإمام جـلال الـدين السـيوطي، تحقيـق وشرح الدكتور عبد العال سالم مكرم - دار البحوث العلمية - الكويت، ١٩٧٧م.

١٦٥.**الـوافي بالوفيـات.** تـأليف صـلاح الـدين خليـل بـن أيبـك الصـفدي المتـوفى سـنة (٧٦٤هـ)، اعتناء هلموت ريتر - دار نشر فرانز شتايز - فيسبادن، الطبعة الثانية، ١٩٦١م.

١٦٦.**الوزراء أو تحفة الأمراء في تـاريخ الـوزراء.** تـأليف أبي الحسـن هـلال بـن المحسـن الصـابي المتوفى سنة (٤٤٨هـ) - دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٩٥٨ م.

١٦٧.**الوزراء والكتاب.** تأليف أبي عبد الله محمـد بـن عبـدوس الجهشـياري المتـوفى سـنة (٣٣١هـ)، حققه ووضع فهارسه مصطفى السقا وآخرون _ مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٣٨م.

١٦٨.**وفيات الأعيان وأنباء أهل الزمان.** تأليف أبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان المتوفى سنة (٦٨١هـ)، حققه وعلق حواشيه ووضع فهارسه محمد محيي الدين عبد الحميد - مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الأولى، ١٩٤٨م.

١٦٩.**ولاة مصر.** تأليف محمد بن يوسف الكندي المتوفى سنة (٣٥٠هـ)، تحقيق الدكتور حسين نصار - دار بيروت، دار صادر للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٥٩م.

١٧٠.**الولاة والقضاة.** تأليف محمد بن يوسف الكندي - طبعة بيروت، ١٩٠٨م.

١٧١.**يتيمة الدهر من محاسن أهل العصر.** تأليف أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري المتوفى سنة (٤٢٩هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة التجارية الكبرى - القاهرة، ١٩٥٦م.

الرسائل الجامعية

١. **بغداد في القرن الثالث الهجري.** دراسة في الحياة الاجتماعية - الباحثة مكية سلمان العبيدي، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي بالآلة الطابعة - بغداد / الآداب، سنة ١٩٧٦م.

٢. **شعر الفكاهة في العصر العباسي.** الباحثة سليمة جاسم محمد - رسالة ماجستير في الأدب العربي، بالآلة الطابعة - بغداد / الآداب سنة ١٩٩٥ م.

٣. **الشعر والشعراء في البصرة في القرن الثالث الهجري.** الباحث أحمد جاسم النجدي - رسالة ماجستير في الأدب العربي، بالآلة الطابعة، بغداد / الآداب، سنة ١٩٧٢م.

الدوريات

١. **الجاحظ أكبر ساخر في الأدب العربي.** بقلم جورج جرداق - مجلة العربي، العدد الثاني عشر- سنة ١٩٥٩م. تطبع وتصدر في الكويت.

٢. **ديوان الحمدوي.** جمع وتحقيق أحمد النجدي، مجلة المورد، المجلد الثاني، العدد الثالث، سنة ١٩٧٣م. العراق.

٣. **رسالة صناعات القواد للجاحظ والسخرية الهادفة.** بقلم الدكتور أحمد النجدي، مجلة صوت الجامعة، العدد الثاني عشر، سنة ١٩٧٨م. العراق.

٤. **الفكاهة في النقد السياسي والاجتماعي.** بقلم سهير القلماوي، مجلة الهلال، عدد خاص بالفكاهة، العدد الثامن، السنة الرابعة والسبعون، سنة ١٩٦٠م، تصدر عن دار الهلال. لبنان.

٥. **الفكاهة والطغيان.** بقلم عباس محمود العقاد، مجلة الرسالة، العدد الثامن والثمانون بعد المائتين، السنة السابعة، سنة ١٩٣٩م. مصر.

٦. **فن السخرية في شعر الكتاب في العراق في القرن الثالث الهجري.** بقلم حسين العلاق. مجلة المورد، المجلد الرابع، العدد الثاني، سنة ١٩٧٥م.

٧. **نزعة التمرد والسخرية في شعر الحطيئة.** بقلم الدكتور عناد غزوان إسماعيل، مجلة البلاغ، العدد الثاني، السنة الرابعة، سنة ١٩٧٢م. العراق.

٨. **نشوء الأصناف والحروف في الإسلام.** بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري، مجلة كلية الآداب، العدد الأول، سنة ١٩٥٩م. العراق.

فهرس المحتويات

DROLLERY

INABBASODE PROSE

By

Dr.Ali Aziz Salih

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi

هذا الكتاب

الفكاهة في النثر العباسي

من الملاحظ أنّ ظاهرة الفكاهة في الأدب العربي لم يُقتصر في تدوينها على نوعٍ أدبي وحيد، بل اشترك في هذا التدوين كل من الشعر والنثر على حدٍّ سواء إن لم نقل إن النثر كان أكثر وأشمل في تسجيلها. لهذا اعتنيت بأن أقوم بدراسة حول الفكاهة الواردة في النثر العباسي دون سواه لأسباب:

- إنّ دراسة مثل هكذا ظاهرة في الشعر العباسي قد استوفيت تقريباً حيث ظهرت دراسات جامعية وأخرى غير جامعية أخذت على عاتقها تسجيلها وتصنيفها بشكل واسع.
- عدم وجود دراسة مستقلة تُعنى بالنثر الفكاهي في العصر العباسي على غرار الشعر، تعرض لهذه الظاهرة وأثرها في البيئة العباسية أفراداً وجماعات، على الرغم من وجودها بشكل واسع وكبير إذ تفوق نصوصها مثيلاتها في الشعر الفكه.
- غنى حقبة الدراسة وهي القرنان الثالث والرابع الهجريان بجملة من الكتّاب الذين أخذوا يتعرضون لهذه الظاهرة في كتبهم أو إنشاءاتهم ابتداءً بالجاحظ إمام الكتّاب المتوفى سنة (٢٥٥هـ) وانتهاءً بأبي الخطّاب الصابي المتوفى سنة (٤١٨هـ) فكانت حقبة القرنين الثالث والرابع بحق مسرحاً لبروز هذه الظاهرة في أدبنا العربي.
- وزيادة على ذلك كلّه محاولة التأكيد في هذا الكتاب على أنّ أدبنا العربي بشكل عام أدبٌ يجمع بين طرفي الحياة في ترديدها، طرف الجدّ وهو ما عُبّر عنه بالموضوعات التقليدية، وطرف الهزل وهو ما يدرسه الباحث في هذا الكتاب.

الدكتور علي عزيز صالح

9 782745 165916

أنشأها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah
DKI
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
www.al-ilmiyah.com